

مَسِيرَةُ الْجُرُكَةِ الْوَطَنِيَّةِ الْبَيْتِيَّةِ

السَّنَوِيَّةِ

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

جميع حقوق الملكية الأدبية محفوظة للمؤلف

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة

تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على  
أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو  
برمجته على أسطوانات ضوئية أو نشره على  
شبكة الإنترنت إلا بموافقة المؤلف خطياً

الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٦٨٩٤

I. S. B. N. الترقيم الدولي

977-17-6068-8

All Rights reserved

No part of this book may be  
reproduced or transmitted in any  
shape or form without written  
permission

First published in Arab Republic of  
Egypt in 2008 by the

WAHBA Book Shop  
14 Gumhoreya St. - Cairo

&

Dar Al - Istiklal

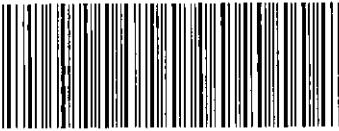
دار الاستقلال

مكتبة وهب

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠

فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦



977-17-6068-8

ISBN : 977-17-6068-8

# السُّنُونُ سَيِّدِي

مِفْتَاحُ السَّيِّدِ الشَّرِيفِ

مَكْتَبَةُ وَهْبِ

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧

فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

دار الاستقلال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## شكر وامتنان

تصادف السنة الجارية ١٤٢٨ هجرية ٢٠٠٨ ميلادية مرور مائة وإثنين وخمسين سنة على وفاة الإمام محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية. وهذا الكتاب وُضع كمحاولة لتأريخ هذه الطريقة، وتتبع وتحليل مسيرتها وتأثيرها وتأثيرها في أوضاع ليبيا، إلى أن تحولت إلى حركة وطنية إنبقت عنها دولة ليبيا التي أعلن إستقلالها بموجب قرار الأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٥١. وسيلي هذا الإصدار كتاب يصور بالوثائق الرسمية مرحلة الإستعمار الإيطالي لليبيا والمقاومة الوطنية المسلحة ضده إبتداء من غزوه للبلاد سنة ١٩١١ إلى أن اندحر في الحرب العالمية الثانية. وثمة مرحلة الصراع الذي خاضته الحركة الوطنية الليبية، ممثلة في أحزابها وزعاماتها من أجل الإستقلال، والتي ستصدر قريبا في كتاب يتضمّن وثائق وأحداث تنشر لأول مرة.

ولا يسعني في هذه المناسبة إلا أن أجزل الشكر والامتنان لجميع من أمّدي بالمساعدة والمشورة والتشجيع، لإخراج الكتاب سواء بطباعة مسودّته على الآلة الكاتبة، أو بما وقّرتّه بعض المواقع الليبية الإلكترونية وأصحاب الأرشيف الشخصي من صور تاريخية ظهرت في موقع البكور. وأخصّ بالذكر الأخ الفاضل المشرف على دار الإستقلال للنشر، على ما تجسّمه من جهد وما أبداه من صبر لكي يخرج الكتاب في هذا القالب، كما لا يفوتني توجيه الشكر والامتنان لمكتبة وهبة التي قامت بنشر هذا الكتاب. والله من وراء القصد وهو وليّ التوفيق.

المؤلف

محمد السيد الشريف



## مقدمة

السنوسية كمكون أساسي للحركة الوطنية الحديثة



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

لابد لأي مثقف ليبي مهتم بتاريخ بلاده من السعي لفهم الطريقة السنوسية التي نشأت في ليبيا كعقيدة، وتحوّلت إلى مكوّن أساسي للحركة الوطنية الليبية، ثم جاءت الدولة الليبية الحديثة محصلة لنضالها الفكري والجهادي. ولقد تعامل مؤلف هذه الدراسة مع "السنوسية" منذ مرحلة الشباب وخوض معترك النشاط الوطني الفكري والإجتماعي.

وينبغي التأكيد هنا على أن الأدبيات التي توقّرت عن "السنوسية" آنذاك كانت شحيحة، بل شبه منعدمة. وكان المثقفون الليبيون على قلة عددهم يتلقون معلوماتهم عنها من أقوال وشذرات أو عناوين في الخطب والإذاعة والصحف دون شرح أو تحليل.

والمؤلفات الليبية الأولى التي وضعت عن السنوسية مثل كتب طاهر الزاوي والطيب الأشهب والأخضر العيساوي ونقولا زيادة وفؤاد شكري وغيرهم، طبعت ونشرت في مصر، ولم تصل إلا إلى أيدي قليلة من النخبة في ليبيا. وكان أوّل عهد لي بتاريخ السنوسية السياسي، أنني قمت بطلب من الطيب الأشهب بتبويب مقتطفات من مذكرات الملك الراحل إدريس السنوسي، أدلى بها إليه بعد مقتل إبراهيم الشلحي، وأراد بها أن يؤصل شرعية توليه لزعامة الطريقة، ومن ثمّ عرش البلاد، في مواجهة مطالبات أبناء وأحفاد عمّه أحمد الشريف، أشيع حينئذ أنهم يتحجّجون بها. ولقد نشرت المقتطفات يوم ١٧ يناير ١٩٥٥ في جريدة الزمان التي كان يصدرها عمر الأشهب شقيق الطيب، وكنّت محرراً بها.

وفي سنة ١٩٥٩ تقرّر إحياء الذكرى المنوية لوفاة مؤسس الطريقة الإمام محمّد بن علي السنوسي. وانعقد لذلك مؤتمر إسلامي دولي بمدينة البيضاء موطن أوّل زاوية أنشأها الإمام، وحضره شيوخ وعلماء مرموقون من كافة بلدان العالم الإسلامي. وكنّت سكرتيراً للجنة العليا التي أشرفت على هذه الإحتفالية وترأسها مفتي ليبيا الشيخ محمّد أبو الأسعاد العالم ومعه كلّ من الشيخ عبد الحميد الديباني

والشيخ منصور المحجوب وغيرهم، ووضعتُ مع أحمد الحصابيري، بالمناسبة، كتابا عن الإمام تناول سيرة حياته بالإسلوب التقليدي، إستنادا على مؤلفاته وما رُوي عنه، لا بد أن يكون محفوظا لدى مكاتب الوثائق.

ولقد كانت تلك السنوات تحتم بتطورات عنيفة ضمن مخاض ميلاد دولة الإستقلال. ومعارك عبد الناصر الثورية على الحدود أطلقت زوابع سياسيّة غلفت أجواء ليبيا. وكان شبابها مندفعا مع المدّ الذي انطلق من القاهرة وعمّ المنطقة. وهكذا كان رفض القواعد والمعاهدات العسكريّة البريطانيّة والأمريكيّة هو الهتاف الطاغي. ومن ثمّ حمل معه الإحتقان والغضب ضدّ حكام البلاد. وفي غياب حياة حزبيّة حرّة، ومناخ ديمقراطي كامل، فُسرت كلّ سياسة أو موقف منهم أنه بوازع الإستعمار ولخدمة أغراض المستعمرين.

وعندما حدث ما حدث في أول سبتمبر ١٩٦٩، إنفجرت النفوس المشحونة بالغضب المكظوم. وكنت منذ ١٩٦٨ قد انتقلت للعمل من بون إلى روما، حيث انصرفت فيها إلى التتقيب والبحث عن أصول وحقائق وذيول إستعمارها لبلادنا. وقبل ذلك كنت، وأنا في طرابلس مع ثلثة من مثقفي البلاد الوطنيين، نتميّز غيضا ونحن نرى المدينة تعجّ بالجالية الإيطاليّة تسرح وتمرح، ليس فقط لأنها تسيطر على معظم الإنتاج والريّح، بل لأنها كانت تصدر صحفا بلغتها، بعضها يحرّر من عناصر فاشية قديمة فشاركت في شنّ الحملات ضدّها في صحافتنا. ولما قرّر حكام ليبيا الجدد طرد الجالية المذكورة، مع ما أثاره ذلك من أحقاد فاشية كانت تعشش في روما (وما تزال في الحقيقة حتى اليوم) حتى رأيتني أسارع بتدوين دراسة عنوانها "الإستعمار الإيطالي لليبيا - بواعثه وأسبابه التاريخيّة- أعماله ونتائجه" بتاريخ سبتمبر ١٩٧٠، أي بعد أقلّ من شهرين من صدور قرار مجلس الإنقلاب "بإعادة الأملاك المغتصبة" الذي كان في ٢١ يوليو ١٩٧٠. ومن الطبيعي أن تركز الدراسة على التنديد بفظائع الإستعمار وتمجيد جهاد أبطال المقاومة، وأن تشكك في سياسات الملك الذي أطاح به الإنقلاب. وجاء هذا الموقف انسجاما مع المزاج العام الذي شمل أغلب مثقفي البلاد وخاصة الشباب منهم، ولكن أيضا لأن ما عثرت عليه بروما من وثائق إيطاليّة في ذلك الحين، رسّخ الشبهة في أن تواطوا مع المستعمرين إنزلق إليه الملك في مرحلة من مراحل الجهاد، وهو ما يفسّر تعامله معهم في سياق ما وقعه من إتفاقيات. وكان مصدر هذه الوثائق كتاب وقع في يدي بعنوان "العلاقات الإيطاليّة العربيّة"، يحتوي على مذكرات إنريكو إنساباتو، وهو مستشرق وطبيب إيطالي عمل مخبرا لجوليوتي رئيس وزراء إيطاليا قبل حدوث الحملة على ليبيا. وفي الكتاب صور ومراسلات تبادلها المستشرق ومعاونوه مع السيّد أحمد الشريف والسيّد إدريس

وغيرهما من قادة السنوسية. ومن الطبيعي أن أستشهد بهذه الرسائل في الدراسة المذكورة في سياق التحليل التاريخي لاستعمار البلاد وتعامل الزعامة السنوسية معه. وفوجئت أن الدراسة لمّا طبعت في كتاب بطرابلس، منعت سلطات الانقلاب من توزيعه. ولا أعلم حتى الآن سببا مقنعا للحظر رغم مرور ٣٨ عاما على صدوره، وإن أخذت وسائله الدعائية تقتطف منه بما يتفق مع توجهها المتحيز.

ومرّت السنون الطوال بل العقود، منذ صدور هذه الدراسة، إزداد إطلاعي خلالها على الكثير من الوثائق الإيطالية والبريطانية في مظائنها، وازداد النضج الفكري واتسعت المدارك في استيعاب منهجيات التاريخ مع تطوّر المفاهيم وتنوّع أساليب التحليل، لا سيّما بعد سيادة عصر العولمة وما يحمله من تيارات فكرية عاصفة. وعلى خلفيّة صدمات الواقع المرير الجديد في ليبيا، وما خلفه من خيبة آمال وانتكاس أمني. تعلمت كغيري أن أحداث التاريخ تكون عادة نسبية الفهم، ولا ينبغي تفسيرها والحكم عليها خارج سياقها، كما لا ينبغي تطبيق القوانين الخاصة بفترة تاريخية معينة على أحداث وظواهر فترة أخرى.

وبما أنني من المؤمنين بأن لا تاريخ بدون وثيقة تاريخية (مكتوبة أو شفوية أو مصورة)، فقد دفعني ما اطلعت عليه من وثائق في إرشيف دولتي الإستعمار الإيطالي والبريطاني لليبيا، إلى أن أعيد قراءة تاريخ ليبيا من خلالها. وهنا فإعادة القراءة تطلبت الإستعداد للتخلي عن أحكام سابقة، وهي منهجية علمية متعارف عليها. وقادني التنقيب والتحليل إلى إدراك أن "السنوسية" التي جاءت إلى ليبيا كطريقة صوفية حاملة مدرسة تجديد وإصلاح دينيين، هي التي وضعت بذور الوعي الوطني الليبي في صيرورة تاريخية تجلت في دولة ليبيا الحديثة. وحرصت على أن أثبت نصوص الوثائق من تقارير للدوائر والشخصيات الإستعمارية، ودراسات وآراء الرخالة الأجانب الذين جابوا المنطقة، ورسدوا نشأة السنوسية وانتشارها وصراعاتها كطليعة للشعب الليبي في مواجهة القوى الأجنبية التي اقتحمت بلاده وجوارها. فهذه الروايات والشهادات - في رأيي - يعكس معظمها حقيقة الوقائع والأحداث والعناصر الفاعلة لأنها قُدمت غالبا لاستخدام الدوائر الطامعة في النفوذ والمعادية للسنوسية، وليس للغرض الدعائي الذي يميل عادة إلى التهويل والتضليل. وكان أن عكفت على وضع هذه الدراسة في قالب موضوعي كما أزعم، وحاولت أن أدقق فيما عثرت عليه وجمعت من وثائق الباحثين والمسؤولين من رجال الإستعمار والإستشراق، فتيبنت لي ملامح أكثر نصاعة "السنوسية" كحركة سياسية، بجانب كونها حركة إحياء وتقويم ديني، وهو ما دعاني إلى الإفاضة في التعمق في قراءة الصوفية كفلسفة إجتماعية ذات مضامين سياسية، وارتباط السنوسية بمذاهبها هذه.

وبما أن السنوسية منذ نشأتها وشقها لطريق مسيرتها عبر العقود، قد صادفتها أحداث ومصائر بفعل علاقات القوى المتصارعة، وساهمت هي في صنعها أحيانا، كان من الضروري التركيز بشيء من التفصيل على أطوار إجتماعية إكتنفت المراحل التاريخية التي مرت بها، مثل قضية الرق، وشيوع الماسونية في المناطق المجاورة، وعلاقة ذلك كله بدولة الخلافة العثمانية وما اعتمل فيها من تبدلات ثورية. وقد كانت ليبيا جزءا من ممتلكاتها والسنوسية تحتمي بظلها في صراعها ضد المد الأوروتي.

وإذا كانت الدراسة محاولة لتقييم السنوسية من هذا المنظار، فلا يجب أن تقف عند النقطة التاريخية التي صورتها، وهي نهاية العهد العثماني، بل إنني أعددت أيضا عرضا لمرحلة الكفاح المسلح المقاوم ضد الإستعمار الإيطالي الذي اجتاح ليبيا، بعد ذلك مباشرة أي سنة ١٩١١، ودور السنوسية في قيادة الطلائع الشعبية ضده. وقد إعتمدت أيضا، في معظم فصوله، على المصادر الإيطالية السرية والرسومية، كونها من دولة الإستعمار المجهزة بأدوات السطوة والنفوذ، والمعززة بالوثائق والتقارير من وضع الولاة والقادة العسكريين الذين حكموا ليبيا.

والحلقة التالية لذلك تاريخيا ستغطي مرحلة الكفاح السياسي الذي خاضه رواد الحركة الوطنية الليبية منذ إندلاع الحرب العالمية الثانية، سواء عندما كانت في المهجر، أو في داخل الوطن بعد تحريره من الحلفاء، وامتشقت خلاله سلاح الفكر والتنظيم العصريين من أحزاب مناضلة وصحافة حرة وأنشطة إجتماعية أدخلت البلاد وأهلها في موكب العصر الحديث ليلتحق بموكب الشعوب في زحفها نحو التقدم. وقد لعب فيه السيد إدريس السنوسي سليل الحركة السنوسية دورا قياديا لا يُنسى في هذه الحركة مبرهنا بالفعل التاريخي على تحوّل السنوسية إلى نظام سياسي في إهاب دولة عصرية، فدشنت بذلك تجربة سياسية رانعة في تاريخ ليبيا، ما أحرى أجيالنا الحاضرة والقادمة أن تستلهم منها حبّ الوطن واحترام تاريخه وصانعيه، وحتى يحقّرها على مده بالقيم المضافة.

بفتح السين والهمزة  
بفتح السين والهمزة

بون - ألمانيا في ٢٥ أبريل ٢٠٠٨

## السنوسية كمكون أساسي للحركة الوطنية الحديثة

بما أن السنوسية نشأت كطريقة صوفية<sup>١</sup> (فإنه يتعين إعطاء نبذة عن نشأة التصوف الإسلامي، وذلك لسبر غور السنوسية، وتحديد قساماتها في مسيرة الحركة الوطنية).

---

١ سيرد ذكرها عبر الدراسة تارة (أخوانية) وتارة أخرى (منظمة) أو (حركة) ، وهي أوصاف تنطبق عليها جميعا، وفقا لمسيرتها وتطور تكيفها مع أحداث عصرها المتبدلة.



## الفصل الأول

التصوّف الاسلامى - عرض تاريخي عام



## الفصل الأول

### التصوّف الإسلامي - عرض تاريخي عام

على الرغم من أننا لسنا في مقام التاريخ للتصوّف في الإسلام، إلا أنه يمكن تاصيله بأقتضاب في عدّة مراحل، إنبثقت الأولى منها وهي مرحلة التكوين، أثناء نزول القرآن الكريم وما أحدثته آياته البينات وإعجازه من زلزال في العقول والقلوب، وإعادة صياغة لذهنيّة وسلوك المتلقي له. وقد أجمع المؤرخون لنشوء التصوّف وصيرورته، على أن نصوصه ليست مستمدة مباشرة من القرآن الكريم، أو هي صيغ تصويرية له. ولو أن التصوّف في جانبه الفكري هو تأملات وعمليات إعادة إنتاج ذهني أغلبها مستلهم من الآيات القرآنية وتأويلها. أمّا في جانبه السلوكي فهو طقوس ونشاط إجتماعي خاص متميز. وحاول أغلب المستشرقين الذين تعمقوا في دراسة التصوّف إستقراء ما يؤيد هذا النهج فالإنجليزي R.A.Nicholson نيكلسون لاحظ في بعض سور القرآن ما أسماه بذرة التصوّف<sup>١</sup> ويقصد بها بلا شك تلك المعاني التي ألهمت خيال المتصوّفة وأرهفت وجداناتهم في أثناء إستشفافهم لها مثل : **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ وَمَنْ أَوْلَىٰ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿٢﴾** ﴿ق: ١٦﴾ **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ يَكِلُ شُؤْنَهُ عِلْمِ ﴿٢﴾** الحديد: ٣ - ٢ **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾** فإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢١﴾ الحجر: ٢٩ **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾** وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٥٠﴾ النور: ٤٠ - ويقول في هذا الشأن "والقرآن بنظر الصوفيين الأوائل ليس كلمة الله وحده، لكنه السبيل الأول للدنوّ منه. إنهم يسعون إليه بالصلاة الحارة والتأمل العميق في معاني الكتاب باعتباره وحدة قائمة بذاتها، على الأخص آياته التي تنطوي على معاني عميقة مستترة كالأية الأولى من سورة الإسراء وهي: **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾** **سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنٰرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ، مِنْ مَّيْمِنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾**

٢ تراث الاسلام - أشرف توماس ارنولد تعريب وتعليق جرجيس فتح الله ص ٣٠٧ و ٣٠٨ دار الطليعة بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٧٨.

الإسراء: ١ - والآيات من سورة النجم قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾** وَالشَّجَرِ إِذَا هَوَىٰ ﴿٢﴾ مَا سَأَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٣﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٥﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٦﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٧﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٨﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٩﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿١٠﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١١﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١٢﴾ أَفَتُحَدِّثُوهُ عَلَىٰ مَا بَرَأَىٰ ﴿١٣﴾ وَقَدَرَهُ أَثْقَالُ أُخْرَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٥﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٦﴾ إِذْ يَخْشَى السِّدْرَةَ مَا يَشْخَىٰ ﴿١٧﴾ مَا رَآعَ الْبَصَرَ وَمَا طَعَنَ ﴿١٨﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٩﴾ ﴿ النجم: ١ - ١٨ - كما أن مستشرقين آخرين وأغلبهم من الألمان<sup>٢</sup> فسروا كلمة وجه الله التي وردت في تسعة آيات من سور القرآن، بكونها دالة اهتدى بها المتصوفون في استغراقاتهم وطقوسهم المتعددة. وهذه الآيات هي قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾** وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴿ البقرة: ٢٧٢ و قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٢﴾** وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فَوَجْهُ اللَّهِ ﴿ البقرة: ١١٥ - و: قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣﴾** فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴿ الروم: ٢٨ و قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٤﴾** وَمَا أَلْتَمَسْنَا مِنْ رِزْقٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴿ الروم: ٣٩ و قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٥﴾** وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴿ الأنعام: ٥٢ و قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٦﴾** إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لِيُؤْتِيَهُ اللَّهُ لَآئِنِ رُئِدْتُمْ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ وَلَا تَجِبُوا عَلَيْهِمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَىٰ جِهَتِهِمْ ﴿ الإنسان: ٩ و قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٧﴾** وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴿ الكهف: ٢٨ و قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٨﴾** وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴿ الرعد: ٢٢ و قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩﴾** وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مآخِرًا لِإِلَهِ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴿ القصص: ٨٨ - و قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٠﴾** وَيَتَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ الرحمن: ٢٧. وذهب نفس المذهب المستشرق المجري جولدنزيهر فأشار الى عدة آيات قرآنية، فالآية قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١١﴾** يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿ العنكبوت: ١١ و قَالَ تَعَالَى: **أَعْرُذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٢﴾**

مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٢١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٢٢﴾ النجم: ٤٢ و قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾ البقرة: ١٥٦ قال عنها إنها: "يمكن إذا فصلت عن سياقها إن تحمل بكل سهولة على معنى الفناء في الألوهية. وإذا وُضع (علم اليقين) و(عين اليقين) في مقابلة متاع الحياة الدنيا، في سورة التكاثر، كان أيسر على مفكري الصوفية أن يبنوا دون كثير عناء ضروب تعمقهم في ذلك، إذ أخذوا هذين التعبيرين اصطلاحاً سانغاً للدلالة على أهداف الإستغراق الفكري. وكم قدّمت لهم أولاً خدمات

صوفية آية النور السامية عظيمة القداسة قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٢٤﴾ اللَّهُ نُورٌ أَسْمَوَاتٌ وَالْأَرْضُ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ

لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢٥﴾ النور: ٣٥- التي نُقِشت أول كلماتها على القبة السماء لمسجد آيا صوفيا ( الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح،المصباح في زجاجة،الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ) "فقد دعت هذه الآية بما فيها من غموض حافل بالأسرار يحجب أفكارها، كما دعت بذاتها أيضاً، إلى أن يُربط بها تفسير صوفي. ولذلك أستغلت أيضاً إستغلالاً مشبعاً في اطراد خيالي على الدوام، مع تدرج نموّ التصوّف". كما أشار جولد تزيهر في هذا الصدد إلى اصطلاح القبض والبسط المتضادين في علم النفس الصوفي - أخذاً من

قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٢٦﴾ مَن ذَا الَّذِي يقرئُ اللَّهُ قرآنًا حسناً فيُصدِّعُهُ لَهُ، أضعافاً كثيرة ﴿١٢٧﴾ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرجعون ﴿١٢٨﴾ البقرة: ٢٤٥- التي فُسِّرت في ضوء التفكير الصوفي ٤ .

وبعض هؤلاء المستشرقين يُرجع نشأة التصوّف إلى الإزدهار الفكري الذي شهدته البصرة، وكان أهلها "من أصل قبائل تميم المولعة بالنحو المنطقي، والشعر الواقعي، وتفسير الحديث" مع تعايش المدارس الفقهية للسنة والمعتزلة والخوارج، وقد برز فيها الحسن البصري (٧٤٨ - ٦٢٢م) (كمعلم) للتصوّف. أمّا في الكوفة فقبايلها التي تحدرت من الأصل اليميني، وذات الطابع المثالية والإتجاه العاطفي فقد افتتنت "بالنحو الشاذ والمثالية الإفلاطونية في الشعر والظاهرية في الحديث، مع ميل

٤ مذاهب التفسير الإسلامي -تأليف اجنتيوس جولد تزيهر ص 205-204، ترجمة د عبد الحلیم النجار، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد 1955

إلى مدارس الشيعة والمرجئة في الفقه". وكان من أعلامها جابر ابن حيان العالم الرياضي والكيميائي الشهير، ضمن فريق كبير من الصوفية الذين إنتقل بعضهم إلى بغداد، فأصبحت المركز الرئيسي للتصوف في ذلك العصر.<sup>٥</sup>

بل ذهب باحثون آخرون إلى أن النشأة ترجع إلى نفر من الصحابة كأبي ذر الغفاري وأبي حذيفة، واستقرأ بعض المستشرقين من حديث النبي الذي جاء فيه: "ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصره، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، استقرأوا منه أنه رخصة بممارسة التصوف أو فاتحة له.

ولعلّ أبلغ تلخيص للتصوف هو ما ذكره ابن خلدون حين أرجع عناصره إلى أربعة:

- ١- الكلام في المجاهدات وما يحصل من الأدواق والمواجيد ومحاسبة النفس على الأعمال.
- ٢- الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب.
- ٣- التصرفات في العوالم والأكوان وأنواع الكرامات.
- ٤- ألفاظ موهمة الظاهر نطق بها أئمة القوم فتعرف بالسطحات، يستشكل ظاهرها؛ فمنكر لها ومستحسن ومتأول<sup>٦</sup>. وفي فقرة أخرى من شرح ابن خلدون لأقوال المتصوفة، قال: "فأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات، فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجدانيّ عندهم. وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أدواقهم فيه. واللغات لا تعطي له دلالة على مرادهم منه، لأنها لم توضع للتعرف، وأكثره من المحسوسات. فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من المتشابه. ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموقظ لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة. وأما الألفاظ الموهمة التي يعتبرون عنها بالسطحات، ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه. وصاحب الغيبة غير مخاطب، والمجبور معذور<sup>٧</sup>

5 ShorterEncyclopaedia of(\*) Islam H.A.R.Gibb+S.H.Kramer S-Luzac London - 1961 ص577

٦ لخص أحمد أمين هذا الرأي لابن خلدون، في (ظهير الإسلام) ص ١٥٢ الطبعة الخامسة - ١٩٨٢ مكتبة النهضة المصرية - القاهرة. وذلك إقتباساً من الفصل الذي أورده ابن خلدون في مقدمته عما

سماه علم التصوف، ص ٤٧٥ - ٤٦٧ إصدار دار إحياء التراث العربي - بيروت دت نفس المرجع السابق ص ٤٧٤

وواضح هنا أن ابن خلدون يتلمس لأقوال المتصوفة الشاذة تيريرا سايكولوجياً  
يعنيهم من الأحكام التي تطبق على المتحدثين العاديين من الفلاسفة والعلماء.

ألا إن هناك قراءة مغايرة للتصوف انتهجت التفسير المادّي والديالكتيكي لنشأته،  
وفلسفته وأعلامه ومدارسه المختلفة، وتطوره عبر العصور، قام بها الباحث اللبناني  
الراحل حسين مروّة في كتابه المبدع (النزعات الماديّة في الفلسفة العربية الإسلامي)  
والذي أفرد قسماً كبيراً فيه لهذه الحركة الهامة بالغة التأثير في الفكر والحضارة  
الإسلاميين<sup>٨</sup>، فهو في تحليل نقدي معمقٍ يعتبر أن التكوّن الجنيني لحركة التصوف  
بدأ في القرن السابع للميلاد مع ظهور حركة الزهد، الذي قسمه إلى قسمين: الأول  
والمتمثل في زهد كبار الصحابة، وهو المتسم بالطابع الأخلاقي "الذي اقتصر على  
أسلوب العيش اليومي البسيط المتواضع، دون أن يتجاوز ذلك إلى طابع الظاهرة  
العامة، ودون أن يحمل موقفاً متميّزاً أو نظرة متميّزة في الشعائر الإسلامية أو في  
طبيعة الميتافيزيقا الإسلامية، أو في المسائل الإجتماعية الأساسية أو في مسألة  
المعرفة ومصادرها... أما المسلك الآخر فقد اتسم بطابع مختلف جداً. كان ظاهرة  
شائعة من أبرز ظاهرات المجتمع الجديد، من أنماط ردّ الفعل لمجمل الأحداث  
الخطيرة الدامية والصراعات السياسية المتلاحقة منذ مصرع الخليفة عثمان ومبايعة  
الناس لسيدنا عليّ ابن أبي طالب". وتحدّث عن محتوى المعارضة هذه كونه بدأ  
محتوى سلبيّاً عديميّاً تمثل في عزوف فرقة من الصحابة وهم سعد بن أبي وقاص  
وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد ابن سلمة الأنصاري وأسامة بن زيد بن حارثة  
الكلبي مولى رسول الله، عن التورط في الخلاف. وُقل عن النوبختي في كتابه فرق  
الشيعة، أن هؤلاء الذين انضمّ إليهم حستان بن ثابت شاعر النبي وعبد الله بن سلام  
اعتزلوا عن عليّ: "وامتنعوا عن محاربتّه والقتال معه بعد الدخول في بيعته  
والرضاء عنه، فسُمّوا المعتزلة وصاروا أسلاف المعتزلة إلى آخر الأبد"، وقد  
أخذوا بقول سعد ابن أبي وقاص، كما جاء في كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين "إن  
رسول الله أمرني، إذا اختلف الناس، أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض الجدار،  
فإذا انقطع أتيت منزلي فكننت فيه لا أبرحه حتى تأتيني يد خاطية أو منية قاضية".  
لكن هذا الموقف السلبي لهذا الفريق من الزهاد تطوّر بعده التصوف في صدر  
الخلافة الأموية، فدخل التصوف في المرحلة الثانية من صيرورته: أي معارضة  
الأوضاع الإجتماعية والسياسية التي اكتنفت فترة الإستبداد الأموي تلك، وما استفحل

٨ حسين مروّة - النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية - الجزء الثاني، دار الفارابي بيروت  
١٩٨١، الصفحات من ١٤٥ إلى ٣٥٣

في ظلها من التمايز الاجتماعي الفاحش بين الحكام الأثرياء والفتات الفقيرة من المحكومين. وقادت هذه المعارضة القيادات التي أبلت البلاء الحسن في الحروب الإسلامية. واستشهد المؤلف بقول (غولد تزيهير) "إن الميل إلى الزهد كان مرتبطاً بالثورة على السلطة القائمة ... وإن كثيراً من المسلمين لجأوا إحتجاجاً على ما ينكرون من حكومة ونظام، إلى الاعتكاف والزهد" <sup>٩</sup> والواقع أن هذا المفهوم يتفق مع ما أورده (دائرة المعارف البريطانية) ذائعة الصيت التي استقصت- كما هو دأبها - أهم وأشهر المصادر التاريخية في تدوين موسوعتها. وفي هذا الموضوع بالذات اعتمدت بالطبع على المراجع الإستشراقية في تلخيص تعريفاتها: إذ أشارت إلى أن التصوف ظهر في القرن الثاني الهجري للإسلام، وكلمة صوفي تطلق على كل امرأة أو رجل تبنى حياة الزهد والتسكك وارتدى ملابس من الصوف الذي اشتقت منه كلمة (صوفي). وذهبت إلى القول "إن النبي محمداً (ﷺ) والذي كان بطبعه زاهداً ومتقشفاً يُعتبر إلى درجة ما صوفياً" <sup>١٠</sup> ورغم شجبه لحياة الرهبنة المتبعة في الأديرة المسيحية <sup>١١</sup> إلا أن نيكلسون يرى أن تنديد النبي كان منصباً على أولئك الذين أفسدوا الرهبانية، أو أنه قصد عادة (العزوبية) الملازمة لها. لأن الآية قال تعالى: **أَعْرَضُوا بِاللَّهِ**

**عَنِ الرَّحْمَةِ ۗ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴿٢٧﴾ الحديد: ٢٧ وهذا

- ٩ مروءة - نفس المصدر ص ١٥٠ - ١٥٢.
- ١٠ أجمع المؤرخون المسلمون ومعهم المستشرقون على هذا الإشتقاق، فقد نقل مروءة ما أورده الطوسي في كتابه (اللمع) ان الصوفيين نُسبوا الى ظاهر اللباس "لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعائر المساكين المتسكين " وما ذكره الكلابادي في كتاب -التعرف لمذهب التصوف- يقول عن الصوفية "من لبسهم وزينهم سموا صوفية، لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان منه وحسن منظره، وإنما لبسوا لستر العورة، فحترروا بالخشن من الشعر والغليظ من الصوف". وروى نفس المؤرخ عن حسن البصري قوله " لقد أدركت سبعين بدرياً ما كان لباسهم إلا الصوف . راجع مروءة -مصدر سابق - ص ١٦٨. إلا ان هناك تفسيرات أخرى أوردها دائرة المعارف المختصرة للإسلام -مرجع سابق ص ٥٧٩، مثل قولها إنها مستمدة من عبارة أهل الصفة أو الصوفة وهم الذين كانوا يجلسون على المصطبة في مسجد المدينة في عهد النبي، أو من عبارة (صف أول) وهم الأتقياء الذين يصطقون في المقدمة أثناء الصلاة، أو انها مشتقة من جذر كلمة صفا، فهم صوفيون أي أصفياء طاهرون.. إلى غير ذلك من التأويلات الأتيولوجية ولعل من أهمها المحاولة لربطها بكلمة يونانية مشابهة ، غير أن المستشرق الألماني الكبير نولديكه نحض هذا التفسير لأن علامة الحرف اليوناني في الكلمة المذكورة يقابلها في العربية حرف س وليس حرف ص المستعمل في كلمة التصوف العربية. أنظر Encyclopaedia Britannica 1963 p 523-533
- ١١ تشير الموسوعة البريطانية هنا الى الحديث النبوي الشريف (لا رهبانية في الإسلام).

يدلّ على أن النبي امتدح الرهبانية، بوصفها مدرسة أمرت بها المشيئة الإلهية<sup>12</sup>. ثم إن بذور التصوّف في الإسلام، وهي جنينية فيه منذ البداية، تطوّرت سريعا بفعل العوامل السياسية والاجتماعية والفكرية التي سادت في القرنين الهجريين اللذين أعقبا وفاة النبي. فالحروب الأهلية المدمّرة مع الطغيان العسكري الشرس كان محورها الأساسي الأمور الدنيوية فقط، كما أن الأمنيات التي تبشّر بها الرسالات، والنعيم الذي ترقل فيه الطبقات العليا من المجتمع بالإضافة إلى الخضوع التلقائي والصارم للعقيدة السلفية وانتشار التفكير العقلاني، كل هذا أفضى إلى ثورة اتخذت مظاهر لها الزّهد والتّمسك، والمشاعر الروحانية، والإيمان العاطفي. فالآلاف من الذين ضجروا وتبرّموا من سيادة التفاهات الدنيوية نذروا أنفسهم لله، كما أن صور جهنم المرعبة التي تجلت في الآيات القرآنية في مشاهد حيّة، أيقظت في نفوسهم شعورا مكثفا بالذّنْب مما ادى بهم إلى نشدان النجاة بممارسة الزّهد". واستشهدت الموسوعة البريطانية هنا بقول الجُنيد: "إن التصوّف هو دين ممارسة وليس نظاما للتأمّل، وإنه نبع من تجويع النفس وتوديع الدنيا وقطع الأواصر الأسرية المعتادة، والأقلاع عما يعتبره الناس من أطايب الحياة، كما أنه لا يميل إلى الخصام" على حد تعبيره. ومن ثمّ وبالأيغال في الممارسة وتوسّع الانتشار، اتخذ التصوّف شكلا جديدا "من أشكال الوعي الفلسفي عند العرب في القرون الوسطى يميّز عن الفلسفة نفسها بمقولاته الخاصة وبمنطق حركته الخاص. وهذا التحول الأخير يرتبط من حيث مضمونه بتحوّل التصوّف إلى كونه تعبيراً عن موقف أيديولوجي "مروّة نفس المصدر ص ١٥٠

وكانت هذه المرحلة الثانية التي أفرزتها التطوّرات المذكورة، ويمكن أن يؤرّخ لها -حسب إجماع الباحثين - بانتقال الخلافة من الشام إلى بغداد وما ادى إليه هذا الإنتقال من تماس مباشر بثقافات الشعوب التي نشأت قبل الإسلام كالعقائد المانوية<sup>14</sup>.

١٢ انظر تراث الإسلام -مرجع سابق، ص ٣٠٩

١٣ هو ابو القاسم الجنيد بن محمد. وُلد وتوفي في بغداد بين عامي ٩١٠ و ٩١٢ وأصله من نهاوند، ويُعرف بالقواريري، وكذلك بالخزّاز لعمله في الخز، كان فقيها على مذهب أبي ثور واعتبر أول من تكلم في علم التوحيد في بغداد. وقد تأثر بأئمة متصوفي عصره مثل خاله السري السفطي والحارث المحاسبي. إلى ان تبحّر في التصوّف، فعُدّ شيخ المذهب لأنه أول من ضبط أصوله بقواعد الكتاب والسنة. وقد تبعه الكثيرون من المتصوّفة، كما كان الحلاج أحد تلاميذه.

١٤ وهو مذهب شرقي لصاحبه ماني (276-215م). يقول بوجود مبدئين مبدأ الخير ومبدأ الشرّ كمثل النور والظلام والافلاطونية والزرادشتية Zoroastrisme\* وهي مذهب ديني يحمل إسم صاحبه زاراديشث الذي ولد في شمال غربي إيران في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وعقيدته تقول بالصراع الدائم بين العالم بين عنصر الخير ويمثله إله النور والشرّ، ويمثله إله الظلام. واحتوت على

إذ أن التأثير المسيحي لم يأت من الكنيسة، ولكن من حياة النساك والطرق غير الأرثوذكسية، لأن أكثر من مفهوم صوفي، خاصة مبدأ التوكل، تعود أصوله إلى التعاليم المسيحية. فنزعة الترهّب التي اندست في التصوّف الإسلامي -على الرغم من نهي الرسول عنه- جاءت في كلّ درجاتها من المسيحية. غير أن التأثير البوذي قد يكون هو الآخر قد فعل فعله؛ إذ المعروف عن البوذية كونها ازدهرت في (البلخ) و(الترانزوتستان) و(التركستان) قبل الفتح الإسلامي. وفي العصور المتأخرة قام الرهبان البوذيون بنقل طقوسهم الدينية وفلسفتهم ونشروها بين المسلمين، فاستعمال المسابح ونظرية(الفناء) التي يرجّح أن تكون نوعا من Nivarana، وكذلك أسلوب المقامات، كلها يبدو انها انبثقت من البوذية.

وكان التأثير الثالث في التصوّف هو فلسفة الإفلاطونية الجديدة، ففي الفترة ما بين ٨٠٠ - ٨٦٠م تدفق على الإسلام سيل الأفكار الإغريقية الذي بلغ أوجه. وما كان يُسمّى باللاهوت الأروسطي، الذي ترجم إلى العربية حوالي العام ٨٥٤، كان مليئا بالنظريات الأفلاطونية والأفكار الروحانية الشائنة والمستمدة من مبدأ (الديونيسوية) - أي إشتهاء الخمر- والتي كانت سائدة في آسيا الغربية<sup>١٥</sup> وفي تلك المرحلة ظهرت ملامح مدرسة المحبة أو الحبّ الصوفي. وكانت أبرز أعلامها رابعة البصرية (اشتهرت بالعدوية) التي عاشت في ٨٠١ م<sup>١٦</sup> ودشنت بأشعارها مبدأ الإتحاد الذي يتوسّل الحبّ الإلهي. وقد نُسب إليها قولها "أحبك حبين حبّ الهوى... وحبّا لأنك أهل لذاك".

إشارات عن نهاية العالم، وبعث الموتى ومولد مخلص من امرأة عذراء. وهي عقائد وردت في الديانتين اليهودية ثم المسيحية، وفي المسيحية خاصة في تقاليد الزهد والتشكّف.

15 Encyclopaedia Britannica p.523 مرجع سابق

16 هي أم الخير رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك، عاشت بالبصرة وعُرفت بالورع والتقوى وقد أجمع المؤرّخون على أن كثيرا من أشعارها منحول أو ممدوس عليها، وأنها - حسب رواية المحقق والأكاديمي المصري الكبير الفيلسوف عبد الرحمن بدوي إعتادا على أشهر المؤرخين المسلمين - تُنسب إلى بني عدوة بالولاء لا بالنسب العائلي، وأنها تشردت في صباها بعد وفاة أمها وحدث القحط في البصرة، فأراها ظالم أسرها وباعها بستة دراهم لرجل أنقل عليها العمل، ثم هربت من شخص توخّست فيه شرًا، وهامت على وجهها إلى أن ارتمت في الطريق وأخذت تناجي الله، فسمعت صوتا يقول لها " لا تحزني..ففي يوم الحساب يتطلع المقربون في السماء إليك ويحسدونك على ما ستكونين إليه " وبعندذ عادت إلى سيدها وصارت تخدمه وتصوم وتصلي طول الليل -نقلا عن بدوي في كتابه (شهيدة العشق الألهي): وذهب مروّة في تحليله السيكولوجي إلى " أن الفقر الوحشي والحب المسحوق لعبا دورين متداخلين إنتهيا برابعة إلى الكهف الداخلي العميق من ذاتها، وخلق لها العشق الإلهي تجد به عوضا وهميا عن الحرمان المادي الذي اقترس شبابها " أنظر مروّة - ص ١٨١ مرجع سابق.

وفي القرن الثالث الهجري صاغ المتصوفة نظريات متبلورة للتصوف مفصلتين ومتوعين طرقه وقواعده، فالচারب البصري المتوفى حوالي ٨٥٧ م كان أول من سجل تجربة صوفية ذاتية في رسالته (رعاية حقوق الله والسبيل إلى الملاحظة الدينية). أما ذو النون المصري<sup>١٧</sup> فقد قسم العرفان الصوفي الى ثلاثة أقسام " الأول حظ مشترك بين عامة المسلمين، الثاني معرفة خاصة بالفلاسفة والعلماء، الثالث العلم بصفات التوحيد وهو خاص بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم " وسنعم فيما بعد أن هذا التقسيم اتبعه أغلب اقطاب الصوفية بأشكال مختلفة. وكان ذو النون من طبقة جابر ابن حيان في صناعة الكيمياء، فقد صاغ بالتفصيل عناصر الغوصية مستلهما إياها من التأملات الفلسفية التي كانت شائعة في زمانه في الإسكندرية. ولا شك أنه تأثر أيضا بالأفلوطينية الحديثة، نسبة الى أفلوطين الذي نشأ في مصر والذي ذهب إلى روما في القرن الثالث الميلادي، واشتهر بكتابه (التاسوعات). وقد ترجمه عبد المسيح بن ناعمة الحمصي من السريانية إلى العربية، ونقحه يعقوب الكندي ثم شرحه بن سينا معتقدا أنه لأرسطو. وأبرز ما جاء فيه "إني ربما خلوت بنفسي، وخلعت بدني جانباً وصرت كأنني جواهر متجرد بلا بدن، فأكون داخلًا في ذاتي راجعاً إليها خارجاً من سائر الأشياء، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعاً، فأرى في ذاتي من الحسّن والبهاء والضياء ما أبقي له متعجباً بهتاً .."<sup>١٨</sup>. كما أن ذا النون (أدخل قواعد (الأحوال) و(المقامات) وفصل فيها. وهي في مجملها تقول بمشاقّ طريق الوصول إلى الله التي يمرّ فيها المرید بمراحل تسلّم إحداهما إلى الأخرى، وهذه هي ما يُسمى بالمقامات. غير أن المستشرقين اهتموا أيضا بتلمس جذور التصوف في الإسلام اعتماداً على ما كتبه المؤرخون المسلمون من المتصوفة أنفسهم. وكان من أشهرهم أبو القاسم القشيري - ٩٨٢ - ١٠٦٨ م<sup>١٩</sup> وقد هدف من رسالته محاربة الفلسفة التي كانت تهمّ بدفع التصوف من أحضان الإسلام إلى التجريد، كما أنه شخصياً سلك مسلك المجاهدة والتجريد. وقد جمع معلومات عن

١٧ هو أبو الفاضل ثوبان ابن إبراهيم المتوفى عام ٨٥٩ م. من أوائل متصوفة الإسلام، ولد بمصر من أب وأمّ نوبيين من أصل قبلي واعتنق الإسلام وسار إلى مكة والشام. وقيل إنه عاش رهبان أنطاكية وتوصل إلى رياضة نفسه بالزهد والتصوف واجتمع له أتباع كثيرون حتى خشي المتوكل الفتنة، فقبض عليه وأرسله إلى بغداد حيث سجن فيها ثم أطلق سراحه بتدخل من المتصوفة فيها، وأعيد إلى بلده التي قوبل فيها بالترحاب.

١٨ أحمد أمين (ظهر الإسلام) ص ١٥٦ الطبعة الخامسة - ١٩٨٢ مكتبة النهضة - القاهرة.

١٩ هو ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري إمام المتصوفة.

تاريخ التصوف وسير أعلامه وعقائدهم في كتابه (الرسالة القشيرية)، وحدثا حذوه السراج الطوسي<sup>٢٠</sup>.

على أنه بعد مجيء المدرسة المعارضة لهذا الإتجاه على يد أبي القاسم الجنيد البغدادي، إنتشرت نظرية الإتحاد التي تتلمذ عليها أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج (٨٥٨ - ٩٢٢ م) الصوفي الشهير الذي أتهم بالكفر والزندقة في عهد الخليفة العباسي المعتز، إذ حكم فقهاؤه بجلد الحلاج ألفي سوط، ثم ضرب عنقه وصلبه ليموت حرقا بالنار. وقد هزت مأساته التراجيدية ضمائر المثقفين والدارسين في كل الأزمنة وإلى يومنا هذا، لأنها كانت الأولى والفريدة التي تحلّ بقطب صوفي كبير. كما أثارت شخصيته وأفكاره إهتمام كافة المذاهب والطرق، وأصدر علماء الدين البارزون، بعد مصرعه الفاجع، أحكاما مختلفة، وهو ما أشار إليه عبد القاهر البغدادي حين وصفه قائلا: "كان في بدء أمره مشغولا بكلام الصوفية، وكانت عباراته حينئذ من الجنس الذي تسميه الصوفية الشطح، وهو الذي يحمل معنيين: أحدهما حسن محمود، والآخر قبح مذموم. وقد اختلف فيه المتكلمون والفقهاء والصوفيون<sup>٢١</sup>. ويمكن إجمال هذه الإختلافات كما يلي قرين كل فريق منهم: فقد أفتى بتكفيره من بين الفقهاء: ابن حزم وابن داوود عن مذهب الظاهرية<sup>٢٢</sup> وابن خلدون والطرطوسي عن المالكية على أن ابن خلدون تطرق إلى إدانة الحلاج بتحفظ لأن ما صدر عنه من شطحات جاءت: "وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمواخذ أيضا. ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم وابن توميه عن الحنابلة، والجويني والذهبي عن الشافعية. ومن بين المتكلمين: الجبائي والقزويني عن المعتزلة، والباقلاني عن الأشعرية. ومن بين الصوفية فإن أعلامهم المشهورين مثل عبد القادر الجيلاني وابن عربي وجلال

٢٠ هو عبد الله بن علي بن محمد بن يحيى السراج الطوسي المتوفي عام ٩٨٨ م. في كتابه اللمع وأبو يزيد البسطامي (\*) هو أبو يزيد طيفور ابن عيسى بن آدم بن شروسان، ولد في بسطام من أعمال خراسان، وتوفي عام ٨٧٥ م. .. يُعتبر المتصوف المسلم الأول الذي قدم فكرة فناء النفس في الوجود الكلي.

٢١ الفرق بين الفرق (ص ٢٤٧ منشورات دار الأفاق الجديدة- ١٩٨٠ بيروت).

٢٢ هي نظرية فقهية تفسر النصوص القرآنية وما تواتر من أحاديث وفق انعكاسها في الفكر، ما لم يكن لها معاني باطنية مخالفة. وشككت في الإسراف في استعمال الرأي والقياس والاستصحاب والإستحسان والتقليد، باعتبارها من فروع الفقه وليست من أصوله. وكان ابن حزم ممثلا لهذه المدرسة في المغرب والأندلس، وابن داوود في العراق وفارس، ولكنها لم تستطع الصمود أمام إنتقادات مدارس الإجتهد الأخرى، وبذلك لم تتبلور في عقيدة ثابتة، وفقدت المناصرين لها عبر العصور. "

\* المقدمة، مرجع سابق ص ٤٧٥

الذين الرومي والشبلي والنصرأبادي، قد افتوا بالولاية، أي انه عارف بالله وذو كرامات، إذا أخذنا بتعريف الجرجاني، أو ما تعارف عليه الناس فيما بعد من صفة القطب الصوفي والمرابط الصالح، ما عدا عامر مكي الذي طارد الحلاج حين جاء إلى مكة وضيق عليه حتى أفتى بقتله، مما أجبره على الهرب، وهناك بعض المفكرين الأوائل الذين أفتوا أيضا بتكفيره. أمّا الرفاعي وعبد الكريم الجيلي فقد أفتيا بالتوقف، أي عدم القطع برأي معين حوله. وفي الحنفية: لم يفت أحد بالتكفير، بل إن ابن بهلول أفتى بالتوقف، والناقلي بالولاية. وبالنسبة لفريق الحكماء أي الفلاسفة فقد أفتى عنهم -ولا غرو- كل من ابن طفيل والسهروردي بالولاية.

اختلفت إذن هذه المذاهب الفقهية، والمدارس الفكرية والفلسفية والطرق الصوفية، في الفتاوى والأحكام التي أصدرتها في حق الحلاج كما رأينا بين الدرجات الثلاث: التكفير والولاية والتوقف. بل إن هذا الاختلاف حدث حتى داخل المذهب أو الطريقة الواحدة، فنلاحظ في الشافعية مثلا أن ابن حجر والسيوطي والأزدي أفتوا بالتوقف، والمقدسي والسيد مرتضي بالولاية. وبين المتكلمين الأشاعرة أفتى بالولاية كل من الغزالي وفخر الرازي<sup>٢٣</sup> ويرتكز مذهب الحلاج في التصوف - كما لخصته موسوعة إسلام المختصرة- في: الإتحاد الأسمي في الذات الإلهية، وهو ما أطلق عليه (عين الإجماع)، وذلك من خلال التشوف إلى العذاب والآلام والخضوع لها. ثم تحولت هذه الطقوس فيما بعد إلى (الذكر) على يد الشيخ السنوسي التلمساني<sup>٢٤</sup>.

كما ان المتصوفة انتهجوا ما سُمي باللاتينية **VIA PURGATIVA** **ILLUMINATIVA** وهو الطريق المطهر الإشرافي الذي يروض النفس للوصول إلى العرفان الروحاني أو الغنوصية **GNOSIS** والذي فُسر بأنه "الإدراك لصفات الوجدانية الإلهية، إمتاز بها الأولياء فرأوا الله في قلوبهم" أي معرفة الله معرفة

٢٣ الرازي الموسوعة المختصرة عن الإسلام ص ١٢٨ و٦٢٩ مرجع سابق وكذلك (ظهر الإسلام) ص ٧٥.

٢٤ (هو ابو عبد الله محمد بن يوسف بن شبيب من العلماء الأشاعرة في تلمسان التي ولد وتوفي فيها عام ١٤٠٩م - أي لا علاقة له بالسنوسي الكبير مؤسس الطريقة التي نحن بصدها وإن كان الأسم يوحى بانهما من قبيلة سنوس المغربية - وقد اعتُبر عند الدارسين للفقهاء المغربي، إضافة إلى ما عرف عنه من ورع صوفي ومخافة الله، مصلحا في العقيدة عن طريق تعاليمه وانتاجه الفكري الغزير، وأهم كتبه (عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وريقة التقليد) و (العقيدة الكبرى) ورسائله (عمدة أهل التوفيق والتسديد) التي شرح فيها كتابه السابق، ورسائله عن (السنوسية) نسبة إلى مذهبه، والتي طبعت عدة مرات في القاهرة وفاس، وترجمها إلى الألمانية **ph. Wolff** طبعة لايبزيغ ١٨٤٨، وإلى الفرنسية **Luciani** طبعة الجزائر ١٨٨٩، وهذه الرسالة طبعت في القاهرة عام ١٣١٧م و (عقيدة أهل التوحيد الصغرى) أو (أم البراهين) أنظر الموسوعة المختصرة عن الإسلام مرجع سابق ص ١٢٨ و ص ٥٠٣.

مباشرة دون واسطة. وهذه الطريق أو (الطريقة) كما شرحت فيما بعد، تتضمن الفضائل المكتسبة (مقامات) والأوضاع الصوفية (الحالات). وعرف الطوسي الحال بأنه "ما يحلّ بالقلوب أو تحلّ به القلوب من صفاء الأذكار"، وجميعها حلقات متصلة تبدأ بالأولى وهي التوبة والهداية، تليها سلسلة أخرى تتمثل في إنكار الذات، الفقر، الصبر، التوكل على الله. وكلّ حالة من هذه الحالات تُفضي إلى الأخرى. وعلى المرید (التلميذ) أن يتعلم بأن يضع أعمال القلب فوق أعمال الحواس الأخرى، وأن يجعل النية فوق الفعل<sup>٢٥</sup>.

وفي تحليل أحمد أمين أن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أنواع: قوم قويت عقولهم، فهم أميل إلى بحث النظريات العقلية وأقرب إلى العلم؛ وقوم هم أنسب إلى الفنون الجميلة، من أدب وشعر وموسيقى، اعتمادا على قلوبهم وأذواقهم؛ وقوم مزيتهم في أيديهم وهؤلاء للصناعات أنسب. و"الصوفية من النوع الثاني يعتمدون على الذوق وعلى الكشف والإلهام، ولا يصح أن نسألهم عن الحجّة العقلية فيما يقولون، بل قد تغمرهم العاطفة فيشطون ويتكلمون بما لا يفهمون". وينقل عن ابن خلدون قوله: إن ما يراه الفقيه والفيلسوف بالعقل يراه المتصوفة بالكشف، كما ينقل رواية أبي سعيد بن أبي الخير الصوفي المشهور حين اجتمع بابن سينا، فلما فرغا سئل أبو سعيد عن ابن سينا فقال: ما أراه يعلمه، وسئل ابن سينا عن أبي سعيد فقال: ما أعلمه يراه. ويمضي أحمد أمين إلى القول: "الناظر في القرآن يرى فيه طرفا من هذا وطرفا من ذلك. وفي كثير منه تفرقة بين الخالق والمخلوق، وفي بعضه توحيد لهما مثل: وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى. والذي عني بالفكرة الأولى الفقهاء، والذي اعتقد الثانية أغلب المتصوفة وعلى رأسهم محي الدين بن عربي، وسموا بجهد الأولين شريعة واجتهاد الآخرين حقيقة." ويرى في التاريخ: "أن الأمراء كانوا ينصرون الفقهاء على المتصوفة لسببين: الأول أن التعاليم الصوفية تدعو إلى الزهد وعدم الإهتمام بالدنيا ولو عمّت الفكرة الناس ما صلح ملك ولا وجد من يعمل. والثاني أن الصوفية الحقيقيين إنما يخضعون لله وحده، ويؤمنون تمام الإيمان بأن لا إله إلا الله، فلا خضوع لملك أو أمير، وهذا يُغضب ذوي السلطان عادة. ففي كلّ موقعة ثارت بين الفقهاء والمتصوفين، كان الأمراء بجانب الفقهاء لا الصوفية<sup>٢٦</sup>.

٢٥ الموسوعة المختصرة للإسلام مرجع سابق ص ٥٧٥

٢٦ (ظهر الإسلام) ص ٦١ - ٦٢

ولئن كانت تهمة تكفير الحلاج استجمعت عناصرها، من الناحية الثيولوجية، من اعتناقه لمذهب الحلول incarnation كما ذكر، فإن المستشرق نيكلسون لا يستبعد أن يكون أحد أسباب التخلّص منه هو الإتجاه السياسي الثوري لديه إذ "اقام في وجه السلطة العامة -وهي الدولة والهيئة الدينية- سلطانا مستمداً من الله مباشرة. هذا السلطان هو والرجل الصالح (الوليّ) شيء واحد، فلم يكن الحلاج نظرياً كالجنيّد، ولذلك حام الشك في أنه كان يدعو للقرامطة، وأنه بشر بمذهبه بين المؤمنين والكفرة على حد سواء" فضلاً عن اجتذابه الناس إلى مذهبه بطريق عمل معجزات أنية. من هذه الناحية كان حكم الموت عليه عادلاً " !<sup>٢٧</sup> ولا شك أن الرواية التالية عن مشهد إعدامه وما جرى فيها لدليل يدحض تهمة التكفير التي ألصقت به. فقد جاء عند ابن خلّكان عن إبراهيم ابن الفاتك أنه قال: "لما أتى بحسين بن منصور الحلاج ليُصلب، رأى الخشبة والمسامير فضحك كثيراً حتى دمعت عيناه، ثم التفت إلى القوم فرأى الشبلي فيما بينهم فقال له: يا أبا بكر هل معك سجّادتك؟ قال بلا يا شيخ، قال أفرشها لي، وفرشها، فصلّى الحسين بن منصور عليها ركعتين، وكنت قريباً منه فقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقوله تعالى (ولنبلوّكم بشيء من) إلى قوله (وأولئك هم المهتدون) وقرأ في الثانية فاتحة الكتاب وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) إلى قوله (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) فلما سلّم عنها، ذكر أشياء لم أحفظها. وكان مما حفظته: "اللهم بحق قدمك على حدثي وحق حدثي تحت ملابس قدمك، أن ترزقتني شكر هذه النعمة التي أنعمت بها عليّ، حيث غيّبت أغياري عما كشفت لي من مطالع وجهك وحرمت غيري ما أبحت لي من النظر إلى مكنونات سرّك وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي توصياً لدينك وتقرباً إليك، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت. فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد". ثم سكت وناجى سرّاً، فتقدّم أبو الحارث السيف فلطمه لطمه هشم أنفه وسال الدم من شيبه، فصاح الشبلي ومزق ثوبه، وغشي على بن الحسين الواسطي وعلى جماعة من الفقراء المشهورين وكادت الفتنة تهبّ، ففعل أصحاب الحرس ما فعلوا". أمّا أحمد أمين فقد روى أن الحكم عليه جاء عن طريق خدعة في عهد الوزير أحمد بن العباس الذي أحاله إلى القضاة بتهمة الزندقة. وبعد أن استجوب حول ما أشيع عنه من أنه ابتدع الخوارق موضعاً دفاعه، نهره أحدهم قائلاً: "كذبت يا حلال الدم!" فالتقط الوزير هذه العبارة، وأوحى للقضاة بأن يكتبوا في ورقة أنهم استحلّوا دمه ويوقعوا عليها باعتبارها حكماً صادراً عنهم.

٢٧ تراث الإسلام -ص- ٣١٨ مرجع سابق. ويُستغرب هنا أن يصف هذا المستشرق الحكم بالموت على الحلاج بأنه عادل، ولعله قصد العدالة حسب مفهوم النظام الحاكم في ذلك الزمان، والذي يقضي بإعدام من يروج لمثل أفكار الحلاج.

فلما رأى الحلاج ذلك قال: "ظهري حمي ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتهموني بما يخالف عقيدتي ومذهبي السنة، ولي كتب في الوراقين تدل على سنتي، فانه الله في دمي" <sup>٢٨</sup> ومما يرجح هذا الاعتقاد أن حركة القرامطة وهي الفرقة الإسماعيلية الباطنية المعروفة، بلغت ثورتها الذروة في عصر الحلاج، وخاضت حروبا ضارية ضد الحكم العباسي في تلك الحقبة بالذات، إذ انها نشأت حوالي 890 م. في عهد الخليفة المعتضد -إذا ارتخا لها بحمدان ابن الأشعث الملقب بقرمط - وانتهت حوالي 945 م. حين قضى عليها الخليفة الموفق. واستطاعت أن تحقق في تلك الحروب انتصارات جعلتها تتبادل الحكم في الأقاليم والمدن الهامة؛ في الشام والعراق والبحرين واليمن والحجاز وعمان وخراسان، وطبقت خلال هذا الحكم مذهبها الفكري الباطني المتشعب بالعقائد الإغريقية والفلسفة الأرسطوية العقلانية المستوحاة من علوم الفلك والرياضيات وطب العقاقير، في معارضة واضحة للتعاليم السائدة. كما طبقت نظامها الإقتصادي والإجتماعي المتمثل في جباية الخمس من مال كل من ملك ما لا تطبيقا للآية **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ وَأَطَعُوا أَنَا غَنَمْتُمْ مِن شَيْءٍ وَفَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أمانتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَيَّ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَقَىٰ الْجَمْعَانِ ﴿٤١﴾** وقال النووي في (نهاية الأرب): "ثم فرض عليهم -أي حمدان قرمط -الألفة وهي أن يجمعوا أموالهم في موضع واحد، وأن يكونوا فيه أسوة واحدة، ولا يفضل أحد منهم صاحبه وأخاه في ملك يملكه، وتلا عليهم **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴿١٠٣﴾** وقال تَعَالَى: **أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢١﴾** الأنفال: ٦٣ <sup>٢٩</sup> هذا النظام الذي استنته الحركة القرمطية هو أقرب إلى الشيوعية البدائية أو المبسطة التي اتخذت مظهر تجميع الثروة العينية بمعياريها القيمي في ذلك الزمان وتوزيعها وفق قاعدة (من كل حسب ما عنده ولكل حسب

٢٨ انظر هامش المعرب في الصفحة ٣١٧ من تراث الإسلام المذكور، وظهر الإسلام لأحمد أمين ص ٧٣

٢٩ (قرامطة العراق) ، تأليف محمد عبد الفتاح عليان ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - ١٩٧٠ .

حاجته). وقد اعتبرت آنذاك دعوة وممارسة هدامين للمجتمع الطبقي العباسي، كما جاء هذا كله مصحوبا بأعمال تقتيل وتخريب قام بها بعض زعماء القرامطة، وصلت إلى حدّ انتهاب الكعبة والإستيلاء على الحجر الأسود، ونقله من مكة المكرمة عام 930م. (جرت بعد ذلك إعادته). بل إن المؤرخ الشهير ابن جرير الطبري أورد أن اسمه هو حسين الأهوازي الذي جاء من فارس وعلم حمدان قرمط وأصحابه تعاليم القرمطية. دون أن يواصل الحديث عن دور الأهوازي هذا في بقية الأحداث الدراماتيكية. وقيل أيضا إن الحلاج كان على صلة بثورة الزنج في سواد الكوفة. ومن هنا جاء السبب الحقيقي للحقد عليه والتخلص منه بتهمة الزندقة، وبهذه الصورة البشعة.

ومن بين مدارس المتكلمين، كان الخوارج والزيدية الأثنا عشرية وغلاة الشيعة، أوائل من ندد بالتصوّف في القرن الثالث للهجرة، حين هاجموا الحسن البصري والذي تعرّض هو أيضا لتشويه آرائه الفلسفية، بل ضرب وعُذب من أجلها على أيدي حكام ذلك الزمان. هذا على الرغم من أن عقائد الشيعة الإسماعيلية المتعددة تقول بالظاهر والباطن والحلول وغير ذلك من النظريات التي قد يلتقي بعضها مع تعاليم الصوّفيين. إذن ربما كان هذا السخط على الصوفية بصفة عامة، في نظر هؤلاء الغلاة من الشيعة، هو دعوتها إلى الإنزواء والتنسك في حياة خاصة داخل (الخانكة) طلبا للرضا، مما عدّ تخليا عن الولاء للإمام المعصوم وتقديسه وخلق نموذج مناهض للثقافة، وهي ركن أساسي من أركان التعاليم الشيعية، وتعني: "أن يحافظ المرء على عرضه وماله ونفسه تجاه عدوّه فيظهر غير ما يبطن"، وهي أيضا: "مدارة وكتمان وتظاهر بما ليس هو الحقيقة"<sup>٢٠</sup>. وبناء على ذلك فالشيعة ربّما يتصوّرون ان الولاية الصوفية تريد إنتزاع الزعامة من الانمة، ناهيك عن محاولتها للخروج على سلطان الخلفاء.

أما عند السنة فقد تضاربت المواقف، كما أسلفنا في قضية الحلاج، فكان الهجوم القاسي من جانب المعسكر السلفي المحافظ وعلى رأسه الإمام ابن حنبل لأن المتصوّفة في رأيه يربطون صلة مباشرة مع الذات الإلهية على حساب الصلاة، وينشدون صداقة شخصية بين النفس والذات الألهية عن طريق (الحلول) في محاولة لتحريرها من رقابة الشريعة، وهو ماسمي (بالإباحة). أما المعتزلة والظاهرية فقد استخفوا بمبدأ (العشق الإلهي) الذي يوحد بين الخالق والمخلوق، لأنه نظريا يُعتبر

(تشبيها) وعمليا هو من قبيل (الملامسة والحلول) ورأوا في نظرية الحلول ووحدة الوجود نوعا من (الهرطقة والتشبيه) المحرم<sup>٣١</sup> غير ان أكثرية المتكلمين وأشهرهم، كإبن تيمية وإبن الجوزي، تقبلوا التصوف تحت تأثير الإمام الغزالي (١٠٥٩ - ١١١١ م). ولا بد هنا من إعطاء نبذة عن الغزالي كمتصوف وتأثيره الجوهري في تطور الحركة الصوفية، إذ لاحظ بعض الدارسين أن الغزالي وهو ما عليه من مكانة كإمام أشعري ووجهة في الفقه السني وضع الأسس الأخلاقية للتصوف حتى لا يتعارض مع المعتقدات الدينية وأحكام الشريعة، ووصفه إبن خلدون أنه "جمع بين (الورع) و (بين) (الإقتداء) ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم، وصار علم التصوف في الملة علما مدونا، بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط"<sup>٣٢</sup> وكان الغزالي في صباه قد تشتت ذهنه في تأملاته الفلسفية بين الشك واليقين، فهو يقول لنا في كتابه (المنقذ من الضلال): "أقبلت بجد بالغ أتأمل في المحسوسات والضروريات وأنظر هل يمكنني ان أشكك نفسي، فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح لي نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ايضا" ثم عاد يقول: "من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه غير متحرك وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه يتحرك ثم يتحرك بغتة ودفعة بل على التدرج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف، وننظر إلى الكوكب فنراه صغيرا في مقدار الدينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض بمقدار. وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحسن بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته، فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا". واستطرد بعد ذلك يشك في العقليات: "فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر". ولا غرو فالغزالي عاش في عصر حافل بالإضطراب السياسي والفكري، وقربه الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك وولاه التدريس في بغداد، كما أن الخليفة العباسي، لما أنس فيه التبخر في العلوم وقوة الحجّة في المناظرات الفقهية والفلسفية، أراد أن يستخدمه في الدفاع عن خلافته أمام هجمات أعدائها من الثوار وأصحاب الفرق الباطنية. وألف الغزالي في هذا المعرض الرسائل والكتب المعروفة وأشهرها (الرد على الباطنية أو فضائح الباطنية)، ثم اهتدى إلى التصوف لتعطشه للبحث عن الحقيقة من ناحية، ومن ناحية أخرى لما أحسن به من ضيق وسخط على ما كان يشاهده في بلاط الخلافة من فسق وفجور خلقين، إضافة إلى الدساسات والمؤامرات السياسية خاصة بعد مقتل الوزير فخر الدين سنة ٥٠٠ للهجرة من قبل أحد الباطنية، مما اضطر الغزالي إلى الإعتكاف في مسقط رأسه (طوس)، لأن هذه

٣١ الموسوعة المختصرة - الإسلام - مرجع سابق ص ٥٨٠

٣٢ المقدمة (مرجع سابق ص ٤٦٩)

الأجواء من الممارسات غير الخلقية والمكاند السياسية، تتناقض مع ما ينادي به من تعاليم وما يعظ به الحكام والعباد، إذ يقول في كتابه (المنقذ من الضلال): " ثم إنني لما فرغت من العلوم، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية. فابتدأت في مطالعة سبيلهم فعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، وظهر عندي أن لامطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى. ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أهدقت بي من كل جانب، ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس، فإذا هي غير خالصة بل باعثها ومحركها طلب الجاه، فتيقنت أنني على شفا جرف هار وأنني قد أشفيت على النار، إن لم اشتغل بتلافي الأحوال" <sup>٣٣</sup>. وقد وضح موقف الغزالي من معضلات التصوف الفلسفية في أنه: "لئن أنكر كلا من الحلول ووحدة الوجود عملا بالعقل وبعقيدة أهل السنة فقد سلم بالذوق والفيض والإلهام بالمعرفة العرفانية التي تعتمد على النور المقذوف" <sup>٣٤</sup> كما أن الغزالي في كتابه (أحياء علوم الدين) قال: "إن الله سمى العقل نورا في قوله تعالى (نور السماوات والأرض) وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة، فقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من عندنا) كما كتب تحليلا مطولا في كتابه (مشكاة الأنوار)، محاولا الاعتذار عن التهم الموجهة إلى الحلاج والتي سبقت الإشارة إليها: "وقد حملها على محامل حسنة، مع أنها كانت من أسباب الحكم على صاحبها" <sup>٣٥</sup> وتحتل نظرية الفيض Flux أو Emanation مكانة هامة عند علماء وفقهاء الإسلام في مجادلاتهم حول معاني التصوف، وهي في مدلولها الفلسفي تعني قابلية الأشياء والظواهر للتحوّل، فمنذ أن أطلق هيرقليطس لأول مرة كلمته المشهورة " كل الأشياء تفيض" التقطها المادّيون الجدليّون ليستشفوا منها أن كل الظواهر هي وحدات وأضداد، إلى أن وصلت إلى هيجل، فاعتبر الفيض الحقيقة الأولى التي تشكل العنصر لكل تطوّر. أما فلاسفة التصوف الإسلامي فإنهم نظرا إلى احتضانهم واستيعابهم للفلسفة الأغرريقية، فقد تأثروا بنظرياتها، كما هو معروف، بمفهوم أن العالم يفيض عن الله كما يفيض النور عن الشمس أو الحرارة عن النار فيضا متدرجا، وأن أختزلوها روحانيا في كون الموجودات تنبثق عن الروح الأسمى أي الله، لأن الفيض مرادف للصدور. ولعل الغزالي في كتابه (مشكاة الأنوار) إستفاد فلسفيا من سورة النور في صياغة مفهومه التصوفي، فهو إذ يرفض فكرة الإتحاد والحلول بالمفهوم المسيحي، إلا أنه "أخذ بالفيض الذي تقوم عليه فكرة وحدة الوجود". وفي نفس كتابه إحياء علوم الدين،

٣٣ تراث الإسلام - ص ٣٢٤ - مرجع سابق

٣٤ الخوالد من آراء حجة الإسلام الغزالي - ص ٧٠ للدكتور صلاح الدين عبد اللطيف الناهي - دار

الجيل - بيروت - دار عمار - عمان ١٩٨٧

٣٥ ينظر تراث الإسلام - مرجع سابق - هامش المعرب ص ٣١٧

فالعزالي " فرّق بين الوحي الذي يلقي على قلوب الأنبياء فقط وبين الإلهام والنفث في الرّوع الذي يُلقى على قلوب غيرهم"، ورأى خاصّة في اعماله (أحياء علوم الدين) و(المنقذ من الضلال) أن القول بالحلول هو "ضرب من الغيبة عن الذات حتى لا يرى الصوفي سوى الحق، وانه كالعاشق حين يقول: أنا من أهوى ومن أهوى انا"، فقول الصّوفي أنا هو وما إلى ذلك من العبارات التي يستشّف منها ادعاء وحدة الوجود، معناه في نظر العزالي "أن من ينسلخ عن شهوات نفسه وهواها وهمّها، لا يبقى فيه متسع لغير الله ولا يكون له همّ سوى الله تعالى، فإذا لم يحل في القلب إلا جلال الله وجماله حتى صار مستغرقاً به، يصير كأنه هو، لا أنه هو تحقيقاً. وفرق بين قولنا كأنه هو وبين قولنا هو هو، وهذه مزلة قدم فإن من ليس له قدم راسخة في المعقولات ربما لا يتميّز له أحدهما عن الآخر، فينظر إلى كمال ذاته وقد تزيّن بما تلالاً فيه من حلية الحق، فيظن أنه هو، فيقول أنا الحق، وهو غلط غلط النصارى، حيث رأوا ذلك في ذات عيسى عليه السلام المقصد الأسنى"<sup>٣٦</sup>. وقد سبق العزالي بهذا التعريف الفلاسفة الأوربيين اللاحقين بقرون فالحلول عندهم أن الله والطبيعة حقيقة واحدة، وهو تعبير شعري أكثر منه نتيجة لبرهان فلسفي، أما سبينوزا فاعتقاده في مبدأ الجوهر في الكون جعله يقول إن الله هو الجوهر الوحيد وهو ذو صفات لامتناهية. لكن هذا الجوهر الواحد هو الطبيعة، ومن ثم فإن الله والطبيعة حقيقة واضحة، حسب رأيه.

وقد أصبح العزالي علماً صوفياً انشأ له مدرسة (خانقاه) إعتكف فيها زُهداً في الحكم ومتاع الدنيا، وأخذ يعلم فيها أتباعه ومريديه، واتضح للدارسين والمؤرخين، مسلمين ومستشرقين، دفاعه عن أقطاب الصوفية الذين اتهموا بالزندقة مثل الحلاج، كما أن كلا من (جولدتزيهر) والمستشرق الأسباني المعروف (أزين بلاسيوس) أفاضاً في تأثير العزالي في محي الدين ابن عربي، وهو الفيلسوف الصّوفي الكبير الذي لازالت المحافل الفكرية العالمية تحقّي بفكره الخلاق، إضافة إلى شهرته في موضوعات التأويل وتفسير القرآن<sup>٣٧</sup> كما أن ابن عربي ذكر بنفسه في كتابه (القواصم والعواصم) كيف سعى إلى لقاء العزالي للإستزادة من معارفه، حتى حصل

٣٦ (الحوالد) -مرجع سابق ص ٧٠ نقلاً عن محاضرة لمحمود قاسم في احتفالية الذكرى المئوية التاسعة للعزالي.

٣٧ في هذا الصدد استشهد جولدتزيهر باعتماد ابن عربي على العزالي في مسائل الظاهر والباطن (والراسخون في العلم) وغيرها، انظر (مذاهب التفسير الإسلامي) من ص ٢٦٧ - ٢٣٨ مرجع سابق.

منه على مواظب مكتوبة بخط يده تكون له مرشداً<sup>٣٨</sup> أما الموسوعة البريطانية فقد قالت عن الغزالي "إنه استطاع أن يجعل من العلوم الدينية الإسلامية (اللاهوت) تأملاً باطنياً، وبفضله إحتلّ (الكشف) في هذه العلوم مكانه بجانب (النقل) و(العقل) كمصدر ومبدأ أساسي للعقيدة"<sup>٣٩</sup>. وكان نقد الغزالي للفلاسفة في كتابه (تهافت الفلاسفة) الشهير، والذي ردّ عليه ابن رشد بعد عدة عقود بكتابه (تهافت التهافت)، قد قام عند الدارسين دليلاً ساطعاً على تمكن الغزالي من علوم الفلسفة وقدرته على إعادة إنتاج فلسفة إسلامية الأصول والهوية رغم سلفيتها التي قد لا تروق للكثيرين. فبعد أن كانت المدرسة السلفية التي افتتحها الإمام أحمد بن حنبل ٧٨٠ - ٨٥٥ تدافع عن العقيدة في مواجهة المعتزلة وعلماء الكلام، مستندة على (النصوص)، إنطلق الغزالي مهاجماً من موقف الفلسفة. ويكفي هنا إيراد ما وصفته به الموسوعة البريطانية مرة أخرى ص ١٩١ إذ قالت عنه: "لقد هاجم الفلاسفة على أساس معتقدتهم وجدليتهم، وحاول - ولم يخنه النجاح في ذلك - أن يهزمهم بنفس أسلحتهم في كتابه تهافت الفلاسفة. لقد أقام الدين والوحي النبوي على محض أساسهما، ومن نقطة تساميهما، دون أن يرفض كلية المقاربة الفلسفية؛ وبذلك قوبلت أجوبته على التوتّر الداخلي للحياة الإسلامية، بشكل أكثر ملاءمة لحقيقة روح الإسلام من محاولة ابن رشد لتفسير الفلسفة والدين تقليداً للديانة النفسية الإغريقية. ولذا لم ينجو الغزالي من هجمات المعسكر المحافظ في السلفية. وفي صدد تصوفه ينبغي الإستشهاد بما ذكره المؤرخ العلامة الذهبي في كتابه (سير أعلام النبلاء) -نقلاً عن القاضي عياض - من أن "الشيخ أبو حامد ذا الأنباء الشنيعة والتصانيف العظيمة غلا في طريقة التصوف وتجرّد لنصرة مذهبهم وصار داعية في ذلك وألف فيها توالييف مشهورة، أخذ فيه عليها مواضع وساءت به ظنون أمة، والله أعلم بسره. ونقد أمر السلطان عندنا بالمغرب وقتوى الفقهاء بإحراقها والبعد عنها فامتثل ذلك". أما محمد بن الوليد الطرطوشي فقد نقل عنه الذهبي قوله "فقد رأيت وكلمته -أي الغزالي - فرأيت جليلاً من أهل العلم واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس العلوم طول عمره، وكان على ذلك معظم زمانه. ثم بدا له عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال، ثم تصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان، ثم شابها

٣٨ أنظر نص الوثيقة في كتاب (الغزالي فقيهاً وفيلسوفاً ومتصوفاً) للدكتور حسين أمين، مطبعة الأرشاد في بغداد ١٩٦٣ ص ١٢٥. ونحن نشك في صحة هذه الرواية لسبب بين وهو أن ابن عربي وُلد عام ١١٦٥ م. أي بعد ٥٦ سنة من وفاة الغزالي التي حدثت عام ١١١١! وربما يكون ابن عربي التقى الغزالي مجازاً، لما عُرف عنه من القول بمقابلته لله سبحانه ولأنبياءه والرسل وعلى رأسهم النبي محمد (ﷺ) في منامه وأحلامه، حتى انه ادعى أن كتابه فصوص الحكم أملاه عليه النبي الكريم. الموسوعة البريطانية مرجع سابق ص ٥٢٣.

بأراء الفلاسفة ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين وقد كاد أن ينسلخ من الدين. فلما عمل (الإحياء) عمد يتكلم في علوم الأحوال ومرامز الصوفيّة، وكان غير أنيس بها ولا خبيراً بمعرفتها، فسقط على أم رأسه وشحن كتابه بالموضوعات "، كما نقل الذهبي عن العبدري المؤدّب قوله " رأيت بالأسكندرية سنة خمسمائة كأن الشمس طلعت من مغربها، فعبّر لي عابر بدعة تحدث فيهم فبعد أيام وصل الخبر بإحراق كتب الغزالي في المرية " <sup>٤٠</sup> وأكد ذلك من بين العلماء المحدثين الإمام محمد عبده حين تساءل في معرض تنديده بالجهل والتخلف الذي حلّ بالمسلمين قائلًا "هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك؟ لا، بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين، وخدمة السنّة والكتاب، فقد حملت كتب الإمام الغزالي إلى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت أسنة المتعالّمين من البربر بتفسيقه وتضليله، فجمعت تلك الكتب خصوصا نسخ (إحياء علوم الدين) ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت" <sup>٤١</sup> فحرق كتب الغزالي في المغرب والأندلس -أذن- سبق حرق كتب ابن رشد في الأندلس بأكثر من خمسة عقود! وربما أثار هجوم الغزالي على فرق الباطنيّة مثل القرامطة والإسماعيلية وإخوان الصفا في كتبه (الردّ على الباطنيّة) و(حجّة الحق) و(قواصم الباطنيّة) المأخذ ضدّه من العقلانيين وأهل التنوير المعاصر. وهنا ينبغي القول إن هجوم الغزالي هذا تضمّن تحليلات نقدية لفكر هذه الفرق التي كانت تسعى إلى اجتذاب المناصرين لثورتها بأساليبها المبتكرة المتمثلة في المراحل التسع المعروفة عند الدارسين للفرق الباطنية وخاصة ثورة القرامطة، وهي: التفريّس -الموانسة -التشكيك -التعليق -الربط -التدليس -التلبيس -الخلع والسليخ. وفي ضوء ذلك نعتقد أن مرامي الغزالي ربّما كانت سياسية في إطار منافحته لأعداء الخلافة ووحدة الأمة في عهد المستظهر، وتقشّي سيطرة الموالي وجندهم على السلطة، أكثر منها تسفيها للفكر الفلسفي العقلاني الذي بذرت هذه الفرق بذوره. إذ إن الغزالي التقي معها في كثير من الاستنتاجات الفلسفية. وقد فطن (جولدتزيهر) إلى هذا حين قال عنه "يبدو أن من أسباب خصومة الغزالي لإخوان الصفا كراهيته لتعميم المذهب العقلي الفلسفي بين الطبقات الشعبية، فهو في مرحلة التصوّف من مراحل حياته -وقد كانت المرحلة الأخيرة والفاصلة في تدرّج نموّه الديني- قد استولى عليه الإقتناع بأن ما يمكن أن يجلو وجه الحقائق النهائية ليس هو التعمق الفلسفي، وإنما هو الإستغراق الروحي

٤٠ أنظر الغزالي لحسين أمين -مرجع سابق ص ١٤٥ و ص ١٥٣

٤١ أنظر (الاسلام دين العلم والمدنية) ص ١٧١ للشيخ محمد عبده، تقديم د. عاطف العراقي دار سينا للنشر-القاهرة ١٩٨٧

الباطني والإلهام، ومن ثمّ لم يمكن أن يمضي مع إخوان الصفا، وإن أدّى طريقهما جميعاً إلى نفس النتائج<sup>٤٢</sup> بل إن الغزالي في موقفه الفلسفي هذا، انتقد من قبل فطاحل الفقه كابن السبّط الجوزي الذي عاب عليه أنه في كتابه (تهافت الفلاسفة) المذكور: "وافق الفلاسفة في مواضع ظننا منه أن ذلك حقّ، وحبّبت إليه إمعان النظر في رسائل إخوان الصفا، وهو داء عضال وجرب مرد وسمّ قتال ! "

ومما يستغرب له هنا أن مروّه في كتابه النزعات المادّية يتهم الغزالي بتهمة الإرهاب الفكري لغيره من العلماء وفلاسفة التصوّف، فوصف الغزالي في ص ٢٩٦ من كتابه كونه من بين رجال الدين المحافظين الرجعيين، إذ قام بدور "خطير مشهور" في "التحريض على أصحاب الفكر المتحرّر، وشنّ حملات الإرهاب الفكري والجسدي والغوغائي عليهم بمنتهى الفظاظة، كما فعلوا في قضيّة مصرع الحلاج ومصرع السهروردي وحرّق مؤلفات ابن رشد" وفي ص ٣٣٨ يقول إن الغزالي حمل: "لواء هذا الإرهاب ضد الفكر الفلسفي، بل ضد الفكر المتحرّر بوجه عام".

والآن وبعد أن أعطينا نبذة عن مواقف الغزالي وأفكاره الفلسفية وشهادات الفقهاء، والإعتراف بتأثيره من المصادر التاريخية الأوربيّة -وهي بالقطع لن تكون محايية له - يبدو لنا أن هذه التهم التي ساقها مروّه ضدّه هي من قبيل التحامل. وإلا كيف يحمله جريرة مصرع الحلاج الذي حدث قبل عصر الغزالي، ومصرع السهروردي وحرّق كتب ابن رشد وكلاهما حدث بعد عصر الغزالي بعقود من الدهر؟ أو لم يكن الغزالي أيضاً ضحية لنفس التهم كما بيّنا؟ بل إن مروّه نفسه حين توغل في التحليل كاد أن يتراجع عن اتهاماته؛ فنراه في ص ٥١٨ يقول: "لكن هناك احتمالاً آخر لعله أقرب إلى موقف الغزالي، وهو أنه كان يشنّ على الفلسفة والفلاسفة لتحريض السلطة عليها وعليهم، في حين هو يبطن أفكاراً ونظريّات فلسفيّة من نوع الأفكار والنظريّات التي يُظهر التشنيع عليها"، واستشهد في هذا المقام بقول الغزالي في كتابه (القسطاس المستقيم) "إن الناس ما داموا مختلفين في استعدادهم ومداركهم، فليس يناسبهم غذاء فكري واحد فإن الحكمة أن غذي بها أهل الموعظة اضرتّ بهم كما تضرّت بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير، وإن المجادلة (يقصد النقاش غير العلمي) إن استعملت مع أهل الحكمة (الفلاسفة) اشمازوا منها كما يشمنزّ الرجل القوي من الإرتضاع بلبن الأدمي".

أما ابن أبي الدنيا المتوفى عام ٨٤٩ م وأبو طالب المكي<sup>٤٣</sup> فقد اعتبرا التصوف تقرّبا من الله، لأنّ عبادته والتوجّه الدائم اليه يتفقان مع فريضة الصلاة التي لا تُشرك به احدا .

وكان مذهب وحدة الوجود **pantheisme** الذي قال به المتصوّفة المسلمون محور فلسفتهم الرئيسي، وهو عند بعضهم إتحاد الإنسان بالله ، أي "أن يبلغ الإتصال بالله حدّا يتلاشى فيه الإزدواج بين المُحبّ والمحبوب، إذ يصبحان شيئا واحدا في الجّوهر والعمل. وحينما يتحقّق الإتحاد تختفي الإشارة إلى كل من الصوفي والله "، وعند البعض الآخر تعني وحدة الوجود الحلول أي حلول الله في الإنسان، وفريق ثالث يعتبرها وحدة وجود بين الله والعالم. والخلاصة أن الجميع يشتركون في مرتبة (الفناء) في الله ، التي ترتقي عندهم الى مرتبة (البقاء) أي إستمرارية الفناء. وكان أبرز من اعتنقه الصوفي الكبير ابن عربي<sup>٤٤</sup> الذي قال: "إن الأشياء وُجدت قبل أن تُخلق كأفكار تجول في ضمير المبدع الخلاق أينما تصدر وحيثما توجد". وكلّ من يتأمّل هذه العبارة يجد ظلّالا من أفكار المثاليّة الموضوعيّة، كما عبّرت عنها الديالكتيكية الماديّة بقولها إن الموضوع يوجد خارج الإنسان ومستقلا عن وعيه. وقد أشار مروّه الى ما ذكره Engels عن العلاقة "التي تربط اللاهوت المسيحي بالأشكال الأخرى للأيدولوجية مثل الفلسفة والسياسة وعلم الحقوق؛ مستخلصا أن كل حركة إجتماعيّة وسياسيّة قد تتخذ شكلا دينيّا، وهي لكي تُحدث أثرها في الجماهير المحشودة بالغذاء الديني وحده، مضطّرة أن تقدّم لهذه الجماهير مصالحها الخاصة بها في لباس ديني<sup>٤٥</sup>. ورغم أن ابن عربي كان محسوبا على مذهب الظاهريّة لإبن حزم، إلا أنه عارض التقليد بمعنى سيطرة السلطة في القضايا النظرية، أي أنه في موضوعات الاعتقاد ذهب مذهب الباطنيّة. ويفهم من مذهب ابن

٤٣ هو محمد بن علي بن عطية الواعظ المشهور بالحارثي المتوفى عام ٩٩٦ م. وله كتاب (قوت القلوب في معاملة المحبوب)

٤٤ هو محمد بن علي أبوبكر بن العربي الحاتمي الطائفي (أي أنه ينحدر من حاتم الطائفي) الملقب بمحي الدين إمام المتصوّفة في الأندلس، وكان يُلقب فيها بإسم (ابن سُراقه). أذ ولد في مرسية عام ١١٦٥ م ورحل الى المشرق. وفي عام ١٢٠١ حين وصوله الى مكة، تعرّف على سيّدة متعلّمة من أهل المدينة . وعقب عودته عام ١٢٠٥ كتب إضمامة من قصائد الحب - إحتفاء بالتعرّف عليها، ثم هيامه بها كما يبدو، ولكنه في السنة التالية حول هذه القصائد الى صيغة صوفيّة (ترجمها نيكلسون الى الإنكليزيّة) . وقد برع في الفقه والتصوّف وبلغ مرتبة الإجتهد، فنصف بجزارة في علوم الحديث والتفسير والتاريخ حتى ان المستشرق بروكلمان ذكر بأن مؤلفاته بلغت أكثر من مائتي كتاب أهمها (الفتوحات المكيّة) و(الفصوص) و(ترجمان الأشواق) . وقد توفي بالقرب من فاس عام ١٢٤٠ م.

٤٥ أنظر النزعات المادية - مرجع سابق ص ٢٩٥

عربي أن ليس هناك خلق من العدم *ex nihilo*، والأرض ليست إلا المظهر الخارجي لما كان يستقرّ الله عليه في مظهره الباطني. وفي الوقت الذي تكشف كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة عن جزء من هيولى الحقيقة، فإن الإنسان هو العالم الصغير *microcosmo* تتحد في ذاته جميع صفات الله. وفي الإنسان نفسه يستقرّ الله بوجوده الشخصي. هذه العقيدة التي انصهرت فيها عناصر مستمدة من المذاهب الغنوصية والإفلاطونية الحديثة والمسيحية وغيرها، احتلت الصدارة -إذن - في نظرية ابن عربي: "إنها بصورة أساسية عقيدة الكلمة *logos*<sup>٤٦</sup> تجسدت الألهية وظهرت الى حيّز الوجود في الفكرة الصحيحة للإنسانية، حيث كان آدم أول تجسيد لها، والإنسان الكامل باعتباره صورة الله والنموذج الأصدق للطبيعة، هو وسيط بين العناية الألهية ومبدأ الكون الذي وجد بمؤداه العالم، وثبتت أسسه في الوقت نفسه. والإنسان الكامل هنا هو محمد (ﷺ) لا غير. وإن عقيدته التي سبقت وجوده استقرت في الفقه الإسلامي قبل مجيء ابن عربي فجوهه الروحي- وهو أول شيء خلقه الله - إنما يدرك بوصفه نورا سماويًا (نورا محمدياً) تجسد في آدم، وفي سلسلة من جمهرة الأنبياء بعد آدم يتقمصهم من جيل الى جيل حتى ختم ظهورهم بمحمد (ﷺ). ولكن الشيعة ترى أن هذا الجوهر الروحي انتقل من النبي إلى علي، ثم إلى كل إمام في بيته من بعده. أما المتصوفة فيعتقدون أن هذا (الجوهر) واجب الوجود عند الأولياء. ويصف ابن عربي شخص النبي محمد (ﷺ) في طبيعته الحقيقية بكونه حقيقة الحقائق"<sup>٤٧</sup> ولاشك أن الدارسين الأوربيين يستحضرون هنا قول ابن عربي في كتابه (الأكبرية): "إن الحضرة الإنسانية المحمدية مجلى الذات الأحدية التي هي عالم اللاهوت مشتق من قولك لاه إذا تحير في وصف الإله تعالى، والثانية لبيان المبالغة ناسوت الوصال، لأنه صلى الله عليه وسلم هيولى كل حقيقة كونية، وصورة إنسانية. ولولا هو، ما ثبت عالم الإمكان في مجلى العيان، فهو ظلّ الله الممدود وسره الذي وصل به كل موجود". وبعد أن شرح الناسوت بانه الجسم الطبيعي المركب من العناصر الأربعة مشتق من الناس، لأن الناس أشرف عالم الأجسام، ذكر أنه (ﷺ): "مستجمع صفات، فهو سرّ الإنسان الكبير وهيولى الإنسان الصغير. وفي الحديث خلق الله آدم على صورته لأنه سرّ الصفات، وكلمات الله التامات. ثم يستشهد بقول الشيخ الجيلي: "سيدنا محمد بداية الأزل وغاية الأبد الأزل، لأنه فيه جمعت الأسماء

٤٦ هي كلمة أغريقية الأصل تعني القول أو العقل واستعملت في الإفلاطونية الحديثة على انها مبدأ الكون الذي يمنح النظام والغاية والجلاء للعالم. وفي عقيدة التثليث المسيحية باعتبارها كلمة الله. كما أن هيجل اعتبر اللوجوس مفهوماً مطلقاً.

٤٧ نيكلسون في (تراث الإسلام) ص 330-328 مرجع سابق، و(موسوعة الإسلام المختصرة) ص ١٤٦ و الموسوعة الألمانية ص ٣٦٩

الحُسنى والتَّسب السبع المشار إليها بقوله عزَّ وجلَّ : ولقد أتيناك سبعا من المثاني".  
بيد أن نيكلسون يستطرد في شرحه لمعاني الحبِّ القدسي للنبي والأولياء ويصفها  
بأنها "شكل من أشكال الإعتقاد بأن الله يكشف عن نفسه، وأن الصوفي الحقيقي يجد  
الله في كلِّ مكان. وهنا يستشهد بأبيات لأبن عربي وهي:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أتى توجَّهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني "

أو قوله في (فصوص الحكم): "إذا ما فهم المؤمن معني قول: لون الماء هو لون  
الوعاء، فقد اعترف بصلاحيَّة كلِّ المعتقدات، وأنه سيتعرَّف على الله في كلِّ شكل  
وكلِّ موضوع عقيدة"

وقد عُرف عن ابن عربي في نصوصه الغزيرة تربيده لهذا التسامح بين الأديان  
التوحيدية الثلاثة ونسج على منواله الصوفي الشهير عمر بن الفارض<sup>٤٨</sup>. الذي قال  
في (تائيته الكبرى):

وإن نار بالتنزيل محراب مسجد	فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
وأسفار توراة الكليم لقومه	يناجي بها الأحبار في كلِّ ليلة
وإن خرَّ للإحجار في البدء عاكف	فلا وجه للإنكار بالعصية

وحسين مروّة، في تحليله النقدي المسهب لتيّارات الصوفية ونظرياتهم المختلفة،  
نجده يسجّل لابن عربي تطويره لمبدأ الغنوصية الصوفية التي وقعت في أزمة

٤٨ كان أبوه من أهل حماة في سوريا وأقام بالقاهرة، وقد لقب بالفارض لأنه كان يثبت الفروض للنساء  
على الرجال بين أيدي الحكام. وأنجب ابنه عمرا بالقاهرة في ١٢ مارس ١١٨٢ والذي توفي في  
القاهرة عام ١٢٣٥. وبعد دراسة عمر بن الفارض للحديث والفقهاء اعتنق التصوف واعتكف في  
حديقة غناء بسفوح (المقطم)، وأصدر (ديوانه) الذي لقي احتفاء كبيرا عربيا وعالميا، وقد ترجمه  
وأصدره المستشرق (فون هامان) بغيينا عام ١٨٥٤، ثم تناوله بقية المستشرقين بالبحث والدراسة  
وخاصة قصيدته المشهورة (نظم السلوك) أو التائيّة الكبرى ومطلعها: (سقتني حُميا الحب راحة مقلتي  
وكأسي محيا من عن الحسن جلت) كما اشتهر بقصيدة (الخمريّة) أو الميمية.

تناقض، لأنها إذ أمنت (بالفناء والإتحاد والحلول) سعيا إلى إزالة الوساطة مع الذات الإلهية، إلا أنها في الوقت نفسه نادت بتنزيه هذه الذات. والتنزيه إذن لا يتفق بل هو مضاد للاتحاد، وجاء ابن عربي وكان: " جوهر محاولته يقوم على الفصل بين ذات الله من جهة، وأسمانه وصفاته من جهة ثانية ... فهذه الذات عنده متعالية تعاليا مطلقا لا صلة لها بالكون، وإنما تنحصر الصلة فيما بين الأسماء والصفات وبين العالم. والتجليات الإلهية في الوجود هي تجليات الأسماء والصفات، دون الذات. ومهما يكن، فإن بناء وحدة الوجود بالصورة التي نراها في (فصوص الحكم) لم يعالج التناقض الأساسي الذي يعانيه مفهوم (التوحيد) الصوفي كما لم يعالج - في نطاق تفكيره - تحديد العلاقة بين الذات من جهة والأسماء والصفات من جهة ثانية<sup>٤٩</sup>. وإجمالا فإن مروّة ركز علي استخدام المنهج العلمي الديالكتيكي والمادي الجدلي في تحليلاته لظاهرة التصوّف كما رأينا. وبالنسبة للفلسفة الإشراقية للتصوّف، فإنه توصل إلى الاستنتاجات التالية:

- إن هذه الظاهرة كانت مشتركة، وُجدت عند كثير من المذاهب والفرق: أولا عند الإسماعيلية ثم تكاملت في مذهب السهروردي<sup>٥٠</sup> وقد تبنى من الإفلاطونية جانبها الصوفي، ورفض مقالات ابن سينا والفارابي، فبالنسبة له الإشراقيون هم الفلاسفة الحقيقيون، كما أنه انتقد ابن عربي - وكان معاصرا له - في تجلياته التي تقول بلقائه مع الله سبحانه، وهو ما أورده جولدنزهر<sup>٥١</sup>، وتطوّرت هذه الظاهرة عبر القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد، إلى بروز عقيدة تعدد الوسائط الفلكية الروحانية في علاقة الإنسان مع الله، وإفاضة الأنوار الإلهية على شخصيات بشرية ترتفع بهذه الأنوار إلى مقامات الإمامة أو النبوة، بل إنهم غرقوا في الشطحات والعته حتى قالوا بالألوهية!
- لم تنشأ الظاهرة بفعل ديناميكية ذاتية أو نتيجة تسرب النزعات الإشراقية من فارس والهند واليونان والمدرسة الاسكندرانية، أي بمعزل عن حركة الواقع الاجتماعي العربي الإسلامي. وأبرز دليل على ذلك رفض حركة التصوّف الإسلامي للنظرية الرسمية القائمة على ربط علاقة الإنسان مع الله بواسطة الشريعة، وبالتالي مركزية الحكم وسطوته؛ لتحل محلها العلاقة المباشرة مع الله، دون وساطة، تحقيقا مجازيا للإنفصال بين السلطة المستبدّة والرعية المغلوبة على أمرها.

٤٩ مروّة - مرجع سابق ص ٢٨٣

٥٠ هو شهاب الدين عمر السهروردي ولد عام ١١٥٥ م. وقتل عام ١١٩١ م. ولذلك سمّي بالمقتول، أشهر فيلسوف في الإشراقية الصوفية التي تقول بتجوهر النفس وانبثاق النور القدسي من خلال إشراق العقل.

٥١ مرجع سابق ص- ٢٤٠

ومع تعدد السلطات والأمراء والقواد العسكريين، وازدياد أصحاب الإقطاعات المستقلة؛ تفككت المركزية وتعددت الوسائط بينها وبين المجتمع، كما احتدم التنافر الدّموي بين الدويلات وذوي السطوة في الأقاليم المختلفة. وانعكاسا لذلك برزت في الفكر الصوفي نزعات ثورية. وإضافة إلى رفضها للاهوت الرّسمي فإنها جعلته يتحوّل من رفض (الوسائط)، الى تعدد هذه الوسائط بظهور الفكر الإشراقي في التصوّف " فقد بنى هذا الفكر عالما حاشدا بالوسائط الإشرافية بين الانسان و(نور الأنوار). وهو عالم زاخر بالحياة والحركة يصل الأرض بالسماء والسماء بالأرض بواسطة سلم صاعد وهابط من المراتب والدرجات، تتداخل بينها العقول (الفلكية) والنفوس البشرية، بحيث تتأسن عوالم السماء، وتتأله عوالم الأرض" <sup>٥٢</sup> و: "إن وحدات السلسلة الإشرافية المتعددة كوسائط بين الأرض والسماء هي الصورة الفكرية الطوبوية للعالم كما كان يحلم بها المفكرون الثوريون بالنسبة لذلك العصر، وهي الصورة الأكثر نورانية التي تتحدّى السلطات الأكثر ظلمانية. وبناء على ذلك يكون النور والظلام في الفلسفة الإشرافية يمثلان صورة تجريدية لعالمين متقابلين: أحدهما عالم الإشراق الروحاني أو عالم الحلم الطوبوي، والآخر عالم الواقع الاجتماعي الملموس، عالم القهر والجور، فهما - أي النور والظلام - إذن في حقيقة الأمر رمزان: رمز للسعادة في العالم الإشراقي، ورمز للشقاء في عالم الأرض. هذا هو معنى الرّفص والتحدّي بشكله الجديد في الفكر الصوفي الإشراقي. وهذا هو منطلق الواقع الحقيقي القائم وراء مأساة السهروردي وقتله بعد محاكمة فقهية صورية دراماتيكية، أخفى بها السلطان الحاكم وجهه بقناع الفقهاء المأمورين لا الأمرين! " <sup>٥٣</sup> وتجدر الإشارة إلى أنه جاء في الموسوعة الفلسفية الماركسية حول التصوّف المسيحي - <sup>٥٤</sup> "كان التصوّف يضع سلطة الكنيسة ومعتقداتها تحت شهادة أساسيس الإنسان ووعيه الذاتي. وكان التصوّف في الحياة الروحية للمجتمع الإقطاعي شكلا من أشكال معارضة الدين الرّسمي والجبري: فالموقف الشخصي للمؤمن إزاء الله تحوّل الى تحدّ بل إلى صراع ضد الأيديولوجية الإقطاعية والنظام الاجتماعي الإقطاعي". ويقتبس مروة هذا المعنى حين وصم في تحليله حركة الرّفص والتحدّي هذه، بانها ثورية وُلدت مَيّنة .. لأنها كما قال "بقيت منغلقة على عالمها في أبراج المستحيل، مع قصورها وعجزها عن التحوّل إلى ثورية فعلية فاعلة، سواء تحدّدت فيها علاقة الإنسان مع الله بطريق الكشف المباشر دون وساطة، أو بطريق الإشرافات متعدّدة الوسائط ". ثمّ خلص إلى أن هذا الفكر حمل رغم ذلك

٥٢ مروة مرجع سابق ص ٢٦٥

٥٣ نفس المرجع ص ٢٦٦

٥٤ مرجع سابق ص ٣٤٦

"وحدّه في تاريخ الصراع الإجتماعي في المجتمع العربي الإسلامي، علامة الإنتفاض والتمرد على الأيديولوجية الرسمية اللاهوتية التي لم يستطع الفكر الفلسفي العقلاني ان ينتفض عليها ويتمرد، إلا جزئياً وبطريقة ملتوية شديدة الحذر، لأنه بقي مشدوداً الى اللاهوتية بعدد من الخيوط الظاهرة والخفية. غير أن ذلك لم يدفع عنه ولا مرة، أذى الإرهاب والإضطهاد من حماة اللاهوتية هذه"<sup>٥٥</sup>

أما الماركسيون فيعرفون التصوّف الإشراقي بمذهبه الذي يقول: "إن النفس الإنسانية تتغير حضورها وغيابها على الارض مرّات عديدة، إلى أن تكفر عن الخطيئة وتتحد بالله".<sup>٥٦</sup>

يضاف إلى ذلك أن التصوّف أتاح منذ بداية مراحل الأولى، أجواء من التخيل والفانتازيا امتزجت فيها الروحانيات بالمحسوسات، بعضها من قبيل الطلاسم الضبابية المموجة، لأن حالات الوجد الصوفية تتطلق في غيبوبة لاتعرف حدوداً من الشريعة أو القانون، مثل القول المنسوب لأبي يزيد البسطامي المتوفى عام ٨٧٤ "أنا شارب النبيذ وأنا النبيذ وحامل الكأس ! ! أو قوله "لقد ذهب من الله إلى الله، إلى ان انبعث البكاء مني وفيّ .. ألا أيها الأنت أنا!". ومن قبيل هذا الهوس تصورات عبد الكريم الجيلي التي أوردتها في كتابه "الإنسان الكامل". ومن ضمن ما قاله : "من خاصية هذا البحر المعين الذي خلقه الله في مجمع البحرين، أن من شرب منه لا يموت ومن سبغ فيه أكل من كبد البهيموت، والبهيموت حوت في البحر المالح هذا المذكور أولاً، جعله الله الحامل للدنيا وما فيها. فإن الله تعالى لما بسط الأرض جعلها على قرني ثور يسمى البرهوت وجعل الثور على ظهر حوت في هذا البحر" !؟ إلى غير ذلك من الهلوسات<sup>٥٧</sup>. بيد أن هذا قاد إلى نظم الشعر الحافل بالحكمة والذائقة الجمالية في آن. وكان أغلب من أفاض في هذا النوع شعراً وقصائد مجتحة هم الصوفيون الفرس، وأولهم أبوسعيد أبو الخير ( ٩٦٧ - ١٠٤٩م) في "رباعياته التي تعتبر عن العلاقة بين الله والنفس عن طريق استعارات متوهجة رائعة للحب الدنيوي والجمالية والثمالة العاطفية. وانطلاقاً من ذلك فإن تبني الشعر الفارسي العظيم لهذه الرمزية، ونظرية التصوّف الفارسي برمتها تكمن في (الثنوية) التي صاغها جلال الدين

٥٥ نفس المرجع ص ٢٦٧

٥٦ الموسوعة الفلسفية - بأشرف روزنتال و يودين - ترجمة سمير كرم، دار الطليعة - بيروت ١٩٨٥ ص ١٢٨

٥٧ الباب ٦٢ في السبع السموات وما فوقها من كتابه (الإنسان الكامل)

الرومي" <sup>٥٨</sup>. ويمكن إجمال أفكاره الصوفيّة فيما يلي: إن الله هو الحقيقة الوحيدة أي (الحق) وهو يتسامى عن الأسماء والصفات، إنه ليس فقط الكائن المطلق، بل هو الخير المطلق وبذلك فهو الجمال المطلق. ومن طبيعة الجمال أنه يرغب في التجلي، ومظهر الكون هو نتاج لهذه الرغبة وذلك وفقا لما نُسب مجازا إلى الله تعالى من قوله: كنت كنزا مخفيا لم أعرف؛ فخلقت الخلق لكي أعرف. وبما أن الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بأضدادها، فالكينونة لا يمكن التعرف عليها إلا بالعدم. وكما في المرآة فالكينونة تتعكس فيها. وهذا الأنعكاس هو الكون الظاهري المدرك، وهو طبقا لذلك ليس له وجود متحقق أكثر من ظلّ مقذوف من الشمس. فالتصوّف الإلهي كما يبدو في الشعر الفارسي والشعر التركي، يميل إلى إبعاء الفارق بين الخير والشرّ، فهذا الأخير ليس إلا وجهها للعدم، أي ليس له وجود حقيقي. وهذا يقود بالتالي إلى تأليه الذات، كالكاهن الإغريقي القديم الذي يصل به الحال إلى قول ما قاله الحلاج: "أنا الحق" <sup>٥٩</sup>

بعد إنتهاء عهد الخلفاء الراشدين أصبح الحكم فرديا مطلقا في عهد الأمويين، وملكية مطلقة على النمط الفارسي في عهد العباسيين. ثم شهدت الإمبراطورية الإسلامية، خاصة في أواخر العهد العباسي وبداية القرن العاشر الميلادي، مرحلة التفتت والانحلال نتيجة تأمر الموالي، وخاصة الأتراك، وتناحروهم على الحكم، ممّا أدى إلى حدوث الفوضى في رأس القيادة. ونجم عن ذلك أن لم يعد الخليفة وغيره من الأمراء والولاة مرشدين وأئمة في الفقه يفتون في مسائل الدين، وحكاما زمنيين مطاعين طاعة مطلقة. وكان إنشغالهم بشئون السلطة الزمنية، لاسيما عقب تعدد الفتوحات واتساع رقعة الإمبراطورية، جعلهم يولكون أمور الإفتاء ومسائل الفقه والاجتهاد وإرشاد الرعية في الامور الدينية الخاصة إلى الفقهاء والأئمة والقضاة الذين كانوا يعينونهم في تلك الإمبراطورية واسعة الأرجاء. وممّا يؤكد هذا التوجّه الذي أصبح قاعدة دستورية عامة متوارثة حتى يومنا هذا؛ أن مناصب المفتي

٥٨ ويلقب بمولانا جلال الدين ولد ببلخ عام ١٢٧٣ - وتوفي في قونية عام ١٢١٠. وتزعم عائلته أنه من نسل الخليفة الراشد أبي بكر الصديق. وقد لجأ به والده إلى قونية هربا من اضطهاد أمير خوارزم، وهناك أقام في بلاط الأمير السلجوقي علاء الدين الذي حلّ محله عندما مات. ثم تنلمذ على الصوفي الكبير الشيخ شمس الدين تبريزي، ثم طاف بعدة مدن إسلامية. وفي دمشق التقى بابن عربي، ثم عاد إلى قونية، واعتكف للتصوّف حيث ألف الفرقة (المولوية) ولذلك سُمّي مولانا، وصار خلفاؤه يتقلدون رئاسة الطريقة باسم (شلبي). وقد نظم جلال الدين الشعر والذكر الصوفي الذي يؤدي على إيقاع الناي وبالأنشيد. وهو ما تبنته بعد ذلك فرق الدراويش. وأشهر دواوينه (مثنوي معنوي)، وهي قصيدة طويلة تقع في ستة كتب؛ ثلاثة منها عربية بها ٢٥٧٠٠ بيتا من بحر الرمل والقافية المزدوجة المثنوي، ولكن في قالب غير حدسي وغير علمي.

٥٩ الموسوعة البريطانية ص ٥٢٣

والقاضي الشرعي ومسئول الأوقاف ورؤساء الهيئات الدينية تصدر قرارات التعيين فيها من الحكام، بخلاف الكهنوتية أو الأكليريكية المسيحية. وفي هذا يقول الإمام محمد عبده في رده على (هانوتو): "قررت الشريعة الإسلامية حقوقاً للحاكم الأعلى وهو الخليفة أو السلطان، ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية، وإنما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية، وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم إلا التولية والعزل، ولا لهم عليه إلا تنفيذ الأحكام بعد الحكم، ورفع المظالم إن أمكن"<sup>٦٠</sup> وهذا أكسب هؤلاء الأئمة والفقهاء وعلماء الدين نفوذاً مستمداً من السلطة الرسمية التي عيّنهم، مما استغلّه بعضهم في تقوية ونشر تأثيره الروحي؛ فأنهمك في تشكيل تجمعات وفرق ومدارس اعتملت وتفاعلت فيها تيارات فكرية، وميول حزبية بمرور الزمن. وقد تبدت في أوج تطورها في فرق دينية وتنظيمات الطرق الصوفية أو (الإخوانيات) الدينية، وكما هو معروف فقد تعددت أشكال هذه الطرق وتباينت مظاهرها، وانقسمت إلى مجموعتين:

أحدهما اتسمت بالشعوذة والشطحات الدينية، وهي التي وصفها مروّة في كتابه بالطرق والمشیخات التي قامت على أساس الشكليات البهلوانية وحدها، وبذا "أفرغت الحركة نهائياً من مضمونها الأيديولوجي، بل إنقلبت إلى حركة رجعية طفيلية لعبت دوراً خطيراً في عملية التخدير الاجتماعي وفي خدمة أيديولوجية الطبقة الرجعية"<sup>٦١</sup>. ومن هنا انتشرت الإخوانيات الصوفية، التي تعيش في أديرة وحلقات تحت إمرة شيخ، بشكل واسع قبل العام ١١٠٠، وتولد عنها ما يُعرف بطرق الدراويش، وأغلبها إنغمس في مزاولة الشعوذة والتخدير عن طريق الموسيقى والرقص وغير ذلك من عقاير التنويم والجدب".

وإذا كان هذا الوصف ينطبق على المجموعة الرجعية من الطرق التي أشرنا إليها، فلا ينبغي تعميمه على جميع الطرق. لأن هناك طرقاً وإخوانيات أخرى تبنت حركات الإصلاح والتجديد الدينيين، وطوّرت مفاهيم التصوّف حتى اغتنى بمضامين جديدة جعلها تزاوّل النشاط الاجتماعي والسياسي الذي أفضى بها بالضرورة إلى ممارسة الصّراع من أجل الحكم ..

وهكذا ولج التصوّف المرحلة الثالثة، وهو ما يمكن تسميته بالتصوّف السلفي. والسلفية هنا هي مجمل الأفكار والتيارات الفقهية والفلسفية وما نشأ عنها من مدارس

٦٠ الإسلام دين العلم والمدنية (ص ١٠٩) للشيخ محمد عبده، تقديم د. عاطف العراقي - دار سيناء للنشر، القاهرة، (١٩٨٧).

٦١ مروّة - مرجع سابق - ص ٣١٥

وحركات كانت إفرارا للعصر العباسي منذ بداية خلافة المتوكل ٨٤٧ - ٨٦١ م التي سيطر خلالها الترك المماليك على مقاليد الأمور والحياة العامة. وفي ذلك العصر الذي احتدم فيه الصراع الفكري بين العقلانيين المعتزلة وبين فقهاء النصوص من مدرسة ابن حنبل إمام السلفية الأول، برزت الحركات الإصلاحية التي انبثقت جميعها من مذاهب تلك المدرسة العديدة، وانتظمت في طرق وأخوانيات ذات أهداف إجتماعية ومطامح في الحكم لا شك فيها. وقد تشابكت وتزامن بعضها مع الفرق الباطنية العديدة، خاصة تلك التي انبثقت من الشيعة الإسماعيلية بفروعها العديدة. فكان التأثير والتأثير متبادلين. وحسب قول ابن خلدون: "كان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الداننين أيضا بالحلول وإلهية الأئمة مذهبا لم يُعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب، ومعناه رأس العارفين، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان". وابن خلدون هنا يحصر التشابه بين الفريقين؛ الصوفيين والشيعة -الذين يسميهم الرافضة - في الولاء للقطب أو النقيب، ثم يذكر كلام ابن سينا في هذا المفهوم لينقده، حين الإستشهاد بعلي بن طالب رضي الله عنه، مشيرا إلى أنه ليس هو فقط من كان زاهدا متقشفا، بل كان الخليفتان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وبقية الخلفاء أشهر في التقشف إقتداء بالرسول الكريم<sup>٦٢</sup>.

٦٢ مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٢ دار إحياء التراث القومي بيروت د. ت

## الفصل الثاني

### عقيدة السنوسية كطريقة صوفية



## مباحث الفصل الثاني

### عقيدة السنوسية كطريقة صوفية

- سيرة المؤسس وأهدافه السياسية
- المحتوى الفكري والفقه للعقيدة السنوسية
- السنوسية ومفاهيم الاجتهاد



## الفصل الثاني

### عقيدة السنوسية كطريقة صوفية

كانت طرق التصوف منتشرة في جميع انحاء العالم الاسلامي؛ من المغرب الى الصين ومن جزر القمر حتى سوماطره. وكلمة الطريقة عُني بها في القرنين التاسع والعاشر للميلاد النهج الباطني الذي يقود الفرد عملياً تلبية للنداء الصوفي، وبعد القرن الحادي عشر تطور المفهوم ليشمل جميع المذاهب والرياضة الروحية التي وُضعت لمختلف هذه المدارس في العالم الإسلامي. ومنذ نشأتها وانتشارها في القرنين التاسع والعاشر للميلاد، أخذت تتفاوت فيما بينها في القوة والسطوة ونطاق الانتشار، كما أن رسالتها ومحتوى دعوتها كانت متباينة. وإن انطلقت جميعها - خاصة في بلدان المذهب السني - في مظاهر متجانسة من الشعائر والطقوس التي مرّ ذكرها. وبعضها جنح إلى البدع مثل (الذكر) بضرب الدفوف والغناء والعزف على الآلات الموسيقية والقيام بحركات الشعوذة، بما في ذلك تجريح البدن طلباً للنشوة. وكان شيوخ هذه الطرق يكونونها بايثار العزلة والتشرف والهجرة والإفراط في الصيام، في حلقات خاصة سُميت (الرباط) في المشرق العربي و(الزاوية) في المغرب العربي و(الخانكة) في الفارسية و(التكيه) في التركية. أما شيوخها فكانوا يلقبون في العربية: بشيخ السجادة، المقدم، النقيب، الخليفة، وفي الفارسية بلقب (البير) وفي التركية (البايا). ويشكل الأتباع والمريدون او الدراويش كما يسمون بالفارسية، حلقات الإخوان. وحتى يتسنى لهم المناخ الملائم لتعبئة الجموع وتكثيل الأتباع، بعيداً عن مراقبة السلطة ودسائس الخصوم، دعا هؤلاء الشيوخ إلى الهجرة استلهاماً للآية

قَالَ تَمَّالٌ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ وَمَنْ مَّهَّجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ

بَيْتِهِ مَهَّجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ النساء: ١٠٠

وقدر عدد هذه الطرق التي تم التعرف عليها ب ١٨٢ طريقة ٧٠ منها كانت ذائعة الصيت؛ من بينها سبع يعود انشاؤها الى اكثر من الف سنة، ما برحت تتداخل وتتفرع وتتوالد من بعضها البعض عبر تلك القرون.

إلا أن الطريقة التي يمكن اعتبارها أم الطرق، كانت الصوفية الجنيديّة التي أشرنا إلى أن شيخها الجنيدي البغدادي الذي نشأ وتوفي في بغداد العام ٩١٠ م كان المعلم الأول الأكبر للتصوف. وقد بدأت في بغداد كمدرسة في الفقه وعلم الكلام، ثم تطوّرت إلى التصوف

المنظم على نطاق أممي في القرن الحادي عشر، فانبتت عنها طريقة خواجقان الفارسية، وقد انتشرت في تركستان، وشقيقتها الكبرى ثم القادرية الشهيرة التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ١١٦٦ م. والتي تفرعت عنها عدة طرق في مصر واليمن والمغرب والسودان والصومال والهند. أما في ليبيا فقد انبتت عنها السنوسية<sup>١</sup> وينقل المؤرخ الإيطالي فرانشيسكو ماريانو عن كتاب (الذهب الأبريز في أعمال سيدي عبد العزيز) لمؤلفه سيدي أحمد بن مبارك<sup>٢</sup> أن تفرع السنوسية عن القادرية، مثلها مثل الشاذلية، يرجع إلى تتلمذ مؤسس الطريقة أو الإخوانية الشيخ محمد بن علي السنوسي ويطلق عليه لقب السنوسي الكبير - وهو اللقب الذي سنستعمله في هذا الفصل - على يد سيدي أحمد بن إدريس الفاسي، الذي تتلمذ بدوره على يد الشيخ عبد العزيز بن دباغ مؤسس المدرسة القادرية في مدينة فاس عام ١٧١٣ م. وهناك رواية أخرى أوردها المؤرخان **DEPONET ET CAPPOLANI** تقول إن السنوسي الكبير تتلمذ على يد شيخ الطريقة الدراوية، التي اعتنقها الأمير عبد القادر الجزائري في ثورته وتصديه للغزو الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٥. وحسب الحشاشي فقد تتلمذ أيضا على الشيخ أحمد التيجاني. وبعد وفاة الشيخ أحمد بن إدريس بصوبية بالحجاز، انقسمت القادرية إلى طريقتين متنافستين بل متخاصمتين؛ هما الميرغنية نسبة إلى السيد عثمان الميرغني<sup>٣</sup>، والسنوسية نسبة إلى السيد محمد ابن علي السنوسي. وعاد كلاهما إلى مكة المكرمة بعد أن أتم دراسته. فكون الأول زاويته في دار الخيزران والثاني على قمة جبل أبي قبيس. ويذكر المؤرخ الفرنسي (دوفيريير)، الذي سنستشهد لاحقا بكتابه عن السنوسية، أن السنوسي الكبير "شيد بيته بجوار قبور الأنبياء آدم وحواء وشيت (عليهم السلام) على جبل أبي قبيس، وحوّله إلى زاوية يرأسها مقدّم وزودها بمكتبة تحتوي على ثمانية آلاف كتاب".

وخلاصة القول إن الطرق الصوفية وان بدأت بالطقوس والتعاويد الروحانية، إلا أن بعضها تطوّر خلال الحقب التاريخية إلى مؤسسات أو تنظيمات تهتم بالأمور الدنيوية

١ موسوعة -اسلام-المختصرة ، ص ٥٧٣ - مرجع سابق.

2 FRANCESCO MARIANO - LA QUESTIONE DI GIARABUB -P 20 ZANICHELLI(BOLOGNIA)1925

٣ ولد بالطائف عام ١٧٩٣ م. وتوفي به عام ١٨٧٣م. ويلقب بالختم اشارة الى انه خاتم الأولياء وتأتي مرتبته بعد الرسول، ومن هنا أشتق اسم الطريقة الختمية، كما تسمى الطريقة الميرغنية نسبة لجد المؤسس عبدالله الميرغني المحبوب. وتتركز الطريقة من حيث الأتباع والنفوذ الآن في السودان. وقد تبنت الختمية في بداياتها فكرة وحدة الوجود، كما أنها إتبع مذهب ابن عربي عن النور المحمدي مستخدمة مصطلحات الوحدة والتجلي والانجاس والظهور والفيض وغيرها من المصطلحات الفلسفية الصوفية التي فسرنا معانيها.

وتدير شئون أتباعها ومريديها، وبالتالي تحولت إلى ما يشبه التنظيمات والأحزاب السياسية في وقتنا الحاضر، وحازت سطوة إجتماعية كان لا بد لها من ان تتنافس الحكومة المركزيّة وامتداداتها في الأقاليم وتصطدم بها. وفي التاريخ العربي الحديث تبرز السنوسية نموذجاً على هذا النوع من الطرق.

## سيرة المؤسس وأهدافه السياسيّة

ولد السيد محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة أو (الإخوانية) في بلدة (واسطة) بالقرب من مستغانم الجزائرية في ٢٢ ديسمبر ١٧٨٧ باتفاق أغلب المصادر<sup>٤</sup>. وقد ذكر المؤرخ الإيطالي ميريانو، أنه أطلق اسم (المحمدية) على طريقته في البداية، مثلها مثل الوهابية على أساس السلفية السنية. وكان في ذلك متشعباً بمبادئ الطريقتين القادرية والشاذلية اللتين لقيه إياهما أستاذه الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي. وبعد عام ١٨٣٧ م، تاريخ وفاة الأستاذ المذكور، اعتبر ذلك انتهاء للطريقة القادرية؛ فباشّر السنوسي الكبير نشر دعوته تحت اسم السنوسية<sup>٥</sup> وقد شكلت الظروف الموضوعية التي أحاطت بسيرته أثناء تنقله لطلب العلم بين موطنه الجزائر وفاس بالمغرب ومكة المكرمة والأزهر بالقاهرة، فكره وتوجهاته السياسية. فمنذ أن شبّ عن الطوق، تبرّم من الإحتلال العثماني لبلاده، فرحل مثل غيره من المثقفين الجزائريين ذوي الإتجاه المناويء للتسلط التركي، إلى المغرب الأقصى، وبالتحديد عاصمتها الدنيّة والثقافية فاس، حيث لا أثر للإحتلال التركي. وبعد تتلمذه على شيوخ العلم والصوفية فيها، نوى العودة إلى الجزائر عام ١٨٣٠، فصادف وقوع الإحتلال الفرنسي لها، فهاجر ميمماً شطر الأراضي المقدسة. وفي طريقه توقف في القيروان والأغواط ومسعاد. وفي قابس نُسجت حوله رواية تقول بأنه جلب المطر بعد صلاة استرحام، الأمر الذي جلب له حسد المفتي فيها<sup>٦</sup>، وحين وصل إلى القاهرة أثار لغطاً وجدلاً في أروقة الأزهر وهاجمه الشيخ أبو عبد الله عليش على النحو

٤ تزوّج السنوسي الكبير عدّة مرّات: الأولى عام ١٨٣٤ من السيّدة أمنا ابنة محمد بن عبد الرحمن لغواط والتي طلقها عام ١٨٣٥ ومنها أنجب ابناً واحداً. والثانية عام ١٨٣٤ في (أبي قبيس) وكانت السيدة خديجة ابنة حامد الحبشية التي توفيت بمكة حوالي ١٨٤٦ وقد أنجبت ولدين وأربع بنات توفوا جميعهم صغاراً. والثالثة تزوّجها بالببضاء في فبراير ١٨٤٣ وهي السيدة فاطمة ابنة أحمد بن فرج الله الفيتوري ومنها أنجب ولدين، وقد توفيت بالجغبوب عام ١٨٩٢ - الرابعة عام ١٨٥١ كانت السيدة فاطمة بنت حسن البسكري التي ولدت بالجغبوب عام ١٨١١ وتوفيت بها أيضاً عام ١٨٦١ بعد أن أنجبت ولداً واحداً.

٥ ميريانو مصدر سابق ص ٢٢

٦ مريانو مصدر سابق ص ١٨

الذي مرّ ذكره. كما أن المؤرخ الفرنسي (دو فيريير) وصفه بالقول: "إنه في هذه المرحلة من حياته إتخذ مظهر قائد مدرسة فكرية، وأدار ظهره للمؤسسة الدينية الرسمية وكذلك للحكومة المصرية" ويبدو أنه لفرط حماسته السياسية، لاحظ أثناء تجواله تفكك الأمة الإسلامية وفساد وإهمال الإدارة التركية وتدمر الرعايا العرب في الأقطار المذكورة من تصرفاتها. وقد نقل عنه الكاتب التركي شهرابند زاده أحمد حلمي وصفه - حين كان بفاس- للحالة السائدة: من أن التشاحن والإنقسام شاعا في كل الأنحاء، لأن العلماء والشيوخ تعوزهم الغيرة الدينية من أجل نشر المعرفة وإرشاد الرعية<sup>٧</sup> ولهذا تنبّهت السلطات لنشاطه وخشيت أن يتحوّل إلى تحريض سياسي، فأخضعته لمراقبة شديدة مما نغص عليه الإقامة في تلك الأقطار. وحتى حين حاول التمرّكز في الأغواط في الجنوب الجزائري لنشر دعوته، وجدها منطقة مغلقة يصعب اتصالها بالعالم الإسلامي، فتركها متوجّها إلى مكة عبر طرابلس وبنغازي والقاهرة، التي ووجه فيها بالنقد والتهديد كما سبق ذكره. وبعد أن نشر زواياه في الطائف والمدينة وبدر وجده وينبع: "أصبحت طريق القوافل بين مكة والمدينة في أيدي السنوسيين" كما ذكر المؤرخ الإيطالي ميريانو في كتابه السابق ذكره. ولاح منذ البداية ميل السنوسي الشديد للخوض في النشاط السياسي، من زاوية المشاركة في (الجهاد) ضدّ الغزو الإستعماري المسيحي حين داهم الجيش الفرنسي موطنه الجزائر. فقد أجمع على هذه الرغبة لديه المؤرخون للسنوسية مثلما ذكر عبد القادر بن علي<sup>٨</sup> الذي ذكر أن السنوسي الكبير التقى في مكة المكرمة بالحجيج الجزائريين. وفي إحدى المرات كان على رأسهم محي الدين الحسني وابنه عبد القادر (الأمير عبد القادر)، الذي قاد الثورة ضد الإستعمار الفرنسي، وقال له: "إني أوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيرا، فإنه ممّن سيذود عن حرمات الإسلام ويرفع راية الجهاد"، كما ذكر أنه أوفد إلى الجزائر في فترات متفاوتة بعض رفاقه وتلاميذه مثل محمد بن صادق ومحمد بن الشفيع وعمر الفضيل بوحواء وبوخريص الكزّة، ناقلين ما تيسر من الأموال والسلاح لدعم الثورة فيها. ولعلّ أسطع دليل على هذا الدّعم الوثيقة التي عثر عليها المؤرخ أحمد صدقي الدجّاني في دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ليبيا، والتي نقلها في كتابه (الحركة السنوسية نشأتها

٧ نقلا عن مجلة عمر المختار - بنغازي اغسطس / سبتمبر ١٩٤٣ التي نشرت حلقات تحت عنوان (السنوسي في برقة) لسالم بن عامر ملخصا كتاب المؤرخ التركي المذكور تحت اسم (شيم البارق من ديم المهارق) حسبما أورده Dr. CC Adams المستشرق في دراسته مرجع سابق ص ٢ . والحقيقة أن ما نسب للكاتب التركي هو من تأليف المؤرخ أحمد النائب الأتصاري، إذ ورد في كتابه (المنهل العذب) ص ٣٧٦ أنه صنف كتابا عن حياة الإمام السنوسي وصفه بقوله: "تفصيل علومه ورواياته رضي الله عنه في ثبنتا (شيم البارق..) وهو ثبت محرّر جامع في غاية الضبط والحمد لله وشكرا له".

٨ راجع الفوائد الجليلية في تاريخ العائلة السنوسية - دمشق ١٩٦٠

ونموها في القرن التاسع عشر)<sup>٩</sup> وهي عبارة عن خطاب أرسله أحد أتباع السنوسي الكبير من الجزائر الى مدير (غدامس) الليبية، الواقعة على التخوم الجزائرية والتونسية، سنة ١٢٦٨ هجرية (١٨٥٣ م) ومما جاء فيه: "وأما أنا عبد الله حين قدمت بلاد وارقله ففتح الله علينا بها وصارت محمديّة بعد ما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها، سبحان من حكم الضعيف في القويّ وصار القويّ من عبده مخذولا مذبوما. لكن من بركة الشريف شيخنا محمد بن علي السنوسي رضي الله عنه ونفعنا وإياكم به أمين . وصاروا عربان وارقله وقصورها وقبائل الشعامبة وقصور تغورت وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب، كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدين(..) كلّ يوم في الزيادة، وبعث لنا الرومي دمره الله في هذه الساعة ثلاثة أمحل(..) تلاقينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصرًا عزيزًا وأعاننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستا وثمانين رجلا وقلعنا من الخيل كثيرا والبنادق بلا عدد، والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك"<sup>١٠</sup> وكما ذكر سابقا إلتقى في مكة شيخه أحمد بن إدريس الذي كان قد تتلمذ على يديه في فاس واعتنق مفاهيمه الفقهيّة، وخاصة منها الإجتهد وعدم التقيّد بمذاهب الأئمّة الأربعة، الأمر الذي أثار عليهما ثائرة المدارس المحافظة في مكة. وكان يسودها المذهب الوهابي المتشدد. فاضطّرّا إلى التوجّه إلى اليمن المجاور، وبعد الإقامة هناك توفي الشيخ ابن إدريس عام ١٨٣٧ م.

بعدها حاول السنوسي الكبير البقاء في مكة، ولكنه شعر فيها بالمضايقات لأنه أتهم بالمشاركة مع الشريف عبد المطلب أمير مكة في عصيانه ضدّ السلطة العثمانيّة، حسب رواية البستاني في (دائرة المعارف - مادة السنوسي)، الذي قال عنه: "إنه خاف من الإقامة في مكة بعد هذه التهمة، فرحل عنها عائدا الى الجبل الأخضر عن طريق مصر ولم تدم إقامته في القاهرة أكثر من ثلاثة اشهر"<sup>١١</sup>. ولقد تعرّف خلال هذه الإقامة في القاهرة على حاكم مصر الخديوي عباس الذي قابله وأحسن وفادته، وطلب منه بناء زاوية بالقرب من القاهرة في منطقة تُعرف بالشيخ الجبلي (نسبة إلى الصوفي الشهير). ولكنّ السنوسي فضلّ بناء الزاوية في منطقة الكرداسة بالجيزة. ومن هنا انتشر صيته في وادي

٩ دار لبنان ١٩٦٧

١٠ وردت هذه الروايات في كتاب الحركة السنوسية في ليبيا- للصلابي ص٥٦ و ٥٧

١١ رواية البستاني نقلها الصلابي مرجع سابق -ص ٨٧. بينما بازامه في ص ١١٣ من (برقة في العهد العثماني الثاني) ينقل هذه الرواية عن محمد فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين.

النيل<sup>١٢</sup>، إلا أنه رغم هذا كله لم يستصوب البقاء في مصر، ولاشك أن العداء الذي أظهره نحوه الفقهاء المترمّون كان هو الذي ألقاه فيمّم شطر برقة.

والواقع أن المؤرّخين الأجانب أيضا كانوا يقتفون أثر السنوسي الكبير، ويرصدون تحركاته منذ البداية ويدمغون نشاطه وطريقته بالطابع السياسي، استنادا على أن المنطلقات الأساسية للطرق الصوفيّة في شمال أفريقيا بصفة عامة، واجهت مباشرة التغلغل المسيحي والغزو الفرنسي مواجهة مباشرة، مما جعلها تنجح بسهولة في اجتذاب جموع الأتباع، وتنظيمهم في تلك الجمعيات الدينية. كما ذهب الإيطالي ميريانو في كتابه السابق ذكره<sup>١٣</sup> إلى اعتبار تعاليم السنوسية واجتهاداتها تحمل في ثناياها دلالات سياسية، حتى أنه لجأ إلى التخرّيج لتعليل ذلك فقال: "كيف نفسر التيسير على المسافرين بالإنتطاع عن الصيام خلال شهر رمضان واختصار الصلوات والمكوث بلا حراك في الحالة الخاصة المقرّرة، ويقصد بها إزالة الشعور البيكولوجي بالندم والتوبة. وأخيرا تعظيم جاه وسلطة الرئيس؟ إن لم تكن النية في تقوية وتيسير التشيع وراء الإخوان عبر الصحراء وتُصرّتهم، وبالتالي إضفاء طابع الدولة المهيمن على الطريقة". وهذا الإستنباط يتفق مع تحليلات المؤرّخين الفرنسيين أمثال (ديبونت وكابولاني) اللذين حاولا تشويه سمعة الدعوة السنوسية وإصاق الثُهم بها. ومن ضمن ذلك قولهما: "في تلك الفترة التي تشهد الإنتشار السريع للمدنية المسيحية، أخذت الإخوانيات الدينية الموقع الأمامي في التصدي لها، موقظة النزعة الإستقلالية ومعززة الأواصر الروحية التي تربط بين أتباعها، كما أن مبادئها الدوغماتية والتصوفية من شأنها خلق وشحذ الهمم السياسية، وشعائرها ما فتنّت تدعو الى تهديم الإصلاحات التي اقتضتها الأوضاع الجديدة؛ فالمبدآن الرئيسيان للسنوسية هما: الإمعان في شنّ الحروب ضدّ المسيحيين في أيّ مكان يتواجدون فيه وتحت أيّة ظروف، والمقاومة المنتظمة المتواصلة لأيّة حركة تجديد"<sup>١٤</sup> أما دوفيريير الذي سبقته الإشارة إليه، فهو يدّعي أن من بين تعاليم السنوسية: "تحريم التحدّث إلى شخص مسيحي أو يهودي أو تحيته أو المتاجرة معه أو العمل في خدمته. وإذا لم يدفع اليهودي الجزية للمسلمين، وبكلمة أخرى إذا ما أراد التمتع باستقلاله السياسي، صار عدواً يُجيز القانون بل ويحضّ على

١٢ وردت هذه المعلومة عن مقابلة الإمام للخديوي في وثيقة رسمية عثرنا عليها في أرشيف الخارجية الإيطالية مؤرّخة في ١٠ نوفمبر ١٩١٣ وهي عبارة عن ترجمة لتقرير نشرته مجلة (العلم) القاهرية عن سيرة السنوسي الكبير. كما ذكرها بإزامة في نفس المرجع السابق في ص ١١٤ مضافاً أنه مكث عاما هناك.

١٣ ص ٣٦ - ٣٧

نهب أمواله وقتله أينما كان ومهما كانوا كلما سنحت الفرصة بذلك! " وغني عن القول إن هذه الإدعاءات روجها المؤرخون والرحالة الفرنسيون تحديدا، في فترة بدأ الغزو الفرنسي لبلدان شمال أفريقيا الإسلامية، وستتكشف حقيقة زيفها عندما يأتي الحديث عنها لاحقا في هذا الفصل<sup>١٥</sup>. ورغم أحكامه التحسّية التي بثها في كتابه وتهجمات التي أوحث بها النوايا الإستعمارية التي كان يمثلها، إلا أنه جاء جامعا في تفصيلاته وتحليلاته. ونزعم بأنه كان المرجع الأول والرئيسي لما جاء بعده من دراسات عن السنوسية، خاصة من المؤرخين الإيطاليين، لكونه من أوائل الرحالة هناك، ولاعتماده على المشاهدة الحية. وواضح أن هذه الكتابات والآراء العدائية ضد السنوسية، كانت مبيّنة ضمن المخطط لتبرير السيطرة الاستعمارية وترسيخها؛ فنرى وزير الخارجية الفرنسي هانوتو عام ١٩٠٠، وقد اجتاحه القلق من خطر توغل الطرق الصوفية في مناطق نفوذ دولته؛ فأراد الطعن فيها من منفذ التنديد بتأخر المسلمين بسبب تمسّكهم بدينهم، إذ يقول: "إن العالم الإسلامي منقسم إلى طوائف وطرائق لا عداد لها، ينخرط في سلكها الألوفا من رعايانا المسلمين. ولكن ليس لها في الغالب مراكز ولا زوايا بالأراضي الداخلة في دائرة نفوذنا، وغاية الأمر أن العاملين في هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون - بلا انقطاع ولا توان - مستعمراتنا الأفريقية، فيستقبلهم أهلها بالترحاب ويحسنون وفادتهم، ويكرمون مآثرهم، حتى أن الفقير منهم لا يرى في إكرامه لهم أقلّ من أن ينحر لهم شاة. هذا عدا ما يجمعه لهم من صدقات ذوي البر والإحسان، أو من المرتبات المالية السنوية، التي يبلغ ما يدفعه أهالي الجزائر وخدمهم منها، ثمانية ملايين من الفرنكات كلّ عام. وهذا مما يستوجب العجب والدهشة، لأن مقدار ما نجيبه من الضرائب كلّ سنة من أهالي الجزائر، لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ. ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه إلى السكون، وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن ما يرام. وما ذلك إلا لأن الرابطة التي تربط بعضهم ببعض قد اعترأها الوهن، ولأن الفوضى التي أصابت الإسلام الأفريقي قد

١٥ يعتبر (دو فيريير) أبرز نموذج للرحالة الذين استخدمتهم الدول الأوروبية لخدمة أغراضها الإستعمارية، فبعد أن استفادت السلطات الفرنسية من تجواله في الجزائر ودول الصحراء المتاخمة في الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٢، وهو في ريعان الشباب - إذ كان عمره ١٩ عاما - وأوفدته إلى الصحراء الليبية لاستغلال تحقيقاته في تمدد الاستعماري عبر تشاد وما جاورها وبفضل هذه العلاقات حصل على دعم القنصل الفرنسي في طرابلس (ب.أ. بوتا) الذي قدّمه إلى واليها محمود باشا. وهذا بدوره سلمه رسائل توصية لسلطات الدواخل الصحراوية، كما مكّنه من ربط علاقة شخصية مع زعيم طوارق (ازقار) الحاج محمد إيخوخن. وقد اشتهرت تحقيقاته الجغرافية بعد موته، إذ انتحر في سيفير عام ١٨٩٢ - ينظر الملخص عن حياته ومؤلفاته في كتاب (الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا) تأليف أيتيليو موري تعريب خليفة محمد التليسي - مكتبة الفرجاني، طرابلس ١٩٧١ ومن المستغرب أن المؤلف - في استعراض مؤلفات الرحالة الفرنسي - لم يذكر شيئا عن كتابه الذي سلفت الإشارة إليه. وقد دون فيه سيرة الإمام مؤسس السنوسية، ومعتقداتها وهيكل تنظيمها وأسلوب عملها من خلال تسجيلاته الدقيقة، وما عايشه وشاهده شخصيا لدى السنوسيين في زواياهم.

أخذت نصيبها منهم". وكان الوزير الفرنسي في هذا القول، كمن يعتبر عن الإرتياح بعد قمع الثورة الجزائرية والانقراضات التي أعقبتها، والتي كانت الطرق الصوفية من بين العوامل المحركة لها والحاملة للوانها، كما سيتبين لاحقا. بيد أنه يستشعر مجدداً خطر هذه التنظيمات الوطنية المناوئة للإستعمار والتي تلقعت بثياب التدين الصوفي، وعلى رأسها السنوسية، فيقول: "ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما، لأنها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين، وعلى كراهية المدنية الحاضرة، فقد أسس الشيخ السنوسي في جهة ليست بعيدة عن الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر، مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار. ومقر هذا الشيخ (يعني به السيد المهدي الذي تولى زعامة الطريقة بعد وفاة والده السنوسي الكبير) بلدة جغوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائما بها هيكل الإله آمون (يقصد سيوه)، وقد هاجر أولاده إلى الكفرة. ومن مذهبهم التشديد في التمسك بالقواعد الدينية، وقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات، ولكن يظهر أن أخلاقهم الشديدة (يعني المتشددة) قد تلطفت، ففقرّبوا أخيرا من الدولة العلية. غير أن هذا لم يمنعهم من طرح حبال الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في أفريقيا الجنوبية، ولم يكن الأمر مقصورا على وسط القارة الأفريقية، فإنه توجد بالآستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب. ويخشى أن تفترسنا إذا أغمضنا الطرف!"<sup>١٦</sup>.

فإذا ما علمنا أن هذه التصريحات نشرت عام - ١٩٠٠ وهي الفترة التي كان الكفاح الجهادي بقيادة السنوسية مستعرا ضد القوات الفرنسية، ليعرقل إحتلالها لتشاد وتوغلها في (الهنترلاند) الليبي<sup>١٧</sup> أدركنا الهلع الذي كان يتمك أساطين الإستعمار من تلك الحركات

١٦ محمد عبده - مرجع سابق ص ٦١ - ٦٢ وهانوتو صاحب هذا التحليل المتحامل هو Albert Auguste Gabriel Hanotaux (1835-1944) أكاديمي وسياسي ومؤرخ فرنسي وزير الإنتاج. ترقى في السلك الدبلوماسي إلى أن أصبح وزيرا للخارجية في الفترة من ١٨٩٤ إلى ١٨٩٨ وقد شهد عهده التوسع الفرنسي الإستعماري في أفريقيا إلى أن حدث التصادم مع المستعمرين الإنجليز ووقعت اتفاقية فاشوده التي سيأتي ذكرها.

١٧ وهي كلمة ألمانية تعني (الأراضي الخلفية)، وأصبحت إصطلاحا إستعمله الأتراك في نهاية القرن التاسع عشر وتبناها القانونيون الفرنسيون في بحوثهم المستفيضة عن مسألة تخطيط الحدود الفرنكو - تركي للمناطق الصحراوية. ثم جاء البروفيسور Rouard de Card من كلية الحقوق بجامعة تولوز عام ١٩١٠ ووضع نظرية في القانون الدولي تقول إن إتفاقية ١٨٩٠ تجيز لفرنسا أن تمد حدودها شرقا إلى خط يتجاوز أقصى جنوب فرّان حتى يصل إلى (بارواه) على بحيرة تشاد، أما بالنسبة لاتفاق ١٨٩٩ فهو يعدل إتفاق ١٨٩٠ ويوسع من خط منطقة النفوذ الفرنسي إلى أن ينعطف واصلا إلى مدار السرطان على خط طول ١٥ وفي رسالة الإحتجاج التي قدمتها الآستانة ضد الإتفاقيتين، ورفضت من الفرنسيين بحجة أنها رسمت خطأ للهنترلاند التركي غير

الوطنية، وهو ما سيأتي تفصيله في الأبواب القادمة من هذا الكتاب. مع ضرورة ملاحظة أن هذه التصريحات جاءت في سياق تحليل طويل كتبه الوزير الفرنسي عن الفروق التي تقسم بين الإسلام والمسيحية، مزكيا بالطبع ديانة قومه وماتعمم به بلدان أوروبا من أنظمة علمانية يفصل فيها الذين عن الحكم، بعكس فلسفة الحكم الإسلامي التي لا تفصل الدين عن السلطان. لكنه رغم محاولته صبغ كلامه بصبغة التبشير الحضاري التمديني، إلا أن مقاصد التوسع والاستحواذ الاستعماريين تتضح منه بما لا يحتاج إلى توضيح. ولسنا هنا في معرض الجدل مع المسئول الفرنسي، فقد تكفل الإمام محمد عبده بالرد عليه وعلى الكاتب الفرنسي الآخر رينان<sup>١٨</sup>

## المحتوى الفكري والفقهى للعقيدة السنوسية

ليس هذا مجال التعمق في تحليل الأصول الفقهية للسنوسية وسرد تاريخها بالتفصيل، ففي هذا يمكن الرجوع إلى ما كتبه عنها مؤرخون ليبنيون وعرب وأجانب<sup>١٩</sup>.

مقبول دبلوماسياً، لأنه يعالج حدوداً في منطقة ليست تابعة للإمبراطورية العثمانية، ولكن إتفق بشأنها بين فرنسا وبريطانيا ثم ألمانيا التي كانت تستعمر الكاميرون فيما يتعلق بضفتها على بحيرة تشاد.

١٨ هو الكاتب الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان ١٨٢٣ - ١٨٩٣، اشتهر بدراساته عن الألهوت المسيحي واللغات السامية وكتابه (ابن رشد والرشدية) وكتابه (تاريخ شعب إسرائيل) ثم تحول إلى الكتابات السياسية، وكان نقده لادعاء الأديان بصفة عامة والمسيحية بصفة خاصة حيث اعتبر الذين حمل الفيلسوف كونت -مرحلة في تطور البشرية سقضي إلى مرحلة العلم. وأنه لا رابطة منطقية بين الدين والفضيلة - وأن الذين لا يتجاوز كونه مادة للمعرفة وذكرى من أيام الطفولة! وقد حذض الإمام محمد عبده حجج هانوتو ورينان في كتابه (الإسلام دين العلم والمدنية) المشار إليه.

وبالإضافة إلى المؤرخين الأوربيين الذين أشرنا إليهم، ثمة مؤرخون عرب نوهوا من جانبهم بما أتسمت به دعوة السنوسي الكبير من اتجاهات سياسية تنامت واتضحت من خلال تحركاته ونشاطه العملي، فعباس محمود العقاد ذكر في كتابه (الإسلام في القرن العشرين) ص: ١٣٢: "أن الشيخ السنوسي كان بخلاف الغالب على مشايخ الطرق خبيراً بأحوال السياسة العالمية، فوغل بمقامه في ذهنه أن النابولتان أي الإيطاليين- مغربون لا محالة على برقة في يوم قريب، فأوغل بمقامه إلى واحة الكفرة على طريق السودان، ليشرف من ثم على تعليم أهل الصحراء جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ويهيء في جوف الصحراء ملاذاً لمن تُقصمهم غارات المستعمرين على السواحل ومدن الحضارة" ١٨٩٠-١٩ ويوسع من خط منطقة النفوذ الفرنسي إلى أن يعطف واصل إلى مدار السرطان على خط طول ١٥ وفي رسالة الإحتجاج التي قدّمتها الأستانة ضدّ الإتفاقيتين، ورُفضت من الفرنسيين بحجة أنها رسمت خطأ للهينترلاند التركي غير مقبول دبلوماسياً، لأنه يعالج حدوداً في منطقة ليست تابعة للإمبراطورية العثمانية، ولكن إتفق بشأنها بين فرنسا وبريطانيا ثم ألمانيا التي كانت تستعمر الكاميرون فيما يتعلق بضفتها على بحيرة تشاد.

إسرائيل) ثم تحوّل الى الكتابات السياسية، وكان نقده لاذعا للأديان بصفة عامة والمسيحية بصفة خاصة حيث اعتبر الذين -مثل الفيلسوف كونت-1-

أما بالنسبة لهذه الدراسة فبالإضافة إلى قراءتنا لأغلب ماكتب عنها بأقلام المؤرخين بالعربية، فقد توخينا ان نعتد أيضا في هذا التحليل على الوثائق الرسمية الإيطالية، قبل وأثناء وبعد فترة الإستعمار الإيطالي للبلاد الليبية، وأن نستشهد بالمراجع الأوربية القديمة، وخاصة الفرنسية والإيطالية والإنجليزية منها لسبب رئيسي وهو: أن المؤرخين باللغات المذكورة خاضت دولهم صدامات ومعارك دامية ضدّ السنوسية لتوليها قيادة الحركة الوطنية الليبية التي بدأ تكونها منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، مترافقة مع نشوء الطريقة السنوسية وتناميها. وفي هذا الصدام مع قوى الغزو الاستعماري تلك، اكتسبت

١٩ قبل بداية الغزو الإيطالي، ظهرت دراسات أوربية عن السنوسية ومؤسستها، أغلبها فرنسية بفعل الإستعمار الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠، وقد اعتمد عليها بقية المؤرخين الأوربيين وخاصة الأيطاليين منهم ويمكن إجمال أقدمها كما يلي : La confrérie Musulmane De Sidi M.uhammad Essunusi et son domaine géographique en l'anne'e 1300 del'He'gira 1883 de la notre ere. Paris - Socie'te' de géographie , 1884 بقلم Henri Duverier وترجمته (الإخوانية الإسلامية لسيد محمد بن السنوسي، ومجال نفوذه الجغرافي، في ١٨٨٣) وسيأتي الحديث عنه لأهميته؛ (الحجج التي اعتمد عليها الشيخ السنوسي في التصوف) بقلم Colas (دراسة في أخوانية الشيخ السنوسي) بقلم Pilard في أرشيف الإدارة الإستعمارية بالجزائر، اقتبس منها Louis Rinn في كتابه (المرابطون والإخوان) إصدار دار جوردان (الجزائر ١٨٨٤)؛ (الإخوانيات الدينية الإسلامية من تاليف Depont Cappolani إصدار جوردان بالجزائر ١٨٩٧)؛ (الروابط الدينية عند العرب وفتح أفريقيا الشمالية) بقلم: D'estaournelles De Constant . من إصدار ميزون نوف و لوكليريك (باريس ١٨٨٧ م)؛ رحلة الحشاشي المعروفة بين المراجع العربية . وقد ترجمها Lasram + V. Serres من إصدار شالامير(باريس ١٩١٢ .) وقد ذكر المؤرخ الإيطالي فرنسيسكو ميرياتو أن الحشاشي زعم في كتابه أن أية رواية أخرى مخالفة لما ذكره عن سيرة السنوسي، ينبغي اعتبارها مضللة وموحى بها من ذوي النوايا السيئة. وعلق ماريانو أن هذا القول دليل على أن رواية الحشاشي ملققة وغير دقيقة، وأراد أن يغمز من قناته مشككا في معلوماته، حين أضاف: ان الحشاشي كان مشرقا على مكتبة المسجد الكبير - يقصد الزيتونة - بتونس وحين سمح له السنوسيون بالعبور كان يلقب بالشاعر! وقد جرت رحلته عام ١٨٩٦، وكانت ذات صلة وثيقة برحلة الماركيز De More's الذي اغتيل من قبل الطوارق سنة ١٩٠٣ . أما بعد الغزو الإستعماري الإيطالي للبيبا فقد صدرت دراسات (الإسلام والإخوانية السنوسية) بقلم Cap. Bourbon Del Monte Santa Maria والذي كان أركان القوّات المسلحة - من إصدار شيتا ديل كاستيللو بروما ١٩١٢؛ الفصل المتعلق بالسنوسية من كتاب الرحالة الألماني جير هارد رولفس (الرحلة من طرابلس حتى واحة الكفرة) والذي ترجمه جويدو كورا، من إصدار فالاردي (ميلانو ١٩١٣) - (المشكل الليبي والسنوسية) بقلم القاضي سانتينو أكوافيتا من إصدار أثينا يوم (١٩١٧- سجل الهيئات الحكومية) ترجمة بيلارد وقد ورد فيه ما رواه السنوسي الكبير عن قائمة أساتذته الذين تلقى العلم عليهم في مراكش - أفريقيا الفرنسية بقلم J De. Ladereit La charrie're يونيو ١٩٢٥. وقد حاول فيه استنتاج علاقة بين السنوسية وثورة الريف .

الطريقة مضمون وطابع حركة سياسية هدفت إلى التحرر الوطني في مسيرتها مع نشرها لرسالتها، ووجدت نفسها من أجل ذلك تتحدى القوى الأجنبية. وكان عليها أن تقاومها بالسلاح كلما اعترضت طريقها أو حاولت إغتصاب مصالحها الإقتصادية والتجارية، أو عرقلتها خلال امتدادها الجغرافي الواسع. وبذلك لا يتطرق الشك كثيراً إلى صدق الروايات والتحليلات التي دونها عنها هؤلاء المؤرخون الأوروبيون. إذ نيس من مصلحة مخططات دولهم إظهار الإنصاف أو العطف علي الحركة، والسبب الثاني أن أغلبهم كانوا شهود عيان لبزوغ ونمو السنوسية دعوة دينية وتنظيماً اجتماعياً ومؤسسة سياسية عايشوها، فرووا تجربتهم عنها بدقة كاملة، وإن كانوا يضمرون العداة لها. وكثيراً ما كان هذا العداة يرشح من ثانياً كتابات أولئك المؤرخين وتقارير المسؤولين في بلدانهم، كما سنرى في سياق التحليل.

والجدير بالذكر أن معتقدات ومفاهيم السنوسية تجلت في المؤلفات العديدة التي دونتها مؤسس الطريقة والتي تجاوز عددها الخمسين عند بعض المستشرقين، ولكن لم يتبق منها إلا القليل، بفعل تدمير مكتبة الكفرة عقب الإحتلال الإيطالي لها، وفقدان البعض منها نتيجة لانتقالات الأئمة وعدم استقرارهم طويلاً بسبب المواجهات مع الغزاة الكثر<sup>٢٠</sup> والحقيقة أن السنوسية حين نشأت انتهجت خطأ متفحاً لا يتصادم من الناحية الفقهيّة مع بقية الفرق والطرق الأخرى العديدة التي سبقتها أو كانت معاصرة لها، بل ذهبت إلى حدّ الدعوة إلى توحيد بعضها البعض. ويتجلى ذلك في أن السنوسي الكبير عدّد ستين طريقة صوفية معتبراً إياها شقيقات للسنوسية، يمكن أن ينضم إليها تلامذته وعريده دون أن يخل ذلك بولانهم لطريقته، كما أنه وصف سلوك وأحكام أربعين منها مبيّناً العناصر المشتركة التي تجمعها مع السنوسية، ولو أنه في في كتابه (المسائل العشر) انتقد بعضها بقوله: "ومنها ما كثر به تبجّح كثير من بعض المنتسكين، من دخلاء المتصوفة وغلاة المتورّعين من الإعجاب بأعمالهم والتمدّح بأحوالهم وكونهم مخصوصين بينابيع الإمداد ومواهب الكرامة، لا يباليون بمن عداهم ولو كانوا على محض الإستقامة..."، كما أنه في كتابه (الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية) ذمّ الفرق الإسلامية المعروفة بالمبتدعة، إذ

٢٠ ورد العدد ٥٠ كتاباً في دراسة كتبها باحث نرويجي معاصر هو (كنوت فيكور) من (كلية الدراسات التاريخية والفلسفية) بجامعة بيرجين ونشرت بتاريخ ٢٥/٧/٢٠٠٤، كما أن الصلابي في كتابه (الجزء الأول) ص ١٩٩ استعرض تفاوت عدد المؤلفات بين الدارسين والذي لم يتعدّ 35 عند أحدهم. وفي ضوء ذلك حصر ثمانية منها تمّ طبعا وهي باختصار: (بغية المقاصد في خلاصة الراصد) (السلسيل المعين- هامش للكتاب الأول) (المنهل الروي الرائق) (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن) (الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية) (رسالة المسلسلات العشر في الأحاديث النبوية) (رسالة موطأ الإمام مالك) (شفاء الصدر باري - أي غسل المسائل العشر).

قال: "ذكر أهل العلم من فضائل المغرب أن الله حماه من فرق المبتدعة كالمعتزلة والرافضة والجبرية."

أما السيد أحمد الشريف الذي سيتولى فيما بعد زعامة الطريقة، فقد كان أول المفسرين لتعاليم جدّه واستأذنه المؤسس<sup>٢١</sup>، حتى يمكن اعتباره الداعية لأيدولوجيتها حسب الأصلاح المعاصر إذ شرح في مقدمة كتابه (الانوار القدسية في مقدّمة الطريقة السنوسية) هذه الاسس. وملخصها أن الأتباع ينقسمون إلى فريقين: الأوّل من الذين يعتقدون الإشرافية، ويعني بهم أولئك الذين يهتدون بالنور القدسي بواسطة الرياضة الروحية. والفريق الثاني من الذين يعتقدون البرهانية، وهم يعتمدون الأصول ويمارسون التطبيقات العملية باستخدام حاسة الذكاء البشري. ثم شرح صفات أعضاء الفريق الأوّل بأنهم من يتلقون الإلهام والمعارف الروحانية الغوصية (هكذا وردت في كتابه نقلا عن أصلها gnosis وقد شرحناها عند الحديث عن التصوف). وكذلك من يتلقون الأسرار بفعل القدرة الإلهية دون الحاجة إلى ان يُلقنوا العلم. "إذ أن تقواك إليه تعالى هي التي تعلمك "

كما قال. وهكذا نلاحظ ان هذه المفاهيم الصوفية، رغم استعمالها للمصطلحات الفلسفية في التصوف كالغوصية والأشراقية، إلا انها تبسطها دون ان تستكنه أعماقها وتُسهب في تفسيراتها وقد يكون ذلك راجعا؛ إما إلى القصور عن الغوص واستيعاب تلك الأعماق، وهو الأرجح لدينا، حيث سنلاحظ في أدبيات السنوسية خلوها من معاني ومضامين التصوف الفلسفي الذي أوجزنا نشأته وتطور مدارسه. كما يلاحظ في مؤلفات السنوسي الكبير الإكتار من ذكر المراجع والأسانيد والكتب التي قال إنه استوعبها، والأئمة والفقهاء الذين أخذ عنهم، كما في كتابه (المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق). وفي كتابه (الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية) سرد تاريخ الإمارات التي قامت في بلدان المغرب مشيرا الى المصادر التي ينبغي الإطلاع عليها لمعرفة هذا التاريخ، دون أي

---

٢١ في الحقيقة أنه تلقى هذه التعاليم على أيدي أساتذته في الجيوب وهم: والده السيد محمد الشريف وعمّه الإمام المهدي والعلمان السيد عمران بن بركة والسيد أحمد عبد القادر الشهير بالرقي. وللسيد أحمد الشريف مؤلفات أخرى يبدو أنها ضاعت ومنها (الفيوضات الربانية في إجازة الطريقة السنوسية الأحمدية الإدريسية). وهو رسالة صغيرة الحجم ذكر فيها أسانيد في القرآن والصالح السنّة، وأسانيد الشاذلية والنقشبندية وغيرهما من الأحزاب والأوراد، كما ذكر فيها رواياته عن والده وعمّه وشيخهما أحمد الرقي إضافة إلى مراجع الإمام المؤسس. وهناك مؤلفه (فيوض المواهب الرحمانية) وهو مجلد ضخم "فصل فيه أحوال سلفه ومعارفهم وأورادهم وتراجم أصحابهم على ثلاث طبقات وهم عنده نحو ثلاثمائة". كما ألف (الدرّ الفريد الوهاج في الرحلة من الجيوب إلى التاج) والذي ضاع أيضا، ويبدو من عنوانه أنه شهادة حياة لما اعترض رحلة عمّه شيخ الطريقة المهدي الذي نقل مركزها من الجيوب إلى الكفرة. (أنظر فهرس الفهارس والإثبات) للكثائي ص304 من (ليبيا في كتب التاريخ والسير) مرجع سابق.

تحليل منه للوقائع أو إيراد وجهات نظره حولها، يضاف الى ذلك تعقد أسلوبه وانطواؤه على مفردات غريبة تلتبس بها المعاني، وهو ما اتبعه في بقية مؤلفاته ذات العناوين الجذابة. وقد يُقال هنا إن قطبي السنوسية (أي السنوسي الكبير وأحمد الشريف) كانا في ذلك يكرران أسلوب الفقهاء في ذلك العصر وخاصة في المدرسة المغربية، وأن همتما كان التركيز على كسب المريدين والأتباع بحسب مستوى الفهم المتواضع السائد في البيئة المحلية شبه الأمية، وهذا يبرهن على البعدين الإجتماعي والسياسي في الدعوة السنوسية، أكثر من المقاصد الروحانية أو الفلسفية.

أما الفريق الثاني من الأتباع فيصفه أحمد الشريف بانه؛ من أطاع الأوامر واجتنب المعاصي واكتسب العلوم الأربعة وهي : علم الأصول والصفات الإلهية، علم الفقه، علم الحديث، والعلم المساعد أي المتعلق بقواعد اللغة العربية، وما بها من نحو وبلاغة (كما جاءت عند الشاذلي والزروق) باعتبارها الوسيلة التي تيسر إستيعاب العلوم الثلاثة الأولى. ثم أضاف أن تعاليم السنوسي الكبير تجمع بين هذين الفرعين (الإشراقية) و(البرهانية) وعدد بعد ذلك الواجبات التي قررها الشيخ المؤسس على من يتحلى بالبرهانية وهي : حفظ كتب الحديث النبوية الشهيرة الثلاثة (صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك وبلوغ المرام) وفي الفقه : الرسالة لابن أبي زيد القيرواني. وفي (الصوفية) : المباحث السبعة، مفصلاً هذه المباحث ابتداءً (بالرأية) إلى (فصوص الحكم) للصوفي الشهير محي الدين ابن عربي الذي شرحنا مدرسته في الصفحات السابقة، وهنا لا نخال - مرة أخرى - توفّر القدرة الذهنية لدى المريدين والأتباع -خارج حلقة شيوخ وقادة الطريقة- على استيعاب مفاهيم وفلسفة ابن عربي المتسمة بالتعقيد لكل من يقرأها. أما كتاب فصوص الحكم المذكور فقد أورد فيه ابن عربي: "فصلاً لكل رسول من سبعة وعشرين رسولا، أولهم آدم وآخرهم محمد (ص)، وعقد الفصل السادس والعشرين لسلف محمد المحوط بالغموض خالد بن سنان العبسي، وذكر في هذه الفصول تعليماته الحكيمية الصوفية الخاصة، رابطاً إيها بالأنظار الخيالية في دلالة كل رسول. وقد أعطاه النبي هذا الكتاب في العشر الأواخر من محرم سنة 627 هجرية -أي في السنة الخامسة والستين من سني الحياة - إذ رأى النبي (ص) وبيده كتاب، وقال له : "هذا كتاب فصوص الحكم، وأمر ابن عربي أن يأخذه ويخرج به إلى الناس لينتفعوا به"<sup>٢٢</sup> ووصف السيد أحمد الشريف ماهية الإشراقية كما سنها النبي في طاعته تعالى والصلوات له "أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه، فهو يراك" وهذا ترديد لما ذكره ابن عربي في الفصوص، وخلص إلى القول بان هذا كفيلاً

بتحقيق الفوز الكامل، إلا أنه حذر المنتسبين الى الطريقة في الوقت نفسه من مغبة الغرور والنفاق اثناء ممارستهم للطقوس الصوفية، ولا سبيل أمامهم للتخلص من هذه العيوب إلا بمساعدة الشيخ أو أحد (الاخوان)؛ إذ أن الشيخ هو الوسيط بين التابع وخالقهما، وبدونه يقع في الضلالة<sup>٢٢</sup> وهو هنا مرة أخرى يستلهم قول ابن عربي في رسالته (الحكم الألهية): "الشيخ باب المكاملة بين المريدين والله " وكانت مظاهر اعتقاد أتباع السنوسي متمثلة في الإستغائة بذكر اسم الشيخ وقت الملمات، والإلتجاء إليه وتقبيل يديه أو لثم جلابيه طلبا للبركة. ومن هنا جاء مصدر الولاء له ولطريقته والإنصياع لأوامره. كما أن السنوسية فيما يتعلق ببقية الطقوس والعادات لا تختلف عن الطرق والاخوانيات الأخرى، خاصة في الإكثار من (الذكر). ولو أنها حاولت ان تتنهج أسلوبا يميزها عن غيرها؛ ففي كتاب (الأنوار القدسية) المذكور وصف ضاف لأنواع الدعاء ومدارجه المسماة بالأحزاب، جمع حزب، وهو ما يتلى في (الحضرة) بعد صلاة الجمعة من أدعية جماعية، وتسمى أيضا أوردة، جمع ورد، كما ذكرها الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين)، والإستغفار والتكبير اثناء أداء الصلاة. وقد نقل (أدامس) في دراسته الموما إليها عن المستشرق الكبير (مارجليوت) قوله إن السنوسي، بعكس بقية الطرق الأخرى التي تنشأ الإتحاد مع الذات الإلهية للحصول على النشوة، فالسنوسية تركز على الإتصال بالنبي عن طريق الذكر. أي أنها نأت بنفسها عن الخوض في مسائل التصوف الفلسفي المعقدة السالف ذكرها.

## الإسنوسية ومفاهيم الإجتهد

وليس هنا مجال الاسهاب في ايراد التوافق أو الاختلاف بين السنوسية وبقية الطرق الصوفية الأخرى في المفاهيم الروحية وطقوس العبادة والتعاليم التي تبثها كل منها. ولكن المهم هو التطرق إلى القضايا الفقهية، لأنها تعكس فلسفتها أو أيديولوجيتها، وتضبط أسلوب تصرفاتها وتعاملها مع أتباعها، مما يمس صميم وجودها، ويصور حقيقة هويتها. ويعيننا هنا على وجه التحديد مفهوم الاجتهاد الذي استنه مؤسس الطريقة. فالإجتهد يُعتبر عند المسلمين قضية شائكة ما تزال تثير سجالات وجدالات لا نهاية لهما بحكم المنطق. ومفهومه العام هو إجهاد النفس في التفكير العميق والبحث المسهب لاستخلاص رأي في مسألة من المسائل، والوصول فيها إلى حكم. والمجتهدون الأوائل عند السنة هم الإنمة الأربعة لمذاهب المالكية والشافعية والحنبلية والحنفية. وكان لهم السبق في إرساء مبادئ وأساليب الإجتهد من النص القرآني والأحاديث الصحيحة، التي توقر حولها الإتفاق،

٢٢ The Sanusiya Order c.c. Adams -p.24-25 Hand book on Cyeanica سلسلة

الدراسات الشرقية والأفريقية، لندن ١٩٤٥

ورجحان الصدق في الرواية أي الإجماع، وهو في حد ذاته مثار خلاف وتباين طويلين: فثمة من يعتبره إجماع الصحابة، وآخرون يقولون بإجماع أهل المدينة أثناء حقبة الخلفاء الراشدين، أي عصر الدولة التي أسسها النبي، ومن قائل إنه إجماع جميع المسلمين، وهو مستحيل. كما أن الأئمة استنوا (تقنيات) لإصدار الأحكام والفتاوى في غيبة النص القرآني أو الحديث الموثق أو الإجماع، كالقياس، وهو تطبيق للآية الكريمة: (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) "قَالَ تَمَّالٌ: أَعْرَضَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٨٣﴾ وَلَوْرَدُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ

لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُمْ ﴿٨٣﴾ النساء: ٨٣ والإستحسان، وهو تفضيل حكم معين، والإستصلاح، وهو تقدير المصلحة الخاصة والمرسلة، والإستصواب الخ. ثم انفتح الطريق بعدهم لنشوء المدارس الفقهيّة الخاصة بكل مذهب من مذاهبهم. ونظرا إلى هذه التعددية توسّعت دوائر الإجتهد وامتدت مضامينه عبر تطور الظروف التاريخية ونمو المجتمعات الإسلامية، وغدت الفتاوى التي تصدر حول آية مسألة بمثابة (وجهة نظر) يبيدها المفتي، أو شرحا وتفسيرا يجيب به على ما يوجّه إليه من اسئلة. وكان من طبيعة الأمور ان تنفجر الخلافات بين هذه المذاهب وأصحابها هادئة ليّنة غالبا، أو عنيفة ساخنة، مثلما جرى بين الأئمة الشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة حول مفهوم القياس في الإجتهد وتطبيقه على المصلحة، وبين ابن حنبل والمعتزلة حول قضية (خلق القرآن). وكان الخليفة المأمون، وبعده المعتصم، قد ناظرا الإمام ابن حنبل في هذه القضية الفلسفية الشائكة، مسنودا من علماء المعتزلة الذين كانوا يقولون بان الله ليس بمتكلم، وإنما يخلق الكلام كما يخلق كل شيء، وأنه منزّه عن الصفات جميعها بما في ذلك صفة التكلم. وتأسيسا على ذلك فالقرآن مخلوق. ومن هذا نشأ علم الكلام المعروف في الدراسات الإسلاميّة. وقد اعتنق الخليفة المأمون هذه النظرية وبالغ في التحمس لها، حتى انه أخذ في فرضها على الولاة والعلماء فرضا. ومن يخالف ذلك تقطع أرزاقه ويضرب ويسجن. وهو ماحدث للإمام ابن حنبل الذي سجن في عهد المأمون مصفدا في القيود لمدة ثلاث سنين، ثم أخرج في عهد خليفته المعتصم الذي فرض عليه إعتناق نفس المذهب، فلما رفض ضُرب ضربا مبرحا بين يديّ هذا الخليفة. فالإمام ابن حنبل كان يقول بصحة وقبول النصّ عن صفات الله دون الحاجة الى استدلال، وكما ورد في كتابه المعروف (المناقب) يصفه تعالى بأنه سميع بصير متكلم قادر مرید عليم خبير حكيم عزيز ليس كمثله شيء. ثم مرّ بنفس المحنة تلميذه المجتهد الكبير الإمام تقي الدين ابن تيمية، فدافع عن رأي أستاذه دفاعا استعمل فيه المنطق العقلي، وخاض جدلا طويلا في مثل هذه المسألة التي أفتى فيها في كتاب (الرسائل والمسائل) قائلا "السلف قالوا لم يزل الله متكلما اذا شاء، وإن الكلام صفة كمال. ومن يتكلم أكمل ممّن لا يتكلم. وهو يتكلم إذا شاء بالعربيّة، كما تكلم بالقرآن العربي، وما تكلم فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه، فلا تكون الحروف التي هي مبني

أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة، لأن الله تكلم به ". كما كانت لابن تيمية مناظرات أخرى عديدة، منها موضوع زيارة قبور الأولياء فسُرت من خصومه على أنه يشكك في زيارة الكعبة، وخرّص عليه العوام، وحدثت فتن ومشاحنات بشأنه، إذ سُجن في القاهرة ودمشق، كما ضرب وأهين في عهد الخليفة المنصور. واتخذت سيرته منحى دراماتيكيًا، لأنه نشط في تحريض جموع المسلمين في مصر والشام على الجهاد، وأصدر الفتاوى للسلاطين والأمراء بضرورة التصدي لغزو التتار للعراق والشام الذين خرج عليهم قطز حاكم مصر، وهزمهم في معركة (عين جالوت) المعروفة بالقرب من دمشق، حيث دخلها منتصرا. وكان الإمام ابن تيمية مصاحبا للجيش المنتصر.

وهكذا يتضح لنا أن الإجتهد من قبل الأئمة الأربعة في السنة، وما تفرّغ عنه من مدارس، أدارها فقهاء وعلماء دين مجددون، راج بصفة خاصة في أواخر العهد الأموي واثناء العهد العباسي الذي شهد ازدهارا فكريًا منقطع النظير، بفضل إتساع رقعة الفتوحات، وما أعقبها من إختلاط بشعوب ذات ثقافات وحضارات أخرى. وكما رأينا فإن أئمة الإجتهد والمصلحين في السنة أصبحوا يحكم حوضهم في القضايا العامة، وما يهّم أمور الرعية، سواء في العبادات أو السلوك والعادات، منغمسين في أمور السياسة والحكم وأصوله. ويكفي لتدليل على ذلك الإستشهاد بقول عالمين إمامين من أشهر فقهاء السنة، وإن كانا يختلفان في بعض مسائل الفقه والفلسفة، ونعني بهما ابن القيم الجوزية الذي قال في كتابه المعروف (أعلام الموقعين) "الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم. فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء. ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان الناس لهم تبعًا، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما ". والإمام الغزالي رأى في رسالته (أيها الولد): إن هدايا السلطين ولو كانت من الحلال، إلا أنها تولد المداهنة والرياء، ومعنى ذلك مراعاة جانبهم والموافقة في ظلمهم، وهذا معناه فساد في الدين". وقال في (إحياء علوم الدين) "إنما فسدت الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء. فلو لا القضاة السوء والعلماء السوء، لقلّ فساد الملوك خوفا من إنكارهم، ولذا قال (ص): "لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما لا يمالئها قرأوها أمراءها"

فالعلماء المصلحون في السنة – كما رأينا - يتعرّضون للعنت والمحن إذا ما كانوا مناوئين لتحكم وظلم الحكام، فيصبح المجتهد إما ممالئا للسلطة أو ثائرا مخاصما لها.

أما عند الشيعة فالإجتهد يتخذ طابعا مطلقا، لا يحتمل الذحض والمناقضة، لأن الفقهاء ينطقون نيابة عن الإمام الغائب أو المستتر، فيصبحوا ذوي سطوة وكلمة مسموعة تؤهلهم لأن ينتقدوا السلطة وتصرقات الحاكم، بل وفرض الرقابة عليه، لأنه لا يعدو كونه مُستيرا للأمر، ومحافظا على شئون الرعية أثناء فترة غياب الأمام. ومفهوم الإجتهد في فقهم هو "القدرة على إستنباط الأحكام الشرعية من مصادر التفصيلية، وقد يطلق ويراد به ممارسة المجتهد الذي حصلت له ملكة الإستنباط لنفس عملية الاستنباط. وينقسم الإجتهد بذلك إلى: إجتهد بالفعل، أي الإستنباط الفعلي للمسائل، وليس مجرد حصول القدرة على الاستنباط -إجتهد بالملكة، وهو القدرة على إستنباط الأحكام الشرعية، سواء قام بالفعل بعملية الإستنباط أو لم يتم - إجتهد تجزيئي، وهو القدرة على إستنباط الأحكام الشرعية في بعض أبواب الفقه دون البعض الآخر - إجتهد مطلق، وهو القدرة على إستنباط الأحكام الشرعية في جميع أبواب الفقه."

وفي السنوسية كانت أبرز اجتهادات الإمام المؤسس تركيزه على الأحاديث النبوية، فني كتابه (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن) استغرقت مقدمته ثلث الكتاب، وقد اقتبس فيها من الإمام (ابن تيمية) في رسالته (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، حيث ناقش عدم عصمة الأئمة السابقين بالقول: ألا ينبغي على الجماعة الأخذ بجميع تفسيراتهم، إذا ما جاءت مخالفة للسنة النبوية في الأمور الكبيرة أو الصغيرة. ثم خصص فصوله الثلاثة (للحديث) و(الإجتهد) و(التقليد). وفي هذا نقل السنوسي الكبير في كتابه السالف عن الإمام ابن حنبل ما يلي: "قال ناصر السنة الإمام أحمد بن حنبل لأبي داود وقد سألته أبتبع الأوزاعي أم مالك فقال: لا تقلد دينك أحدا من هؤلاء. ما جاء عن النبي (ص) وأصحابه فخذ به - وذكر أن الرجل مخير في التابعين. وقد فرق (صلعم) بين التقليد والإتباع، فقال أبو داود سمعته يقول: الإتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي (ص) وأصحابه، ثم فيمن بعد من التابعين مخير. وقال لأبي داود: لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري. وخذ من حيث أخذوا. وقال: من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال." وانطلق السنوسي الكبير في، رسالته (رفع الملام) من هذا لتحذير الأتباع من الإنسياق وراء كل ما روي عن الأئمة السابقين، إذا ما كان ما قالوا به مخالفا للسنة النبوية التي ينبغي أن تتفوق على أقوالهم. وإذا ما وجد عالم أو فقيه أو إمام قال بأحكام تتناقض مع ما ورد في صحيح الحديث والسنة، فعليه أن يقلع عنها ويتوقف. وعدد عشرة أسباب لمخالفة هؤلاء الأئمة للتقليد: تبدأ من الجهل أو عدم الإحاطة به الى عدم تطبيقه في حالات واقعية مما نتجت عنه الغفلة، فلا أحد قادر على أن يكون مخفيا أو محجوبا في السنة. وقد

وجد مفهوم الإجتهد لدى الإمام السنوسي الكبير إهتماماً من الباحث الأكاديمي النرويجي المعاصر (كنود فيكور) الأستاذ بكلية الدراسات التاريخية والفلسفة في جامعة بيرجين، الذي استعرض أفكار الإمام الواردة في كتبه الفقهيّة، في دراسة تحليليّة، مقتبسة من كتاب ألفه عام ١٩٩١ بعنوان (الصوفيّة والفقهاء)، مشيراً إلى رأي الإمام في أنه حتى الخلفاء الراشدين غير معصومين ومعرّضون للخطأ حين يتعلّق الأمر بالتقليد، وما نُقل عن الرسول، وبالتالي الحكم بناء على ذلك، ذاهباً إلى تصويب الخليفة معاوية عندما تجاهل ما أفتى به الخليفة عمر وكان اجتهداه أفضل واتبع التقليد عوضاً عن ذلك. والإمام السنوسي بهذا وضع علامات استفهام حول الإعتماد المطلق على مدارس الفقه من ناحية، وعلى الروايات الست للتفسير من ناحية أخرى، مطالباً بضرورة تقييم هذين المصدرين نقدياً والتحقّق منهما. واستخدام التقليد هو مفتاح للتفسير، وهذا أقرب إلى الكشف الذي يمكن الحصول عليه. ثم يستشهد بقول الإمام: إن براهين القرآن والسنة واحدة، وينبغي أن تُعطى الأسبقية على رأي أي مجتهد أو فقيه. بل: وتفضيل التقليد الضعيف على القياس الفردي. وبعد أن أورد أفكار السنوسي الكبير التي استعرضناها هنا، ذكر الهجوم الذي شنّه الشيوخ المصريون عليه وعلى زملائه ابن إدريس والميرغني<sup>٢٤</sup>. في مسألة الإجتهد، واعتبر أن النقطة الهامة في جدال هؤلاء المنتقدين هي المكانة التي يتبوأها أئمة المذاهب. فالسنوسي كرّر القول أكثر من مرّة، إنه إذ يعتبرهم نماذج للفضيلة تُحتذى، وعلمهم هو قمة العلم، فهم أيضاً ما فتنوا يؤكدون على نحو متواصل عدم عصمتهم، والحاجة إلى امتحان آرائهم في ضوء القرآن والسنة. إلا أن هؤلاء المعارضين يزعمون - رغم ذلك - أن الأئمة تلقوا معارفهم بوسائل تتجاوز القدرة البشرية، أي بواسطة الإلهام من الرسول. وكان هذا القول هو حجّتهم بعد ذلك أمام الجيل القادم الذي أراد أن يناقش أقوال الأئمة ومدى الحاجة إلى تقليدهم. وخلص الباحث إلى القول: "إن الجدل في الإجتهد الذي شارك فيه السنوسي كان جدلاً ذا نطاق عالمي متسلسلاً من الهند إلى المغرب الأقصى... وأن الآراء التي عبّر عنها سواء نظرياً أو بالطقوس العمليّة، لم تكن نتاجاً لضيق أفق بدوي من الصحراء، بل كانت استجابة عامّة للحاجة إلى إعادة إنعاش الفكر التشريعي الإسلامي."

٢٤ ذكر الباحث النرويجي أن أبرزهم كانوا: شيخ الأزهر محمد أحمد عيش ومصطفى البولاقوي وشيخ الأزهر حسن العطار (١٧٦٦-١٨٣٥) وهذا مستغرب، إذ المعروف أن هذا الأخير كان من أوائل علماء التجديد اللذين اختلطوا بقيادة الحملة الفرنسية، وهو القائل: "بلادنا لا بد أن تتغيّر ويتجدد فيها من العلوم والمعارف ما ليس فيها!" وربّما كان هجومه على السنوسي - وهو في بداية بثّ دعوته كما يتضح لنا من تاريخ وفاة الشيخ العطار - راجعاً إلى التنافس بين الفقهاء أو الظن الخاطيء بأن السنوسي من دعاة الوهابية، لأنه باشر نشاطه الدعوي الأول في الحجاز. وقد نُشرت الترجمة الإنجليزية لتحليل الباحث النرويجي في الموقع الإلكتروني (ليبييا نيوز ليست) في شهر مايو ٢٠٠٤

ولقد تعرّض السنوسي الكبير في كتابه (إيقاظ الوسنان) لمسألة التكفير الحساسة والتي كانت - وربما ما زالت - تُرمى جزافاً، مستشهداً بالأحاديث والسيرة النبوية، وبما قاله حجة الإسلام الغزالي من "أن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله خطأ" وضرب مثلاً لذلك بقصة رجل في مصر "وقع في عبارة موهمة بالتكفير" فأفتى العلماء بذلك، وقيل أن يهّم السلطان بإعطاء الأمر بقتله، طلب أن يستفتي من تبقى من العلماء، فكان الشيخ جلال الدين المحلي، فلما استدعي ورأى المتهم مصقداً بالأغلال سأل عمّن أفتى بتكفيره، فأجابه الشيخ البلقيني بأن والدي شيخ الإسلام سراج الدين هو من قام بذلك، فردّ بالقول "يا ولدي أتريد أن تقتل مسلماً موحدًا يحبّ الله ورسوله لفتوى أبيك؟ حلوا عنه الحديد، فجرّدوه وأخذوا الشيخ جلال الدين بيده وخرجوا والسلطان ينظر، فما تجرّأ أحد يتكلم".

وحين أشار الباحث النروجي إلى هذه المسألة اقتبس العبارة التي نقلها السنوسي في كتابه (الإعجاز) عن السلف الصالح: "عندما ينادي مسلم مسلماً آخر بأنه كافر، فمعنى ذلك أن أحدهما كفر" أو: "أن الكفر سيرتدّ على أحدهما".

ومن ناحية أخرى أدخل السنوسي الكبير بعض العادات (الأحكام) اثناء أداء فريضة الصلاة، خالفت ما كان متبعاً في المذهب المالكي نفسه، وهو مذهبه، ففي كتابه (المسائل العشر) وصف لهذه العادات التي أدخلها في الصلاة في: "رفع اليدين في الصلاة، حكم القيض، حكم السكتات الثلاث، حكم الاستعاذة، حكم البسمة للفتحة والسور، حكم التأمين، حكم التكبير لقيام الثالثة، حكم السلام والخروج من الصلاة، حكم القنوت ورفع اليدين فيه، حال الدعاء، حكم تطويل الصلاة وتقصيرها المشروعين" - والبعض من هذه العادات مثل "القبض" والتي تشبه مثيلها في المذهب الشافعي، أثارت إنتقاداً وهجوماً أثمرت التزمّت المالكي وعلى رأسهم الشيخ أبو عبد الله محمد عليش المتوفى عام ١٨٨١ م والذي ضمّنه كتابه (فتح لآلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك). وقيل آنذاك إن هذا الهجوم أوعز به السلطان عبد الحميد الثاني، سعيًا منه إلى الغضّ من مكانة السنوسي الكبير، لأنه استشعر خطورة دعوته الجديدة وما قد تجلبه من متاعب. ولم تكن القلاقل والاضطرابات الدموية التي سبّبتها الدعوة الوهابية في أنحاء الإمبراطورية العثمانية ببعيدة عن الأذهان<sup>٢٥</sup> ورغم أهمية النقد المشار إليه والموجّه ضد المعتقدات السنوسية وسلوك شيوخها، فمما يؤسف له

٢٥ يبدو ان ميل الشيخ عليش إلى التقرب والإتصال بالملوك والحكام الأجانب، قد انتقل إلى ابنه الشيخ عبد الرحمن عليش إمام الأزهر الذي قدم عام ١٩٠٧ إلى أيمانويل ملك إيطاليا آنذاك هدية: تمثّلت في بناء مسجد بجوار الأزهر بإسم أومبرتو والد الملك المذكور بتمويل إيطالي طبعاً، من باب التزلف! وهو ما سيأتي ذكره أثناء الحديث عن التمهيد الإيطالي لإحتلال ليبيا.

أنا لم نثر على نصوص مستقاة من الكتاب الأزهرى سابق الذكر فيما تسنى لنا الاطلاع عليه من كتابات المؤرخين العرب؛ فجميعهم أشاروا إليها إشارة عابرة، كمعلومة دون إيضاح أو تفصيل لهذا النقد. بيد أن أحد المؤرخين الإيطاليين وهو مارياني **F.Mariani** في كتابه المشار إليه لخص لنا محتويات نقد الشيخ عليش للأساليب التي اتبعها الإمام السنوسي في بث دعوته، ورأينا للأهمية إثبات ما ترجمناه عن الإيطالية لأبراز النقاط الواردة فيه:

- وصف مراسم القداسة والتبجيل التي يحيط بها السنوسى أتباعه، كأنها ارادت ان تجعل منه ملكا. وأنه احيانا يقيم مدة طويلة في مكان سكناه، ويتعمد عدم الظهور حتى أثناء صلاة الجماعة يوم الجمعة لكي لا يصلّي وراء الإمام. وهو يدعو الى اتباع الكتاب والسنة، ولكن حين يأتي البعض لمقابلته والتلمذ عليه، يطلب منهم ان يتعلموا (الورد) على يدي أحد المقدمين من شيوخ الزوايا. وهذا غالبا ما تكون دروسه موجّهة الى الجميع دون تمييز في المقام أو الوظيفة، حتى لو كان بينهم (القساة) <sup>٦٦</sup> الذين يشطون في فرض الضرائب دون وجه حق.
- يتهم اتباعه بانهم يخالفون حتى المذهب الشاذلي الذي يعتقدونه وخاصة في مناسك الصلاة، وعدّد عليش كثيرا منها؛ كقراءة البسمة بصوت عال، وأن إمامهم يصمت بعد تكبيرة الإحرام ويُطيل سكوته بعد الفاتحة، كما يطيل في الركوع.. الخ .. وانه يدعي ان الإفطار في رمضان اثناء السفر مفضل على الصيام، ورغم أن أتباعه يُكثرون من الصلوات، إلا أنهم اثناء السفر يجوز لهم اختصار الصلوات بتجميعها في واحدة، وأنهم يخلطون بين الضوء والتيمم، وأنهم يلتهمون كل ما تطاله ايديهم. وإذا ما نهاهم أحد عن ذلك يردون عليه بانهم يقتدون بشيخهم ذي المقام العالي .. ثم يستشهد بوصايا الشيخ مصطفى البولاقى حول واجبات المتصوفين، مثل ضرورة قبولهم للناس صغيرهم وكبيرهم، فقيرهم وغنيهم بما في ذلك النساء والعبيد وهو ما أكد عليه الرسول الكريم.
- هاجم الشيخ عليش النظام المتبع في الزاوية ووصفه بالاستغلال والإبزاز، ويروي أنه إذا ما دخلت مواشي أحد الرعاة حرم الزاوية، حُجزت فيها وقدم لها العلف والماء، وحين يأتي صاحبها لاستردادها، يُطلب منه دفع الثمن نقدا، وإذا رفض هُدد بذبحها وتوزيع لحمها صدقة. وساق قصة شخص مرّ بهذه المحنة، فقررّ التخلي عن الطريقة والرحيل، فلما سمع بأمره الشيخ السنوسي استدعاه وقال له "يمكنك أن تذهب منذ الغد لأن هذه مشينة الله". وفي نفس الليلة أعطي للمسكين شرابا ساما سبّب له ألما مبرحة لفظ بعدها انفاسه في صباح اليوم التالي .. وعوض ابنه تعويضا زهيدا تمثل في خمس ريبالات!

٦٦ وردت Almuksin بالإيطالية وقد تكون المقستين، أو المقسين، أي القساة.

- يتهم السنوسيين بعدم الاهتمام بالكتاب والسنة . انما ينصب همهم على الحصول على ولاء المريدين الذين يأمرونهم باتباع اشياء غير شرعية، مثل التخلي عن المذاهب الاربعة، وقبول الإرشاد في الكتاب والسنة دون وسيط، حتى ولو كان من الأئمة الاربعة، علما بان الوعظ في التصوف دون عون من الامام يدل على الجهل والمروق، والذين يتلقون الوعظ على هذا النحو هم في حكم من يتعاطى الدواء دون طبيب. وحين يُلقى الإمام مواظبه على المريدين قائلا لهم "ابقوا على حالكم كما هو حتى لو كان من الأئمة المحرمة " فانه يرتكب المعصية لانه يمنع المؤمن من الرجوع الى صراط الله <sup>٢٧</sup> .

وفي الحقيقة فالمؤرخ الليبي د.علي محمد الصلابي أطنب، أكثر من غيره، في شرح أدبيات الإمام السنوسي عندما استعرض مؤلفاته. ومما أكده أن السنوسي خالف مذهب الإمام مالك في بعض مسائل العبادات : "فكان يقبض في صلاته، ويقنت بعد الركوع، ويقصر في الصلاة أثناء السفر... الخ" <sup>٢٨</sup> وفي ملخصه لمحتوى كتاب (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن) إقتبس الصلابي فقرات من الأقوال التي تثبت مخالفة السيد السنوسي للنهج الجامد الذي كان سائدا في المذهب المالكي، مستندا على أقوال للصحابة وفقهاء المذهب، مثل تفضيل أبي حنيفة للقرآن؛ ثم عمل الرسول؛ ثم قول الصحابي، إذا بدر من أبي حنيفة ما يخالف هذه المرجعيات. واستدل بقول مالك بن أنس: "إنما أنا بشر أخطيء وأصيب فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه."، كما أخذ بتفريق بن حنبل بين (الاتباع) و(التقليد)، فالأول هو اتباع ما جاء عن النبي وأصحابه وبعدها يكون المرء مختيرا؛ وبين (التقليد) الذي نهى أبو داود عنه قائلا له: "لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا. وقال : من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال " وكانت هذه من أسانيد السيد السنوسي في الإجتهد. وتأكد شهرة السنوسي الكبير في نهجه الإجتهدى ممن كتبوا عن سيرته من كبار المؤرخين والفقهاء مثل الكتاني الذي وصفه بالقول : "كان أصله مالكي المذهب لكن لما توسع في علوم السنة رأى أن الإجتهد متعين عليه فصار يعمل بما ترجح عنده من الأدلة . <sup>٢٩</sup>

٢٧ ميريانو صفحة ٢٣٠ - ٢٣١ مرجع سابق.

٢٨ (الحركة السنوسية في ليبيا) - لعللي محمد الصلابي الجزء الأول ص ١١٩ واعتبارا من ص ١٩٩ عدد مؤلفات الإمام الثمانية المشهورة، وأعطى نبذة عن كل منها.

٢٩ أنظر (ليبيا في كتب التاريخ والسير) ص ٣٠٠

أما نقد الشيخ عليش فواضح أنه كان يعبر عن ضيق وتبرّم من تعاليم السنوسية بلغا حد التحريض، لا سيما في صدد الإجتهد خارج نطاق المذاهب السنّية الأربعة التي كانت سائدة في مصر آنذاك، وهي نفس التهم التي شنت ضد ابن عربي من أنه: "لم يعترف بمذاهب هؤلاء الأئمّة في الفروع . وهذا غير صحيح لأن ابن عربي كان مالكيًا في العبادات العملية، ولكنه غير مقلد في الاعتقادات، بل كان من أتباع المذهب الظاهري لابن حزم ولا يخفي أن التقليد في العقيدة منكر غير مشروع ولا يجوز التقليد في التوحيد إلا في ظروف خاصة، كأن يكون المقلد أميًا لا يستطيع التمييز بين الصالح والفاقد من الأحكام والعقائد؛ فيرخص له بتقليد إمام مجمع على صحّة مذهبه الإعتقادي. أما أهل العلم فلا يجوز لهم التقليد في الإعتقادات أبداً. فكيف يُرمى الشيخ الأكبر - أي ابن عربي بالزندقة والإلحاد لأنه لم يقلد في التوحيد ولم يُدعن لقول أحد إلا إذا طابق في نظره ما ورد صريحاً في القرآن الكريم والسنة القويمة؟" <sup>٢٠</sup> فمن الطبيعي أن يشكل هذا التحريض ضد السنوسي الكبير، الذي كان يقنّدي بتعاليم ابن عربي، خطراً أهدق بوجوده في مصر، بل هدّد حياته نفسها إذ ورد في كتاب الإمام محمد عبده (الإسلام والنصرانية) أن السنوسي الكبير تعرّض فعلاً لمحاولة الإغتيال فيقول "ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي - والد السنوسي صاحب الجيوب - كتب كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية، وجاء في كتاب له ما يدلّ على دعواه أنه ممّن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة. وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين، فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية، وكان المقدم من علماء الجامع الأزهر الشريف، فحمل حرباً وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها؛ لأنه خرق حرمة الدين واتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين. وربما كان يجترئ الأستاذ على طعن الشيخ بالحربة لو لاقاه، وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ونجّى الشيخ المرحوم من سوء المغيّة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكي <sup>٢١</sup>. وواضح أيضاً أن الشيخ محمد عبده وهو من أئمّة التجديد، قد سرد هذه الواقعة في معرض التعاطف مع السنوسي الكبير، وحقه في اتباع الإجتهد الذي اعتنقه ودعا إليه.

٣٠ "جاء هذا التطبيق بقلم محمد الشربتلي رئيس تحرير جريدة الأمة المصرية في معرض سرده لحياة ابن عربي وآثاره، ونشرته مجلة (النادي) التي أصدرها في القاهرة الطبيب الإيطالي إنريكو إنسابتو، والذي كان يدير فيها شبكة تجسس لصالح احتلال ليبيا، وذلك في عددها لشهري نوفمبر -ديسمبر ١٩٠٧، وسيأتي ذكر دور هذا الجاسوس الإيطالي بالتفصيل حين التعرّض للإستعمار الإيطالي لليبيا.

٣١ الإسلام دين العلم والمدنيّة (للشيخ محمد عبده -تقديم د.عاطف العراقي-سينا للنشر القاهرة ١٩٨٧

## الفصل الثالث

السنوسية في مواجهة التمدد الإستعماري



## الفصل الثالث

### السنوسية في مواجهة التمدد الإستعماري

#### - السنوسية في مواجهة التمدد الإستعماري

- في مصر
- في تونس
- في الجزائر
- في السودان

#### - كيف تمرکز الإمام المؤسس

- الزوايا فلسفتها وتنظيمها
- تقرير سلوش عن السنوسية
- التنظيم القيادي للسنوسية



## الفصل الثالث

### السنوسية في مواجهة التمدد الإستعماري

من المهمّ الإحاطة بالظروف التي كان السنوسي الكبير يتحرك ضمن شروطها، والأحداث التي كانت تتناوب العالم الإسلامي وما تنطوي عليه من إرهابات تُنبئ بمصائر مستقبلية وشيكة، تدفع بالداعية إلى استشراف السُّبل لتحقيق النجاح لرسالته في خضمّها. وما ينبغي علينا أن نذهب بعيدا لتتبع مسار التنافس الإستعماري الأوروبي على تقاسم أفريقيا وبلدان العالم العربي الإسلامي، بل علينا أن نلقي نظرة على جارات ليبيا، والتي استعرت على مسرحها حُمى هذا التنافس؛ فنجدها في الأوضاع الآتي بيانها:

#### • في مصر

بعد أن أسس محمد علي باشا دولته القويّة فيها منذ عام ١٨٠٥ م. دخل طرفا في صراع القوى في المشرق العربي وشرقي البحر الأبيض وشمال أفريقيا. فنراه يعرض على فرنسا عام ١٨٢٩ مشروعا لمقايسة النفوذ وتقاسم المناطق، يتمثل في إرسال حملة بقيادة ابنه ابراهيم لإخضاع الجزائر قبل إحتلال فرنسا لها بقليل، وإرجاعها لطاعة تركيا. وهو بذلك يرسخ نفوذ دولته ويُعلي من شأنها في أعين الأمم، مع المحافظة على علاقات طيبة مع تركيا. وقد قبلت فرنسا العرض رغبة في إنشاء إمبراطورية عربية واسعة تضم مصر وسوريا وبلدان الساحل الجنوبي، أي ليبيا وتونس والجزائر، وجميعها كانت منهكة فيما سمي بحرب القرصنة البحرية التي خاضتها ضد أوروبا وأمريكا. وكان هدف فرنسا هو أن تدور هذه الإمبراطورية في فلكها، وتكون تابعة لها أمام توسع النفوذ الإنجليزي في المشرق، إلا أن إنجلترا سارعت بالرفض معاضدة تركيا، التي خشيت من مغبة طموح محمد علي. وإزاء هذا تراجعت فرنسا وقدمت حلا وسطا يقضي باحتلالها هي للجزائر، وأن تقوم مصر باحتلال طرابلس الغرب (ليبيا) <sup>١</sup> ولكن بريطانيا رفضت هذا العرض أيضا، كما تخلى عنه محمد علي حتى لا يُظهر مصر الدولة المسلمة، بمظهر الحليفة في

1 Alberto Giacardi - L'AFRICA nelle vicende politiche e diplomatiche  
ti affia agostiniana 37 - Roma 1938 dell'europa

الإستعمار لدولة مسيحية ضد دار الخلافة تركيا. فما كان من فرنسا إلا أن تنفذ ما كانت تبيته منذ زمن طويل، ألا وهو إحتلال الجزائر الذي قامت به ابتداء من يونيو ١٨٣٠ م. ثم توالى أحداث هذا التناحر. وكان أولها ضم إبراهيم باشا لفلسطين عام ١٨٣١ م. وانتصار جيشه على القوات التركية في معركتي بيلان وقونيه، ثم مطالبته بضم سوريا وآسيا الصغرى الشرقية وتونس وطرابلس الغرب، وبموجب إتفاقية الصلح في (كوتاهية) رضي محمد علي بالحصول على السودان والجزيرة العربية وفلسطين وسوريا وأضنه وكريت، محققا بذلك أكبر إمبراطورية عربية في العصور الحديثة. لكن المؤامرات الدولية تحركت للقضاء عليها في المهدي؛ فتحالفت تركيا مع روسيا ضد محمد علي، وشنت إنجلترا هجومها على مصر. أما فرنسا فبعد أن غنمت الجزائر، لاذت بالصمت واسترضت إنجلترا بأن تركزت مصر تسقط فريسة لها. وانتهى هذا المسلسل بقيام إنجلترا بنجدة تركيا، وطاردت قوات محمد علي في بيروت وسوريا وباقي المنطقة العربية الشرقية، إلى أن قبل بالتنازل على كافة الأراضي التي كانت تشكل تلك الإمبراطورية المصرية. وأصبحت مصر بلدا خاضعا يدفع الجزية للباب العالي، وأصبح محمد علي حاكما على مصر والسودان يجلس على عرش وراثي بلقب خديوي. وطبقا لإتفاقية لندن عام ١٨٤١ م فسخت روسيا تحالفها مع تركيا، وفرض على محمد علي الإنكفاء في هذا الشريط من وادي النيل، وحققت إنجلترا نصرها الإستعماري. لكن المخطط لم ينته عند هذا الحد؛ ففي عام ١٨٥٦ خرج نابوليون الثالث (وهو شارلس لويس ابن أخ الشهير نابوليون بوناپرت) بمشروع توسعي إستعماري جديد، يدعو إلى استيلاء فرنسا على المغرب، وإنجلترا على مصر، وأن تكون طرابلس الغرب من نصيب مملكة بيومونتي، قبل إنجاز الوحدة الإيطالية، (وهي الان مقاطعة عاصمتها تورينو) <sup>٢</sup> وسلاحظ أن مخطط دول الإستعمار الأوروبي في تقاسم أراضي الإمبراطورية العثمانية ما لبث أن تحقق بشكل كامل بسبب ضعف وتهاون تلك الإمبراطورية المتداعية. وبعد وفاة محمد علي باشا عام ١٨٤٩ م. خلفه على التوالي: الخديوي عباس ١٨٤٩ - ١٨٥٤ الخديوي سعيد ١٨٥٤ - ١٨٦٣ الخديوي إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩.

٢ انظر المرجع السابق L.AFRICA ص ٤٠ وقد ورد في كتاب الشيخ الطاهر الزاوي - جهاد الأبطال - طبعة الثانية، دار الفتح - بيروت ص ٢٥ ما يلي "ولما اجتمع نابوليون الثالث وزوج الملكة فيكتوريا في اوربورن سنة ١٨٥٧ واقترح نابوليون إعطاء جزء من طرابلس لحكومة سردينيا، أيقظ فيهم هذا الإقتراح رغبة الإستعمار" ولم يذكر المؤلف وهو شيخ المؤرخين الليبيين، المصدر الذي نقل عنه كما كانت للأسف عادته في معظم نصوصه

وفي عهد هذا الأخير نُقذ مشروع شقّ قناة السويس، الذي دُشن عام ١٨٦٩ واعتُبر آنذ أهم إنجاز عالمي أحدث تحولاً نوعياً في الجغرافيا السياسية واقتصاديات الشرق واوربا، وولد مرحلة من الصراعات الدوليّة كانت مضاعفاتها تؤثر في أحداث المنطقة حتى عهد قريب. ومن المفارقات أن المشروع بدلا من أن يجلب الإزدهار الإقتصادي والقوة المالية لمصر، فإنه ربطها بعجلة التبعية الإستعمارية، لما أغرقها في المديونيّة التي تورط فيها الخديوي إسماعيل. وقد بلغت رقما خرافيا بتقديرات ذلك الزمن، وهو (الفان ومانتان وخمسون مليون فرنك) بعد أن باع المهندس دي ليسيس المنقذ الفرنسي للمشروع أسهم شركة القناة للخديوي. وقد قدرها بمائة وست وسبعين الف سهم، رغم أن عدد الأسهم المتعاقد عليها لم يتجاوز أربعا وستين الف سهم. والأنكى من ذلك أن الخديوي حين توهم الخروج من ضائقة الديون وعرض الأسهم للبيع؛ ترددت فرنسا، فقامت إنجلترا بشرائها بمبلغ مائة مليون فرنك<sup>٢</sup> بل إن إنجلترا بعد أن أوعزت إلى الباب العالي العثماني بخلع الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٩، وقمعت ثورة عرابي التي اندلعت ضدّها، أخذت تستخدم جيش مصر للتدخل والتوسّع في شرقي أفريقيا والبحر الأحمر، بما في ذلك قمع الثورة المهديّة في السودان، كما سنوضح في الصفحات التالية.

### • في تونس

أما في شمال غربي ليبيا (تونس) فإن الصراع عليها جرى بين فرنسا وإيطاليا. إذ كانت تحت السيادة العثمانية الإسميّة، و بحكم شبه مستقل يرأسه باي تونس - كما كان الأمر في ليبيا في ظلّ القره مانلي - غير أن المطامع الإستعمارية لم تستطع ان تكبح جماحها. ففرنسا تظاهرت في البداية بأنها تريد حماية تونس من التدخلات التركية، وهي في الواقع كانت تتوجّس من وقوع تونس في أيدي قوة أوروبية أخرى مما سيُفسد عليها خطة دفاعها واستحوادها الدائم على الجزائر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أخذت فرنسا تتطلع إلى تكوين إمبراطورية مغاربيّة تحت هيمنتها المباشرة تطبيقا لسياسة التوسّع الإستعماري في البحر المتوسط بعد عام ١٨٧٠، والتي كان ينادي بها في الجمهورية الثالثة الوزير Jules Ferry. ولا يخفى أن القوة الأوروبية الأخرى المقصودة، هي إيطاليا التي كانت تتربّص بتونس لقربها الشديد من صقلية، ووجود جالية إيطاليّة كبيرة وافدة إليها من تلك الجزيرة الإيطالية. وقد بدأ التطاحن على تونس بين فرنسا وإيطاليا في الفترة من ١٨٥٥ إلى

٣. L,AFRICA, مرجع سابق ص ٤٢

١٨٧٨ ، تدخلت خلالها إنجلترا لنصرة إيطاليا ضد فرنسا غريمتها في أفريقيا. إلا أن إنجلترا سرعان ما تخلت عن دعمها في الفترة ما بين ١٨٧٨ الى ١٨٨١، بسبب الأعباء التي بدأت تواجهها في المشرق العربي، بحكم سيطرتها على قبرص عام ١٨٧٨ ، وترسيخ تحكمها في مصر، ثم خوفها من أن تمتلك إيطاليا ضفتين على البحر الأبيض مواجهتين لبعضهما البعض أي صقلية وتونس. وكان من نتائج تلك المناورات أن تنازلت فرنسا لإنجلترا في المشرق، مقابل تعويضها بتونس في المغرب، كما أن ألمانيا تدخلت هي الأخرى في هذه المناورات، فأيدت فرنسا أيضا حتى تجعلها تفلح عن فكرة استعادة مقاطعتي (الأزاس واللورين) على حدودهما المشتركة - وكانتا تحت الحكم الألماني وهما اليوم تابعتان لفرنسا- ولذلك وقفت ضد إيطاليا لتضعف موقفها أمام فرنسا، وبالتالي تُرغمها على الإنضمام إلى (الحلف الثلاثي) بعد إنتهاء لعبة الشطرنج في تونس !

وهكذا خرجت إيطاليا من هذه اللعبة خالية الوفاض، إذ غدت معزولة في صراعها ضد فرنسا. ونجم عن ذلك خسائر متتالية لحقتها حتى في الميدان الإقتصادي، مثل خسارتها لمشروع خط سكة الحديد تونس العاصمة - حلق الواد (احدى ضواحيها)، إلى أن وقعت اتفاقية باردو (ضاحية أخرى للعاصمة التونسية) في ١٢ مايو ١٨٨١ ، وذلك بعد إستفحال الأزمة الإقتصادية في البلاد، واثقال الباي محمد الصادق كاهل السكان بالضرائب المجحفة بسبب الديون الفرنسية العائدة لشركة (أرلانجي) التي تورط فيها إعتبارا من ١٨٦٣. وبسبب الخلاف المالي الذي وقع بين الباي والشركة الفرنسية، تدخل الجيش الفرنسي وجرده من قوة حرسه وسلاحه، وألغى كل سلطاته. وبموجب إتفاقية باردو أصبحت تونس في حوزة فرنسا. ولما كان هذا الإستيلاء على تونس ناعم الملمس واتخذ طابع الحماية، أي ليس إستعمارا فاضحا كما جرى في الجزائر، فقد كانت المقاومة الوطنية التونسية المسلحة ضده قصيرة وواهنة، تمثلت في انتفاضة علي بن خليفة التي انخرطت فيها قبائل الجنوب التونسي بصفة رئيسية، والتي شنتها المحتلون الفرنسيون في اكتوبر ١٨٨١ ، وطاردوا فلولها إلى أن التجأ المجاهدون التونسيون إلى طرابلس المجاورة، وهو ما وضع حدا لها. وعقب إتفاقية باردو لم تجد إيطاليا مناصا من أن تنضم إلى الحلف الثلاثي وهي صاغرة .

## • في الجزائر

وفي جنوب غربي ليبيا (الجزائر)، فبعد أن داهمها الأسطول الفرنسي، وأنزل جنوده في ضاحيتها (سيدي فرج) يوم ١٤ يونيو ١٨٣٠، تم احتلالها يوم ٥ يوليو الذي يليه، هبت الثورة التي قادها الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري تحت راية الجهاد عام ١٨٣٤، وأحرزت الثورة إنتصاراتها الأولية مما أدى إلى توقيع إتفاق باتنه عام ١٨٣٧، وبموجبه حصل الأمير عبد القادر على الحكم في الشمال الجزائري مع ترسيخ نفوذه فيه. إلا أن الغدر الفرنسي انكشف عام ١٨٣٩، واندلعت الحرب مرّة أخرى بعد أن أعلن الوالي الفرنسي الجديد **Bugeaud** شعاره القائل: "حتى نطارد الرعاة، على الجيش أن يتحوّل الى رعاة". وفي عام ١٨٤٣ لجأ الأمير عبد القادر إلى المغرب بعد أن أبلى مع جيشه بلاء الأبطال وهناك استنجد بأشقائه المغاربة فعاضدوه في التصدي للقوات الفرنسية التي غزت حدود المغرب. وجرت معركة إسلي في صيف ١٨٤٣ والتي انكسر فيها جيش الامير عبد القادر، غير أن سلطان المغرب الأقصى رفض تسليمه للفرنسيين. ولم ينطفيء أوار الثورة فاستمرّت في هيئة حرب عصابات تحت لواء الطريقة الصوفية الدرقاوية بقيادة المرابط بومعزة عام ١٨٤٥، كما أن الامير عبد القادر لم يتقاعس، بل واصل القتال في الفترة من ١٨٤٥ - ١٨٤٧، إلا أنه لم يستطع التغلب على الجيوش الفرنسية الجرارة المسنودة بأسطول حربي ضارب، كما استعمل الفرنسيون أسلوب (حرق الأرض) فأتلّفوا المحاصيل ودمّروا المدن والقرى، فلجأ إلى المغرب، لكن هذه المرّة جرى تطويق جيشه، وقيل إن الخيانة داخل المعسكر المرّاكشي كان لها ضلع في ذلك، ثم اعتقل في طولون سنة ١٨٤٧، إلى أن فكّ أساره نابليون الثالث عام ١٨٥٢، وأهداه سيفاً ونقده مبلغاً كبيراً من المال. ومن فرنسا انتقل إلى بروسه في تركيا، حتى إذا وقع زلزال عام ١٨٥٥، أقام في إسطنبول ثم تحوّل الى دمشق، حيث وجد فيها الحظوة والشهرة، والتفّ حوله أعيانها، خاصة عندما اشتعلت الفتنة بين النصارى والدروز، فقام بدور المصلح ووَقّعت جهوده في حماية المسيحيين وإنقاذهم. ثم توجه مرّة أخرى إلى فرنسا لمقابلة نابليون الثالث الذي توثقت علاقته معه. وعندما نزل بالإسكندرية عائداً من زيارة للحجاز عام ١٨٦٤، إنضمّ إلى المحفل الماسوني الفرنسي فيها بشكل صريح، مقتنعاً بما كانت الماسونية تطرحه من شعارات الإستقلال الوطني ومبادئ الحرية والمساواة، يضاف إلى ذلك أنه طمع في أن تسفر الحرب الروسية العثمانية وما أعقبها من معاهدة (سان ستيفانو) ومؤتمر برلين، على تنصيبه أميراً على الشام.

وعندما تشكلت (جمعية الإتحاد والترقي) التركية إنتسب إليها، لأنه سار في تيار التجديد الليبرالي الذي كانت تمثله الجمعية ذات البواعث الطورانية المعروفة، وسيأتي ذكر إنخراطه في محافل الماسونية بسوريا تشبعا منه بهذه الأفكار والإتجاهات الحدائثة التي لم تمنع الأمير عبد القادر من مواصلة دراساته واستيعابه للفكر الفلسفي الصوفي، إذ كان من المولعين بفكر محي الذين بن عربي ونظريته في (وحدة الوجود) التي ألمحنا إليها. بل إنه ألف كتابا في التصوف أسماه (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) إقتبس فيه أقوالا من كتاب والده المسمى (إرشاد المريدين)، وفي آخر سني حياته ألف رسالة في التشريع الإسلامي بعنوان (إرشاد المريدين)، قدّمها كأطروحة للمجمع العلمي الفرنسي، ونال بها شهادة عضو مراسل.

وخلال تلك السنوات التي أمضاها الأمير عبد القادر منغمسا في نشاطات المشرق، استؤنف الكفاح المسلح ضد فرنسا في بلاده الجزائر، فاعتبارا من عام ١٨٥٧ قادته : أولا المرابطة (لا لا فاطمة) التي تزعمت ثورة قبيلة (بني) منضمة إليها بقية القبائل، إلى أن قمعها الحاكم العام **Randon** بجيش قوامه ثلاثون ألف جندي، بعد أن أسر هذه البطلة الوطنية الجبارة. وثانيا : سنة ١٨٦٤ بقيادة سي سليمان زعيم قبيلة أولاد الشيخ جنوبي الجزائر، والذي منحت له امتيازات وسلطات واسعة من قبل الفرنسيين، غير أنه ثار عليهم، حين استشعر الإهانة من قبل بعض ضباطهم. وقد تمكن القائد العام الفرنسي **Beaupretre** من إخماد ثورته وقتله. لكن الثورة إستمرت بقيادة اخيه سي محمد ومعه المرابط سي الأزرق. ولئن صرع هذان القائدان سنة ١٨٦٤ - ١٨٦٥ ، فإن أتباعهما المعتصمين في الجبال، واصلوا الثورة، ولم يتمكن الفرنسيون من اخضاعهم إلا سنة ١٨٨٤. وثالثا: سنة ١٨٧١ بقيادة (المقراني باش أغا قجانه)، وهو من أثرياء قسطنطينه. وقد منحه الفرنسيون هو الآخر سلطات واسعة، غير أن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا، وإعلان الجمهورية فيها الذي هزّ مكانتها، وصدور مرسوم ٢٤ ديسمبر من نفس السنة بمنح يهود الجزائر الجنسية الفرنسية، كل ذلك أغضب المقراني وأثار حفيظته وجعله يعلن عدم طاعته لأي يهودي. ولما أن داهمت المجاعة الجزائر عام ١٨٦٧ ، أشعل الثورة التي انضمت تحت لوائها قبائل البلاد جميعها من البحر حتى الصحراء، وواصل زحفه إلى أن اقترب من الجزائر العاصمة. وهنا في ٦ يناير ١٨٧٢ وقعت معركة وادي (سفلة) بالقرب من (أوميل) والتي سقط اثناءها المقراني شهيدا، فخلفه في القيادة أخوه بومرزاق الذي أخذ

يتراجع جنوبا أمام جحافل الفرنسيين. وفي ٢٠ من نفس الشهر وقع أسيرا في أيدي العدو قرب (رويسات). وأسفر إخماد الثورة عن قيام السلطات الإستعمارية الفرنسية بالغاء الإدارة المستقلة التي كانت قبائل الجنوب تمارسها، وفرضت على هذه القبائل دفع نفقات الحرب الباهظة، وانتزعت منها ٤٥٣٠٠٠ هكتارا من أراضيها ليستقرّ فيها المستوطنون. ومالبت هؤلاء أن تكاثر عددهم واجتاحوا البلاد ليلحقوها بفرنسا على النحو المعروف<sup>٤</sup>.

## • في السودان

والذي يقع جنوب شرقي ليبيا ، فإن اهم أحداثه كانت ثورة محمد احمد المهدي المعروفة عام ١٨٨٢ والتي كوّنّت جيشا جرّارا والتفت حولها جموع الشعب من جميع اصقاع السودان، وطفقت تحرز الانتصارات الحربية اعتبارا من عام ١٨٨٣ . وقد تمثّلت اولا في سقوط الأبيض، ثم دحرت الجيش الذي جنّده الانجليز من المصريين بقيادة **Hiks** باشا واخضعت دارفور وبحر الغزال في نفس السنة .وفي عام ١٨٨٥ احتل المهدي الخرطوم في معركة ضروس صرّع فيها القائد الانجليزي المعروف غوردون باشا **Gordon**، والذي سبق له قمع ثورة تايبينج في الصين. وبعد وفاة المهدي خلفه السيد عبد الله التعايشي، الذي واصل نهجه في خوض المعارك الحربية. وفي الفترة ما بين ١٨٨٥ - ١٨٩٦ خشيت انجلترا خطر انتشار الثورة المهدية، فكلفت السير ايفلين بارينج **Evelyn Baring** المفوض السامي على مصر بالاشراف على إعادة تجهيز جيش مجتد من المصريين، جابه به جيش التعايشي حين حاول غزو مصر خلال ١٨٨٧ - ١٨٨٩ ومن ناحية اخرى عقدت انجلترا تحالفا إنجليزيا مصريا إثيوبيا عام ١٨٨٩ ، كوّنّت بموجبه جيشا خاضت به معركة (ميتيمّا) ضد جيش المهديين والتي قتل فيها ملك إثيوبيا النجاشي يوحنا. كما أن إيطاليا من جانبها استغلّت الإقتتال والتناحر، فاحتلت كسلا عام ١٨٩٤ . وازاء ذلك صمّمت انجلترا ما بين ١٨٩٦ و ١٨٩٩ على احتلال السودان إحتلالا كاملا وسافرا، ليس لحماية مستعمرتها مصر تجاه الخطر الداهم فحسب، ولكن ايضا لإعاقة المشروع التوسعي الفرنسي الكبير الذي كان يهدف الى ربط الاتحاد الترابي بين الكونغو والنيل في افريقيا الاستوائية الفرنسية وبين جيبوتي، عن طريق جيش كان يقوده (مارشاند) **Marchand**، يضاف الى ذلك هزيمة إيطاليا الشنعاء في (عدوه) بالحبشة، وتهديد

٤ هذه الفقرة عن ثورات الجزائر اقتبست من كتاب بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية) - ص ٦٢٥ - ٦٢٩ ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٤.

المهدين لأريتريا. لهذا كله جهّزت إنجلترا جيشا ضخما بقيادة الجنرال كيتشنر Kitchner الذي هزم جيش المهدين في (توشكي) في ٢٥ اغسطس ١٨٩٦، ومن ثم استولى على دنجله وعطبره، ودخل أم درمان والخرطوم يوم ١٩ سبتمبر ١٨٩٨. وأثناء زحف قوات كيتشنير المتواصل بعد ذلك، التقى مع الجيش الفرنسي بقيادة مارشاند Marchand في (فاشوده) التي سميت فيما بعد (كودوك). وتغاديا للصدام الخطير الذي كان سيقع بين الجيشين جرت على الفور اتصالات على أعلى مستوى بين لندن وباريس تقرّر فيها أن ينسحب الفرنسيون من فاشوده، وهو ما جرى في ٤ نوفمبر ١٨٩٨. وفي ٢١ مارس ١٨٩٩ وقّعت الاتفاقية الأنجلو - فرنسية المعروفة والتي قسّمت الممتلكات الافريقية بين الدولتين العظميين، وبذلك اصبح وادي النيل تحت السيادة الانجليزية، وأطلقت يد فرنسا للإستيلاء على افريقيا الوسطى، وهو ما سيقودنا اليه البحث، حين التعرض الى المواجهة الحربية الطويلة بين ليبيا وفرنسا في تشاد بعد ذلك. أما بالنسبة للسودان فقد اعلن الميثاق الانجليزي المصري في القاهرة، انه اصبح تحت الحكم المشترك للإدارتين. ولكن ما ان جاء عام ١٩١٤. حتى فرضت إنجلترا حكمها المطلق على مصر فأصبحت محمية تابعة لها، وبذلك تسنى لها التهام البلدين الشقيقين معا<sup>٥</sup>.

## كيف تمرکز الإمام المؤسس

هكذا كانت إذن الأوضاع والظروف التي اكتنفت الصراع الإستعماري لتقاسم الاقطار المجاورة لليبيا حين بدأ السنوسي الكبير نشاطه الفعلي لنشر دعوته فيها، وامتدّ بعده في عهد ابنه السيد المهدي. ولما أن وجد نفسه وحركته بالقرب من دوامة الإستيلاء والإحتلال الاستعماريين، أثر الابتعاد حتى لاتجرفه الأنواء، وشرع في البحث عن قاعدة ينطلق منها بمأمن من المخاطر. فالمتتبع لتحركاته وتنقلاته يلاحظ أنه لم يحسم أمره في البدء أين يحط رحاله. إذ بعد مغادرته لمصر توجه الى سيوه والواحات المحيطة بها، وواصل رحلته الى بنغازي عبر الجبل الاخضر ومنها الى طرابلس التي وصلها عام ١٨٤١ ولكنه لم يطمئن لتواجد السلطة التركية المركزية في المدينتين، فيمم شطر قابس في تونس مصطحبا زوجته الثانية السيدة خديجة (الحبشية) التي تزوجها في الحجاز والتي وصلت طرابلس بالباخرة قادمة من هناك. وفي قابس ايضا خشي من تواجد النفوذ الفرنسي مما اضطره الى الرجوع الى الجبل الاخضر الذي استصوب الإقامة في ربوعه؛ لأن الحكم التركي

٥ . L'Africa مرجع سابق ص ٦٧

فيه كان أسميا وكانت طبيعته ومناخه أشبه بموطنه في الجزائر، كما ان التجانس كان يغلب على سكانه من البدو، فهم ينكحون من المرابطين والسعادي: (المرابطين)<sup>٦</sup> يتحذرون من السكان الأصليين من نسل البربر وخليط من البربر والأغريق والعرب القدماء من اوائل الفاتحين؛ والسعادي وهم من قبائل بني سليم الذين هاجروا مع قبائل بني هلال من صعيد مصر في القرن الحادي عشر للميلاد، واستوطنوا ليبيا وتونس والجزائر، اذ قويت شوكة بني سليم في برقة بصفة خاصة. فقاموا من جانبهم بتهجير ابناء عمومته من قبائل (أولاد علي) والجوازي والفوايد الى مصر، وذلك بسبب الصراعات التقليدية على المرعى والمياه، والتي وكانت حروبا دامية ومتقطعة اشدت رحاها ما بين ١٨١١ - ١٨٣٢ ولم تنته الا عام ١٨٦٥ حين أكرهت آخر فلول أولاد علي على النزوح والتمركز شرقي السلوم. ويروي لنا اوغوستينو<sup>٧</sup> انه نتج عن ذلك النزوح ان قبائل العبيدات والبراعصة والدرسة والحاسة وهي من السعادي (الحرابي)، قامت باحتلال الاراضي التابعة للفوايد في الجبل الأخضر، وان قبائل المغاربة والعواقر والعبيد والعرفة وهي من السعادي (البراغيث)، استولت على اراضي الجوازي شرقي بنغازي. ثم قام المغاربة بمطاردة القبائل القاطنة غربي بنغازي، وتشتيتهم بعد معركة (علم الزغبة) جنوب شرقي مرسى البريقة عام ١٨٣٢. ومن هناك توسع المغاربة في السهل الممتد حتى منطقة البحيرات الملحة (السياب) جنوبي سرت التي عين علي الأطيوش رئيس المغاربة مديرا عليها عام ١٨٤٥ م. وفي نفس الوقت أجبر تحالف قبائل العبيدات والبراعصة والدرسة والحاسة (أولاد علي) على الجلاء نحو الشرق بعد ان استولى العبيدات على اراضيهم في مناطق درنة والبطنان، ومكنوا البراعصة والدرسة من الحصول على مزيد من الأراضي في الجبل الأخضر .

وقد أجمع المؤرخون أن السنوسي الكبير استطاع عن طريق بث دعوته المصالحة بين القبائل بتسوية الثأر ودفن الإحن بينها، مستعملا المواعظ السمحة للإسلام المبسط، مما خلق له شعبية في ذلك المجتمع البدوي. وبعض هؤلاء المؤرخين كشفوا عن عادات ومعتقدات جاهلية كانت شائعة في ذلك المجتمع استطاع السنوسي الكبير أن ينهي عنها

٦ أبقينا على كلمة (المرابطين) منصوبة، كإسم يُطلقه عليهم أهل البلاد، وللتفريق بينهم وبين الصفة التي يحملها المرابطون المنتسبون الى أصول دينية شريفة، على الرغم من انتحالهم جميعهم لنفس الأصل مع وجود تبايناتهم العرقية.

٧ Augustino هو المؤرخ الايطالي الذي تخصص في ديموغرافية ليبيا في كتابه سكان برقة - بنغازي ١٩٢٢.

ويقضي عليها. ومن أطرف ما رواه أحمد حسنين الذي تجول في المنطقة وعاشر أهلها وتعرف على شيوخ السنوسية، أن مؤسسها رأى "مسلمي برقة سادرين في غيابات الضلال معرضين لخطر الإضمحلال السريع من الوجهتين الدينية والخلقية، فأراد أن ينتشلهم من وهدة السقوط. وإنا لنسوق بعض الأمثال لتلك الأعراض التي غيرت من معالم الدين الحنيف: أسس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو في الجبل الأخضر شمال برقة ضربا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام الذي قضى الإسلام بحجّه على كل من استطاع إليه سبيلا . وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزانفة أن يدخلوا في أذهان

البدو أن زيارتها تقوم مقام حجّ بيت الله الحرام<sup>٨</sup>. وأراد أولئك الشيوخ أن يتخلصوا من صوم رمضان والإنقطاع فيه الى العبادة، فابتدعوا لذلك بدعة هي أن يذهبوا قبل حلول رمضان بأيام الى واد اسمه وادي زازا، وهو معروف بقوة رجوع الصدى الذي تردده جوانبه، ثم يصرخون جميعا سائلين: أي وادي زازا أنصوم رمضان أم لا ؟ فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة من هذه الجملة ، وهي لا لا . ويصور من سأل ذلك الوادي أنهم أصبحوا في حلّ من الإفطار فيفطرون غير مقتدين بأوامر الدين الحنيف قانعين بأن الأمر صدر اليهم بعدم الصوم. ومما يذكر أنه في بداية تعاليمه (أي السنوسي) أقيمت الصلاة فدخل المسجد إعرابي اسمه مجرم ووقف في الصفّ الأول يصلي لأول مرة، فقرأ الإمام آية (ألم نهلك الأولين) فتأخر الى الصفّ الثاني فقرأ الإمام (ثم نتبعهم الآخرين) فتأخر مجرم الى الصفّ الأخير فقرأ الإمام (كذلك نفعل بالمجرمين) فخرج مجرم من بين المصلين يعدو مهرولا الى داره (في صحراء ليبيا) ص ٤٩ - ٥٠ ، فسألته إمرأته وقد رأته مضطربا ما خطبه فقال : ها دوة الصلاة دوة وعرة، هلك الأولين توخرت، هلك الآخرين توخرت، نادى بالإسم يا مجرمين عدت!. ثم أشار أحمد حسنين الى محاربة الإمام السنوسي لعادة قتل البنات التي كان البدو المتأخرون يخشون أن تجلب لهم العار<sup>٩</sup>. أما الإيطالي سيرا فقد روى أن من ضمن العادات السيئة أن البدوي كان يبائع في إقراء الضيف لدرجة أنه يعرض عليه إحدى نساء العائلة قبل بدء المأدبة، مما يعني اعتبار المرأة متاعا يقدم كهدية ! كما نقل ما رواه له أحد شيوخ السنوسية (أحمد الموهوب) عن شاب من (وادي) بالسودان التقاه في واحة (الفرافرة) يبحث عن والده، فوجد زوجته

٨ أشار إليها الصلابي (ص ٧٣) إشارة مختصرة نقلا عن (السنوسي) الكبير للطيب الأشهب ، الذي لاشك في أنه استقاها من رواية أحمد حسنين السابقة لكتابه بثلاثة عقود.

٩ (Italia e Senussia) P.16

المصريّة أرملة فتزوّجها طبقاً لعاداتهم، بينما نصحه الموهوب بقوله: "مادام والدك ترك لك فرساً جميلة، كان أولى بك أن تتبعها!". ولاشك أن سيراً ساق هذه الرواية (وكتابه صدر في العهد الفاشيستي) من قبيل الهزؤ بأتباع السنوسية والتشنيع بشيوخها. فمثل هذه العادات المنتهكة والمهينة لأدمية المرأة كانت من بقايا الجاهلية الأولى، وربما مورست داخل نطاق قبلي ضيق في فترة ضاربة في القدم، إذ يحدثنا الرحالة المعروف أبو سالم العياشي المتوفى عام ١٠٩٠ ميلادية عند رحلته عبر الأراضي الليبية، عن مثل هذه العادات كونها من النوادر حتى في ذلك العهد السحيق، فقد روى في كتابه (الرحلة العياشية أو ماء الموائد)، يصف سكان الجبل الأخضر في برقة آنذاك: "ونوادر هذا الجبل في رخاء الأدام وغفلة أهله عن قيمته وكثرة خصبه وبيعهم لبناتهم وأخواتهم أشهر من أن يُذكر"<sup>١٠</sup>. بينما نجد رحالة آخر وهو محمد عثمان الحشاشني زار البلاد عام ١٨٥٩ تقريباً (أي بعد ثمانية قرون من رحلة العياشي، وفي عهد انتشار السنوسية فيها) يعكس الآية في وصفه لحياة وأخلاق هؤلاء السكان، فيقول في كتابه (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب): "وسكان هذا الجبل أعراب بادية لسانهم طليق فصيح بالعربية وطباعهم حسنة وأخلاقهم طيبة لينة معتقدون في شيخهم سيدي محمد المهدي السنوسي اعتقاداً لا ترزحه الجبال، ويخافون الله ورسوله، أصحاب عبادة، والأمن وعدم الخوف قد ضرب أطنابه بأرضهم. فالغريب والسواح عندهم لا يُهضم له جانب ولو كان معه حمول الذهب والفضة"<sup>١١</sup>. وهكذا يتضح للقارئ التضليل الذي اعتسفه المؤرخون الأوربيون باستغلال عادات عتيقة انقضت سعياً لتحقيق مآربهم. دون أن يُنقص ذلك طبعاً من كون دعوة السنوسية قد أصلحت من سلوك أقوام مجتمع بدوي غرق في مهاوي التخر والرجعية. وهو ما أجمع عليه المؤرخون القدامى والمحدثون، أوربيين كانوا أو عرباً، بل إن أحمد حسنين في كتابه "في صحراء ليبيا" المذكور يكرّر الإدعاءات عن ممارسة هذه العادات البائدة بقوله "وكان في بدو تلك النواحي بقية من العادات البربرية القديمة فكانوا يقتلون البنات خشية ما قد يجلبته عليهم من العار. وهذه العادة المرذولة تحول بين هؤلاء القوم وبين التقدّم الى مصاف ناشري الدعوة للإسلام."<sup>١٢</sup>

١٠ " ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات" ص ٢٢٢

١١ المرجع السابق ص ٢٨١

١٢ ص ٥٠.

وأثناء مرور الإمام المؤسس بمدينة طرابلس عام ١٢٥٧ هجرية (حوالي ١٨٤٠ م) قادما من قابس، نزل ضيفا على عائلة المنتصر في بيت عميدها أحمد المنتصر. وكان الوالي آنذاك هو علي عشقر أو أشقر باشا. ويبدو ان أخبارا كيدية وصلت إلى الوالي العثماني حول مخاطر تحركات السنوسي الكبير من أحد شيوخ الطرق الصوفية، إلا أن مساعي أعيان وعلماء المدينة، واقتناع الوالي بتقوى وغزارة علم السنوسي الكبير وقوة حجته في السجال الفقهي، جعلت الوالي يطمئن إلى جانبه ويحسن وفادته بل وان يصبح أحد المعتنقين لدعوته<sup>١٣</sup> ثم واصل السنوسي الكبير رحلته متوجها إلى الشرق ومعه بعض أعيان طرابلس ومصراته. وفي سرت استقبل من وجهاء وأعيان برقة خاصة من قبائل العواقر والمغاربة وبنغازي والجبل الأخضر، ثم أقام ضيفا في بنغازي طيلة شهر رمضان على عائلات الكيخيا وبن شتوان وامنينه وغيرها. وقد انتشرت سمعته في انحاء البلاد كأحد الأولياء ذوي الكرامات حسب معتقدات السكان في ذلك الزمان، ورويت عنه عدة حوادث لتأكيد كراماته تلك مثل إسباغ بركاته بالدعاء على شيخ قبيلة العواقر (أبي شنيف الكزة) الذي أشرف على الموت لمرض خطير أصابه فشفى في الحال، كما أن الحشاشي ذكر في كتابه روايات من هذا النوع.

## الزوايا : فلسفتها وتنظيمها

بعد مجيء السنوسي الكبير الى برقة عام ١٨٤١ م والذي صادف بداية عهد الحكم العثماني الثاني لليبيا؛ أنشأ بعد ثمان سنوات من ذلك التاريخ أول زاوية سنوسية في الجبل الأخضر في ناحية (سيدي رافع) نسبة إلى وجود قبر الصحابي روفيع بن ثابت الأنصاري فيها، وسماها الزاوية البيضاء. وهو الآن أسم مدينة البيضاء إحدى المدن الرئيسية في ليبيا. وقد وصف (دو فيريير) الزاوية بانها: "موند جميل ذو حجم رباعي مطوق بجدران مرتفعة بيضاء، ويقع في حلق واد يبعد مسافة أثني كم شرقي قبة سيدي رافع في منطقة قبيلة الحاسة، وعلى مقربة منها يوجد مبنى أصغر حجما ملحقة به مزرعة ومخزن للمحاصيل التي يقوم العرب التابعون للطريقة بجنيها في حقول هذه المزرعة". وفي عام ١٨٤٦ أي بعد ثلاث سنوات من تشييد الزاوية، قام السنوسي بزيارته الثانية لمكة حيث أقام هناك حوالي ثمان سنوات عاد بعدها إلى البيضاء عام ١٨٥٤، وقرّر نقل مقره إلى عمق الجنوب في واحة (الجغبوب). ويبرز سببان لذلك: أولهما خشيته من الضغوطات التركية، إذ أرسل إليه السلطان عبد الحميد يدعو لزيارة اسطنبول، بعد أن أصدر مرسوما يعفي السنوسية من دفع الضرائب كمناورة للتقرب، جريا على أسلوبه آنذاك في التعامل الودي

١٣ الصلابي - مرجع سابق ص ٥٩ و ٦٠ نقلا عن السنوسي الكبير للطيب الأشهب.

والسخي مع تنظيمات الجامعة الإسلامية، خاصة العربية منها في أنحاء إمبراطوريته، وثانيهما رغبة السلطان في تقوية نفوذه في الأصقاع الجنوبية لليبيا، لأن الجغبوب ذات موقع استراتيجي يتوسط التجمعات القبليّة في الشرق والغرب، والتي كانت تتنازع دائما فيما بينها<sup>١٤</sup> كما قد يرجع هذا الاهتمام بموقع الجغبوب وتمركز السنوسي الكبير فيها إلى بدأ الإهتمام في الأوساط الإستعمارية الأوربية المتنامي بطرق القوافل التجارية الموصلة الى موارد القارة الأفريقية، والتخطيط لتقاسم النفوذ بينها في المناطق أو الممتلكات العثمانية منها، كما أطلق عليها.

وكانت الزوايا التي نشرتها الطريقة في كل الانحاء التي وصل اليها ممثلوها وأتباعها، هي المراكز والدعائم التي انطلقت منها ورسخت دعوتها، وجسّدت الكيان التنظيمي لحكومتها حتى أصبحت (دولة داخل الدولة)، وكأنها تستلهم بذلك ما قاله الإمام الغزالي في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد): "إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا؛ فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل اليهما الا بصحة البدن وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والسكن والأقوات والامن، ولعمري من أصبح آمنا في سره معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها. وليس يأمن الانسان على روحه وبدنه ومسكنه وقوته في جميع الأحوال بل في بعضها، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية. وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة؛ متى يفرغ للعلم والعمل وهما سيلتاه الى سعادة الآخرة؟ فإذن إن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين ". وتطبيقا لهذا النهج الذي بزواج بين الدين والدنيا، كانت الزاوية السنوسية هي نموذج هذا المجتمع الذي سعى إليه مؤسسها. فقد وصفها الإمام المؤسس بقوله: "إن الارض تبتهج حولها بأنواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار، وتنتشر فيها العمارة وتتسع الإدارة، والعاملون فيها بالزراعة والحرف هم السابقون عند الله على العاكفين على الأوراد والأوراق والمسابح ". وهناك الكثير من الأقوال الصادرة عنه والتي تحمل نفس المضامين، نقلها المؤرخون للسنوسية.<sup>١٥</sup>

١٤ د. س. س. آدمز ص. ٩ - مرجع سابق

١٥ أورد الدجاني في كتابه عن الحركة السنوسية - مرجع سابق - عدة رسائل خطية منه الى شيوخ وأعيان البلاد صورها من دار المحفوظات التاريخية في طرابلس، وكلها تثبت هذا التوجه لدى مؤسس الحركة، كما أثبتتها الطيب الأشهب في كتابه السنوسي الكبير - مرجع سابق.

الزاوية إذن كانت أسّ التنظيم الذي ارتكزت عليه الطريقة الإخوانية. وهيكّل هذا التنظيم بسيط يتلاءم مع الطبيعة البدوية التي نشأت فيها وحياء الرّحل والرعاة في دواخل البلاد ونواحيها القبليّة. وكانت تشيّد في مركز الناحية أو وسط نجوع القبيلة وتتكوّن من ثلاثة أقسام: المدرسة أين يقوم الإخوان بالتدريس وتلقين النشأ، وبيت للضيافة مخصّص للزوّار وأيضا لعابري السبيل والمسافرين، والذين يستطيعون الإقامة لمدة ثلاثة أيام كضيوف في الأكل والشرب. وحسب الحشائشي تتكوّن الوجبات المقدّمة مجانا من أرز ولحم الجمل في اليوم الأول، معجون القمح والشعير مع المرق واللحم (وهي مجتمعة تعني الأكلة الليبية البازين) في اليوم الثاني، ومعجون التمر في اليوم الثالث، وما بعد الأيام الثلاثة على الزوّار ان يتولوا إطعام انفسهم. أمّا القسم الثالث فهو مقرّ إقامة الإخوان الذين يقودهم الشيخ أو المقدم وهو إمام الجماعة، ثم الوكيل وهو المشرف والمسئول الإداري للمنطقة، وفوق الجميع هناك طبعا شيخ الطريقة. هذا التسلسل المبسط للتنظيم، ولكن المسموع والمطاع من قبل التابعين والسكان، خلق سلطة (ثيوقراطية) لشيخ الطريقة ومقدم الزاوية تسير أمور تلك التجمّعات بانتظام دائم. وقد سمع (دوفيريير) قول السكان حين يقسمون: "وحقّ سيدي السنوسي!" مما يدلّ على خضوع ورهبة تعترتهم أزاءه. وروى نفس المؤرّخ أن الأب (أنجلو ماريا دي سانت أجاتا) عميد البعثة التبشيرية لطانفة الفرنشيسكان في طرابلس صادف ان قابل في عام ١٨٤٥ السنوسي الكبير في مدينة درنة، وكان في زيارة لها، ووصفه بالقول: "رغم ان طريقته كانت في ذلك الوقت في بدايتها، إلا انه أعتبر شخصيّة جليّة، وكان يُخفي وجهه على الجميع ويضع قناعا كلما خرج من المنزل، وكأنه يريد أن يوحي إلى من يشاهده من البسطاء أن رؤية هالته القدسية هي من المحرّمات". ودوفيريير المذكور والذي عُرف عنه عداؤه للسنوسية بسبب الدوافع السياسية الفرنسية المعروفة، قال عنها: "إن التفكير الأساسي لهذه المؤسسة يتمثل في الرفض الثلاثي وهو: لا للمدنيّة الغربية! لا للتحديث المؤذي الى التقدم الذي أدخله الملوك المعاصرون في بعض الاقطار الشرقية! ولا للتجارات الجديدة التي تهبّ على البلدان التي تظللها البركة الإلهية! وبناء على ذلك بات من الضروري مراقبة هذه الطريقة عن كثب والتصدي لانتشارها أينما كان"<sup>١١</sup>.

وفي وصف دوفيريير لزاوية الجغبوب التي زارها في عهد المهدي السنوسي قال عنها " لقد أسّسها السنوسي الكبير عام ١٨٦١ م". أمّا الصلابي<sup>١٢</sup> فنقل عن دائرة المعارف للبيستاني، أن السنوسي الكبير دخل برقة للمرة الثانية عبر مصر عام ١٨٥٤ م. وأقام في

١٦ دوفيريير ص ١٧٦ مرجع سابق.

١٧ ص ٨٧ - مرجع سابق.

الجبل الأخضر في بلدة العزّيات، وهي أطلال قصر قديم رَمّمه ولقبه بهذا الأسم، وذلك لمدة عامين ثم تحوّل الى الجغبوب لبناء زاويتها أي حوالي ١٨٥٦ ويتفق هذا مع ما ذكره ماريانو<sup>١٨</sup> من أنه شيّدَها حوالي عام ١٨٥٥ م وشرع في بناء خزانات للمياه وزراعة أشجار الفاكهة. وحتى عام ١٨٧٤م لم يضمّ المنتجع سوى الفقهاء والطلاب والعبيد. وبعد سنتين وُجِدَت فيها مخازن للأسلحة، كما ازداد عدد البنادق المطلوبة من مصر. وكانت الطريقة تستحوذ على خمسة عشر مدفعا أشتريت من الإسكندرية مع عدد من البنادق والذخيرة، وشوهد العديد من الخيول في أسطبلات الزاوية. أما في داخلها فالأرقام تحدّثت كالآتي: في عام ١٨٨٠ م قُدِّر عدد أفراد حرس سيدي محمد المهدي الخاص (ذوي الأصل الجزائري فقط) ب ٤٠٠ مجندا. وقد شكّلوا عام ١٨٨١ م حاشية ضخمة في الجغبوب إضافة الى من معهم من العبيد - يقارب عددهم ٢٠٠٠ عبدا - ومن بين الجزائريين المقيمين في الزاوية يبرز (بوغندورة) الذي حرّض على العصيان في جلفه بالجزائر عام ١٨٦١ ، كما أقام فيها المراكشيون والطلبة من جميع الأصقاع. وبعد ذلك تناقص عدد الطلاب، كما علمنا من أحد الحجّاج الذي قابلناه في طرابلس عام ١٨٨٣ وكان عائدا من الجغبوب، فقدّر عددهم آنذاك ب ٧٥٠ طالبا فقط". ويستطرد دوفيريير في وصفه، أن الجغبوب كانت بسبب موقعها الجغرافي "محطة كاد التوقف فيها أن يكون إجباريا لأولئك المؤمنين الذاهبين الى الحج من المغرب والسودان. وهو الأمر الذي حدا بنا (أي بالفرنسيين) إلى منع هذا التدفق الضار، وذلك بتوجيه الحجّاج الجزائريين إلى مكة عن طريق البحر مباشرة" كما ذكر أن عدد سكان واحة الجغبوب تراوح ما بين ٦٠٠٠ - ٧٠٠٠ نسمة متحصّنين فيها كأنهم في قلعة، ويقدمون خدماتهم وبضائعهم بشكل جماعي. أما العبيد فكانوا يجمعون محصول الارض الذي يتم تقاسمه بين الزاوية والأتباع حسب القدرة والجاه والنفوذ والجدارة الشخصية. ونفس النظام كان يتبع في الزوايا الأخرى الفرعية. غير أن هناك جزءا ثالثا إلزاميا يحول من هذه الزوايا إلى الزاوية الأم في الجغبوب أو مقرّ الإمام بالمدينة المنورة. كما ذكر دوفيريير أن بالزاوية الأم مكتبة ضخمة تضم ثمانية آلاف كتاب<sup>١٩</sup> واللافت للنظر أن الحشاشي أكد نفس الرقم على الرغم من استبعاد اتصاله بما كتبه المؤرّخون الأوروبيون. إذ يصف الجغبوب "بأنها موئل علمي يجمع فقهاء كبارا بعضهم متخصصّ في التفسير وعلم الحساب، وبها أكثر من ثلاثمائة طالب وفدوا إليها من بلدان مختلفة لطلب العلم. وأنه قابل فيها أدباء مرموقين تضاهي أعمالهم شعراء العراق والأندلس، وتحتوي على مكتبة بها أكثر من ثلاثمائة صنف

١٨ ص ٤٧ مرجع سابق.

١٩ أورد هذا الرقم كل المؤرخين تقريبا وكان أولهم الانجليزي بورتون الذي كان متواجدا في الحجاز في صيف ١٨٥٣ حيث ذكر "إن الشهير محمد السنوسي نقل مكتبته التي كانت تربو على ٨٠٠٠ سجدا من المدينة الى مقرّه في جبل ابي قبيس بمكة" ماريانو ص ٤٦ مرجع سابق.

تتضمن أشهر المؤلفات. فلا يوجد كتاب في العالم لم يسع فقهاء الجغبوب إلى الحصول عليه<sup>٢٠</sup>. وعدّد الحشاشني ما تحويه بـ ١٢٥ مصتفا أضاف إليها السنوسي الكبير ٢٥ مصتفاً آخر، وأن بعض علمائها كان يحفظ في الذاكرة مائة ألف قصيدة. وكان من بين مدرّسيها الشيخ أحمد الريفى أحد تلاميذ السنوسي الذي أصبح فيما بعد أستاذاً لأبنائه، والفلاح مستشار السلطان عبد الحميد وهاشم ومحمد السنّي الذي أوفده السيد المهدي في وقت لاحق إلى كانم وبرنوح ليلتغ زعيمها رباح إنذار شيخ الطريقة السنوسية بضرورة التحالف أو اعتباره منشقاً<sup>٢١</sup>.

وإجمالاً للقول فإن هذه الزوايا انتشرت ايّما حلّ مؤسس الطريقة، ومن خلالها انتشرت الدعوة بشكل واسع حتى أن دوفيريير ذكر " انه في واحة الفرافرة بمصر حيث تمركزت السنوسية منذ عام ١٨٦٠ ، كانت أقلّ من ثلاثة عشر سنة كفيّلة بتغيير سلوك السكان وأصول الملكية ؛ فالمزارع غدت أكثر إنتاجاً وازداد عام ١٨٧٣ عدد الآبار التي تملكها الطريقة، وأصبح هؤلاء السكان ذوي مشاعر متطرّفة بعد أن كانوا في الماضي يتصفون بالتسامح الى درجة عدم الإكتراث. وفي عام ١٨٦٩ كان بمقدور المسيحي أن يُنشئ علاقة تعارف مع المجابرة في واحة جالو بكل سهولة، ولكنه عندما عاد عام ١٨٧٩ وجد أولئك الأصدقاء القدامى غلاة متهورين. وحتى عام ١٨٥٠ كانت ثروة زاوية مزده التي تقع على تلال طرابلس، تتكوّن من ثمانية فراخ من طير الحمام، كما اشتكى مقدّم الزاوية الى الرحالة الإنجليزي الشهير هاينريش بارت<sup>٢٢</sup> من خمول ولا مبالاة سكان الواحة. ولكن في عام ١٨٦٣ أصبح لهذا المقدّم مركز نفوذ يُحسب حسابيه، حتى انه كان يستضيف العائلات الغنية من أولاد سيدي الشيخ الجزائرية الذين لجأوا الى زاويته لأسباب سياسية " وحسب تقديرات دوفيريير المذكور، وُجدت حتى عام ١٨٨٤ في كل أنحاء ليبيا ٦٦ زاوية ؛ منها ٣٨ زاوية في برقة و ٢٨ في طرابلس. أمّا في بنغازي فقد وُجدت زاويتان والثالثة كانت تحت الإنشاء بأشراف الوكيل التجاري للسنوسية آنذاك مفتاح البتاني. وبالنسبة لوضع الطريقة في مدينة طرابلس ذكر أنه في عام ١٨٧٦ وُجدت ممثلية سنوسية عامة يديرها محمد بن مصطفى ومحمد بن طاهر، وبعد ذلك أخذ يديرها الهادي

٢٠ والواقع أن المؤرخ الكتاتني في كتابه (فهرس الفهارس والإثبات) سبق الحشاشني في الإشادة بتلقّف السنوسي الكبير على العلم، حيث ذكر : "وكانت له همة عالية ورغبة عظيمة في العلم وجمع الكتب. وكان ينتدب جماعات من طلبته الأجانب كلّ واحد أو أكثر يوجّهه لجهة بقصد جمع الكتب شراء وانتساخا، وما سمع بمعاصر ألف كتابا في الحديث إلا وكتب له عليه على بعد الديار وطول المسافة" "ليبيا في كتب التاريخ والسير" مرجع سابق ص ٢٩٨

٢١ ماريانو- نفس المصدر والصفحة وسيرد في الفصول القادمة تحقيق عن رباح وعائلة السنّي ودورهم في الصراع ضدّ فرنسا في تشاد.

٢٢ هذا خطأ لأنه ألماني ولم يكن إنجليزيا

المبارك من مدينة مراكش. وكانت هذه الإدارة على هيئة حكومة أو دولة، فالقائمون عليها كانوا يلقبون بالوزراء. وفي تلك السنة كان الوزير الأول هو سيدي علي عبد المولى من صفاقس التونسية، والوزير الثاني كان سيدي عمران (لعله عمران السكوري) من بلدة زليطن، وكان المشرف على الدروس الفقهية سيدي محمد الشريف أخ السيد المهدي، أما إمام الجامع الكبير فقد كان سيدي محمد الزروالي من مدينة فاس المغربية والذي يتحدّر من بني زروال في ولاية وهران ."

وفي تونس التي يقول نفس المؤرخ: إن الزاوية لاقت معارضة فيها بسبب زحف المدنيّة الأوروبيّة عليها، إلا أنه يذكر زاوية العرب - التي هُجرت - وزاوية نفضة، وفي الجزائر يذكر زوايا بوسعد، ومسعاد، ومازونه.

وبالنسبة لوضع السنوسية في المغرب الأقصى فإن المؤرخين اتفقوا على ضعف إنتشارها هناك. ونظرا لأهمية المغرب الأقصى في تاريخ الزاوية الصوفيّة، فحرّي بنا إثبات ما نشره عنها المؤرّخون المغاربة مثل الباحث والصحفي محمّد جنوبي الذي أصدر كتابا عنها ذكر فيه أن : المغرب هو بلد ١٠٠,٠٠٠ وليّا الذين خُلفوا جملة من المناقب والكتابات المتداولة في محيط الوليّ أو في المغرب (شمال أفريقيا) كله. والوليّ هو إنسان مميّز لكونه قادرا على قهر نفسه والقسوة على جسده حدّا لا يُطاق ولا يُحتمل. وكان لهم دورهم في تكوين الزوايا عن طريق تأسيس الكتاتيب القرآنية، وانفراد الفقهاء بطلبهم في زوايا المساجد، "ثم تطوّر ذلك مع مرور الزمن إلى مدارس خاصة للعلوم الدينية، وتفرّع عنها مساكن للطلبة والضيوف وعابري السبيل، ثم أضيفت إليها رباطات لسكن الفقراء والمساكين والمحتاجين كان يقيمها الأثرياء والأمراء قربانا وصدقات جارية في سبيل الله تعالى. ثم بعد ذلك تطوّرت بعض هذه المدارس والرباطات إلى معاهد عليا وجامعات للعلوم الدينية والدينيوية، يتخرّج منها فطاحل العلماء والفقهاء والمفكرين، مثل ما هو حال جامعة القرويين بفاس وإبن يوسف بمراكش والزيتونة بتونس؛ في حين تحوّل بعضها الآخر إلى مراكز للعبادة والذكر والتزهد والإنطواء على الذات، ترقبا لإشراق روعي مؤمّل، أو نسمة خيال مجنّح، أو شطحات حال مُغرّية. وبعد أن ازدهرت ظاهرة الزهد والفرار من مشاق المعاناة الدنيويّة والظلم الاجتماعي والإقتصادي والسياسي، وتأثرت

بالتقافات الدينية الأجنبية الدخيلة هندية وفارسية، تحول بعضها إلى مراكز لتصوّف مغال أو معتدل، وبعضها الآخر إلى نوع من المزاجية بين طلب العلم والتصوّف".<sup>23</sup>

أمّا عن أشهر الزوايا المغربية فيفيدنا الباحث المغربي الآخر محمد بن نجيب البهاوي عن طريقتين هما:

"الطريقة الناصرية، ويتزعمها مؤسسها الشيخ أمحمد بن محمد بن أحمد بن الحسين بن ناصر، الفقيه المصلح الذي يؤثر عنه أنه يلتزم السنة، وهي الطريقة الأولى التي قيل إنها تأسست على مبادئ السنوسية المشهورة، وبقيت طريقتة حتى الآن ليس فيها طقوس ولا خرافات ولا بدع كبقية الطرق، حتى إنه كان يصلي الجمعة -على ما يذكر عنه- ولا ينصر الملوك، وإن كان لا يخل عليهم بالدعاء. وله بعض المؤلفات: منها "الفتاوى الناصرية". وقد عاش هذا الشيخ في القرن الـ ١٢ الهجري.

الطريقة الثانية: هي الطريقة الدرقاوية، وقد أنشئت أصلاً واشتهرت على يد مولاي العربي الدرقاوي المتوفى سنة ١٢٣٩هـ. وعمره نحو ٨٠ سنة، وكان يعيش في قبيلة بني زروال قريبا من مدينة فاس شمال المغرب، وله كتاب (الرسائل). وهي رسائل إلى مريديه وتلاميذه، ومهمته الأولى التربية على منهاج المتصوفين، بتربية الأئمة على التقشف ولبس المرقعة، ثم انتشرت هذه الطريقة في جنوب المغرب.

والدرقاوية طائفة يغلب على أهلها الوعظ والإرشاد وحفظ الأشعار التي تحث على التزام الإسلام والأخلاق، وما إلى ذلك، ولهم جولات في شتى البلدان التي يعرفون فيها، غير أن لهم بعض الطقوس يلتزمون بها كالذكر الجماعي والتزام نوع من الطرب عند الذكر، والتمايل والقيام إلى أن يضربوا بأرجلهم وأيديهم في حركات معروفة عندهم.<sup>24</sup>

٢٣ كتاب "الأولياء في المغرب: الظاهرة بين التجليات والجذور التاريخية والسوسيوثقافية: حياة وسير بعض مشاهير أولياء المغرب"

٢٤ كتاب المغرب عبر التاريخ، د. إبراهيم حركات. الجزء الأول ص: ١٥٨

وكان للطريقتين سالفتي الذكر تأثير حسن في كافة العامة في البوادي وغيرها، حيث كان للالتزام أهلها بالإسلام وحثهم الناس عليه بالغ الأثر، ثم دخلت الطريقة التيجانية مؤخرًا، ونافست الطريقتين السابقتين، ولكن أهلها يغلب عليهم الانعزال عن العامة، ويحاولون جذب الخاصة كالفقهاء والأغنياء، وقد اقتنع بها كثير من هؤلاء وأولئك، وبسبب ذلك فهي لا تُعنى بالدعوة العامة للإسلام، ولكن لشيوخها والمتقدمين فيها مؤلفات تهتم بالدرجة الأولى بنشر الطريقة والدعوة إليها ونشر محاسنها".

وتشكل الزوايا التي شكلها متصوفة العهد المريني مظهرًا دينيًا واجتماعيًا زاحم فضاءات المساجد إلى الحد الذي دفع بعض سلاطين المغرب إلى محاربتها والتقليص من عددها لكونها كانت مدار استقطاب شعبية. ومع انتشار المذهب الوهابي بالمغرب على عهد محمد بن عبد الله والمولى سليمان تعرّضت الزوايا لحروب إبادة حقيقية<sup>25</sup>.

وفي وصفه لضعف نفوذ السنوسية في المغرب الأقصى يذكر البروفيسور مونتني من جامعة جنيف: "إن الطريقة لا تعدو مجموعة محدودة من التابعين اندمج معظمهم في المجتمع وكانت تضطلع بأمور الحج إلى مكة. والسنوسيون الذين لا يجدون تعاطفا من المغاربة عموما، لديهم زاوية في مراكش. ولقد قيل لي عندما كنت في المغرب إن أحد أقطاب السنوسية جاء من الجنوب (السنغال) وزار السنوسيين في وادي دراع، وأنه استقبل بحفاوة من قبل الحكومة المركزية المغربية لدواعي تتعلق بالأمور السياسية".

و في رأينا أن من بين الأسباب أيضا، هو قوة المؤسسة الدينية في المغرب، وهي مؤسسة متجذرة وتمارس السلطة الروحية والزمنية ممثلة في السلطان الذي يلقب أيضا بأمير المؤمنين. ووفقا للتسلسل الهرمي لمنظومة الحكم في المغرب، فإن دور الطرق الصوفية كان دور الوسيط بين العرش و الرعية أو بين المخزن والسياسة، كما كانت تمارس فضّ المنازعات بين القبائل و الأقسام المغربية مستخدمة طقوس (البركة) وما يتمتع به الأشراف من نفوذ معنوي لصالح السلطان. و في مثل هذه الظروف لا تتحقق للسنوسية السطوة و مطامح الحكم المطلق التي كانت تتشدها. وعلى الرغم من التواجد القوي للطرق الصوفية في المغرب الأقصى إلا أن هذا لم يمنع من أن يصل إليه تأثير حركة سلفية رائدة هي الوهابية، فقد كانت: "أيديولوجية الدولة في عهد السلطان سليمان (١٧٩٢ - ١٨٢٢) الذي رحّب رسميًا بالوهابية وطبق تعاليمها وراسل القائم عليها بالحجاز آنذاك الأمير عبد الله بن سعود. وكان هذا الأخير قد بعث رسالة الى السلطان

٢٥ "الأولياء في المغرب" نفس المرجع.

سليمان يشرح فيها الدعوة الوهابية ويدعوه لاعتناقها، فلقيت الرسالة اهتماما كبيرا لدى السلطان وحاشيته العلمية، كما قامت مناقشات حولها في أوساط الفقهاء بفاس. وقد كلف السلطان جماعة منهم كتابة رسالة جوابية حملها إلى صاحب الحجاز وفد من العلماء في موسم الحج رأسه ابن السلطان نفسه ١٨١٨ وقد عاد الوفد معجبا بابن سعود وسلوكه الديني وتطبيقه للسنة النبوية، فتعززت بذلك الدعوة للأفكار الوهابية بالمغرب ولو أن الوهابية لم تكن هي الموصل إلى حركة الإصلاح التي كان سلاطين المغرب يرنون إليها لكونها: "لم تتحرك ضمن أفق مستقبلية ولا كانت فيها بوادر لوعي نهضوي بالمعنى الحديث للكلمة، وإنما كانت تتحرك في دائرة القديم وضمن إشكاليته الدينية والسياسية، كما كانت الوهابية بالمشرق سواء بسواء". كما أن السلطان سليمان تعاطف في الوقت نفسه مع الطرق الصوفية لأسباب سياسية، مثل الطريقة التيجانية التي كانت يومئذ ضد الأتراك وحكمهم، وقد استجبت الطريقة الدرقاوية بالسلطان عندما هوجمت من الحاكم التركي في وهران، فلما وقف إلى صفها بايعه أتباعها، وبذلك طغت الدرقاوية على نفوذ التيجانية في القصر. " ٢٦

وكان المؤرخون والرحالة الأجانب الذين تجولوا في ليبيا قد عايشوا تلك الحقبة الزمنية من انبثاق الطريقة السنوسية، وتتبعوا من خلال التجربة الشخصية نشاط وتحركات مؤسسها وشيوخ زواياها. ورغم ما في أغلب دراساتهم من تحامل مغرض، إلا أنها تمثل شهادات حيّة. وفيما يلي نورد نموذجا لما دوته بعض هؤلاء الشهود.

### تقرير سلوش عن السنوسية (نقلا عن مجلة العالم الاسلامي الفرنسية ١٩٠٧)

"لقد كلفت البعثة العلمية بمراكش المستشرق الفرنسي اليهودي المعروف ناحوم سلوش بمهمة البحث في عين المكان عن أصول اليهودية في شمال أفريقيا خلال العصور الوسطى، ورجب التحالف الصهيوني العالمي المشاركة في هذه الرحلة التي كُرت لتاريخ اليهودية الأفريقية.

٢٦ محمد عابد الجابري (الحركة السلفية والجماعات الدينية المعاصرة في المغرب) ص ١٩٥ بحث منشور في كتاب الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي - إصدار مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٧. ونلاحظ هنا أن هذا القول ينفي ما ذهب إليه المؤرخ الذي ذكر في الصفحة السابقة أن الزوايا تعرضت في عهد السلطان سليمان إلى "حروب إبادة جماعية". مما دل على عدم إتفاق الباحثين المغاربة!

و حين وصل سلوش الى طرابلس يوم ١٩ يوليو ١٩٠٦ حظي بمقابلة الوالي المشير رجب باشا الذي حرص على فتح أبواب المدينة وإشاعة السلام في هذه الولاية الشاسعة الواقعة تحت نفوذه، ومنح سلوش الترخيص والتسهيلات اللازمة لزيارة بعض أقاليمها، وبذلك تسنى له أن يتجه من طرابلس الى مصراته مارا بالخمس ولبنه أو لبيتس مانيا وواديها الذي يطلق عليه العامة في الدواخل لقب وادي اليهود وهو يقع في الطريق الى مسلاته، وبعد أن تجول في هذه البلدة الصغيرة والجبل القريب منها عاد الى الخمس عن طريق آخر، ثم واصل الرحلة الى مصراته عبر واحة زليطن، ومنها ألقع الى بنغازي بالبحر حيث تفقد هناك السهل البرقاوي الفسيح، مخترقا الجبل الأخضر، وأتيحت له الفرصة لتمضية ليلة في الزاوية السنوسية في بلدة دريانة. بعدها عاد الى طرابلس حوالي منتصف أغسطس، حيث تحول فوراً الى جبل غريان الذي سره أن يكتشف فيه كهوفا عبرية، ثم عبر جبل نفوسة وجبل يفرن وبعد مسيرة ثلاثة أيام ممتطيا الجمل وصل الى النقطة النهائية من الرحلة، وهي واحة الزاوية أحد المواقع هانجة البحر في طرابلس الغرب.

وخلال هذه الرحلة الهامة التي ساعده خلالها جندي تركي مرافق، ارتدى سلوش أزياء متعددة. إذ ظهر بمظهر ربّي يهودي وأفندي تركي بطربوش وكذلك مواطن أوروبي عصري من موظفي الدولة. لقد تمكن سلوش اذن من أن يتواجد حيث تدور الأراء المختلفة والنقاش عن (موضوعات الساعة) وفي مواقع النقوش والحفريات الأثرية، خلال وأثناء التوقف في الرحلة. ولكن ماذا كان يفعل سلوش خلال الساعات الطويلة وهو يغد السير وحين يسدل الليل أستاره، وأين كان عندما تقض الحرارة اللاهبة المضاجع ؟ لقد كان منهمكا في التفكير في قضايا الساعة التي فرضت نفسها عليه حسب تعبيره، وقد لا بأسف قراء مجلة العالم الاسلامي حين يعلمون ان الذي فرض نفسه على سلوش هنا وبشكل مباغت كان السنوسية.

لقد كان الشغل الشاغل للناس لحظة وصوله الى طرابلس حريق سوق بنغازي وما نتج عنه من إتلاف للمتاجر من قبل الجنود الأتراك<sup>٢٧</sup>، وكان ضحايا هذا الحادث الشنيع جميعهم تقريبا من اليهود ومعهم بضعة رعايا فرنسيين، وقد أشارت احدى الصحف

٢٧ أورد بازامة في كتابه (برقة في العهد العثماني الثاني) ص ٤٤٨ أن الرحالة الفرنسي (ماتيسول) الذي زار بنغازي آنذاك. شاهد الحادث وحسب شهادته فالحريق الذي دمر السوق عن بكرة أبيه، حدث في ليلة المولد النبوي الشريف، ولذا فهو يعتقد جازما بأن سببه عرضي بفعل المشاعل والقناديل التي يمخر بها الأولاد شوارع المدينة وأسواقها.

الإيطالية وهي **La Tribuna** في هذا الصدد إلى أفعال السنوسيين، في محاولة لإلصاق مسنولية الحادث بهم. وادعت أن أحد الضباط الأتراك الذي حضر حادث التدمير، عمل ما بوسعه للحيلولة دون وقوعه، وبما أن سعر الذهب ارتفع بشدة بسبب أعمال النهب، فلا بد أن يكون أحد السنوسيين بالذات وهو النيوزباشي حسين أفندي ومعه بعض الشبان السنوسيين، هم الذين رفعوا سعر البيع للأتراك، غير أن الحقيقة هي أخرى بالبحث عنها بين ركاب الأحداث والتعقيدات. والأمر هنا يتعلق بأمر يحمل وجهين مضادين لا تخطنهما العين. وكان هذا الأمر ذا حساسية خاصة لأنه من (موضوعات الساعة) آنذاك في طرابلس ألا وهو السنوسية ومن هنا جاء سبب تتبعها بما يؤدي إلى إعطاء معلومات ضافية ودقيقة عنها". ثم نشرت المجلة ما دونه سلوش كما يلي:

"لا أنوي على الإطلاق أن أعتبر عن الشكوى أو أنظلم من الإجحاف الذي اكتنف مسألة السنوسية سواء ضدها أو معها، فأصدقواها وأعداؤها على السواء مجمعون على التأكيد بأنها ظلت وفيّة لبرنامجها السياسي الأساسي لأنه سرّ قوتها الذي وسم بساطتها في الحياة، وروحها الديمقراطية وعزيمتها الثابتة. وهي الخصال التي برهنت عليها لمختلف المتعاطفين معها ولأصدقائها بالذات، بل وحتى بالنسبة لغير المسلمين. إذ ليس لليهود أي سبب للشكوى ضدها لأن تجارهم الذين ينتقلون منطلقين من بنغازي عوملوا من ممثليها معاملة حسنة، كما لم يسيئوا قط للمسيحيين أو يقسوا عليهم، علما بأن حسن المعاملة هذا شاع في الأرياف أكثر منه في المدن. وجميع العبرانيين الذين سئلوا أعربوا عن رأيهم بأن السنوسيين هم أناس يتصفون بالوداعة والتشفت والاهتمام بشئونهم الخاصة. وعلى الرغم من أن السلطات التركية موافقة على أن تتصرف السنوسية في الأطيان الزراعية العائدة لها، ومع أن السنوسية من جانبها لا تبدي اهتماما ظاهرا بالأمر، إلا أن تلك السلطات تحسب حسابهم في معالجة هذه المسألة؛ فمن الواضح والمفهوم أن السنوسية لا تخفي تدمرها إزاء العيوب والمثالب التي أشاعت الفوضى أيّا كان المسبب لها. وإن همّها الوحيد هو الرجوع والتمسك بأهداب المبادئ التي أرسى دعائمها الرسول، وفضائل العدالة والمساواة. إنها تسعى إلى التهذيب الخلقي ورفع الرّوح المعنوية وممارسة حدا أقصى من البساطة في الحياة. وإنني لأذكر أن قبطانا بحريا (رايس) من برقة حدّثني أثناء رحلة بالباخرة عن الإخوان (المرابطين) أي المقدّسين بأنهم كثر، وقد يصل عددهم إلى نصف مليون، وأنهم لا يكونون إلا الخير للناس، وقد لقنوه القرآن في الخلاء وتحت السماء جريا على عادة المؤمنين الأولين، كما أنهم يعملون ما في وسعهم للتحرّر من فرض الجباية والضرائب.

بدون الإفاضة في النظريات المذهبية المكوّنة لمفهوم سيدي محمد بن علي السنوسي المناوئ للأتراك، ومع تركنا جانبا كلّ ما لا علاقة له بطرابلس الغرب فمن المؤكد أن السنوسيين استطاعوا في بنغازي (يقصد مجمل إقليم برقة) أن يثبتوا مواقعهم كسادة، إذ نشروا على مساحة شاسعة من الأراضي شبكة مترابطة من الزوايا تعتبر الواحدة منها في المناطق المقامة فيها وفيما يجاورها، كأنها (كانتون) مركزي. وبما أنهم يعارضون كل توسّع في العمق للحياة المدنية العصرية، فهم بذلك استطاعوا ليس فقط عزل المناطق التي يسيطرون عليها، بل عرقلوا فيها تشييد القلاع والمدن. ولأن الكسل والخمول إعتريا الحكومة التركية، فقد تركتهم يفعلون ما يشاءون. فمنذ ثلاثين سنة مضت قلما أولت الأساتنة إهتماما جدّيا لهذه الولاية التركية ونادرا ما أنتت على ذكرها رغم أنها ماهولة بقبائل مشاغبة. ولم يتم التوغّل داخل البلاد، فبقى الإحتلال محصورا في بعض المراكز الساحلية، ولذلك، لم يعتر الفلق السنوسيين فمدّوا سيطرتهم دون أي اعتراض. وبصفة عامة فالتعامل بين السنوسيين والأتراك هو تعامل الأخوة الأعداء دون الوصول بالمرّة إلى نقطة الصدام أو التصارع الذي يُشغل أحد الطرفين. على العكس من ذلك فإن حسن إنتهاز الظروف لدى سيدي المهدي وحسن فطنته، هيأت له التخلص من الرعاية الأبوية التركية، وجعلته يسعى شخصيا إلى مساندة هؤلاء المسيحيين الزنادقة المندسين<sup>٢٨</sup>

وبعد الإحتلال الفرنسي لتونس إرتكز التقارب بين السنوسيين والأتراك على قاعدة العقيدة الإسلامية، كما أن الدبلوماسية التركية بادرت بمرونتها المعهودة وببراعة، إلى إحياء هيبتها في عيون المسلمين في أفريقيا، مع العمل بما وسعها على تحييد العامل السنوسي. وقد تطلّب منها هذا تقديم الثمن. إذ أنها عاملت السنوسيين كما عاملت الحكومة المراكشية الشرفاء تقريبا، ومثلما عاملت بخارى وطشقند الملالي حتى عهد قريب؛ فحوّلت للسنوسيين السلطة العامة لتشييد الزوايا الجديدة، واعتبرت ممتلكاتهم كوقف، أي إعفائها من الضريبة العقارية. وفي نفس الوقت، وحتى تؤكد تقربها من السنوسية، حرصت على تربية عدد من الشبان السنوسيين تربية تركية على الطريقة الأوروبية، وإعدادهم لتقلد المسؤوليات في السلم الإداري والعسكري، مستهدفة إستخدامهم مستقبلا كوسطاء بين السلطات التركية المسنولة والزعامة السنوسية.

العلاقات التركية السنوسية الراهنة إذن هي أقرب إلى العلاقات الودية، وهي تختلف من منطقة لأخرى، ففي صبراته غربي مدينة طرابلس يكيل مفتي البلدة المديح أمام الزائر

٢٨ يقصد الكاتب نظرة السنوسيين الحقيقية المضمرّة تجاه الأتراك.

لسلوك وديمقراطية السنوسيين. ولكن في طرابلس نفسها إذا ما جاء ذكر لحادث الحريق في بنغازي، فلا أحد لديه معلومات دقيقة عن السنوسيين، رغم وجود وكلاء لهم. أما في بنغازي فعلى العكس إذ تمتلئ البلاد بهم. ولهذا ينبغي التمييز بين المنطقتين.

لقد كانت برقة في سالف الزمان مكتظة بالسكان وتمدّنة، بينما انحطت الآن لمستوى الصحراء. ففي كامل الإقليم لا يُحصى أكثر من مدينتين صغيرتين: وهما بنغازي التي يسكنها ما بين إثني عشر وخمسة عشر ألف نسمة، ثم درنة الأصغر منها. ويمكن هنا إضافة بلدة المرج في الجبل، حيث استطاعت الزاوية السنوسية والإدارة التركية تشييد عدد من المساكن الحضريّة. أما بقية البلاد فيقطنها الرحّل وقبائل البدو الذين يعتقدون أنهم سادة البلاد، رغم أنهم لا يسكنون إلا في الخيام.

ولقد انتهز السنوسيون لامبالاة وكسل الأتراك وأقاموا في ذلك الإقليم شبكة من الزوايا التي تتجمّع فيها القبائل. وهذه الزوايا، وهي مثل أديرة العصور الوسطى، تُعدّ المراكز الرئيسية لمن جاورها من السكان، فكل زاوية إذن تحولت إلى بلدة وبها قلعة محكمة، تشيّد غالبا على مساحة من الأرض تتراوح ما بين ثلاثين إلى أربعين كيلومتر مربع، وبعضها ما بين خمسين وستين كيلومتر مربع، وفيها تتجمّع البضائع والأدوات وأغلبها مخصصة للزراعة. وهذه الزوايا تحمي المسافرين بمن فيهم الباعة اليهود المتجولون<sup>٢٩</sup>، وبات العرب المقيمون فيها يعتبرون السنوسيين سادتهم ورفاقهم وحماتهم والحراس على ممتلكاتهم وقادتهم الروحانيين؛ إنهم نظروا إلى أصولهم الشريفة ومسلك التقوى والورع الذي يهجونه، أصبحوا في الحقيقة سلطة ذات نفوذ ديني. والمسائل المتعلّقة بالطقوس الروحية أو العقيدة تخضع هنا للأمور الزمنية في تباين تقريبا. غير أن هذا التناقض وقر في العمق علاقة حسنة من التوافق مع الأتراك. وبمرور الوقت وأمام الخطط التي رسمتها إيطاليا لتحقيق مصلحتها، والتي بدأت تؤتي نتائجها متمثلة في تدفق ملحوظ للمهاجرين منها صوب الولاية، شعر الأتراك بأن مصلحتهم تقتضي منهم التثبّت بمستعمرتهم الأفريقية الأخيرة والتحصّن داخلها.

وفي ذات الوقت، وكلما أتيح لطرابلس أن تُحكم حكما جيدا حققت الزراعة تقدما كبيرا مثلما جرى خلال السنوات الماضية. وهذا أدى مؤخرا بشكل تدريجي ومنتظم إلى إنشاء

٢٩ هذا تنفيذ لإدعاءات دوفيريير ومن يهودي بالذات.

سجلات مساحة لتدوين عوائد الملكية الخاصة. وتزامن ذلك مع إدخال الخدمة العسكرية الإلزامية التي استساغها المواطنون. ولما طبقت بإجراءات في غاية اللبونة، فإن الحوادث العنيفة التي وقعت في بعض المناطق أمكن احتواؤها. ولكن في منطقة بنغازي واجهت الحكومة وضعا لم تتم تسويته بسهولة؛ فالعنصر السنوسي هناك مؤمن بأنه هو المسيطر، وشعر أن الإصلاحات المالية والعسكرية ستنال من استقلاليته الدينية والسياسية. وربما كانت محاولة إدخال النظام المالي التركي في برقة قد اتصفت بشيء من الغلظة، كما أن الوالي كان بعيدا جدا عن هذه الأمور، ولهذا استبد القلق بالقبائل ومعها السنوسيون، إذ كان إدخال النظام المالي القائم على السجلات بالنسبة لهم تعديا سافرا على اطماعهم في السيطرة الزمنية، ومساسا بسلطتهم وبالإحترام الذي يحظون به من قبل الأهالي، بل وانتهاكا للعقيدة الإسلامية التي يبشرون بها ويمارسونها. وقد استغلوا أحكام فرمان الإمبراطوري التي تعتبر كل الأتليان العائدة لهم وقفا؛ فسعوا إلى احتكار كامل تراب الوطن لأنفسهم. ونتيجة لتحريضهم، فالقبائل التي وضعت اليد على الأراضي بحكم الإستيلاء الجماعي، غدت تعترف بأيلولتها إلى لزوايا. ومن هنا فالأراضي الواقعة تحت سيطرة السنوسيين أصبحت بالكامل وقفا. وبما أنهم مستثنون من دفع الضريبة العقارية بموجب السجل الرسمي، فقد وجب على حكومة الولاية تدعيم الحق الشرعي القرآني الذي يُضفي الشرعية على هذه الحياة.

إن هذه المسألة الزراعية التي تذكر بالمشكلة الروسية، أدت إلى خلق توتر شديد بين الأتراك والسنوسيين، بل تفاقمت إلى درجة أن الشبان السنوسيين، الذين تدرّبوا حتى عهد قريب من قبل الأتراك ليصبحوا موظفين محليين، ظلوا موالين للسنوسية. بل ازدادت مقاومتهم شدة. وهكذا يمكن القول إن هذه السياسة في طرابلس الغرب تدار الآن من قبل الرؤساء العلمانيين المستخدمين ضمن هؤلاء الموظفين. إنه ليس صراعا بين العنصر الديني والحكومة، ولكنه تناحر عضوي. ولقد قيل إن السنوسيين ذهبوا إلى حدّ محاولة الإتصال بقوة مسيحية، لمواجهة الإجراء المالي التركي. وهو أمر مشكوك فيه، كما قيل أيضا إنهم تسلّموا في السنة الماضية ما بين أربع آلاف إلى خمس آلاف بندقية على دفعات في توكرة ببرقة. وقد أثار هذا لغطا واسعا، بل وسبّب غيظا في نفوس الأتراك، جعلهم لا يسعون فقط إلى فرض الضريبة العقارية، بل وتهديد الزوايا، متهمين إياها بأنها أضحت مصارف وخزائن حديدية لأموال القبائل.

وأمام ما قد يجره تفاقم الأحوال من توتر وتعقيدات، فالحكومة المحلية بسبب استحالة التراجع عن تولي مسؤولياتها وتحت ضغوط الآستانة واضحة العيان، ومدفوعة في الوقت نفسه بحمى الحرب، قرّرت ممارسة (سياسة الأهالي) مؤتملة أن السنوسية ستشهد في يوم سعيد وفي بنغازي بالذات بروز طريقة مضادة لها تنزعها عن عصبها (الشرفاء المحمدية)، وبصفة خاصة من بني زمرور الذين يبلغ عددهم ١٥٠ عضواً. وسيكون الشعار المرفوع هو إنقاذ الجماهير من تسلط السنوسيين وتعسفهم- وهم حماة الحقيقين في واقع الأمر زمن الحديث وهو عام ١٩٠٥ - أما رئيس بني زمرور الجابر<sup>٣٠</sup> فمن المتوقع، وفق المخطط، ان يلقب نفسه شيخاً سنوسياً، ويروج لسمعته الطيبة في كامل منطقة الجبل والمرج (أي بلاد الخصوم. ومن المستبعد أن تحدث هذه الدسائس الأثر المنشود بين أنصار السنوسية، ولكن سلطات بنغازي ستجد نفسها مرغمة على إحياء الطريقة لمصلحة بني زمرور ضد السنوسية. كذا كان مخطط السياسة التركية وما جره مؤخراً من نتائج. وهكذا فالأزمة لا تتضاءل أو تستبدل، متخذة كل يوم نفس الطابع ولنفس السبب. والإدارة التركية تسعى إلى تطبيق (السجل)- أي التعداد- لفرض الضريبة العقارية. والسنوسية ترفض متحصنة وراء امتيازاتها، والسلطة التركية تواصل نهجها ولكن ليس دون مقاومة. ولا مفرّ أمامها يوماً ما من أن تتوقف.

وبعد مضي وقت معيّن فان السنوسيين سيجبرون على تسييرهم من قبل رؤساء علمانيين هم غرباء على سلوك الورع والتقوى الذي اعتاده العنصر الديني. إنهم في طرابلس هم ممثلو هذه الفئة الأكثر نشاطاً كما قيل ولعل الأقوى نفوذاً بين جموع الإخوان هو المدعو منصور الكيخيلي (يقصد الكيخيا) أحد الموظفين القدامى والمقيم في بنغازي، فهو من عائلة سنوسية (يقصد أنها معتنقة لها)، ويُعتبر صاحب ذهنية متفتحة ومستقلاً مؤمناً بمفاهيم أقرب الى العصر. وأثناء الاضطرابات في المرج والتي قتم بها بنو زمرور، حاولت سلطات بنغازي أن تتخلص من معارضته فاعتقلته وأودعته السجن هناك. ولكنه نجح بالخدعة في الإفراج عنه، وأصبح مطلق السراح في بنغازي، وتمكن من أن يمارس نفوذاً واسعاً في جميع أنحاء الاقليم.

٣٠ لعل المقصود به جبر.

وباختصار أرادت السنوسية أن تجعل من برقة (بلاد السيبية)<sup>٣١</sup>. وتوغلت جنوبا عبر الصحراء، وتوقفت حينما شعرت بعدم الإطمئنان.

إن السنوسية والأترك كلاهما على أهبة الإستعداد، كأنهما جبهتان متضادتان حول تقييم مسألة الأراضي والضرية: الثانية أخذت تطعن في الأولى، وهذه مبقية على جوف التشاحن بينهما، تهذد ولكن بقدرة جدية، ومن هنا أخذت القضية تكتسي طابعا خاصا لأن السنوسيين في برقة هم في عقر دارهم.

اذن الوضع يختلف حسب اختلاف السكان، ففي الأقاليم المأهولة بالعرب فقط، تكاد السنوسية لا تقابل خصوما ناشطين بين التجمعات الدينية الأخرى، كما هو الأمر في مسلاته مثلا، حيث توجد زاوية للشرفاء. أمّا في فزان فقد بدا انها لا تملك القوة للتغلب على الروح الفوضوية لدى القبائل، ولذا أحرزت تقدما ضئيلا، ولكن من جهة أخرى ففي المناطق حيث يتنازع العرب والبربر يبرز دورها مستفيدة من هذا الانقسام، فتتجاز مؤيدة العنصر العربي. وقد افتتحت مؤخرا زاوية جديدة في الرجبان بجبل نفوسه، وفي الزنتان وهي مركز متقدم وكان مديرها أثناء مروري بها سنوسيا، وتجدر الملاحظة أيضا انه كلما نشب صراع بين السكان والأترك فان السنوسية تتدخل أحيانا الى جانب العرب ولكن ليس الى جانب البربر."

وفي القسم الثالث من التقرير يتحدث سلوش عن زيارة استطلاعية خاصة قام بها لزاوية سنوسية هي زاوية دريانة التي تبعد عن بنغازي نحو ٣٥ كيلو مترا وجاء في وصف انطباعاته: بأنه اجتاز طريقا يخترق سهلا رحبا أحمر يقع ما بين البحر والجبل الأخضر الذي ينتصب كحائط رمادي اللون تتلأأ عليه أشعة الشمس، وقد راعته الوحشة التي تلفت هذه المنطقة القصية الخالية إلا من بضعة خيام قليلة متناثرة. "وشيدت الزاوية على مقربة من البحر. وهي مبنى مربع الشكل من أحجار غبراء يلتصق به بستان عُرس في الرمال وتتخلله بضعة أشجار. ولأول وهلة تبدو الزاوية كاصطبل أكثر منها مأوى يسكنه البشر، وعلى جانبها توجد مقالع أحجار المدينة العتيقة أدريانوبوليس (أي دريانه الحالية) التي بناها أدريانو لإعادة تأهيلها بالسكان في أعقاب حرب اليهود والرومان الإغريق، وتُستعمل هذه المقالع كمقابر الآن". ثم يفصل زيارته للزاوية قائلا :

٣١ اصطلاح يطلق في المغرب الأقصى على الرعية أي الأهالي، ويقابلها اصطلاح (المخزن) الذي يطلق على القصر والأسرة الحاكمة.

"وبعد برهة توقفنا أمام سور الزاوية ثم ولجنا الى داخلها فرأينا جمعا من الناس يبتهلون في نحيب وعويل مروّع، كأنه صدى لشقاء الصحراء المحدقة بهم، فقد كانوا من (الإخوان) الذين يؤدون فريضة الصلاة. وحين أردنا الدخول من البوابة وجدناها مقفلة، وأوقفنا شاب عربي نحيف الجسم بعجرفة وأخبرنا بأن شيخ الزاوية سيدي حسن غير موجود<sup>٣٢</sup>، وكان النهار قد أشرف على المغيب، والعرب الوافدون عليها من السهل يغدون ويروحون متنادين للصلاة، بعد أن جلبوا معهم الحبوب والفواكه وطرحوها على الأرض. وتحدّث أحدهم اليّ بالفرنسية، فقد كان جزائريا من قسنطينة، تجول في تونس ثم في مصر ومن هنا أراد الرجوع الى بلاده مشيا على الأقدام، وبمروره على الزاوية نزل ضيفا، ويبدو أنه مقيم فيها منذ مدة غير طويلة. ثم وصل الشيخ ويقدر عمره بما بين الثلاثين والخمس وثلاثين سنة، متوسط القامة ولكنه ذو عضلات قويّة ووجه خشن ينبض بالحيوية، وكان يرافقه ضابط من أصل الباني. ثم ما لبثت وأن انفجرت أسارير الجميع مبهوتين باللطف الجذاب الذي كان الشيخ يوزّعه عليهم، وبعد أن محضني ثقته، شرع يروي بالتفصيل أخبار بنغازي سواء المتعلقة منها بالأتراك أو بالأوروبيين، ثم استقبلني الشيخ حسن - الذي علم بأنني عبري - ببشاشة، ودعاني إلى قضاء الليل بالزاوية. واستمر مجيئ المؤمنين لأداء صلاة المغرب، وكان من بينهم عربي من الجبل أعاره الشيخ احتراما ظاهرا جعله كأنه منوم مغناطيسيا لفرط الحفاوة والكلمات الرقيقة التي أغدقها الشيخ عليه. وبعدها أخذ العربي يحكي كل ما يعرفه عن الجبل، بما في ذلك النزاعات مع الأتراك حول الضرائب، ولبرهة انفتحت البوابة على ساحة واسعة تتفرّع عنها ردهات مسقوفة بعضها عريض والآخر ضيق، وفي الناحية الجنوبية ينتصب المسجد يشعّ نورا. وهكذا وبعد انقضاء يوم سفر في شهر أغسطس عبر الساحل البرقاوي، يحتاج المرء الى النوم. وعقب ضيافة (دافنة) تمثّلت في خبز ساجن ومرق من الزيت ممزوج بالماء حسب الطلب، أوى الجميع الى النوم. وحدثت لمرة واحدة المنادة على الصلاة في منتصف الليل، حيث واصل الاخوان ترتيل شعائرهم، وما أن غادروا حتى بانّت تباشير الفجر".

## التنظيم القيادي السنوسية

ذهب بعض مؤرخي السنوسية<sup>٣٣</sup> إلى أن هيكل التنظيم في الدعوة السنوسية تشكل اعتمادا على التقسيم التقليدي في محافل (الذكر) و(الأدوار)، كما في الطرق الصوفية الإسلامية

٣٢ هو حسن الغماري ابن السيد أحمد الغماري أحد رفاق مؤسس الطريقة المعروفين.

٣٣ آدمز - ص ٢٩

الكثيرة، فبالنسبة للسُنوسية هناك ثلاث فرق: الأولى أهل التبرك، والثانية أهل الرضى، والثالثة أهل التجريد. وانطلاقاً من ذلك ساد الاعتقاد عند هؤلاء المؤرخين أن هذا التقسيم هو تقسيم طبقي أو مراتبي داخل المنظمة السنوسية وفقاً لسلم يرتقي من المبتدئين فالمتقدمين فالمتفوقين، غير أن بريشارد إستبعد أن يكون بين أهل برقة وهم طليعة من اعتنقوا الطريقة، خاصة البدو منهم، أي تقسيم طبقي أو تمايز إجتماعي. بل نُقل عن السيد إدريس السنوسي نفيه لوجود هذا النوع من التقسيم في المنظمة السنوسية<sup>٣٤</sup> إلا أن ما أجمع عليه المؤرخون هو وجود هيكل هرمي قامت عليه ويتمثل في الشكل الآتي: المنتسبون، وهم الذين انتموا إلى لطريقة طلباً للبركة، وقد كونوا الغالبية - الإخوان أو المريدون وهم من اعتنق عقيدتها وتعلم ومارس طقوسها من تسبيح واستغفار وغير ذلك كما ورد في أورادها وذكرها، وهم عادة ما يكونون من المقيمين في الزاوية و العاملين فيها؛ الخواص - وهم الحلقة من الشيوخ و العلماء من غير أعضاء الأسرة السنوسية و لكنهم يشكلون مجلس القيادة تحت إمرة رئيس الطريقة الذي يجب أن يكون من أفراد العائلة، ويطلق عليهم أيضاً (الحضرة) أي اللجنة المركزية التي تتولى إصدار الأوامر بسم شيخ الطريقة<sup>٣٥</sup> وقد حدّد آدامس عدد أعضاء مجلس القيادة الضيق بأربعة أشخاص، كانوا كما يلي حسب مراحل الإمامة :

في عهد السنوسي الكبير: السيد عبد الله التواتي - السيد حامد خير المكاوي - السيد عمران بن بركة - السيد علي بن عبد المولى.

في عهد الإمام المهدي : السيد أحمد الريفي بدلا من السيد التواتي الذي توفي - السيد المدني بن مصطفى بدلا من السيد حامد خير المكاوي الذي توفي - السيد عمران بن بركة - السيد علي بن عبد المولى.

في عهد السيد أحمد الشريف : السيد أحمد الريفي - السيد المدني بن مصطفى - السيد عمران بن بركة - السيد محمد الدفتري، بدلا من السيد علي بن عبد المولى الذي توفي.

وحيث تولى السيد إدريس زعامة الطريقة كان هؤلاء الشيوخ قد انتقلوا إلى جوار ربهم، ولم يعين أحد مكانهم، وبذلك انتهى وجود هذا الفريق، إذ أن تنظيم الإخوانية وهيئتها

٣٤ آدامز - نفس المصدر ص ٣٠

٣٥ سيرا ص ٥٠

القيادية دخلت مرحلة جديدة بعد استيلاء السيد إدريس على القيادة، والتي تحوّلت على يديه إلى التنظيم الزمني العصري في ظل الدولة الليبية الحديثة وهو ما سيبتدئ لنا بوضوح في سياق الفصول التالية من الكتاب.

على أن مؤرّخي السنوسية من الليبيين يوردون مجموعات المستشارين التي يختلف أعضاؤها إسما وعددا. فقد ذكر الطيب الأشهب في كتابه (السنوسي الكبير) و(برقة العربية أمس واليوم) أن أكثر من خمسين شيخا وعالما من أصول ليبية وجزائرية وتونسية ومغربية وحجازية وسودانية، كانوا إمّا مرافقين للسنوسي الكبير في تطوافه بين البلدان العربية، أو أنهم اضطلعوا بالتدريس في جامعة الجغبوب وبقية الزوايا التي أنشأها<sup>٣٦</sup>. أما كتاب (الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية) لعبد القادر بن عبد الملك بن علي<sup>٣٧</sup> فيورد أسماء مجلس المستشارين للسيد المهدي وهم: عمران بن بركة - أحمد الريفي - علي عبد المولى - فالح الظاهري - عبد الرحيم المحبوب (المغوب)<sup>٣٨</sup> - محمد المدني التلمساني - محمد بن الحسن العسكري - سيف مقرب. ومهما يكن الإختلاف في أسماء وعدد هؤلاء الخواص المقربين من كل من زعيم للإخوانية، فالأمر الثابت و الهام هو وجود قيادة جماعية لها يستشيرها شيخها في تسيير الأمور السياسية والاجتماعية للتنظيم، والإضطلاع بمسئوليات (الدولة) التي أقامتها، مما يُضفي على هذا التنظيم الطابع المدني ويمنحه المضمون السياسي وإن جاء بمظهر الطريقة الدينية ومارس طقوسها التقنيّة.

وإذا ما تتبّعنا نشاط السنوسي الكبير منذ البداية، فسنلاحظ أنه كان محاطا بطائفة من العلماء والتلاميذ الذين لزموا معيته في فترة الثلاثين سنة التي قضاها في الحجاز، منتقلا بين مكة والمدينة. وكانوا من بلدان عديدة كمصر والحجاز والسودان واليمن، وغالبيتهم من الجزائر مسقط رأسه، والمغرب الأقصى مقرّ دراسته وكذلك من تونس. وكان أعضاء هذا الفريق بمثابة التنظيم المركزي الذي يعاون شيخ الطريقة في قيادة الحركة، وتولي مقاليد الأمور في الزوايا وألقاء الدروس فيها. وعدّد مؤرّخو السنوسية أبرز هؤلاء الأعضاء وهم:

- 
- ٣٦ نقلا عن كتاب علي محمد الصلابي (الحركة السنوسية في ليبيا) الجزء الأول - دار البيارق - الأردن - بيروت عام ١٩٩٩ الصفحات من ٩٢ - ١٠٤.
- ٣٧ مطبعة دار الجزائر العربية - دمشق عام ١٩٥٦ نقلا عن الصلابي - نفس المصدر الجزء الثاني ص ٢١٢
- ٣٨ لأنه من بنغازي فالمرجح أن يكون المغوب الذي يعتبر من أعيان المدينة البارزين آنذاك . ويبدو أن بعض المؤرّخين أطلقوا عليه لقب المحبوب تطييرا.

- محمد عبد الله التواتي من توات بالجزائر، من أوائل المعاونين، وقد قُتل في الحجاز من قبل قطاع الطرق، ودفن بزواوية بدر.
- أحمد ابو القاسم التواتي وهو أيضا من الجزائر، تولى مشيخة زوايا سيوة والزيتون وفران.
- علي بن عبد المولى، من تونس وتولى مشيخة الجغبوب، وكان وكيلًا للسنوسي الكبير.
- أحمد بن فرج الله، من طرابلس وهو والد أم محمد المهدي الشيخ الثاني للطريقة، وأخيه محمد الشريف، ولم يترك عقبًا من الذكور.
- محمد بن الشفيع من سنار بالسودان، كان زميلًا للسنوسي الكبير في تلقي الدروس على أيدي أحمد بن أدريس الفاسي في (صبيا) باليم، تولى زاوية المدينة والتفتيش على الزوايا، وآخر منصب له كان مشيخة زاوية سرت.
- أحمد المقرحي من بادية طرابلس وعلمانها، ناقش السنوسي الكبير في مجلس والي طرابلس واعتنق مذهبه، ثم أصبح من أتباعه وتوفي في البيضاء ودفن فيها.
- عمران بن بركة الفيتوري من زليطن، كان شيخًا لزاوية البيضاء ومدرّسًا في معهد الجغبوب تتلمذ عليه السيد المهدي الخليفة الأول للسنوسي الكبير، وتزوج كبرى بناته وتزوج أخوه محمد الشريف بالثانية، والذي أنجب منها السيد أحمد الشريف الخليفة الثاني للطريقة.
- عبد الله السني من سنار بالسودان، تتلمذ مع السنوسي الكبير على احمد بن أدريس الفاسي كان مدرّسًا وشيخًا لزاوية مزدة. قام أبناؤه بدور كبير في عمليات الجهاد وسيأتي ذكر ذلك.
- فالح الظاهري من الحجاز، كان من أوائل من التحق بالسنوسي الكبير وكان من الفقهاء المبرزين الذين علموا في الجغبوب، كان محلّ ثقة الزعامة السنوسية أذ أوفد منها إلى الأستانة أكثر من مرّة مندوبًا عنها للسلطان، وكان ضليعًا حتى أنه درّس الدعوة السنوسية في (الهند والسند)، وله تصانيف لم تطب. منها: (انجح المساعي) و (حسن الوفا لأخوان الصفا) وغيرهما.
- عبد الرحيم المغيوب من بنغازي، كان مفتشًا على الزوايا وشيخًا لزاوية بنغازي ومبعوثًا للسنوسي الكبير ومن بعده لأبنة المهدي إلى السلطان في الأستانة ..
- حسين الغرياني وأصله من غريان، تولى مشيخة زاوية البيضاء ثم زاوية دفنة أو (جنزور) ببرقة.
- أحمد الرّيفي من تلمسان بالجزائر، كان ملازمًا للسنوسي الكبير منذ البدية، وتتلّمذ عليه المهدي السنوسي وأصبح مستشاره الخاص، بل ذكرت المصادر الإيطالية أنه كان يقود الحركة قبل ان يمكن لخلافة المهدي، كما أنه أشرف على تسلّم أحمد الشريف للخلافة بعد وفاة المهدي.
- محمد الصادق من الطائف، كان من الذين التحقوا بالسنوسي الكبير في الحجاز، وقام مبعوثًا عنه في حركة الجهاد في الجزائر كما اصبح شيخًا لزاوية (الجريد) في تونس التي توفي بها.

- محمد بن مصطفى المدني من تلمسان، كان مدرّسا في الجغبوب وشيخا لزاوية (تازربو).
- عمر محمد الأشهب من زليطن، تولى مشيخة زوايا درنة و (عين مارة) و (امسوس).
- مصطفى المحجوب من مصراته، تولى مشيخة زاوية الطيلمون بالجبل الأخضر.
- أحمد بن علي بوسيف من بادية طرابلس، تولى مشيخة زاوية امسوس وعين مارة، وتزوج المهدي السنوسي إحدى بنات عائلته وهي السيدة فاطمة بوسيف الكميشي والدة السيد إدريس.
- أبو القاسم العيساوي من جبل طرابلس، كان شيخا لزاوية الرجبان، ومبعوثا لدى السلطان.
- محمد إبراهيم الغماري من مراکش، تولى مشيخة زاوية البيضاء وتنظيم مكتبة الجغبوب.
- إبراهيم الغماري من مراکش أيضا تولى مشيخة زاوية دريانة بالقرب من بنغازي.
- مصطفى الغرياني تولى مشيخة عدة زوايا بالحجاز، التي توفي ودفن بها.
- محمد حسن البسكري، كان يقوم بأعمال سكرتارية المهدي.
- عمر أبو حواء الفضيل الأوجلي، كان من أوائل رفاق السنوسي الكبير ورسوله في مهام عديدة في الحجاز والسودان وشمال افريقيا، وتولى زاوية (الجوف) بالكفرة.
- مصطفى الدردفي من مصراته، وتولى مشيخة زاوية شحات بالجبل الأخضر.
- محمد أحمد الفيلاي من المغرب، كان من رفاق السنوسي الكبير منذ الجزائر وترأس مجلس الأخوان، ورغم ذلك دبّ الخلاف بينه وبين بقية الأخوان لأنه قسا عليهم، فاضطر السنوسي الكبير الى فصله بعد ان استدعاه في رحلته الأخيرة الى الحجاز.
- محمد أحمد السكوري من المغرب، تولى زاوية الواحات (البحرية) بالقرب من سيوه ثم زاوية المرج، وكان من الموفدين الشخصيين للسنوسي الكبير، وكان من أصحاب الثروة.
- المرتضي فركاش، من قبيلة المسامير وكبار شخصيات الجبل الأخضر نوي الثروة والجاه.
- أبو سيف مقرب، من زعماء قبيلة البراعصة وأبرز شعراء السنوسية، ويمتاز شعره بالجزالة.
- الحسين الحلافي، من المغرب وتولى مشيخة زاوية المخيلي بالجبل الأخضر.
- المختار بن عمور، من أشرف الجزائر وتولى مشيخة زاوية (قنطه) بالجبل الأخضر.
- محمد حيدر الهوني، من بادية طرابلس وكان مبرّزا في تلاوة القرآن وترتيله.
- عمر جلغاف حدوث، من زعماء البراعصة بالجبل الأخضر وكان موفدا للسنوسي الكبير.
- الفضيل بو خريص الكزة من زعماء قبيلة العواكير وكان موفدا شخصيا للسنوسي الكبير.

كما ارتبط بالسنوسي الكبير وخلفاؤه من بعده بوجهاء وأعيان بنغازي ومن أهمهم:

الأمين شتيوي متصرف المدينة، ومحمد الكيخيا وأبناؤه، والشيخ علي القزيري وعبد الله بن شتوان ومحمد الأسع وسالم عثمان، وأعضاء عائلة منينة وبن زبلح.

ومن درنة: عائلة جبريل، وساسي، وستيته

ومن شيوخ البادية علي الأطيوش، وقديروه، وحمد اللواتي، وعبد الله سويحل أحد زعماء العبيدات<sup>٣٩</sup>

ويتضح من هذه القائمة أن هؤلاء الشيوخ والعلماء كانوا يمثلون أركان الحركة وأقطاب التنظيم، من خلال تسييرهم للزوايا وهي أسس التنظيم ومعاقله وأدوات انتشاره. كما يلاحظ أن أغلبهم وفد مع المؤسس من مسقط رأسه الجزائر أو البلدان التي تلقى فيها الدروس كالمغرب والحجاز، أو من تعرف عليهم في تطوافه كالشيوخ من أصل سوداني وتونسي كما أسلفنا. وهذا في حد ذاته أضفى على الحركة طابعا قوميا متنوعا. إلا أنه مما يلفت النظر هنا خلوّ القيادة فيها من رمز من أصل مصري، فحتى الزوايا التي أنشأها المؤسس في مصر وعددها تسع زوايا، تولى مشيختها شيوخ غير مصريين مثل زاوية سيوه الرئيسية وزاوية الزيتون الواقعة فيها وكان شيخهما أحمد التواتي، وزاوية الواحات البحرية، وترأسها محمد السكوري، وزاوية الداخلة وترأسها حسين الموهوب الدرسي. وقد يكون ذلك راجعا إلى الهجوم الذي تعرض له مؤسس الحركة من شيخ أكبر قلعة للشرع والفقهاء في العالم الإسلامي وهي جامعة الأزهر، الأمر الذي أحجم الفقهاء بسببه من الإنضمام إليها، أو أنه أرهب من يفكر في ذلك. ومن ناحية أخرى فإن تيارات الإصلاح والتجديد الدينيّة في مصر، نحت منحى آخر في تلك الفترة سنتعرض لها في الصفحات القادمة.

ويصوّر الرحالة الفرنسي (دو فيريير) هذه المرحلة من مسيرة الطريقة، فيدوّن في مذكراته ما يلي :

٣٩ نقلا عن (السنوسي الكبير) للطيب الأشهب.

"منذ عام ١٨٦٠ كانت أقل من ثلاث عشرة سنة كفيلاً بتغيير سلوك السكان وقواعد المُلْكِيَّة: المزارع غدت أكثر إنتاجاً، وازدادت تأثيرات الطريقة. ففي عام ١٨٧٣ أصبح المواطنون متطرفين بعدما كانوا متسامحين بل وغير مكترئين. وفي عام ١٨٦٩ كان بمقدور المسيحي أن يذبح علاقة تعارف مع المجاورة في جالودون عائق. ولكن حين عاد الرحالة في عام ١٨٧٩ وجد أصدقاءه القدامى غلاة متهورين. وفي عام ١٨٥٠ كانت ثروة زاوية مزده التي تقع على مرتفعات طرابلس، تتكوّن من ثمانية فراخ من طير الحمام، وأن مقدّم الزاوية إشتكى الى هاينريش بارت الرحالة الإنجليزي الشهير من عدم اكتراث السكان لنصائحه. ولكن في عام ١٨٦٥ أصبح مقدّم مزده قوة يُحسب حسابها، يستضيف العائلات الغنيّة من أولاد سيدي الشيخ اللاجئين من الجزائر لأسباب سياسية .."

و حسب تقديرات (دوفيربير) كان حتى عام ١٨٨٤ يوجد في ليبيا ٦٦ زاوية منها ٢٨ في برقة و ٢٨ في طرابلس، وفي بنغازي وجدت زاويتان و الثالثة بدأ في تشييدها تحت إشراف الوكيل التجاري السنوسية مفتاح البّاني. و بالنسبة لتطور الطريقة في مدينة طرابلس، ذكر إنه في ١٨٧٦ وُجِدت ممثليّة سنوسية عامّة يديرها محمد بن مصطفى و محمد بن طاهر، ثمّ جاء بعدهما الهادي المبارك من مراکش. أمّا إدارة الزاوية في المدينة فيمكن اعتبارها إلى حدّ أشبه بإدارة دولة. فالمسيرون لها يُلقبون بالوزراء. وفي نفس العام كان الوزير الأوّل سيدي علي بن عبد المولى من صفاقس، والوزير الثاني كان سيدي عمران من زليطن، و مدير الدراسات الفقهيّة وأصول الدين كان سيدي محمد الشريف، شقيق سيدي المهدي، و أخيراً فإن إمام الجامع الكبير كان سيدي محمد الزروالي من فاس، و هو من نسل بني زروال في ولاية وهران. كما تمّ توحيد الطريقتين المدنيّة و السنوسية في المدينة. أمّا في فزان حيث كانت توجد زاوية (واو الكبير) منذ عام ١٨٥٦، فقد أشار إلى زاوية زويلة أين نجا الرحالة المذكور ومرافقوه من محاولة إغتيال عام ١٨٦١، رغم جواز المرور الممنوح لهم من حاكم المقاطعة.

وقد روى إيفانز بريشارد أنه من بين ٤٥ زاوية تابعة لقبائل برقة فقط - بما في ذلك النوفلية و باستثناء الكفرة - هناك ٢١ منها تقريبا أقيمت قبل عام ١٨٦٠، أو خلال حياة السنوسي الكبير و ٢٢ زاوية خلال حياة السيد المهدي، وزاويتان حين تولى السيد أحمد الشريف رئاسة الطريقة. و يقول إن موقع تلك الزوايا كان ضمن المخطّط الإقتصادي السياسي الذي وُضع لها، وإن أغلبها - يد بالقرب أو على أنقاض الآثار اليونانية - الرومانية، وأيضا على طرق القوافل الهامة، وفي الخلجان الصغيرة على الساحل، للتحكم في تجارة المراكب الشراعية، وكذلك في مواقع دفاعية قويّة. ولقد وُزعت لتعظدي جميع التجمّعات القبليّة الرئيسيّة. وبعبارة أخرى أينما أسس اليونانيون والرومان والأتراك القرى

والبلدات، بنى السنوسيون محافلهم (الزوايا) . وفي فترة لاحقة إستعمل الإيطاليون نفس المواقع لإدارتهم و مستوطناتهم الإستعمارية.

أما الدخل الرئيسي للزوايا فيأتي - كما هو معروف - من الزكاة والتبرعات، وكانت فريضة، وهي تتكوّن من (العشر). أما التبرعات الأخرى كما يقول (سيرّا) فكانت على هيئة صدقة تطوّعية مكوّنة من نوعين: (الزيارة) وهي ما يُعد بمنحه نسبياً كلّ منتسب ممّا في قدرته، و(الهدية) وهي تعني هنا غرامة تكفير مرتبطة بالإلتزام الذي يتعهد به كلّ منتسب تجاه النظام العام للطريقة<sup>٤٠</sup>. وينقل بريتشارد عن المصادر الإيطالية القول: بأن هذه التبرعات كانت تتبع الزوايا الممنوحة لها، ولا تتبع شيخ الطريقة أو شيوخ الزوايا، فإذا ما تبرّع البدو بقطع من الأراضي كمزارع أو مراعي، يجوز لهم الرّعي والسقي في الأجزاء التي لا يستغلها الإخوان. أما الفائض من الربح أو الدخل، فإنه - بعد تغطية مصاريف أية زاوية - يودع في صندوق مشترك، ليُنفق منه على سدّ حاجات العائلة السنوسية والأساتذة و المسؤولين الإداريين الذين يتواجدون عادة في المركزين الرئيسيين في كل من الجيوب والكفرة. ويقول بريتشارد إن هذا النظام تغيّر منذ أن تسلّم السيد أحمد الشريف زعامة الطريقة، إذ أخذ يخصّص الفائض لبعض أفراد العائلة البارزين، ومن ثمّ توزّعت الأقطان والحيازات عليهم وعلى أقربائهم وأصهارهم من جانب الأم، فالسيد محمد العابد وأخوه السيد على الخطابي وضعا اليد على ما في منطقة (برقه البيضاء) أي جنوب غربي بنغازي وكذلك فزان، لأن أصهارهما من عائلة الأشهب، والسيد صفّي الذين في منطقة (برقة الحمراء)، في شرقي بنغازي حتّى الجبل الأخضر حيث أصهاره من عائلة المحاجيب، والسيد محمد هلال في منطقة (المارماريكا) أي طبرق حتّى الحدود المصرية وأصهاره من أشرف عائلة (الطرش)، أما السيدان إدريس والرّضا ففي المرتفعات البرقاوية، حيث أصهارهما من عائلة يوسف وعائلة الغماري، بينما كانت عقارات السيد أحمد الشريف تقع في طرابلس الغرب حيث يعيش أصهاره من قبيلة الفواتير ذات النفوذ في زليتن.

ويقدّر بريتشارد هذه المِنح التي تحوّلت إلى (أوقاف) بألاف الهكتارات (كل هكتار يعادل ١٠,٠٠٠٠ متراً مربعاً). و قدّر مجموع الأراضي العائدة للطريقة بـ ٢٠٠,٠٠٠ هكتاراً، منها ٥٠,٠٠٠ هكتاراً امتلكتها ١٤ زاوية حسب إحصاء فتى سجّلته لجنة سنوسية إيطالية مختلطة عام ١٩١٩. أمّا دخل الزوايا فقد قدرته السلطات الاستعمارية

٤٠ (إيطاليا والسنوسية) ص ٤٢

الإيطالية فيما بين سنة ١٩١٣ و سنة ١٩١٩ ب ١٥٠,٠٠٠ ليرة إيطالية. و اعتمادا على ذلك يمكن تقييم إجمالي دخل جميع الزوايا ب ٤٠٠,٠٠٠ ليرة أو ما يعادل ١٠,٠٠٠ جنيتها إسترلينيا حسب سعر الصرف سنة ١٩١٩<sup>١١</sup>. أما الجنرال الفاشيستي جراتسياني فكان تقييمه لريع الزوايا في غضون عام ١٩٣٢ بحوالي ١٠,٠٠٠ ليرة تقلا عن كتابه - بركة الأمانة الصادر في نفس السنة.

ويذكر بريشارد أنه اطلع على رسالة كانت بحوزة مؤرخ السنوسية محمد الطيب الأشهب مرسله عام ١٨٥٥ من السنوسي الكبير إلى شيوخ فرع (السديدي) من قبيلة العواقير حول بناء زاوية لهم في بلدة (مسوس) يقول لهم فيها: إنه يرسل إليهم بعض الإخوان لتشييد الزاوية - من بينهم بناءون و نجّارون - وما عليهم إلا اختيار الموقع والإشراف على العمل، و شرح لهم أن الغرض هو منفعتهم، إذ أن أولادهم سيتلقون العلم فيها، لا سيّما القرآن والشريعة، ويمكنهم إقامة الفرائض، مستشهدا في ذلك بآيات من القرآن الكريم والحديث. وفي آخر الرسالة توجّه بالدعاء أن يُجزى الله أولئك الذين يساهمون في إقامة الزاوية، والذين أخذوا على عاتقهم المحافظة عليها مختتما بالقول: " إن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، وكلّ يجني ما زرعته يدها ."

وهكذا كانت الزاوية كما وصفها المؤرخ المذكور "مدارس ومحطات لخدمة القوافل، ومراكز تجارية، ومرافق إجتماعية وحصونا، ومحاكم، ومصارف، ومخازن تموين، ودور إيواء للفقراء، وملاجئ وأماكن لدفن الموتى، بالإضافة إلى تلقي التبريكات ودعوات المغفرة". كما يصف المؤرخون الإيطاليون كيف أصبحت الزوايا بهذه الهياكل والمرافق والمنشآت المستقرة سلطة مستقلة، وشينا فشيئا تحولت إلى حكومة شكلا ومضمونا، في تنظيم حيوي ومنضبط، يكتسب باستمرار جموع المنتسبين الأوفياء. بل كان من بين المسيرين لأمرها فئة تُسمى (بالسفارين) وهم موظفون يتنقلون بين المناطق المختلفة في مهام التحقق من صحة الجباية وحصيلة المبيعات واقتناء المشتريات نيابة عن شيخ الطريقة وعائلته، وكذلك لتجميع المستخلصات وتسجيلها وإحضارها إلى المركز الرئيسي. ومن حين إلى آخر كان هؤلاء (السفارون) يكلفون بمهام دينية وسياسية. ولكن في حالات خاصة فقط، إذ أن مهمة نقل الرسائل في هذه الشؤون كتابة أو شفهيًا، كان يقوم بها

موفدون مؤتمنون يُسمَوْنَ الرِّقاص<sup>٤٢</sup>. وهم مراسلون سرّيون يجهلهم حتى مقدّم الزاوية. و كانوا يعرفون بأنفسهم لدى الموفدين إليهم بإشارات و تعبيرات خاصة. و يقول عنهم فابريتزو سيرّا : "إنهم أشخاص دهاة ماكرون، يندسّون عادة وسط القوافل و يضطلعون بمهامهم مرتدين أثوابا خلابة، ولا يكشفون عن هويّاتهم إلا إلى الجهات الموفدين إليها في الوقت المناسب، وفي بعض الأحيان يجينون و يغادرون في ملابس حجّاج فرادي متفرّقين، لا أحد يعلم من أين أتوا وإلى أين يتوجّهون. وكانوا جميعا يكتمون أسرارهم منغلقيين كأنهم متحصّنون في خزانة حديدية، مستعدّين لتقبّل الموت على أن يخونوا الأمانة، وبنوع من عدم اكتراث يثير الحنق"<sup>٤٣</sup>.

وما أن انتقل مؤسس الطريقة وناشر لوائها إلى جوار ربّه عام ١٨٥٩ م حتى غدت منظمة واسعة الأرجاء ثابتة الأركان، على أهبة الإستعداد لمواجهة قوى الإستعمار والتوسّع الأوروبي الذي بدا زحفه في اتجاه قلب القارة السوداء، مكوّنة بذلك طليعة الكفاح الوطني الليبي.

٤٢ نستنسب أن يكون الاسم (الركاض)، كونهم يركضون، أي يتنقلون بسرعة لأداء مهامهم، لو لم يرد ذكرهم في كتاب الدجاني " ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي " بإسم (الرقاص) إعتمادا على وثيقة أصليّة

٤٣ (إيطاليا والسوسية) لفابريتزو سيرّا ص ٤٣



## الفصل الرابع

### السنوسية وسط تيارات السلفية والإصلاح



## الفصل الرابع

### السنوسية وسط تيارات السلفية والإصلاح

أولاً: المقارنة مع الحركات السلفية

١- مع الوهابية

٢- مع المهديّة

ثانياً: بالمقارنة مع حركات التنوير الحديثة

- الأفغاني والماسونية



## الفصل الرابع

### السنوسية وسط تيارات السلفية والإصلاح

#### أولاً : المقارنة مع الحركات السلفية

##### ١- مع الوهابية

إذا ما حاول المرء المقارنة بين السنوسية والمذاهب السلفية الأخرى التي سعت الى (الإصلاحية) وكسر التحجّر الذي ران على العقائد الإسلامية والسنية منها بالذات، تبرز (الوهابية) التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية، وبادرت بمحاربة ما كان شائعاً في عهد مؤسسها من عادات وطقوس ترجع إلى عهود الجاهلية. وينبغي هنا إعطاء نبذة عن هذه الحركة التي كانت الرائدة بين هذه الحركات؛ فقد أسسها وقادها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٨٧). ولقب (الوهابية) الذي وُصفت به الحركة أطلقه خصومها عليها وانتشر بعد ذلك عالمياً، فأتباعها الأوائل كانوا يُلقبون (بالموحدين) وطريقتهم تُسمى (بالمحمدية) والمؤسس هو من (بني سنان) أحد فروع قبيلة تميم، وقد وُلد ببلدة (العوينة). وكان منذ البداية دائم التجوال، فبعد دراسته الأولى بالمدينة المنورة على يدي سليمان الكردي ومحمد حياة السندي - اللذين لاحظا عليه علانم من ميول الحادية وبقا لم ذكره المؤرخ دحلان - أقام في البصرة لمدة أربع سنوات وتعلم في بيت القاضي حسين ثم في بغداد لمدة خمس سنوات، حيث تزوج من سيّدة غنيّة تركت له ثروة فُذرت بألفي دينار، ثم أمضى سنة في كردستان وستين في حمدان، في بداية عهد نادر شاه عام ١٧٢٦ ومنها ذهب الى أصفهان حيث درس فيها فلسفة (المشائين) الأرسطية<sup>١</sup>. و(الإشراقية) في التصوّف ومذاهبه، إلى أن حط في (قم) بإيران التي صار فيها ضليعا ومدافعا عن مذهب الإمام أحمد بن حنبل. وبعد ذلك عاد إلى بلدته العوينة التي كان له فيها ممتلكات. وهناك اعتكف ثمانية أشهر ليصدر (كتاب التوحيد) المتضمن لدعوته. ويقال إن دعوته لقيت معارضة حتى من أخيه سليمان الذي حرّر رسالة مضاادة لها، كما أن ابن عمه عبد الله بن حسين عارضه بشدة. وقد أدت هذه المجادلات الى نزاعات عشائرية دموية، كالإشتباك الذي اندلع بين طوائف من تميم اليمامة ممّا أدى الى ترحيله بأمر من أمير (الحسا) سليمان

١ مشتقة من اليونانية Peripatetics وتعني تعلم جميع العلوم أثناء المشي. وهي مدرسة أتباع أرسطو والتي تأسست عام ٣٢٥ ق.م

بن شامس العنزري. ومن ثمّ هاجر ابن عبد الوهاب مع عائلته وممتلكاته وأقام في (الدرعية)، وكانت قرية صغيرة، حيث اعتنق حاكمها محمد بن سعود تعاليمه، وعمل على الدفاع عنه والترويج لها. ومن هنا كانت النقطة المفصلية في تاريخ الوهابية، فقد قيل إن الرجلين عقدا اتفاقا سريًا بينهما يقضي: بأنه إذا ما انتشرت الدعوة وسيطرت على الأنحاء المجاورة فسيؤولي ابن سعود الحكم بينما تترك قيادة الدعوة الدينية وشؤونها لمحمد بن عبد الوهاب. وتعاليمه مستلهمة من مذهب الإمام بن حنبل كما فسره تلميذ الأخير الإمام بن تيمية الذي هاجم تقديس الأولياء، وذلك في مصنفه (الرسالة)، كما هاجم عادة زيارة المقابر في كتابه الآخر (الرسائل)، حتى أن محمد بن عبد الوهاب وأتباعه قاموا بتحطيم ضريح (زيد بن الخطاب) في بلدة (الجبيلة)، ثم واصلوا تحطيم الأضرحة الأخرى بالبقيع في المدينة المنورة. ويُخصّص مذهب محمد بن عبد الوهاب في التخلّص من (البدع) التي جثمت على المجتمع الإسلامي منذ القرن الثالث للهجرة، والرجوع إلى اعتناق مذاهب السنة الأربعة، وكتب الحديث الستة.

كما يؤخذ على الوهابية مناهضتها " للعقلانية " ومظاهر " التمدن " ويشرح ذلك محمد عمارة أحد المفكرين الإسلاميين المستنيرين، إذ يقول: " لقد جاءت الوهابية، محكومة بأوضاع بيئتها البدوية، فرفضت التمدن عامة، كجزء من رفضها ذلك التمدن الغربي الذي كان يتسلل إلى عالم الإسلام من تلك الثغرات التي فتحها الغرب في جدار آل عثمان. ولقد دفع الوهابية على هذا الدرب وأوغل بها في هذا السبيل خلطها الشديد بين ما هو دنيا وما هو دين. فلما لم تميز بينهما، حسبت أن تجديد الدنيا يتحقق بما يتجدد في الدين، فدعت إلى السلفية الدنيوية كما دعت إلى السلفية الدينية، وغفلت عن أن تجديد ثوابت الدين لابد فيه من الإتيان دون الإبتداع، بينما تجديد متغيرات الدنيا لابد فيه من الإبتداع في إطار المقاصد الدينية والأطر العامة التي نزل بها الروح الأمين على الرسول، ولم تدرك الوهابية أن الإتيان هنا لا يثمر التجديد بل يؤدي إلى الجمود. " وتأكيدا لهذا الرأي ينقل عن الشيخ محمد عبده قوله في الوهابيين: " لأنهم أضيق عطنا وأحرج صدرا من المقلدين، فهم وإن أنكروا كثيرا من البدع، ونحووا عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيّد به، بدون إنقذات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها مُنحت النبوة، فلم يكونوا للعلماء وأولياء، ولا للمدنية أحناء! ".<sup>٢</sup>

٢ انظر "الإستقلال الحضاري" لمحمد عمارة ص - ٥٠ - مطبعة الوحدة، القاهرة - ١٩٨٦

وفيما يلي النقاط الرئيسية التي تلخص تعاليم محمد بن عبد الوهاب:

- لا يوجد معبود إلا الله، ومن يؤله غيره فهو يستحقّ حكم الموت !
- معظم البشر ليسوا موحدّين ماداموا يسعون لتوسيط الأولياء حتى ينالوا فضل الله. ومثل هذا السلوك هو شبيه بعمل (المشركين).
- من الشُّرك الإبتهال الى نبيّ أو وليّ أو ملائكة أو توسيط أي مخلوق مع الله أو الرُّكوع لغيره.
- سيكون من قبيل الكفر الإيمان بمعرفة لا تستند على القرآن والسنة أو الإستدلال العقلي الضروري.
- إنه من قبيل الإلحاد نكران القدر في كلّ الأفعال.
- من قبيل الشرك تفسير القرآن عن طريق (التأويل).

ولكن من ناحية أخرى فالوهابية تتعارض مع ابن حنبل في الأمور التالية :

- (١) إعتبار الوهابية صلاة الجماعة فرضاً -
- (٢) منعها التدخين ومعاقبة مرتكبه بما لا يزيد عن أربعين جلدة، كما يُعاقب على حلق اللحية واستعمال العبارات البذيئة، حسب تقدير القاضي -
- (٣) واجب الزكاة يُدفع حتى عن الربح غير الظاهر كالتجارة، بينما ابن حنبل يستقطعه فقط من الإنتاج الظاهر -
- (٤) لا يكفي في رأي الوهابية مجرد نُطق المرء للشهادتين لكي يكون مؤمناً ويكون ذبحه للحيوان حلالاً، بل يجب التحقق من صفات إيمانه الأخرى.

وقد اختلف المؤرّخون الأجانب في تعداد أوامر وهابية أخرى، مثل (زويمر)<sup>٣</sup> الذي أضاف إليها: عدم استعمال المسبحة للإبتهال، وذكر أسماء الله الحُسنى والإستعاضة عنها بتحريك الإصبع، وعدم رفع الصوت بابتهالات أخرى أثناء الأذان، ماعدا الأذان نفسه، إلغاء قراءة أحاديث أبي هُريرة قبل خطبة الجمعة - وكانت شائعة قبل ذلك- كما ألغيت التجمعات التي كانت تعقد خصيصاً لقراءة سيرة النبي، إلى غير ذلك من النوافل. ويذكر هنا أن بناء المساجد الوهابية كان ذا طراز بسيط جداً وبدون مآذن ولا زينة.

وعلى أثر إنتشار المذهب بسرعة، أخذ ابن عبد الوهاب يدرّب أنصاره على استعمال السلاح التاريخي، ومارس الشدّة والقمع للمخالفين، بل وتصفيتهم عن طريق الإغتيال،

٣ في (العالم المحمدي اليوم) ص ١٠٦ - نيويورك ١٩٠٦

مستندا على قوة بن سعود وقدرته الحربيّة. وقد بدأ نفوذ الحركة في عهد محمد بن سعود الذي كان - كلما احتلّ منطقة - يشيّد فيها قلعة محصّنة يحميها أنصاره، وكانوا يسمّون (بالأمناء) ويتقاضون مرتبات مجزية، كما كان يعيّن في المنطقة الكبرى مفتيا وقاضيا لها، بينما يُكتفى في الصغرى بتعيين قاض. وبعد وفاة محمد بن سعود عام ١٧٦٥، واصل ابنه عبد العزيز التوسّع ونشر الدعوة والترّويح لمؤسّسها، الى أن وصلت مكة المكرمة. وفي عام ١٧٧٣ استولت الحركة على الرياض التي هرب اميرها (دهّام). وبذلك أمسى عبد العزيز مسيطرا على كافة أنحاء نجد؛ من (القصيم) شمالا إلى (الخرج) جنوبا. وبعد وفاته خلفه ابنه سعود. ومنذ وفاة الإمام محمد بن عبد الوهّاب عام ١٧٩٢ عن عمر يناهز ٨٩ عاما، ازدادت غارات ابن سعود وتعاطمت ممتلكاته وسطوته، ونشبت النزاعات بينه وبين أشرف مكة من آل (سرور) إلى آل (غالب). بل اندلعت الحرب نتيجة تحرّشات بن سعود على حدود العراق، ممّا دفع بالباشا العثماني الحاكم في بغداد إلى تجهيز القبائل وتسيير الجيش لمواجهة غزوات بن سعود. وقد شبّت حروب ووقعت اتفاقيات هدنة وتصالح لم تستمرّ طويلا، حتى وصل الأمر بالوهّابيين الى الهجوم على (كربلاء) عام ١٨٠٢، وأعملوا القتل في سكانها، ونهبوا النفاس الذهبية والفضية من مزاراتها. وفي عام ١٨٠٣ هاجموا مكة التي جلا عنها الشريف غالب، وأعدموا من اعتبروهم من عبدة الأصنام. ولكن أهلها ثاروا على الحامية التي تركها ابن سعود لانشغاله في احتلال جدّة والمدينة المنورة، وقتلوا جميع أفرادها، كما أن إمام الوهّابية آنذاك عبد العزيز الأول اغتيل في درعية في نوفمبر من نفس السنة على يد أحد شيعة كربلاء. وبعد دحره لحملة تركية أخرى أرسلت ضده من بغداد، انطلق ابن سعود في توسيع رقعة ملكه لتشمل الحجاز، حيث احتلّ المدينة عام ١٨٠٤ ومكة في فبراير ١٨٠٦ وبعدهما جدّة. وفي السنين التي أعقبت ذلك تجاوزت قواته حدود الجزيرة العربية، إذ اجتاحت النجف. وعندما هاجمت دمشق رُدّت على أعقابها، ولو أنها استولت على باقي أراضي الشام. وما أن جاء عام ١٨١١ حتى تمّددت هذه (الأمبراطورية) الجديدة من حلب في الشمال إلى تخوم بحر العرب، ومن الخليج (الفارسي) وحدود العراق شرقا إلى شواطئ البحر الأحمر، مما جعل إسطنبول تستنجد بحاكم مصر محمد علي باشا الذي جهّز جيشا لمقاتلته، قاده في البداية ابنه (طوسون) في حملة لم تكلل بالنجاح، إلى أن جاءه المدد، فاستولى على المدينة عام ١٨١٢، ثم مكة عام ١٨١٣. وفي منتصف هذه السنة تولى قيادة القوات محمد علي بنفسه، ولكنه مُني بهزيمة في أوائل المعارك، إلى أن أسعفه الحظ بوفاة بن سعود في ١ مايو من عام ١٨١٤. ولم يكن خلفه عبد الله في مستوى مقدرته الحربيّة. وهنا ترك محمد علي باشا القيادة من جديد لإبنه طوسون الذي رأى أن يعقد معاهدة صلح مع عبد الله بن سعود اعترف بها الأخير بسلطة وسيادة السلطان العثماني، غير أن محمد علي لم يعترف بهذه المعاهدة، وعاود اللجوء إلى القوة العسكريّة، حيث نظّم حملة كبيرة بقيادة ابنه بالتبني

إبراهيم باشا الذي زحف على الدرعية عاصمة الوهابيين في أبريل ١٨١٨ م. وفي ٦ سبتمبر من نفس السنة استولى عليها وقبض على صاحبها عبد الله، وأرسله أسيرا إلى إسطنبول حيث جُدَّ رأسه. أما الدرعية فذُكِّت دكا. وبعد أن عيّن إبراهيم واليا تركيا على نجد، انسحب إلى المدينة المنورة. أما محمد علي باشا فواصل زحفه على الجنوب وعسير حيث واجه مقاومة شديدة من سكانها دامت للفترة ١٨٢٥ - ١٨٣٧. ونظرا إلى انشغال محمد علي في مشاكله مع إسطنبول واحتلال الإنجليز لعدن عام ١٨٣٩، غادر بلاد العرب، وسلم أمر المكانيين المقدسين مكة والمدينة للإدارة العثمانية. ولئن ضمن المصريون والعثمانيون السيطرة والأمن في الحجاز، إلا أنهم لم يعيروا نفس الأهمية لنجد التي انتفض فيها الوهابيون بقيادة (تُركي) ابن عم عبد الله بن سعود، واتخذوا من الرياض - التي لا تبعد كثيرا عن الدرعية - عاصمة لهم، وانتشر نفوذها إلى كامل ساحل الخليج. وعندما صُرع تُركي هذا عام ١٨٣٢ على يد أحد المتمردين، استطاع ابنه فيصل، بفضل قائده العسكري عبد الله بن رشيد، من أن يضمن لنفسه خلافة أبيه، فكان أن كافأ قائده بن رشيد وعينه شيخا لقبيلة (شَمَر) الكبيرة وحاكما وراثيا على منطقة حائل. وفي سنة ١٨٣٨ وقع فيصل أسيرا لدى القوات المصرية التي نفته إلى مصر. ولكنه تمكن من الفرار والعودة ليُشعل الثورة من جديد في وجه الجيش المصري.

أما عبد الله بن رشيد فقد استطاع أن يدير بحنكة دقة الحكم في حائل، إذ حافظ على علاقة طيبة بين الجيش المصري والوهابيين المسيطرين على الرياض مثبتا الحكم الوراثي لعائلته، إلى أن توفي عام ١٨٤٧، فخلفه ابنه طلال الذي اشتهر بمهاراته القتالية، إضافة إلى انتهجه لسياسة متوازنة ومنفتحة، حيث شجّع حرية التجارة وقلّص من غزوات وغارات القبائل وصالح بينها. ولكن نهايته كانت مفاجئة حيث انتحر عام ١٩٦٨ "خشية أن يفقد صوابه". فحلّ محله أخوه متعب الذي قُتل بعد فترة قصيرة على أيدي بدر وبندر ابني طلال. وما أن تولى الأخير الحكم حتى صُرع من قبل محمد، وهو أخ آخر لطلال. ثم انتقلت موجة الإغتيالات (وانقلابات القصر) إلى أسرة آل سعود، فما أن توفي فيصل في الرياض (ديسمبر ١٨٦٩) وتولى الحكم ابنه عبد الله، حتى أخذ يسعى للتخلص من أخيه سعود، ولكن هذا تمكن من كسب حلفاء الي جانبه، واستطاع أن يطيح بعبد الله عام ١٨٧٠. وهكذا تواصلت الصراعات والحروب التي شملت آل رشيد وآل سعود وقبائل المنطقة والأقاليم: العنيزة والعُطبية ومُطير... إلخ. وأسفرت أخيرا عن لجوء عبد الرحمن، أحد أبناء فيصل، إلى الكويت طلبا للحماية من شيوخها، وسيطرة محمد بن رشيد على الصحراء العربية إلى أن توفي عام ١٨٩٧.

وعندما تولى العرش ابن عمه عبد العزيز بن متعب، خاض هذا قتالا ضد شيخ الكويت الذي كان يأوي خصمه عبد الرحمن بن سعود وعائلته. وفي يناير ١٩٠١ تمكن عبد العزيز -أحد أبناء عبد الرحمن - من ان يتسلل من الكويت بفرقة من المقاتلين، وأن يحتل الرياض، ويعيد تأسيس حكم آل سعود فيها. ومنذ ذلك التاريخ بدأت سيرة مملكة آل سعود، إذ قضى عبد العزيز بقية السنوات يضمّ مزيدا من الأراضي والأقاليم إلى حكمه منتزعا إياها من الأتراك وآل رشيد، إلى أن أصبح عام ١٩٠٤ الحاكم المطلق على كامل نجد مستعيدا سلطة الوهابية القديمة حتى في الحجاز. وما أن جاء ٢ نوفمبر ١٩٢١ حتى سيطر ابن سعود على حائل، وبذلك وضع حدا لحكم آل رشيد. وفي أكتوبر ١٩٢٤ احتلت قواته مكة. وفي ٥ ديسمبر ١٩٢٥ المدينة، وفي ٢٣ ديسمبر جدة. وبذلك ضمّ ابن سعود كامل الحجاز إلى ملكه. بل إنه في عام ١٩٢٦ أخذ عسير حماية لها من خطر الإمام يحي حميد الدين إمام اليمن الذي زحف واستولى على الحديدة. وبذلك اندلعت الحرب عام ١٩٣٤ بين ابن سعود والإمام يحي تمكن خلالها ابن سعود من الاستيلاء على الحديدة، ولكنه تنازل عنها وفقا لاتفاقية الطائف بين البلدين. وهكذا تواصلت الوهابية وبقيت حية إلى أن تأسست على تعاليمها (المملكة العربية السعودية) بقيادة عبد العزيز آل سعود (١٨٧٦ - ١٩٥٣) وبقيّة ذريته حتى يومنا هذا.

والجدير بالذكر أن الوهابية حاولت الإنتشار خارج الجزيرة العربية، ففي سنوات مسيرتها الأولى نشأت دعوتها في الهند على يد سيد أحمد، وهو مواطن من المنطقة البريطانية المسماة (راي باريلي)، والذي اعتنق العقيدة الوهابية عندما كان في الحج عام ١٨٢٣. ويبدو أن السلطات في الأماكن المقدسة لم ترتج لنشاطه فأمرته بالرحيل. وفي الهند أخذ من مدينة (باتنا) مركزا له، وانضمّ إليه الكثير من الأتباع، كما قام بتعيين أربعة ممن سماهم (بالخلفاء) وأحد الأئمة. وعندما زار (بومباي) و(كلكتا) تضخمت أعداد المنتسبين لحركته، مما شجعه على تكوين جيش عام ١٨٤٢ عسكر به على حدود بشاور. ومن هناك أخذ ينادي بالجهاد مهددا سكان البنجاب من الشيخ من خلال بيان أسماه بالعربية (الرب غيب في الجهاد). وفعلا استطاعت دعوته لكافة مسلمي الهند أن تشعل الحرب بين الطرفين، ورغم المقاومة العنيفة التي أبداها الشيخ، إلا أن جيش سيد أحمد استطاع احتلال البنجاب في نهاية عام ١٨٣٠، الأمر الذي حدا به إلى إعلان نفسه (خليفة)، وسعى إلى صلك النقود باسمه. غير أنه قتل بعد سنة من هذا الإنتصار من قبل قوة عسكرية من الشيخ. فلجأ أنصاره إلى الجبال في منطقة الهندوس، وأشاعوا بين العوام أن سيد أحمد سيبعث من جديد. ونشروا حركة الجهاد ضدّ الهندوس والبريطانيين المعسكرين هناك في حركة تمرّد شملت كامل البنغال تحت قيادة (تيتو ميان) تلميذ سيد

أحمد. ولكن هذا سرعان ما هُزمت قواته وقتل يوم ١٧ نوفمبر ١٨٣١. وعلى الرغم من ذلك استمرّ (الخلفاء) من بعده يثيرون المتاعب والإضطرابات والنزاعات الدموية دائما تحت راية (الجهاد) ضد غير المسلمين، الأمر الذي أدّى إلى تتصّل جماهير المسلمين - سنّة وشيعة - من أعمالهم، وأصدر العلماء بيانات التبرؤ من حركتهم طوال عام ١٨٧٠. ومنذ ذلك الحين اندثر نفوذ الحركة وخفت صوتها.

وبالإضافة الى نشاط الحركة الوهابية في الهند - كما سبق شرحه - سُجّل لها تحرك آخر عام ١٨٧١ في منطقة (كوخاند) في تركستان بآسيا الوسطى تحت زعامة (صوفي بدال)، حيث قام تلميذه (إحسان إيش محمد كول) على رأس قوّة عسكرية بالهجوم على الحامية الروسية في (كاراسو) على الطريق من طشقند إلى (هوجنت)، ولكن الهجوم مُني بالفشل لضعف عدد القوّة، كما أن الوهابية في أفغانستان ارتبطت بمصيرها بمصير الحركة في الهند منذ البداية.<sup>٤</sup>

وإذا ما حاول المرء عقد مقارنة بين السنوسية، في مجال العقائد والطقوس، وبين الوهابية السابقة لها بعدة عقود، فسيلمس الفروق الكبيرة التي يمكن إجمالها فيما يلي:

١- رغم تشابه إيمان الدعوتين بالرّجوع إلى السلفية الأولى ونبذ ما طرأ من بدع وخرافات، وكذلك اعتمادهما في تفسير القرآن الكريم على الكتب الست المعروفة - مع تركيز الوهابية على البخاري ومسلم وتركيز السنوسية على مالك وكتابه الموطأ- إلا أن الوهابية غالت في محاربتها للبدع والتقدّيس، فحرّمت الأضرحة والمعابد ومنعت التّصوّف ومراتبه، بينما انطلقت السنوسية أساسا كطريقة صوفية، واعترفت وتسامحت وتعايشت مع بقية الطرق - مع حظرها لما رافقها من أعمال

٤ اقتبست المعلومات في هذه النبذة عن (الوهابية) من كُتب عربيّة قليلة مثل: (روضه الأفكار) لحسن غنام و(عنوان المجد في تاريخ نجد) و(لمع الشهاب في تاريخ محمد بن عبد الوهاب) الذي وُصف بأنه متحيّز ضدّ الحركة ومؤسّسها. ولم تُدوّن عنها أدبيّات عربيّة هامة أخرى ما عدا ما نُشر في الهند، حيث كانت أدبيّاتها عن نشاطها فيها غزيرة. وأهمّها كان كتاب (الصراط المستقيم) لمؤلفه محمد بن إسماعيل، وهو ابن عمّ سيد أحمد. ولكن المؤرّخين الأجانب اعتمدوا على كتاب جون فيلبي بعنوان (العربية)، والذي ألفه عن التاريخ الشامل للوهابية والصادر بلندن عام ١٩٣٠، وكتاب نجيب الريحاني بالإنجليزية بعنوان (ابن سعود العربية وبلاده) لندن - ١٩٢٨. وهناك كتاب (عقيدة الوهابية) بقلم فان ديقيلين الهولندي - لايدن ١٩٢٧، وبالألمانية كتاب هارتمان (الوهابيون) الصادر عام ١٩٢٤، و(الوهابيون القدامى والمحدثون) بقلم جاسكيل - لايبزيغ ١٩٢٩، وكتاب يوزيف شاخنت (المقولات الوهابية). وقد اعتمدت عليها جميعا موسوعة الإسلام المختصرة لنجيب وكرامر ص ٦١٨ - ٦٢١. كما وردت نفس النبذة في (تاريخ الشعوب الإسلامية) لكارل بروكلمان - ص ٥٤٩ - ٥٥٧ ترجمة نبيه فارس ومدير بعلبكي دار العلم للملايين- بيروت ١٩٧٩.

الشعوذة - كما أنها لم تهدم الأضرحة والأماكن المقدسة، بل إن ضريح مؤسسها في الجعوب مع تصميمه الهندسي المتواضع، ولكن الجميل والأنيق، يقف خير دليل على ذلك. كذلك احترمت السنوسية أضرحة الأولياء (المرابطين) المنتشرة في جميع أنحاء ليبيا ولم تمسها بسوء وسمحت بزياراتها. وإن عملت - بالوعظ والإرشاد - على التوقف عن تقديس أولئك الأولياء وطلب وساطتهم أو شفاعتهم في المغفرة، وحثت على عدم إقامة الإحتفالات حول وداخل أضرحتهم.

٢- مارست الوهابية الجهاد- طبقاً لفهمها له- واتخذته وسيلة غالبية لنشر دعوتها طيلة مسيرتها الطويلة، سواء في شبه الجزيرة العربية وبلدان الجوار، أو في الهند ووسط آسيا كما رأينا في السرد. بينما لم ترفع السنوسية الجهاد كشعار لها، بل اضطرت إلى استعماله كوسيلة للدفاع والتحرير، سواء عندما هوجمت من قبل قوات الغزو الأوربي ممثلاً في الإجتياح الفرنسي للسودان الأوسط، أو في مقاومتها للغزاة الإيطاليين داخل ليبيا. وهذا هو الفهم الصحيح لمعنى الجهاد عندها. كما أن الوهابية خاضت حروبها الجهادية ضد بلدان وشعوب ومقدسات إسلامية، بعكس السنوسية التي تقادت الإنزلاق في مثل هذه الحروب بحسبانها من قبيل الفتنة، وهو ما استدلل عليه مسيرتها في الفصول القادمة.

٣- وثمة ما يرجح أن الوهابية، في مرحلة متأخرة من مسيرتها، قد اقتبست من السنوسية، حيث ذكر أن ابن سعود شرع منذ عام ١٩١٢ في إقامة (مستوطنات) زراعية سميت (هجر) يقطنها التابعون للمذهب والذين يُطلق عليهم وصف (الإخوان). وكانت أولها (الإرتاوية) في منطقة القصيم، وكان أغلب سكانها من قبيلة مُطير. واختير موقع هذه الهجر بالقرب من منابع المياه، وشيدت فيها بيوت طينية ليقطنها البدو بدلاً من الخيام، على أن يدفعوا إيجارها. وطلب منهم أن يبيعوا مواشيهم ويحرثوا الأرض ويجنوا غلالها. وقد بلغ عددها حوالي سبعين هجرة ارتفع عدد سكانها من ألفين إلى عشرة آلاف نسمة في مدى عشر سنوات، وهي الفترة التي شهدت إحياء المذهب الوهابي، كما سلح القادرون منهم بهدف الجهاد. وقد قسّموا إلى ثلاث فئات: البدو الذين أصبحوا مزارعين- طبقة التجار- (المتطوعة).

ونحن نعلم أن أول زاوية أنشأها السنوسي الكبير كانت زاوية (أبي قبيس) في مكة بتاريخ ١٢٤٢ للهجرة (١٨٢٥ م)، ثم الحقها بزاوية المدينة، وتتابع بعد ذلك بناء زوايا جدة؛ الطائف؛ منى و بدر. وكلها بالحجاز، وذلك في الفترة المنقطعة التي أقام فيها السنوسي الكبير في الأراضي المقدسة، والتي دامت حوالي ثلاثين سنة. ولذا لا يُستغرب تأثر الوهابيين بالتجربة السنوسية في إنشاء الزوايا.

غير أن نظام الزوايا في الجزيرة العربية اندثر بمرور الزمن نظرا إلى هبوب تيارات التحديث العمراني والإقتصادي بفضل ثروة النفط الهائلة، مثلما آل إليه مصيرها في ليبيا، إضافة إلى ترسخ وتوسع حكم أسرة آل سعود. وفي الوقت الحاضر لا يوجد أثر لهذه التجمعات في (المملكة العربية السعودية). ولكن بقيت فرق (المتطوعة) المعروفة، والتي دأب صيتها بإجرائاتها التعسفية حتى في الشارع السعودي، وتطبيقها للقوانين بيدها كما يقال. وهي فرق لا يُستغرب ضلوعها في الإضطرابات الدموية الناشئة في المملكة السعودية والتي انبثقت، ولا زالت، من محافظة القصيم بالذات موئل الحركة الوهابية. كما تشكلت حديثا دوائر (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ذائعة الصيت والتابعة لأجهزة الدولة.

## ٢- مع المهديّة

أما الحركة المهديّة في السودان فقد كانت أقرب الشبه بالسوسية من غيرها من الطرق العديدة المنتشرة. وبحكم التواصل الثقافي والجوار الجغرافي بين ليبيا والسودان، فإن المهديّة أخذت من السوسية السابقة لها زمنيا توجهها السياسي في التصدي للغزو الأوروبي إلى درجة خوض الكفاح المسلح ضده، وبينما كانت الميرغنية في السودان دعوة للإصلاح و التهذيب الديني، وأنشأ مؤسسها زاويته في مكة في نفس الوقت الذي أنشأ فيه السوسية الكبير زاويته هناك، إلا أن وفاة السيّد الميرغني المبكرة هناك أدت إلى قصور دعوته عن أن تنطلق أكثر من ذلك، وانحصرت في الإطار الطائفي، وإن أخذت في وقتنا الحاضر ملامح حركة سياسية حزبية لازالت فاعلة حتى الآن في الساحة السودانية بعد حركة الأنصار وريثة الطريقة المهديّة، وما يلفت النظر أن الطرق الثلاث، السوسية والمهديّة والميرغنية، تنبثق جميعها من الطريقة الصوفية القادرية، فالمهديّة أيضا تأثرت بالطريقة السمانيّة وثيقة الصلة بالقادرية. وإذا ذهبنا نوجز نواحي الاختلاف بين السوسية و المهديّة فسندجها تتمثل فيما يلي:

- اندفعت المهديّة في الحرب الجهادية، حتى اشتبكت مع جارتها أثيوبيا في معارك منقطعة، وسعت إلى (فتح) مصر وتحريرها من النفوذ التركي والإنجليزي، إذ كانت تعتبر حكم الخديوي لمصر امتدادا للحكم التركي، وجهزت لذلك جيشا (غازيا) في عهد (ال خليفة) عبد الله التعايشي الذي خاض معارك أسفرت عن إلحاق الهزيمة بالمهديّة في منطقة توشكى عام ١٨٩٠ كما سبق ذكره.

• كانت المهدية تحمل راية العداء الصريح لتركيا، وأعلنت (الجهاد) ضد الحكم التركي، وسعت إلى تحرير الأمة من برائته، فنرى السيد محمد أحمد المهدي يعلن في إحدى منشوراته التي كان يستخدمها في نشر الدعوة قائلاً: "بشّرني رسول الله (ص) في الحضرة النبوية و قال لي كما صليت في الأبييض تصلي في الخرطوم ثم تصلي في مسجد يثرب ثم تصلي في مسجد مصر ثم تصلي في بيت المقدس ثم تصلي في مسجد العراق ثم تصلي في مسجد الكوفة، اللهم أمين." ويتضح من ذلك مدى تشدده وسعة طموحه، الذي بزّ به طموح محمد علي باشا. أما السنوسية فهي على العكس من ذلك في نهجها و أسلوب تعاملها مع القوى الدولية المهيمنة آنذاك لم تعلن صراحة عن مخطتها السياسي- إن كان لها مخطط مرسوم- و لكنها كانت تنشئ قواعد وسلطات حكومية أينما وصلت دعوتها ممثلة في الزوايا، وهو نوع فريد من المؤسسات الفاعلة لم نره عند حركات الصحوة الإسلامية الأخرى. ولعلّ السنوسية بحكم تحركها في ظلّ الإمبراطورية العثمانية حاملة إسم الخلافة، كانت ترى الأولوية في مكافحة التغلغل الإستعماري الأوربي والذي تمثل بالنسبة لها في الاستعمارين الفرنسي والإيطالي، رغم ما تضمنه من تبرّم من الحكم العثماني لكونه لا يتمتع بحق الخلافة - خاصة أن مؤسس الطريقة عاصر في الأراضي المقدسة صراع الوهابية ضد هذا الحكم. ولكنها رأت أن شراسة المعركة ضد قوى عظمى مثل فرنسا في الوسط الأفريقي، وخاصة في تشاد، مقاومتها للغزو الإيطالي في ليبيا. كل ذلك كان يحتم عليها التحالف المؤقت مع الإمبراطورية العثمانية مترامية الأطراف، والتي لا تملك سلطة مهابة، بل كانت غائبة عن المجال الذي نشطت السنوسية فيه.

• كان ثمة اختلاف آخر في السليقة الشخصية لكلا الرجلين فالسيد محمد أحمد المهدي (السوداني) نشأ نشأة إنعزالية، عندما التحق بالطريقة الصوفية (السمانية)، واستقرّ سنة ١٨٧٠ في جزيرة (أبا) على النيل الأبيض. وهناك انصرف مستغرقاً في الطقوس الصوفية في كهف، ثم اختلف مع شيخه وهو السيد محمد شريف نور الدائم الذي حلل لعب الميسر والرقص لأتباعه ابتهاجاً بختان ابنه، الأمر الذي ثار ضده المهدي وأدى الى طرده من الطريقة المذكورة<sup>١</sup>. غير أن هناك تحليلاً آخر للخلاف بين السيد المهدي السوداني وشيخه، حيث أنّ الشيخ كان يفهم التصوف على أنه وسيلة للإصلاح الدنيوي. وكانت مقاربتة للخلافة العثمانية - بعكس تلميذه المهدي- شبيهة بمقاربة السنوسية، بل تتطابق مع موقف حركات الإصلاح في مصر والمشرق العربي حيالها. ويبدو أن تلقيه لدروسه في الأزهر واحتكاكه بعلمائه والمترددين عليه من الفقهاء من أغلب بلدان العالم الإسلامي، قد غرست فيه مفاهيم للتحديث لاتؤمن بالشعوذة الصوفية. ورغم انتقاده للتعسف التركي، وخاصة الإقتصادي منه، إلا أنه سعى لدى الباب العالي ليتولى إصلاح الأمور في السودان، في معارضة للنفوذ الإنجليزي والدعوة الى المهدية في نفس الوقت. فكانت هذه - في حقيقة الأمر- هي الأسباب التي دعت تلميذه إلى طرده من الطريقة تحت ستار

التهمة (الخلقية) المشار إليها<sup>٧</sup>. وقد ازداد نفوذ مهدي السودان وكثر أنصاره، بفضل هذا الخطاب التحريضي الذي يدعو إلى الجهاد ضد الحكم التركي للسودان. وفي بياناته ومنشوراته التي كان يوزعها على أنصاره جاء قوله: "ولا تمسكوا شيئا من أرزاق لتكثروه وتكثروه بعد هذا الإنذار والبيان بل أذلوها في اللهو تجهزوا بها للجهاد في سبيله بجميع آلات الإستعداد لتكونوا دانما على أهبة واستعداد ليوم الجهاد ويوم الميعاد. وإن الترك كانوا يسجنون رجالكم ويسحبونهم من القيود ويأسرون نساءكم وأولادكم ويقتلون النفس التي حرم الله بغير حقها وكل ذلك لأجل الجزية التي لم يأمر الله بها ولا رسوله"<sup>٨</sup>

• أرسل إمام دنقلة المهدي منشوره المشهور إلى السيد المهدي السنوسي في مايو ١٨٣٨ يبلغه فيه إختياره لمنصب الخليفة الثالث في الثورة المهدية (أي مقام عثمان بن عفان). وهذا يعني أنه (أي المهدي السوداني) في مقام الخليفة الأول أبوبكر الصديق، والتعايشي في مقام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب! وقد جاء في هذا الخطاب ما نصّه: "هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على العبد الحقير والله هو الفاعل المختار الذي هو على كل شيء قدير فأمرني رسول الله (ص) بأن أكتب بها الشرق والغرب من غني أوفقير فصدق بها من أراد الله سعادته وكتب بها الأشقياء وصاروا في النكير، مع أن النبي (ص) قد خلفني بالمهدية مرارا بالجلوس على كرسيه وألبسني سيفه بحضرة الخلفاء والأولياء والأقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام. وأعلمت أنه لا ينتصر عليّ أحد بعد إتيان سيف النصر إليّ من حضرته (ص) ولا زال التأييد من الله ورسوله يزداد، وأنت منا على بال حتى جاءنا الأخبار فيك من النبي (ص) أنك من الوزراء لي ثم لا زلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبي الخضر عليه السلام بأحوالكم وما أنتم عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبي (ص) خلفاء خلفائه من أصحابي، فجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق وأحدهم على كرسي عمر، وأوقف كرسي عثمان وقال: هذا الكرسي لإبن السنوسي إلى أن يأتيكم بقرب أو طول وأجلس أحد أصحابي على كرسي عليّ رضوان الله عليهم أجمعين". وبعد أن يستشهد بما قاله الشيخ أحمد بن إدريس أستاذ الإمام السنوسي مصدقا بخروج المهدي المنتظر، مشيرا إلى تفسيرات محي الدين بن عربي في الموضوع، استطرد قائلا في رسالته إلى المهدي السنوسي: "أعلم النبي (ص) أن من شك في مهديتي ومن خالفني فأبى أمري كافر. فمن أراد الله له السعادة صدق بمهديتي، ومن جعل الله له شكوكا وشبها تصده عن الإيمان بمهديتي، فليخذله الله في الدنيا قبل الآخرة إلا من أراد الله تعالى له الهداية بعد. فإذا بلغك جوابي هذا، إما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر وجهاتها، أو تهاجر إلينا"<sup>٩</sup> أما المهدي السنوسي فلم يزعم لنفسه هذه النبوءة. واتضح أنه لم يابه بمزاعم مهدي السودان وما عرضه عليه، معتبرا ذلك ليس فقط من قبيل (الشعوذة)

٧ (الثورة المهدية) لعبد العزيز حسين الصاوي ومحمد علي جادين - شركة الفارابي ١٩٨٧، وذلك

نقلا عن منشورات الداعية المهدي نفسه ص ٤٣

٨ نفس المرجع ص ١٨١ مع ملاحظة الركابة اللغوية في التعبير.

٩ الصلابي ص ٤٦ - ٤٧.

التي لا تتفق مع روح الدعوة السنوسية، بل اعتبر أن ما قام به مهدي السودان وخلفاؤه يعدّ من الكبائر التي ينهى عنها الدين، وهو ما أفصحت عنه إجابته على الإستيضاح الذي تقدّم به إليه سلطان (بوركو) حول موقفه من عبد الله التعايشي الذي طلب موازرة السلطان، إذ وصف طلب التعايشي بالقول: "إنه إنما يعني بالدعوة إلى إصلاح الدين سلماً ولا حرباً، بينما تنفر الملة التي يراد إحيائها نفوراً عظيماً بل وتشتدّ ثورتها ضدّ الدماء التي يُهدرها والجرائم التي يرتكبها في السودان".<sup>١٠</sup> يضاف إلى ذلك أن سلبية ردّ السيد المهدي السنوسي جاءت لدواعي إنشغاله في الجهاد الذي كان يخوضه ضدّ الفرنسيين في الصحراء الليبية وتشاّد، والتي تبعد آلاف الكيلومترات عن مصر.

وأسطورة (المهدي المنتظر) هذه حاول أيضا الرحالة المصري أحمد حسنين أن يُلصقها بالمهدي السنوسي حيث وصفه بمن يريد أن: "يرفع لواء الإسلام في نهاية العالم حين يصل سنّ البلوغ في غرة محرّم سنة 1300 هجرية (أي 1881 ميلادية) وأن يكون من أب اسمه محمّد وأمّ اسمها فاطمة، وقد جمع المهدي في نفسه كلّ الصفات التي قيل إنها وردت في أحد كتبهم، ولذلك تمّ اختياره خلفاً لكبير السنوسيين"<sup>١١</sup>

وإذا ما راجعنا تاريخ الفرق الإسلامية، فنسجد أن مسألة (المهدي المنتظر) قد كثر الحديث حولها. وأفرد لها ابن خلدون في مقدّمته صفحات طويلة روى فيها نساؤها وتضارب الروايات حولها والتي كانت منسوبة إلى النبي (ص) وخاصة عباراته الشهيرة: "لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي - يواطئ اسمه اسمي وإسم

١٠ الصلابي ص ٤٨ نقلاً عن كتاب (المهدي السنوسي) للطيب الأشهب.

١١ (في صحراء ليبيا) لأحمد محمد حسنين (بأثنا) ص ٥٥ - ٥٦. وهو شخصية أصبحت مرموقة في القصر الملكي المصري، واتهم بأنه كان صنيعة للإنجليز حيث تطوّع في جيشهم في الحرب العالمية الأولى ودرس في أكسفورد، وحين عاد إلى القاهرة عمل سكرتيراً خاصاً للجنرال ماكسويل قائد جيش الاحتلال. ثمّ تقرب من حاشية الملك فاروق وتزوَّج من لطيفة هاتم كريمة الأميرة شويكار الزوجة الأولى للملك فؤاد. وبعد وفاة فؤاد تقرب من ابنه الملك فاروق عن طريق غرامه بأمّه الملكة نازلي التي تزوّجها هي الأخرى، وأصبح رائداً لفاروق ورئيساً لديوانه. وقبل ذلك كان من بين الذين مارسوا دور الوساطة في مفاوضات اتفاقية الزيتين وعكّره بين الإنجليز والإيطاليين من جهة، والسيد إدريس من جهة أخرى، ولو أنه في كتابه المذكور يشير إلى مقابلاته للسيد إدريس في الموقعين دون أن يذكر وساطته، على الرغم من أن عبد الرحمن عزّام (في مذكراته) قال إنه قابله في مكان المفاوضات وأكد دوره فيها، إذ أن حسنين - كما ذكر في كتابه - تعرّف على السيد إدريس في القاهرة منذ عام ١٩١٥ وأصبح مقرباً منه. والكتاب عبارة عن يوميات الرحلة التي قام بها عام ١٩٢٣ من السلوم إلى كردفان بغرض إكتشاف (أركنو) و(العوينات)، وقصّ فيها ما شاهده في الجيوب والكفرة وجالو وأوجله، محدثاً عن (السنوسية) وأتباعها. كما روى معتقدات البدو الكثيرة عن (كرامات) السيد المهدي السنوسي..

أبيه إسم أبي- يملأها عدلا كما مُلئت جورا<sup>١٢</sup>. ويُفهم من جدل كبار أئمة السنة ضعف ثبوت هذا الاعتقاد في مذهبهم، لأن أبرز حديث متواتر عن الرسول قوله: " لامهدي إلا عيسى بن مريم". وهذا بخلاف المذهب الشيعي الذي يتحجج بحديث للنبي (ص) يقول: "وإن تؤمروا عليا ولا أراكم فاعلين تجدوه هاديا مهديا يأخذ بكم الصراط المستقيم"، كما جاء لدى الشيعة أن آخر الأئمة الإثنى عشرية (المستورين) من آل الإمام علي بن أبي طالب، وهو محمد المهدي ابن جعفر العسكري، لقب بالمهدي المنتظر وأنه (اختفى) نحو سنة ٣٦٠ للهجرة. ويسرد أحمد أمين أن كيسان مولى علي بن أبي طالب زعم أن ابنه محمد بن الحنفية هو إمام مهدي وهو مقيم في جبل رضوي على الرغم من أنه توفي سنة ٨١ هجرية وصلى عليه (أبان بن عثمان بن عقان) الذي كان والي المدينة ودُفن بالبقيع، ولكن الكيسانية لم يؤمنوا بموته وقالوا بغيبته وانتظاره حتى يعود وهو ما يُسمى أيضا (بالرجعة). وكان هذا أساس فكرة المهدي المنتظر عند الإمامية الأثني عشرية. وثمة روايات أخرى تقول بأن عقيدة (المهدي المنتظر) ظهرت أيضا لدى بعض السنة مثل إضفاء هذه الصفة على خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بالسفياي، وحتى بعض العباسيين أرادوا أن يكون المهدي من بينهم مستندين على حديث نبوي، غير أن جميع هذه الأقاويل سبقت في غمرة الصراعات السياسية على كرسي الحكم، وتلمس الشرعية له ضد المنافسين. ولذلك لم يعمّر استعمال هذه العقيدة لدى السنة طويلا.<sup>١٣</sup>

وبالنسبة للسيد المهدي السنوسي فما حيك حوله بين البدو من إتيان بعض المعجزات، مثل تبريكه للطعام بيديه فازداد أضعاف الأضعاف، لم يتأكد صدوره عنه، ولكن شاع بعد وفاته. وقد يكون ذلك من قبيل الدعاية لنشر الدعوة السنوسية وضمّ مزيد من الأتباع إليها، وخاصة في المناطق القبلية أو (الهنترلاند) كما كان ينعته المؤرخون والخبراء الأوروبيون. وقد اعتمد بعضهم على تعبير السيد أحمد الشريف السنوسي، القائد الثالث للطريقة، عند وفاة السيد المهدي حين وصف وفاته في كتابه الأنوار القدسية بأنها: "غياب عن العين لغرض حكيم لا يعرفه إلا الله جلّت قدرته"، اعتمدوا على ذلك لاختلاق معجزة المهدي المنتظر، إلا أن هذا التعبير ما هو إلا بلاغة لفظية تستعمل عادة لإجلال المتوفي، خاصة عندما يكون من الصالحين والأولياء المقرّبين إلى الله حسب معتقدات العموم. وما صرّح به السيد إدريس السنوسي ابنه وملك ليبيا لاحقا من أن والده " لم يدع بأنه المهدي المنتظر " لهو أقوى نفي لذلك .

١٢ أنظر في (المقدمة) لإبن خلدون ص ٣١١ تحت الفصل الثاني والخمسين.

١٣ (ضحى الإسلام) ص ٢٣٦ - ٢٤١

على أنه ينبغي القول إن كلا من السنوسية والمهدية كانتا متأثرتين بالوهابية السابقة لهما بقرن من الزمان تقريبا، من حيث امتشاق السلاح وخوض غمار المعارك الحربية. و بذلك تحولت الطرق الثلاث إلى منظمات صدامية متشددة بالمفهوم السياسي الحديث، بل ومقاتلة بالسلاح (Miltantes) من أجل عقيدتها، دون إغفالنا باختلاف الدوافع والطموحات. مع التأكيد مرة أخرى على أن نهج السنوسية كان مختلفا، فهي لم تعاد السلطنة العثمانية الحاكمة، بل هادتها واستطاعت في ظلها أن تترعرع وتنتشر دعوتها، وترسخ نفوذها، ولم تحارب إلا عندما هوجمت في عُقر دارها. وهو ما سنتعرض له لاحقا.

## ثانيا : بالمقارنة مع حركات التنوير الحديث

غني عن البيان أن حركات التغيير السلفية هذه، في سعيها لتحرير الأمة من برائن التخلف والجمود، استمدت عقائدها من اجتهاداتها في الدين، وكانت تترعرع في أجواء يقظة ووعي فكريين اتسما بتطلعات قومية لشعوب الأمة العربية للإنعتاق من الهيمنة والاستبداد التركيبي، وإن اتخذت طابع شمولية إسلامية تنضوي تحت لواء الخلافة الإسلامية في كثير من الأحيان. ولم يكن ذلك بواعز الولاء المخلص الحقيقي، ولكن جاء في إطار استراتيجية حذقة هدفها التصدي للهجمة الإستعمارية الأوروبية التي شرعت تجتاح بلدان المنطقة العربية لانتزاعها من الهيمنة التركية. فلم يكن أمامها من بد إلا الدفاع عن حياض الوطن والمصير تحت راية الدفاع عن الخلافة العثمانية والانتصار لسلطانها، ونعني بذلك ما أطلق عليه المؤرخون حركة الجامعة الإسلامية، والتي قادها في الجانب العربي جمال الدين الأفغاني ومعه محمد عبده. وكانت هذه الحركة ثورة فكرية توسلت النشر والصحافة والخطابة في بث دعوتها، فقائدها الأفغاني إعتبره المؤرخون والمستشرقون الأوروبيون مثل **E.G.Browne** محرّضا خطيرا "ذا تأثير عظيم في حركات التحرر والنهضة الدستورية التي قامت في الأقطار الإسلامية في العقود الأخيرة. فقد حرّضها على التخلص من النفوذ والاستغلال الأوربيين، ومن أجل تطورها الداخلي المستقل، عن طريق إدخال المؤسسات الليبرالية، ومن أجل وحدة جميع الدول الإسلامية - بما في ذلك إيران الشيعية- تحت لواء خلافة واحدة، وتكوين إمبراطورية إسلامية قوية

قادرة على مقاومة التدخل الأوروبّي" <sup>١٤</sup>. والأفغاني بذلك كان بلا شك شديد التأثر بالحركة الليبرالية التي قادها الشبان الأتراك من ناحية، وداعية لسياسة السلطان عبد الحميد، التي توخّت تكثيف شباب الإمبراطورية في وجه الهجمة الأوروبية من ناحية أخرى، ويصف بعض المحللين الأوربيين شخصية الأفغاني داعية هذه الأيديولوجية بأنها: "تثير الشكوك، غامضة متأثرة بتراث النقية الشيعي بقدر ما هي متأثرة بالجمعيات السرية الأوربية. وقد اشتهت بها كلّ الجهات بسبب علاقاتها النكتيكية المتنوعة والمتغيرة." <sup>١٥</sup>

ولعلّ النبذة التالية التي تقدّمها عن سيرته تضيء جوانب من هذا الغموض الذي أحاط بحياته ونشاطه:

فقد كان الأفغاني كثير التنقل والترحال، بعيد مولده ونشأته وتلقيه العلم بموطنه. إذ وُلد بالقرب من كابول عام ١٨٣٨ وتحدّث كثير من الروايات عن أن عائلته تتحدّر من العلامة الفقيه علي الترمذي من نسل الحسين بن علي رضي الله عنهما، ولذا لُقّب بالسيد. غير أنه ثمة روايات أخرى تُنسبه إلى أصل إيراني، وأنه وُلد في (أسد آباد) بمقاطعة هامادان، حتى أن شاه إيران آنذاك عرض عليه تولي رئاسة الوزارة التي لا يجوز أن يتولاها غير إيراني. ومن هنا ربّما نشأت الرواية عن أنه كان معتنقا للمذهب الشيعي، ولكنه كان يبطنه تمسّيا مع (النقية)، رغبة في تحقيق مآربه السياسية لدى جموع المسلمين، وكانت أكثريتهم من السنة.

وفي كابول انخرط في معترك السياسة، إذ كان مقرّبا من حاكم أفغانستان الذي عينه رئيسا للوزارة في مواجهة (الأمير شير علي) الموالي للإنجليز، وخاض معه الصراع على السلطة. ولم يقض إلا فترة قصيرة في السلطة، فقد انتصر عليه خصومه، وغادر إلى الحجّ ثم إلى الهند والقاهرة واسطامبول وطهران ولندن وباريس وميونخ وموسكو وقيل حتى أمريكا. وكان أينما حلّ حيويًا جمّ النشاط جسورا مبادرا بنشر الدعوة، متصدّيا غير هيّاب لدسانس وأحابيل الخصوم، ففي اسطامبول دُعِيَ لإلقاء محاضراته عام ١٨٧١ في (آيا صوفيا) ومسجد الأحمدية، وعيّن في مجلس المعارف. وعندما ألقى إحدى محاضراته في دار الفنون عن قيمة الفن، تطرّق إلى أهمية النشاط الاجتماعي، مُعليا من

١٤ جاء وصف براون هذا في كتابه " الثورة الفارسية ١٩٠٥ - ١٩٠٩ (طبعة كامبريدج ١٩١٠)

وحسب موسوعة الإسلام المختصرة ص ٨٥ - ٨٧

١٥ أنظر جاك فريمو في (فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران) ص ٩٦ ترجمة هاشم صالح - شركة الأرض للنشر - قبرص

شأنه، معتبرا الإصلاح الإجتماعي هبة من النبوة، فما كان من شيخ الإسلام هناك حسن فهمي، الذي كان يُضمر له الحسد، إلا أن يتربص به الدوائر، ويدعي عليه بأنه قصد من ذلك إعتبار الفن ضريبا من النبوة. وحين اشتدّت عليه المضايقات غادر إلى القاهرة، حيث رحبت به الأوساط الثقافية فيها، ومنحته الحكومة المصرية مكافأة مائتة قدرها ١٢٠٠٠ قرشا في السنة، دون ربطه بأية شروط وظرفية، بل تركت له حرية النشاط الفكري. ولكنه أنغمس في النشاط السياسي وأثر في تطوّر الحركة الوطنية المصرية وتصليب عودها حتى غدت قوة ضاربة، وذلك عن طريق تكوينه للحزب الوطني الحرّ الذي قاد ثورة أحمد عرابي. وقد وضع النواة التي انبثقت منها (الحزب الوطني) الذي تزعمه مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٨٧٩). وفي الهند حُدثت فيها إقامته ولم يُسمح له بمغادرتها إلا بعد أن قضت الجحافل الاستعمارية البريطانية على ثورة عرابي أثناء معركة (التل الكبير). وقد استغلّ وجوده في حيدر آباد بالهند فألف عمله الفكري الشهير (الردّ على الدهريين) والذي فُتد فيه مزاعم المستشرق إرنست رينان من أن الإسلام لا يحبذ النشاط العلمي، واصفا الفلسفة والعلم العربيين بأنهما عربيان باللغة ويونانيان ساسانتيان في المحتوى. بينما كان الأفغاني يرى أن الدين في حقيقته لا يخالف الحقائق العلمية، فإذا ما ظهرت المخالفة وجب التأويل ليحدث الإنسجام: "وإذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات، إكتفينا بما جاء فيه من الإشارة ورجعنا إلى التأويل". ثم توجّه إلى لندن وباريس. وفي الأخيرة تعاون مع تلميذه ورفيق كفاحه الشيخ الإمام محمد عبده، الذي سبق وتتلّمذ وتعرّف عليه في القاهرة منذ عام ١٨٧١، فأصدرا صحيفة (العروة الوثقى) التي كرست صفحاتها لكشف نوايا وأهداف الإستعمار البريطاني في العالم الإسلامي، وأذى إنزعاج المستعمرين من هذا الصوت الثوري التحريري إلى منعها من الدخول إلى الهند و مصر، فكان أن قام الإمامان بتسريبها إلى طلائع المثقفين في الأقطار الإسلامية بطرق سرية. وأمام كثرة المضايقات والعقبات، توقفت العروة الوثقى عن الصدور في ١٧ أكتوبر ١٨٨٤، وهو تاريخ عددها الثامن. وكان عددها الأول قد صدر في ١٣ مارس من نفس السنة. ويمكننا للإستعانة، في معرفة أهداف المجلة، بما ذكره الإمام محمد عبده في رسالة بعث بها إلى صديقه الشاعر الإنجليزي "ولفر دبلنت" بتاريخ ١١ أبريل ١٨٨٤، إذ لخصها في نقطتين:

(١) صون إستقلال الشعوب الشرقية من إستعمار واستغلال الدول الغربية. و (٢) إقلاق بال الحكومة البريطانية حتى ترجع عن أعمالها المثيرة لخواطر العرب والمسلمين. ولقد إحتوت الأعداد القليلة التي صدرت من المجلة داعية لتحقيق هذه الأهداف، كما يتبين من أبرز مقالاتها وكانت كالاتي: الوحدة والسيادة - إيقاظ الوعي - إستنهاض الهمم - خائن الوطن عميل الأعداء - الدفاع عن الوطن واجب طبيعي - الحزم والعزم أسوة للشرقيين - القضاء والقدر لا يعني الجبر أو سلب الإختيار - الجبن مصدر الرذائل الإجتماعية - الشرف: ماهيته وحقيقته.

وحاول الإنجليز أن يستغلوا نفوذ السيد الأفغاني في العالم الإسلامي، وقيل إنهم خطبوا وده لكي يتوسط في تهدئة الثورة المهديّة التي اشتعلت أوارها في السودان، وأخذت تهدّد حكمهم في مصر، إلا أنه رفض ذلك، بل إن الشيخ محمد عبده عندما سألته جريدة (بول مول بوست) الإنجليزية عن رأيه في خطر المهدي على مصر أجابها بقوله: " إذا غادرتم مصر فإن المهدي لن يرغب في الهجوم عليها، ولن يكون في هجومه أي خطر، وهو الآن محبوب من الشعب، لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الإعتداء الأوروبي، وسينضمون إليه عند قدومه". ونفس الموقف اتخذه أحمد عرابي وهو في قبضة الإنجليز بعد إحباط ثورته، فعندما سأله اللورد روزبوري واللورد ماكدونالد عن المهدي قال لهما: "كلّ داع إلى العدل والإصلاح فهو مهدي"<sup>١٦</sup>. وكان الأفغاني، ما أن ينجو من مكيدة حتى يقع في حبال أخرى أشنع منها، فعندما كان في لندن دعاه السلطان عبد الحميد عام ١٨٩٢ ليكون ضيفاً مكرماً في اسطامبول، فقبل على مضض. وفعلاً مُنح في اسطامبول مرتباً شهرياً قيمته ٧٥ جنيتها تركياً ودارة أميرية فخمة. ولكن ذلك لم يُثنه عن مواصلة نضاله. فكان أن أصدر جريدة (ضياء الخافقين) التي خصّصها لنقد الأوضاع في إيران. وحين أُغتيل الشاه فيها اتُّهم الأفغاني بأنه من المدبّرين لقتله. ولما زار الخديوي عباس اسطامبول جاء من يهمس للسلطان - حسب رواية الأفغاني بنفسه لأحد الصحفيين الألمان - بأن الأفغاني قال للخديوي إنه يعتبره الخليفة الحقيقي للمسلمين، الأمر الذي أوغر صدر السلطان العثماني ضده. ولن يعوز بلاط السلطان الدسائس والفتن التي كانت تعشش في جنباة، فأبو الهدى الصيادي ناسج المكائد الشهير، كانت أذن السلطان دائمة الإصغاء إلى أقاويله.

وقد توفى الأفغاني في ٩ مارس ١٨٩٧ في مسكنه بضاحية (ناشانتاش) جرّاء مرض السرطان. بل قيل مات مسموماً بتدبير من سفير إيران باسطمبول وقتنذ، وإن أبا الهدى هو من دس له السمّ الزّعاف.

## الأفغاني والماسونية

لقد كانت حياته وسيرته حافلتين بديناميكية ثورية أثارت حوله كثيراً من اللغط. ولأن عصره شهد بداية التسلل والسيطرة الإستعمارية على مجمل المنطقة العربيّة، والصراع بين الدول الأوروبية لاقتسام غنائم إمبراطورية (الرجل المريض)، فقد تضاربت

١٦ (الثورة المهديّة) مرجع سابق ص ١٩٠

الآراء حول الأفغاني واتجاهاته الفكرية وولاءاته السياسية. وتذهب بعض التحليلات إلى أنه كان رجل سياسة في الجوهر أكثر منه رجل دين، وأية تشرّبه بالسياسة ورغبته في تغيير المجتمع، أنه أثناء إقامته في مصر كان يتردّد كثيراً على مقهى (متاتيا) <sup>١٧</sup> الذي كان يؤمّه المثقّون ورجال السياسة، ويتحلّقون حوله وينصتّون إلى حواراته وتحليلاته ذات النبرة الجريئة لواقع العالم الإسلامي والإنحلال الذي دبّ في مفاصله، ومن الذين تعرّف عليهم الضابط أحمد عرابي، والشيخ محمّد عبده وسعد زغلول ومحمود سامي البارودي وعبد الله النديم، كما تعرّف على رياض باشا الذي أصبح رئيساً للوزراء في عهد الخديوي إسماعيل، والذي أعجب به وشجّعه على الإقامة في مصر، وخصّص له منحة مالية. ووسط هذه النخبة والإلتحام بأفرادها شعر بضرورة تشكيل تنظيم أو كتل سياسي ينادي بأفكارها ويعمل على تحقيقها. وربّما كانت هذه الرغبة هي الحافز الذي جعله ينتظم في سلك (الماسونية) التي امتدّت (محاقلها) وتشكيلاتها السرية من أوربا منذ القرن السابع عشر إلى بلدان الشرق مصاحبة للتوغّل الإستعماري. وقد انتخب الأفغاني رئيساً لمحفّل "كوكب الشرق" سنة ١٨٧٨ والذي ضمّ أفراد النخبة المذكورة إضافة إلى الشيخ الأزهري حسن العطار وإبراهيم المولحي وعلي مظهر وسليم النقاش وأديب اسحاق وغيرهم، ويعود الفضل للأفغاني في تمكين أغلب هذا الشخصيات من إصدار صحفهم المعروفة في مصر. وبدا لكثير من المطلّين أن الأفغاني انخرط في الماسونية ظناً منه أنها تتيح له العمل السياسي المنظم المحمي من السلطة الإستعمارية المهيمنة على مقاليد الأمور في مصر، بحكم وجود عناصر من هؤلاء الإستعماريين داخل هذا التنظيم، ولكن ما أن حضر اجتماعاتهم حتى اكتشف زيف الشعارات التي يستترون بها، إذ راعه أنهم يمنعون الحديث في السياسة في تلك الإجتماعات، فاستقال منه على الفور وشنّ عليه هجوماً قاسياً فضح به حقيقة هذا التنظيم الغامض، مثلما قال في إحدى خطبه: "إن ما شوّقني للعمل في بناية الأحرار هو عنوان كبير وخطير: حرية- إخاء - مساواة، وأن غرضها منفعة الإنسان بالسعي وراء ذلك صروح الظلم، لتشييد معالم العدل المطلق. ولأنني كنت أنتظر أن أسمع في مصر كلّ عجيبة وغريبة، فإنني ما كنت لأتخيّل الجبن أن يدخل من بين اسطونتي المحافل الماسونية. إذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كلّ بناء حرّ، وإذا كانت آلات البناء التي بيدها لا تُستعمل لهدم القديم وتشديد عالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة، وإذا كانت لا تدكّ صروح الظلم والعتوّ والجور؛ فلا حملت يد الأحرار مطرقة، ولا قامت لبنيانهم زاوية قائمة!" وطفق في إقامة محفله الخاص الذي ألحقه بالمحفّل الفرنسي، نكايه بالإنجليز كما رأى بعض المؤرّخين. وسرعان ما انضمّ إلى هذا المحفّل أكثر من ثلاثمائة من رجالات النخبة المصرية، وأنطلق من هذا التجمّع نحو تنظيم حزبي

معاصر، فكُون شعبا متخصصة، كشعبة الحقانية والأشغال والجهادية .. إلخ، ترصد وتراقب نشاطات نظرائها من الوزارت الحكومية.

ولأنه كان يؤمن بأن الحزب هو أنجح وسيلة عصريّة يباري بها خصومه، لهذا وضع أسس إنشاء (الحزب الوطني الحرّ) وفي ذلك قال: " تأسيس الأحزاب السياسية في الشرق أفضل وسيلة لتقدم الأمم الإسلامية، وهي الدواء لكل الآلام، فهو يقوم بتوحيد الكلمة، يقرب القلوب، يبادر للعمل الصالح بكل إخلاص، في سبيل تحرير الأمة من الاستبداد والحصول على حريتها... وإن الضرورة التاريخية تفرضه في الشرق كما هي في الغرب، فيستعلم الناس ضرورة رفع أصواتهم وينادون بالحرية واستقلال بلادهم، ويتقدمون في طريق الفداء والتضحية من أجل وطنهم، فعليه سيكون تشكيل الأحزاب في الشرق سبباً لإيجاد القوة والوحدة والإنسجام، وسيكون سبباً لنجاتهم من التفرقة والتشتت ". وقد صاغ هذا المفهوم للحزب في إطار التمسك بأحكام الدين حين قال: " إن العلاج الوحيد لنا ينحصر بأن يحذو المسلم طريق القرآن وتعاليمه، والإقتداء بالمسلمين في صدر الإسلام والسير في الوصول إلى صفاء النية والإخلاص ". ويتضح ذلك من الشرطين الذين وضعهما للمنتميين للحزب، وهما: أن يبيعوا ما يفيض عن حاجاتهم من الكماليات كالأثاث المنزلي، ويودعوا حصيلة البيع في صندوق الحزب - أن يتعهد كل عضو بقراءة (حزب) واحد من القرآن كل يوم على الأقل، حتى يحافظ على دينه فيلهمه الصواب ". وكان يلزم أعضاء الحزب بتسجيل كل أعمال الخير التي يقوم بها، من إقامة الفرائض والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان بالفقراء وقضاء حوائج الناس وعيادة المرضى وأداء الحقوق الماليّة في الإسلام وغيرها ... ومع أن الحزب الوطني الحر لم يبدأ كحزب سياسي، وإقتصرت نشاطاته على المسائل الاجتماعيّة والفكرية، إلا أنه ألقى الدوائر الإستعمارية البريطانية التي كانت تهيمن على مقدّرات مصر، وتضع الخطط لإستمرار نفوذها وسيطرتها على المجتمع المصري وثرواته، مما يجعلنا نلتفت للجانب السياسي الذي أفرزه عمل الحزب الوطني بصورة غير مباشرة ". ولهذا أخذت هذه الدوائر ترصد تحركات الحزب وتأثيراته في المجتمع المصري، إذ جاء في تقرير اللورد كرومر المستشار المالي البريطاني في مصر آنذاك، والذي أرسله إلى لندن، والذي، بعد أن تطرّق إلى انخفاض نشاط التجارة البريطانية في مصر بمعدل ٣٥ ٪، إضافة إلى عدم تعاون الموظفين المصريين مع الإدارة البريطانية، وأن عمل المبشرين قد إنخفض إلى أدنى حدّ له، وذهبت جهود ٣٥ عاماً هدرا، قال: " بالنسبة للأوضاع الجديدة لم يشاهد خلالها نشاطات ضدّ السياسة البريطانية، ولكن ألفت إنتباه المسؤولين بأنه لو استمرّ الحزب الوطني عاماً آخر، وبقى نفوذ السيد جمال الدين الأفغاني كما هو الحال في غربي آسيا

وشمالي أفريقيا، ويبقى ويعيش في مصر براحة بال، فلن تضمحلّ تجارة وسياسة بريطانية في قارة أفريقيا فحسب، بل يُخشى على سيادة أوروبا قاطبة على هذه المنطقة، نتيجة تأثير هذا الحزب الغريب الذي سيكتسب وجوداً تاريخياً، ويبقى أثره على جبين العالم " ويضيف في تقرير آخر " إن الحزب الوطني أصبح عائقاً أمام تقدّمنا بشكل يفوق التّصوّر ويجب أن يُبادر إلى تشييت أعضائه بأسرع وقت ". وفي تقرير ثالث يقول: " إن الحزب الوطني هو أفضل دليل على المقدرة المحيرة للعقول لدى العرب، عندما إستطاعوا قبل ١٣ قرناً أن يستولوا على ثلث المعمورة في زمن لا يتجاوز ثلث قرن... وتشير ثائق وزارة الخارجية البريطانية إلى إحساس القنصل البريطاني بخطر السيد الأفغاني على مصالح بريطانيا حيث كتب عنه (لقد علمت من الخديوي توفيق بأنه منذ مدة لفت إنتباهه نشاط يقوم به أفغاني يُدعى جمال الدين يثير في الناس الحماس نحو الثورة والعصيان.. ولا زال مصراً على عقد جلسات سرية ليبيّن فيها تعاليمه الضالّة مما جعل الخديوي يضطر إلى إنذاره بوجود مغادرة مصر خلال ٢٤ ساعة... إن رصانة منطقته وقوة خطابته تجعل المستمعين إليه خاضعين لتأثيره. ولا زال يثير الحماس ضدّ الأوروبين وخاصة الإنكليز حيث يظهر حقداً دفيناً تجاههم). ويعتبر البعض أن هذا الحزب هو الأب الشرعي لثورة عرابي عام 1881 حيث كان يضمّ معظم وجوه الرأي والفكر وأحرار السياسة والجيش".<sup>١٨</sup>

وفعلاً أرغم الأفغاني على الرحيل عن مصر، وبقرار من مجلس الوزراء ترأسه الخديوي توفيق بنفسه. وكان فيه قد أتمم بالإهانة والغدر، وجرى ليلة الأحد ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩، وهو متجه إلي بيته، ولم يُسمح له حتى بأخذ ثيابه، وحُجز في مركز الشرطة. وفي الصباح زجّ به في عربة مقلّلة إلي محطة سكة الحديد، ومنها نُقل تحت المراقبة المشدّدة إلي السويس، ثم إلي باخرة أقلّته إلي بومباي بالهند. والغريب في الأمر أن تُصدر إدارة المطبوعات المصريّة بياناً صحفياً يوم ٢٦ من نفس الشهر تهجّمت فيه على شخصيّته، حيث نسبت إليه أنه: " رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا " وربما كانت الإشارة هنا تقصد محفله الماسوني. والأغرب حدوث هذه الإهانة له في وقت كان صديقه المعجب به محمود سامي البارودي،

١٨ هذه بيانات مقتطفة باختصار من بحث لجعفر عبد الرزاق في مجلّة (الفكر الجديد) العراقيّة في عددها بتاريخ يونيه ١٩٩٢، وفيه إعتد على كتاب للشيخ محمد عبده بعنوان (التأثر الإسلامي جمال الدين الأفغاني) من إصدار دار الهلال، وكتاب (السيد جمال الدين وأفكاره)، تأليف مرتضى مدرسي جهار دهلي، وكتاب (لمحات إجتماعية) لعبد المنعم شمس، الذي تضمّن شهادات لمرافقين للأفغاني، ودراسات أخرى. ولكنه لم يورد صلة للأفغاني بالماسونية. ولعلّ المجلة ذات الإتجاه الشيعي تمصّدت هذا التجاهل.

الشاعر والسياسي المصري المرموق، يتولى نظارة المعارف، دون أن يستقيل من منصبه، أو يرفع صوته بالإحتجاج.

وعلى الرغم من أن الخطاب السياسي والفكري للأفغاني كان موجهاً بصفة رئيسية إلى النخبة الرفيعة من المصريين ذوي النفوذ، كما رأينا في السياق، إلا أن صداه كان واسعاً لدى سائر الطبقات بمصر. وفي عدة مرات وجه نداءه إلى جماهير المصريين، مثل قوله لهم: " هبوا من غفلتكم، أصحوا من سكرتكم، أنفضوا عنكم الغباوة والخمول، وشقوا صدور المستبدين بكم، عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء أو موتوا ماجورين شهداء ". والأفغاني هو القائل: " لقد أوشك فجر الشرق أن ينبثق، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج.. إن هذا الشرق وهذا الشرقي لا يلبث طويلاً حتى يهب من رقاده ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل، فيأخذ في إعداد عدة الأمة الطالبة لاستقلالها المستنكرة لاستعبادها ". ومحمد عبده هو القائل: " لو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه، ويأخذهم بأحكامه لرأيتهم قد نهضوا، والقرآن الكريم في إحدى اليدين، وما قرّر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى، ذلك لأخرتهم، وهذا لدنياهم، لساوا يزاحمون الأوروبيين فيزحمونهم".

وفي الحقيقة إن هذه الأقوال كانت تردداً لمعاني ما قاله الفيلسوف أبو الوليد ابن رشد ( ١١٢٦ - ١١٩٨ ): " إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله، بما قاله من تقدمنا في ذلك. وسواء أكان ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة، فإن الآلة التي تصح بها التذكية - أي ذبح الضحية - لا يُعتبر في صحة التذكية بها كونها آلة المشارك لها في الملة أو غير مشارك، إذا كانت فيها شروط الصحة. وأعني بغير المشارك من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل مئة الإسلام". و قبله بثلاثة قرون قال الفيلسوف الكندي " خليق بنا أن لا نخجل من الإعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها ".

وهكذا كما مرّ بنا، فعلى الرغم من أن التيارات السياسية جرفت الأفغاني وأرغمته على تحالفات دولية متعارضة ومتناقضة بين الدول المتصارعة (بريطانيا وروسيا وفرنسا وتركيا وإيران)، إلا أن هذا الرائد الثوري الصلب خلق تياراً فكرياً استمر بعده، وواصله الشيخ محمد عبده في حقول الإصلاح الديني، لا سيما في مؤسسات الأزهر والقضاء

والتعليم، بعد أن سُمح لمحمد عبده بالعودة إلى مصر من منفاه الإختياري في بيروت، مقابل تخليه عن وسواس السياسة وأفعال (ساس ويسوس وسانس ومسوس).<sup>١٩</sup>

ومن المشرق العربي جاءت صيحة مدوية أخرى في تجديد الفكر الإسلامي تدعو إلى (الجامعة الإسلامية) وهي التي أطلقها الشيخ عبد الرحمن الكواكبي من حلب، أين أصدر صحيفة (الشهباء) عام ١٨٧٨ م. وبعد إغلاقها من طرف السلطة العثمانية، أصدر صحيفة أخرى هي (الإعتدال). وقد حملت لواء الثورة ضدّ الاستبداد مما أودى به إلى السجن. وعقب خروجه منه رحل إلى مصر عام ١٨٩٩ م. وفي كتابيه (طبائع الاستبداد) و(أم القرى) نثر أفكاره المستمدة من الفهم المستنير للدين، والدعوة إلى الحكم الديمقراطي والمواءمة بين الشريعة والنظم العصرية. فهو القائل في الكتاب المذكور: " الشريعة الإسلامية هي أول شريعة ساءت الناس والحكومات لأصول (البودجة) أي **Budget** الميزانية المؤسس عليها في الإقتصاد المالي الإفرادي و السياسي"<sup>٢٠</sup> وذهب إلى درجة المناداة بالإشتراكية حين قال " يتمنى العالم المتمدّن الإفرنجي أن يعيش معيشة الإشتراك العمومي المنتظم، فهم يطلبون التساوي المقرّر في الإسلام ديننا، بواسطة أنواع الزكاة والكفارات "<sup>٢١</sup> وأضاف: " لقد أهمل المسلمون الوسائل الشريفة عندهم للشورى وهي الجماعة - الجمعة - جمعيّة الحج "<sup>٢٢</sup>. واعتمادا على هذه المحاور وضع الكواكبي مشروعه للدولة الإسلامية أو الخلافة الجديدة، من خلال تصوّره في مؤتمر إسلامي موسّع سمّاه (أم القرى)، متخيلا أنه ينعقد في مكة سنة ١٨٩٩ ويحضره ممثلو بعض الأقطار العربية كأعضاء أصليين: ٣ من الحجاز (مكة والمدينة وحائل) - ٢ من مصر (القاهرة والإسكندرية) - ٢ من سوريا (الشام - حلب) - ١ من العراق (البصرة) - ١ من اليمن (صنعاء) - ١ من فلسطين (القدس) بالإضافة إلى ١٣ عضوا آخر غير أصلي، أي إضافي، يمثلون خليطا من بلدان عديدة من بينهم الهندي والصيني بالإضافة إلى التركي والأفغاني وحتى الإنجليزي. والغريب أنه أدرج المراكشي والتونسي ضمن هذه القائمة التي سيتخصّص أعضاؤها في تقديم الخدمات الإدارية والتكنوقراطية، دون أن يكون لهم ضلع في السلطة الحاكمة التي ستقتصر على العرب المشاركة. وهذا تأكيد لمفهومه الضيق

١٩ إشارة إلى العبارة الشهيرة التي قالها متذمرا من حالة الإنحطاط التي رانت على البلاد.

٢٠ (أم القرى) ص ٦١

٢١ نفس المصدر ص ٦٦

٢٢ نفس المصدر ص ٦٤٠

عن المحيط العروبي الذي كان سائدا آنذاك<sup>٢٣</sup>. وسنجد لاحقا أن هذا المفهوم الذي ينتظم الدولة الجديدة اعتمد من دعاة الثورة العربية الكبرى وقادتها، منذ صدور منشور نجيب عزوري سنة ١٩٠٥ باسم رابطة الوطن العربي في باريس. والواقع أن الكواكبي في رحلته التي وصفها في (أم القرى) تعتمد عدم ذكر السنوسية والمهدية، متناسيا ليس فقط أنهما حركتا تجديد إسلامي، بل وتجاهل خطابهما العروبي أيضا، والمتمثل في ضرورة توفّر (القرشية) في الخلافة، كما تناسى أن المهدية استهدفت محاربة التسلط العثماني، والذي تجلّى لها في نظام الخديوي في مصر.

ويجدد بنا، ونحن في مقام الإستعراض المجتزئ لتيارات التجديد الإسلامي، ألا نغفل الإشارة إلى راند آخر من روادها الأوائل، وهو خير الدين التونسي<sup>٢٤</sup> الذي اشتهر

٢٣ يرجع نبيه فارس في مقدّمته لكتاب جورج أنطونيوس " يقظة العرب " دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٨٢ أن المفكرين الرواد لنشأة القومية العربية مثل الكواكبي إقتصروا بحثهم ونشاطهم على شبه الجزيرة العربية وبلدان الهلال الخصيب، " لأن الفكرة العربية الحديثة لم تدخل صلب الحياة السياسية في مصر والسودان وشمال أفريقيا إلا بعد سنة ١٩٣٦". وهو بذلك غفل عن أن وفودا تمثل مدن شمال أفريقيا وردت من بين من يحضرون مؤتمر الكواكبي المقترض، على النحو الذي ذكرناه.

٢٤ وُلد سنة ١٨٢٠ في قرية بجبال القوقاز. وذكر أنه كان عبدا مملوكا ينتمي إلى قبيلة " أباطة " الشركسية هناك، وأن والده توفي في إحدى المعارك العثمانية ضد روسيا، فأسر وهو طفل على اثر غارة، ثم بيع في سوق العبيد بإسطنبول، فتربى في بيت نقيب الأشراف تحسین بك. وانتهى به المطاف إلى قصر أحمد باشا باي تونس عندما اشتراه رجال الباي من سيده وهو في السابعة عشر من عمره سنة ١٨٣٧. وقد حرص على تربيته وتعليمه، ووفر له فرص تحصيل الفنون العسكرية والسياسية والتاريخ، إلى أن عُيّن مشرفا على مكتب العلوم الحربية وترقى في الرتب العسكرية عن جدارة فولاه، أحمد باي أميرا للواء الخيالة سنة ١٨٤٩. وفي ١٨٥٣ أرسله إلى فرنسا لمقابلة محمود بن عبّاد أحد المسؤولين عن الخزانة الذي تلاعب بالضرائب وهرب الأموال، فنجح في استردادها. وفي سنة ١٨٥٧ عُيّن وزيرا للبحرية، فقام بتحسين ميناء حلق الواد وتنظيم إدارة الوزارة وإبرم إتفاقيات مع بلدان الجوار لرسم الحدود التونسية. وعُرف عنه مكافحته الإستبداد، كما ساهم في تأسيس مجلس الشورى الذي نشأ بموجب دستور ١٨٦١ وأصبح رئيسا له، وكذلك صدور عهد " الأمان " الذي شرّع للمساواة بين السكان. وأمام ازدياد فساد الوضع السياسي في البلاد نتيجة سوء تصرف المسؤولين وسرفاتهم، قدّم خير الدين إستقالته من جميع وظائفه سنة ١٨٦٢، وانعزل بعدها في داره إلى سنة ١٨٦٩ يتأمل ويكتب. وكانت ثمرة جهده كتابه المشهور (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك). وفي سنة ١٨٦٩ كلفه محمد الصادق باي برئاسة المفوضية المالية المشرفة على تسديد ديون تونس. ووفق سنة ١٨٧١ في توثيق الصلة بين تونس والدولة العثمانية. ومن ثم عينه رئيسا للوزارة في أكتوبر ١٨٧٣ فقام بالعديد من الإصلاحات من أهمها تخفيف عبء الضرائب على السكان وتشجيعهم على الزراعة. وأمام اشتداد الفتن والشايات استقال خير الدين باشا من جميع وظائفه سنة ١٨٧٧، وهاجر إلى تركيا في أغسطس سنة ١٨٧٨ بأمر من حاكم البلاد محمد الصادق باي وذلك إرضاء للفتن المعتمدين لديه. وهناك إنخرط في خدمة السلطان عبد الحميد الذي عينه (صدرا أعظم) في الفترة من ١٨٧٨ - ١٨٧٩. وتوفي

بكتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) الصادر عام ١٨٦٧، أي في أوج نشاط جمال الدين الأفغاني و محمد عبده، وقبل عشر سنوات من بدء النشاط الإعلامي للكواكبي. وترجع أهمية خير الدين التونسي إلى أنه كان مفكرا إصلاحيا عندما تولى رئاسة الوزارة في بلاده تونس من ١٨٧٣-١٨٧٧. وقد حوى هذا الكتاب إستعراضا للإختراعات في البلدان الأوربية التي أفرد فصلا لكلّ من دولها العشرين، مركزا على ضرورة الإقتداء بالمعارف والإبتكارات التي حققتها. وهو القائل في ذلك الكتاب متسانلا: " هل يمكننا اليوم الحصول على الإستعداد المشار إليه دون تقدّم في المعارف و أسباب العمران والمشاهدة عند غيرنا؟ وهل يتيسّر ذلك التقدّم بدون إجراء تنظيمات سياسيّة تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا، في التأسيس على دعامتي العدل والحرية اللذين هما الآن في شريعتنا، ولا يخفي انهما ملاك القوة والإستقامة في جميع الممالك؟ ". وبعد استحضاره لصفحات مشرقة من التاريخ العربي الإسلامي يجيب " بأن الأمم الأوربية لما ثبت عندهم بالتجارب أن إطلاق أيدي الملوك ورجال دولهم بالتصرّف في سياسة المملكة دون قيد، مجلبة للظلم الناشئ عند خراب الممالك، حسبما تحقّقوا ذلك بالإطلاع على أسباب التقدّم والتأخر في الأمم الماضية، جزموا بمشاركة أهل الحل والعقد في كليّات السياسة، مع جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين ". ثمّ يمضي قائلا: " وحيث نقدّم بيان الأدلة الكافية لوجوب التنظيمات السياسية التي لو لم يكن إلاّ تنفير الأجنبي والموظفين منها، لكان كافيا في الدلالة على حسنها و لياقتها بمصالح المملكة، كان من أهم الواجبات على أمراء الإسلام ووزرائهم وعلماء الشريعة الإتحاد في ترتيب تنظيمات مؤسّسة على دعائم العدل والمشورة، كافلة بتهديب الرعايا وتحسين أحوالهم على وجه يزرع حبّ الوطن في صدورهم ويعرفهم مقدار المصالح العائدة على مفردهم وجمهورهم ". ويشار هنا إلى أن الفترة التي برز فيها تيار خير الدين في تونس اتسمت بتطوّرات هامة محلية تمثّلت في اضطراب الكتلة الرجعية الحاكمة الى الإستدانة الخارجية، وإرغامها على تنفيذ مشروعات لصالح فرنسا، وشراء الأسلحة مع إمتيازات لدول أوربية أخرى، ممّا أدّى إلى الإنتفاضة الشعبية التي قادها "علي بن غداهم" عام ١٨٦٤، والقمع الذي أعقبها. ومن ثمّ إستفحال الأزمة والعجز المالي، ممّا فرض تعيين لجنة وصاية دولية. أما في المحيط الدولي القريب، فقد حدثت الحرب الفرنسية البروسية وما تلاها من اضطرابات في فرنسا، ثمّ قيام الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية ١٨٧٠ - ١٨٧١ وبروز المطامع الإيطالية في تونس.

بتركيا سنة ١٨٨٩ (أو في بداية سنة ١٨٩٠). وفي سنة ١٩٦٨ نُقلت رفاته إلى تونس المستقلة ليُدفن فيها.

وفي نفس الفترة نرى رفاة الطهطاوي ١٨٠١- ١٨٧٣ م، ذلك الشيخ الأزهري الذي أسعفه الحظ فسافر إلى باريس كإمام للبعثة المصرية فيها، وبقى هناك خمس سنوات نهل أثناءها من تياراتها الفكرية واطلع على آراء مفكريها العظام من أمثال مونتسكيو. نراه حين عاد إلى مصر عام ١٨٣١ يقود أول حملة فكرية للتحديث في المفاهيم، متشبعا لدرجة الذهول بالتقدم الحضاري الذي عايشه في باريس، فينادي قائلا: "علينا أن نأخذ من أوروبا المعارف البشرية المدنية والعلوم الحكيمية العملية... أما روح حضارتهم وفلسفاتهم فهي مليئة بالحشوات الضلالية المخالفة لسائر الكتب السماوية". كما عبر ببساطة ووضوح عن النظرية الجديدة حين قال: "ولا تتوهم أن علماء الفرنسيين هم القسوس.. فإسم العلماء يطلق على من له معرفة في العلوم العقلية... وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عمّن عداهم. وبذلك تعرف خلوّ بلادنا عن كثير منها. وأن الأزهر وجامع بني أمية بالشام وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس ومدارس بخارى ونحو ذلك، كلها زاخرة بالعلوم النقلية وبعض العلوم العقلية من العلوم الآلية".

وينبغي التذكير هنا أن هذه الأفكار رغم ما فيها من توفيقية أو حتى تليفية عند البعض، إلا أنها في عصرها وتحت الظروف السائدة فيه، كانت إرهابات ثورية زلزلت أركان المدارس الفقهية المحافظة على جمودها الفكري، ولازال صداها يتردد حتى الآن في غمرة الصراع الفكري والأيدولوجي الذي يمور في العالم العربي. كما ينبغي ملاحظة أن هذه الدعوات التجديدية كانت مرافقة للتبدلات الثورية التي عصفت بمؤسسات الحكم في عاصمة الخلافة إسطنبول، كما سنرى في سياق البحث.

وخلاصة القول مما سردناه، هو أن هذه التيارات كانت في عواصم الفكر العربي آنذاك، تتوجه بخطابها إلى النخبة الثقافية في الجامعات والمعاهد الدينية بحكم انبثاقها منها. ومع التسليم بأن تأثيرها السياسي كان قويا حتى على أجهزة الحكم كما رأينا، إلا أنها تبقى دائما بناءً فوقيا رهنا لأهواء الحكام وابتزازهم، بعكس الحركات الإصلاحية التي اتخذت طابع التغيير الاجتماعي، وأثرت في حياة الجموع الواسعة من السكان بوسائل أخرى "مادية"، وشيدت على الأرض بنيات للعمل الاجتماعي والإقتصادي، تحولت إلى مواقع للنشاط السياسي والمقاوم عسكريا للتغلغل الإستعماري الأوروبي في موجاته العصرية، مقاتلة بالسلاح مثل الحركة السنوسية.

وليس هذا مجال التعمق في استنباط وتحليل تيارات التجديد والتحديث المشار إليها والمتأثرة بالفكر الليبرالي الأوربي، وفي طياته أفكار ومحافل " الماسونية "، والذي وفد إلى منطقة المشرق مصاحبا للتغلغل الإستعماري الأنجلو- فرنسي فيها.

ولأن الماسونية أُلصقت بالأفغاني وغيره من الشيوخ المصلحين الذين سبقت الإشارة إليهم، وكانت المحرك وراء نشأة جماعة (الإتحاد والترقي) أو (تركيا الفتاة)، وهي التنظيم الذي أطاح في صيرورة تاريخية بالإمبراطورية العثمانية، رأينا من الضروري إيراد نبذة تلخص الأدبيات الغزيرة التي نُشرت عنها وطالعتها في مصادر عديدة.

الفصل الخامس

الماسونيّة



## الفصل الخامس

### الماسونيّة

الماسونيّة في العالم العربي

- في مصر.
- الماسونية في الشّام والعراق ودور الأمير عبد القادر.

المعارضة الكاثوليكيّة للماسونيّة.

المعارضة السياسيّة.



## الفصل الخامس

### الماسونية

الماسونيه اشتقاق لغوي من الكلمه الفرنسيه **Macon** ومعناها البناء. والماسونيون تقابلها **Maconneries** أى البنائون الأحرار. وفى الإنجليزيه يقابلها **Freemasons** أي أن مؤسسها يزعمون أنهم بناء وتعمير، مظهرين أدوات البناء كرموز لها. وبهذا يحاولون إظهارها وكأنها أشبه بنقابه للعاملين فى مهن البناء، بينما هي منظمة سرية غامضة وتمارس طقوسا مبهمه، مما يدل على أنها ليست إتحادا نقابيا، وإلا ما عمدت إلى الإختفاء. ويُرجع بعض المؤرخين تاريخ تأسيس الماسونية إلى عهود غابرة، منذ عام ٤٤ ميلادي، على يدي أحد أباطرة الرومان المسمى (هيرودس أكريبا) **Herod Agrippa** بمساعدة مستشاريه اليهوديين (حيرام أبيود) **Hiram Abiud** الذي تولى رئاستها و(موآب ليفي) **Moab Levy** كسكرتير عام. وعضوية أدونيرام **Adoniram** وجوهانان **Johanen** ويعقوب **Abdon** و **Jacob** وأنتيباس **Antipas** وسولومون **Abiron** و **Solomon Aberon** و أشاد **Ashad Abia**. وبوجه عام اعتقد أن الماسونية الحديثه نشأت عام ١٧١٧ عندما شيد محفل إنجلترا الكبير. واعتقد أيضا أن الدكتور جيمس أندرسون هو الذي كتب (قوانينها الجديدة) <sup>١</sup>. والحقيقة أن الاسم الجديد استخدم منذ عام ١٧١٧.

هؤلاء المؤسسون التسعة كان عليهم أن يقسموا قسما مفزعا ونصته: " أنا فلان ابن فلان أقسم بالله بالكتاب المقدس وهو شرفي، وقد أصبحت عضوا من تسع مؤسسين للجمعية (القوة الخفية)، أتعهد بأن لا أخون إخوتي الأعضاء في أي شئ قد يضر بذواتهم، وأن أتكتم على قرارات الجمعية، وألزم نفسي بأن أتبع مبادئها، وأن أنفذ القرارات الصادرة والمعتمدة من قبلكم بالطاعة والدقة والحماسة والإخلاص. كما أتعهد بالعمل على زيادة أعضائها. وألزم نفسي بأن أهاجم أي شخص يتبع تعاليم يسوع الدجال ومكافحة أتباعه حتى الموت. ألزم نفسي بالأفشي أيًا من الأسرار التي حُفظت بيننا نحن التسع : لا بين الدخلاء ولا بين الأعضاء المنتسبين. وإذا ما حنثت باليمين وثبتت خيانتني في أنني قد كشفت أيًا من الأسرار

١ انظر على سبيل المثال بول أ. فيشر " خلف باب المحفل Paul A. Fisher, Behind the Lodge Door, Shield Publishing, Inc., P.O.Box 90181 Washington D.C.20090, p. 24

أو أي نص من نصوص القوانين المحفوظة حفظاً بيننا وبين ورثتنا، فعندها سيكون لدى لجنة الثمانية كل الحقّ بقتلي بكلّ الوسائل المتاحة). وقد ورد هذا القسم في صفحة ٥١ - ٥٢. (الجزء الثالث): من كتاب " أصل الطبقة المستنيرة الايلوميناتي (Order of Illuminati) وهو الإسم الذي أطلق على الماسونية عام ١٧٧٦، والتي أسسها آدم فايسهاوبت (Adam Weishaupt) وكان راهبا في الكنيسة الكاثوليكية في مدينة إينجولستادت بولاية بافاريا الألمانية، والذي ألد وطلب من أتباعه أن يحملوا (شعلة الشيطان)، ولقنهم عقيدة تقول بأن أي شخص يمكن أن ينال قوة عظيمة مثل قوة الله بمساعدة الشياطين. وقد عكف حوالي خمس سنوات على كتابة طرق " الثورة العالمية المنظمة " و بدفع ودعم مادي من أسرة روتشيلد ( Rothschild ) الثرية الشهيرة ذات الأصل اليهودي، بهدف إنشاء حكومة عالمية. وقد سمى هذه الحكومة نوفس اوردو سيكلورم Novus Ordo Seculorum : عصر جديد أو نظام عالمي جديد (New World Order) الذي هو أيضاً اسم كتابه المنشور في أول مايو ١٧٧٦ ونفس هذه العبارة اللاتينية مكتوبة على الجانب المقابل لعملة الدولار الواحد وذلك مع سنة ١٧٧٦ بالأرقام الرومانية في أسفل الهرم الماسوني، وفوق الهرم عين الشيطان مع عبارة أنويت كويبتيس " AnnuitCoeptis" التي تعني بأنه -أي الشيطان - قد ابتسم على مهامنا. ويعتقد الكثيرون بأن التاريخ ١٧٧٦ هو لتشريف ولادة الولايات المتحدة. بل لتشريف عالم الشيطان الواحد الذي أسسه فايسهاوبت.

ولقد قامت الماسونية منذ أيامها الأولى على المكر والتضليل، إذ وضع مؤسسوها رموزاً وأسماء وإشارات مميزة. وفي نفس الوقت توحى بالرهبة والتخويف. وقد سموا أحد محافظهم الرئيسية (هيكل أورشليم) لكي يكون هناك رابط نفسي مع هيكل سليمان الذي يسعى اليهود الصهاينة لإعادة بنائه، حسب بعض المؤرخين وخاصة من العرب. إذ يعتبرونها منظمة يهودية سرية محكمة التنظيم هدفها ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإلحاد والإباحية وإفساد القيم الأخلاقية، وتتستر بالشعارات الخداعه مثل (حرية - إخاء - مساواة). ومن بين أعضاء الماسونية شخصيات مرموقة في عالم الفكر والفنون. والماسونيون في نشاطاتهم المختلفة، في المجتمعات التي اخترقوها، يستخدمون البراجماتية المشوبة بالوصولية للترويج لمبادئهم. وهم يمارسون طقوسهم وينظمون جلساتهم في تجمعات مغلقة تسمى بالمحافل، وهدفهم الأسمى إقامة جمهورية ديمقراطية عالمية لا دينية، كما يزعمون.

٢ ينظر (السرّ المصون في شيعه الفرسون) للأب لويس شيخو سنة ١٩١٢، و(هيكل سليمان)- ليوسف الحاج سنة ١٩٣٤، و(أسرار الماسونية) للجنرال التركي رفعت أتلخان، و(تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة) لعبدالله عنان، و(الماسونية- أحد المذاهب المعاصرة) لعبد الرحمن عميره.

وقد استطاع الماسونيون خداع ألفي شخصيّة من كبار الساسة والمفكرين وأسّسوا بهم المحفل الرئيسي المسمى بمحفل الشرق الأوسط، ومن أبرزهم (ميرابو) أحد قادة الثورة الفرنسية و(ماتزيني) مفكر الوحدة الإيطالية، الذي سيطر على زمام الماسونية بعد موت فايسهاوبت. ومن بين أعضاء الماسونية من الشخصيات المرموقة في عالم السياسة والفكر والفنون، كان أبرزهم -حسب المصادر الألمانية :

\*السير ونستون تشرشل رئيس الحكومة البريطانية المعروف (١٨٧٤ - ١٩٦٥). وقد انخرط منذ ١٩٠١ في محفل (يونائيد ستود هولم) بلندن. وتتلخّص قصة إنخراطه الطريفة أنه قبل سنوات من ذلك أشرف على الغرق في إحدى البحيرات باسكوتلاندا، ولكن فلاحا شابًا قام بإنقاذه. وعندما عاد بعد فترة إلى نفس المكان بحث عن الشاب وسأله عن أمنيته في الحياة، فأجابه بأنه يرغب في دراسة الطب، ولكنه لا يملك المال لتحقيق ذلك، فقامت عائلة تشرشل بتمويل دراسته إلى أن تخرّج الشاب طبيبًا، ثم باحثًا ثم أستاذًا. اكتشف دواء البينيسلين سنة ١٩٢٣ فكان هو \* السير أليكسندر فليمينج (١٨٨١ - ١٩٥٥) الناشط الماسوني الذي أصبح رئيسًا لمحفل (سانتا ماريا) ثم رئيسًا لمحفل (ميسير كورديا) وبعدها أسس في سنة ١٩٤١ المحفل المتحد لانجلترا، وفي سنة ١٩٤٨ صار هو المراقب الأعظم لمحافل إنجلترا العظمى. وقد قدر لفليمينج أن ينقذ حياة تشرشل مرّة أخرى عندما أصيب بمرض خطير بعد إنتهاء مؤتمر يالطا، فأخذ يتردّد على فليمينج في محفله بانتظام وبالتالي إنضمّ إليه \* الزعيم التركي الشهير مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ - ١٩٣٨) الذي ظلّ إلى مماته عضوا في محفل (ماشادونيا ريزورتا) ومحفل (فيريتاس). \* يوهان جوتليب فيشته (١٧٦٢-١٨١٤) الفيلسوف الألماني المعروف وقد كتب ١٦ خطابا عن فلسفة الماسونية \* هنري فورد (١٨٦٣-١٩٤٧) مؤسّسة شركة فورد الأمريكية الشهيرة للسيارات (في الثلاثينات من القرن الماضي كانت تنتج ثلاث سيارات العالم) والذي انضمّ إلى محفل فلسطين رقم ٣٥٧ بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٨٩٤، وقبل وفاته عام ١٩٤٧ إنضمّ إلى محفل صهيون رقم ١. وهذه المعلومات المستقاة من المصدر الألماني<sup>٢</sup> لا تذكر شيئا عن أن فورد كتب بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٢ مقالات في صحيفة (ديوبورن إنديبندينت) التي كانت تصدرها مؤسّسته، ثمّ جمعها في كتاب بعنوان (اليهودى الدّولي- أكبر خطر عالمي). الهدف منه حسب قوله هو تعريف الشعب الأمريكى بحقيقة المسألة اليهودية لوضع الحلول الصحيحة لها، بدلا من تركها تتفاقم في العالم. وفي رأيه أن هناك نوعين من اليهود : نوع يريد أن يسيطر على الآخرين من غير اليهود ليحكموا العالم إنطلاقا من أورشليم (القدس)، والثاني يهودى يضحي بالعالم من اجل التّشبّث بدينه والمحافظة على

سبته. ويرصد فورد في هذا الكتاب محاولات اليهود للسيطرة على الإعلام والتمويل والسياسة بأقوال زعماء اليهود وقادتهم آنذاك لدعم ما يقول. وينبّه فورد إلى أن عمله هذا ما هو إلا صيحة تحذير لمواطنيه الأمريكيين أغياراً وبهوداً من طموحات ذلك (اليهودي الدولي). وبما أن صحيفة (ديوبورن إندبنديننت) والتي كانت تصدر باسم مؤسسته - كناية عن ضاحية في ديتريوت- والتي نشرت تقرير حكماء بني صهيون، وهو ما جلب له تهمة المعادة للسامية والتعاطف مع النازية، لأن هتلر أثنى عليه وتبني ما جاء فيه. وقيل إنه شجّع على أن تكون سيارة (فولكس فاجن) المشهورة على طراز ما أنتجته شركة فورد، كما كان هتلر يعلق صورة فورد في مقره، مما أثار ضجة ضخمة وحملات صهيونية ضده. وما زال الكتاب يحظى بشهرة لدى العالم العربي بالتحديد. ولا ريب أن المصدر الألماني تجاهل هذه السيرة الحقيقية لفورد، والمتوقفة في كل الموسوعات والمعاجم الدولية، بحكم الخوف السائد في ألمانيا من تهمة معادة السامية (اليهودية). \* فرانكلين بينجاتمين (١٧٠٦ - ١٧٩٠) السياسي الأمريكي والمخترع والعالم متعدد المواهب، وكان عضواً في محفلي القدس وباريس. \* كلارك جيبيل الممثل السينمائي الأمريكي الشهير (١٩٠١-١٩٦٠) وكان عضواً في محفل بيفرلي هيلس. \* جوزيبي جاريبالدي السياسي الإيطالي الشهير محقق الوحدة الإيطالية (١٨٠٧-١٨٨٢) وانضم سنة ١٨٤٤ إلى المحفل الفرنسي (أصدقاء الوطن)، ثم إلى محفل مونيفيديو إلى أن أصبح سنة ١٨٦٤ الرئيس الأعظم لمحفل إيطاليا. \* جورج السادس ملك بريطانيا (١٨٩٥-١٩٥٢) الذي تدرج في رتب المحافل البريطانية منذ (١٩١٩-١٩٣٦) إلى أن أصبح القائد الأعظم لمحفل إنجلترا. \* يوهانس فولفجانج فون جوته أديب وشاعر ألمانيا الأشهر (١٧٤٩-١٨٣٢) وقد نظم قصائد عن الماسونية، وذكرها في بعض أعماله، ولكنه انتقدها بعد ذلك باعتبارها نوعاً من الضلال في بعض كتبه مثل (فيلهيلم مايستر) و(سنوات التجول) و(كوفنا العظيم) \* جوزيف كيبلينج الكاتب الإستعماري البريطاني المعروف (١٨٦٥-١٩٣٦) وقد عكس تمحيده للماسونية في العديد من أعماله وأشعاره. \* فولفجانج أماديوس موتزارت (١٧٥٦-١٧٩١) الموسيقي العبقري النمساوي الذي عكس الماسونية في مقطوعاته وألحانه. \* جورج واشنطن (١٧٣٢-١٧٩٩) أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية الذي انضم أولاً إلى محفل فريدريك بورج بفيرجينيا، ثم انتقل ليترأس محافل أخرى، إلى أن تعين رئيساً للجمهورية فأصبح قائداً لمحفل سان جون ١. وحتى عندما مات، إستعملت المسطرة والمغراف الذين سبق له إستخدامهما، وجرى وضع الأساس بهما عام ١٩٢٣ لتنصيب واشنطن التذكاري **Washington Memorial** المعروف. وما يزال هذا النصب، الذي إعيد تشييده في مدينة اليكسندريا عام ١٩٣٢ يؤمه الماسونيون حتى اليوم، ويقومون حوله معارضهم. وجدير بالذكر هنا أن سنة من رؤساء أمريكا، بعد جورج واشنطن، كانوا من

اتباع الماسونية، واقتصر الحديث على جورج واشنطن لأهميته التاريخية. \* الموسيقار النمساوي الشهير هايدن (١٧٣٢ - ١٨٠٩) وغيرهم من مشاهير السياسة والفكر والفن.

## الماسونية في العالم العربي

وإذا ذهبنا نفتفي أثر وتاريخ الماسونية في المنطقة العربية، فس نجد أن جلّ الدراسات أجمعت على تمركزها في كلّ من مصر وسوريا وما جاورهما مثل لبنان والأردن والسودان. ففي مصر يزعم الماسونيون أن أول محفل بها أسسه نابليون بونابرت حينما جاء إليها على رأس حملته، وسمي بمحفل إيزيس الذي ضمّ كبار ضباط الحملة، ومن ثمّ استقطب بأساليب عديدة نخبة من شخصيات المجتمع. وقد رأينا كيف أن شعاراتها عن الحرية والإخاء والمساواة جذبت إليها الإصلاحيين المنفتحين على مفاهيم وأفكار الحداثة، مثل جمال الدين الأفغاني وتلامذته. كما ساعد على انتشارها موجات الإصلاح الاجتماعي والدستوري التي توالى على الإمبراطورية العثمانية، ومصر والمشرق العربي تشكل أعضاء مفصلية فيها، والتي كان آخر تطوّر لها وفد منذ عام ١٩٠٨ على أيدي جمعيات تركيا الفتاة أو جمعيات الإتحاد والترقي، كما سيأتي ذكره لاحقاً.

## في مصر

لقد كان في مصر نوعان من الماسونية: الماسونية الإنجليزية والماسونية الفرنسية التي انتمى إليها جمال الدين الأفغاني، وقيل أيضاً تلميذه محمد عبده وكذلك تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا<sup>٤</sup> الذي جاء إلى القاهرة في يناير ١٨٩٩ واستطاع إقناع إستاذه بضرورة إصدار مجلة (المنار) المعروفة لتعكس الإتجاهات الإصلاحية التي يمثلانها، وفعلاً قدر لها أن تعمّر طويلاً إلى سنة وفاته. وكان لها صدى وتأثير واسع في مصر والعالم الإسلامي لما كانت تتضمّن من دراسات التفسير للشيخ محمد عبده، إضافة إلى الفتاوى التي كانت تنشرها إستجابة للسائلين، كما كانت المجلة تعرف بأخبار المسلمين وحركات التحرّر في المشرق والمغرب. ومن بين نداءات الشيخ رضا دعوته إلى النأي عن الخلافات المذهبية بين المسلمين، وأن يؤلّف الفقهاء كتباً عن الأحكام التي تقوم على الأسس المتفق عليها بين هذه المذاهب. كما أنه مارس مهنة التعليم فأنشأ مدرسة دار الدعوة والإرشاد لتخريج الدعاة التي افتتحت بجزيرة الروضة بالقاهرة سنة ١٩١٢. وقد

٤ ولد ببلدة القلمون في لبنان في سبتمبر ١٨٣٥ وعندما نفي الإمام محمد عبده إلى بيروت بتهمة إشراكه في ثورة عرابي، أقام فيها مدة طويلة يلقي الدروس في المدرسة السلطانية، وهناك تتلمذ عليه محمد رشيد رضا وأضحى من تلاميذه المقرئين، بل وخليفته في بث ونشر حركة الإصلاح والتجديد الدينيين، ومحاربة البدع والخرافات.

أدخل في مناهجها علوم التاريخ والجغرافيا والإقتصاد والإجتماع بالإضافة إلى العبادات وأصول الدين. ولكن الضائقة المالية استحكمت وأدت إلى إغلاق المدرسة لأبوابها مع قرب الحرب العالمية الأولى، ولم تفلح جهوده في الحصول على إعانة مالية من الحكومة العثمانية.

ويرجع تأثر الشيخ محمد رضا بأفكار الماسونية، عند بعض المؤرخين، إلى تأييده لجمعية الإتحاد والترقي، والحركة الدستورية الحديثة في تركيا. ولكن عندما أخذت الجمعية تدعو وتطبق الأفكار الطورانية، تحول ضدها وهاجمها واصفا إياها بأنها " جمعية الأحمرين، وعني بهما الذهب والدم. وقال عنها: أما كونها جمعية دم وثورة فهي صفتها الرسمية، وأما كونها جمعية ذهب فلا يخفى على أحد أنهم نهبوا أموال السلطان عبد الحميد خان، وصادروا أكثر أموال الأمة، وباعوا البوسنة والهرسك للنمسا، وطرابلس الغرب لإيطاليا، واتفقوا مع الجمعية الصهيونية على بيعها أراضي السلطان عبد الحميد الواسعة، وعلى تمهيد الأسباب لامتلاك البلاد المقدسة، وإقامة ملك إسرائيل فيها ". وحارب الماسونية على صفحات المنار قائلا: "من الحقائق الثابتة الخفية أن الجمعية الماسونية التي تلت عروش الحكومات الدينية في أمم أوروبا والترك والروس، هي من كيد اليهود وهم أصحاب السلطان الأعظم فيها... ومن غرائب اليهود وقدرتهم التي فاقوا بها جميع شعوب البشر أن الغرض السياسي النهائي لهم من هذه الجمعية هو: تأسيس دولة يهودية في مهد الدولة الإسرائيلية التي أسسها داود وأتمها سليمان، باني هيكل الدين اليهودي، في أورشليم على جبل صهيون، ولهذا سمّوها جمعية البنائين الأحرار، ويريدون بهم الذين بنوا هيكل سليمان". ولاريب أن هذه الأحكام ضد الماسونية بقيت لصيقة بأفكار مخلصيها من العرب والمسلمين.

وبالنسبة للماسونية الإنجليزية في مصر، فقد تأسست على أيدي قادة جيش الإحتلال البريطاني منذ نهاية القرن التاسع عشر، وأولهم كان **Horatio Herbert Kitchener** هوراثيو هيربيرت كيتشنر. وهو من مواليد إيرلاندا (١٨٥٠-١٩١٦) وتقلد منذ سنة ١٨٩٩ منصب حاكم عام السودان، ثم القائد العام للقوات في الهند من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ وبعدها عين سكرتيرا للدفاع سنة ١٩١٤. وقد لقي نهاية مأساوية، إذ مات في البحر عندما غرقت به العبارة البريطانية (همبشاير). وهو الذي بادر بتأسيس محفل (كونكارديا) بالقاهرة سنة ١٨٨٣. ومنذ ذلك الوقت وحتى سنة ١٩٠٧ إنهمك في تأسيس محافل عديدة في مصر والسودان، وأخيرا في أفغانستان والهند وتقلب في مراتبها العليا المختلفة. ولقد تعاطف عدد هذه المحافل في مصر حتى بلغت في أوجها: ١٨ محفلا في القاهرة و ٣٣ في الإسكندرية و ١٠ في بورسعيد و ٢ في المنصورة و ٢ في الإسماعيلية وواحد في الفيوم. اما المحفل الرئيسي فكان في شارع طوسون في الاسكندرية. وفي سنة ١٩٠٠ كان الأستاذ

الأعظم لأكبر محافل القاهرة والسودان، وهو محفل بولوير (Bulwer Lodge)، هو الجنرال السير " ريجينالد وينجيت " قائد الجيوش البريطانية الذي ضمّ السودان تحت قيادته. وقد اتخذ المحفل مقرّاً رئيسياً له في قلب القاهرة فيما كانت تسمّى تكنات النيل وبالقرب من متحف " الإنتكخانة "، كما وصفته جريدة **Egyptian gazette** في عددها بتاريخ ٩ يناير ١٩٠٣. وكان أعلى الأعضاء المصريين مرتبة في المحفل هو المدعو إدريس راغب بك الذي تولى منذ ١٨٩١ عقب ترك الخديوي توفيق للمنصب، وبقي فيه راغب لأكثر من ثلاثين عاماً، وبعد هذه الفترة بدر الخلاف حول إنتساب المحافل المصرية والسامية، فأدريس راغب كان من دعاة إستقلالها، ولكن الأمير عزيز حسن يفضل تبعيةها للشرق الإيطالي الذي تنتمي إليه جمعية الإتحاد والترقي في سالونيك، وعلى الأثر حصل الانفصال وعيّن محمد فريد الزعيم الوطني ممثلاً في مصر لمحفل الشرق العثماني لارتباطه بالجمعية المذكورة.

وكان المحفل يعقد إجتماعاته ويزاول طقوسه على هيئة مأدب فاخرة تقدّم فيها أرقى أنواع الأطعمة والإنخاب الحديثة، وعادة ما تُفتتح بنشيد تقول ترجمته من الإنجليزية: " باسمك تعالى نصلي أيها المهندس الأعظم... لكي تبارك عملنا هذا اليوم... وحتى يبرهن هذا المعبد على أنه دوما مأوى للوحدة والحب " ! ومنذ تأسيسه، وفيما عدا فترة إنقطاع من ١٨٧٤ - ١٨٨٤، كان المحفل يعقد إجتماعاته ومأدبه باستمرار. وقد توالى على تقلد رئاسته أغلب قواد الجيش البريطاني المحتل لمصر. وفي عام ١٩٣٥ إنتقل مقرّه إلى مبنى بالقرب من المدرسة الفرنسية. وعندما بدأت الإضطرابات في القاهرة مطلع عام ١٩٥٢ (حريق القاهرة)، أخذت إجتماعاته تنقطع ويقلّ عدد أعضائه الذين بلغوا في ديسمبر من ذلك العام ٧٥ عضواً هبط عددهم إلى ٧ أعضاء فقط عام ١٩٥٤. وعلى أثر قيام ثورة يوليو في ١٩٥٢، سارع القائمون على المحفل بتهريب وثائقه إلى بريطانيا.

وقد أصقت الماسونية في مصر بالخديوي إسماعيل والخديوي توفيق، ومن يتبعهم من أمراء القصر والملك فؤاد والملك فاروق. ولم تتضح حقيقتها في مصر والمشرق العربي، وزيف شعاراتها وما تبطنه إلا في الخمسينات من القرن الماضي، حين اكتشفت أنشطة جاسوسية واستخبارية تختبيء وراءها. وكان أن شاع الدور الذي لعبه المحفل (كوكبر) الإسكوتلندي بالإسكندرية للتجسس والذي استُخدم أثناء العدوان الثلاثي على مصر، وضُبطت فيه أجهزة لاسلكية وشيفرات سرية وإشارات لإرشاد الطائرات ليلاً. أمّا قبل ذلك فقد كان النشاط الماسوني علنياً سبق إقرار علنيته في أوروبا في العشر الأواخر من القرن العشرين، وآخر ظهور للماسونية العلنية قبل العدوان الثلاثي تجلّى في الرسالة التي تلقاها أمين عام الجامعة العربية عبد الرحمن عزام باشا في ربيع عام ١٩٥١، لدى انعقاد مجلس

جامعة الدول العربية في دمشق، ويطلب فيها أمين الحداد رئيس محفل الإخلاص باللاذقية من القادة العرب - آنذاك - دعم نضال المغرب العربي.

في ٤ إبريل ١٩٦٤ أُغلقَ المعبد الماسونيّ الواقع على شارع طوسون في الاسكندرية بأمر من وزارة الشؤون الاجتماعية، وبعدها بسنة فُيْضَ على شخص يهودي يتجسس لإسرائيل في سوريا، وبالتحقيق معه إعتُرفَ بأنه كان ينتمي لمحفل ماسوني مصري. وبعدها بقتره أعلنت نهاية الماسونية في مصر. ولكن أعداءها يعتبرونها أنها ما تزال موجودة - دون الإعلان عن نفسها - ممثلة في جمعيات ونوادٍ إجتماعية للطبقة الراقية كالروتاري و"اللايونز".

وقد أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر بياناً بشأن الماسونية والأندية المتهمه بأنها تابعة لها مثل الليونز والروتاري، جاء فيه، كما أصدره رئيس الفتوى بالأزهر الشيخ عبد الله المنشد:

( يُحرم على المسلمين أن ينتسبوا لأندية هذا شأنها وواجب المسلم ألا يكون إمعة يسير وراء كل داع وناد بل واجبه أن يمتثل لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول " لا يكن أحدكم إمعة يقول: إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم؛ إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ". وواجب المسلم أن يكون يقظاً لا يُغَرَّرَ به، وأن يكون للمسلمين أنديتهم الخاصة بهم، ولها مقاصدها وغاياتها العلنية، فليس في الإسلام ما نخشاه ولا ما نخفيه والله أعلم) كما أصدر المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي فتوى أخرى جاء فيها "وقد قام أعضاء المجمع بدراسة وافية عن هذه المنظمة الخطيرة، وطالع ما كُتِبَ عنها من قديم وجديد، وما نُشِرَ من وثائقها فيما كتبه ونشره أعضاؤها وبعض أقطابها من مؤلفات، ومن مقالات في المجالات التي تنطق باسمها: وقد تبين للمجمع بصورة لا تقبل الريب من مجموع ما اطلع عليه من كتابات ونصوص ما يلي:

- ١- إن الماسونية منظمة سرية تخفي تنظيمها تارة وتعلنه تارة، بحسب ظروف الزمان والمكان، ولكن مبادئها الحقيقية التي تقوم عليها هي سرية في جميع الأحوال محجوب علمها حتى على أعضائها إلا خواص الخواص الذين يصلون بالتجارب العديدة إلى مراتب عليا فيها.
- ٢- إنها تبني صلة أعضائها بعضهم ببعض في جميع بقاع الأرض على أساس ظاهري للتمويه على المغفلين وهو الإخاء والإنساني المزعوم بين جميع الداخلين في تنظيمها دون تمييز بين مختلف العقائد والنحل والمذاهب.

- ٣- إنها تجذب الأشخاص إليها ممن يهتمها ضمهم إلى تنظيمها بطريق الإغراء بالمنفعة الشخصية، على أساس أن كل أخ ماسوني مجند في عون كل أخ ماسوني آخر، في أي بقعة من بقاع الأرض، يعينه في حاجاته وأهدافه ومشكلاته، ويؤيده في الأهداف إذا كان من ذوي الطموح السياسي ويعينه إذا وقع في مأزق من المأزق أيا كان على أساس معاونته في الحق لا الباطل. وهذا أعظم إغراء تصطاد به الناس من مختلف المراكز الاجتماعية وتأخذ منهم اشتراكات مالية ذات بال.
- ٤- إن الدخول فيه يقوم على أساس احتفال بانتساب عضو جديد تحت مراسم وأشكال رمزية إرهابية لإرهاب العضو إذا خالف تعليماتها والأوامر التي تصدر إليه بطريق التسلسل في الرتبة.
- ٥- إن الأعضاء المغفلين يتركون أحراراً في ممارسة عباداتهم الدينية وتستفيد من توجيههم وتكليفهم في الحدود التي يصلحون لها ويبقون في مراتب دنيا، أما الملاحدة أو المستعدون للإلحاد فترتقي مراتبهم تدريجياً في ضوء التجارب والإمتحانات المتكررة للعضو على حسب استعدادهم لخدمة مخططاتها ومبادئها الخطيرة.
- ٦- إنها ذات أهداف سياسية ولها في معظم الانقلابات السياسية والعسكرية والتغييرات الخطيرة، ضلع وأصابع ظاهرة أو خفية.
- ٧- إنها في أصلها وأساس تنظيمها يهودية الجذور ويهودية الإدارة العليا والعالمية السرية وصهيونية النشاط >
- ٨- إنها في أهدافها الحقيقة السرية ضد الأديان جميعها، لتهدمها بصورة عامة وتهدم الإسلام بصفة خاصة .
- ٩- إنها تحرص على اختيار المنتسبين إليها من ذوي المكانة المالية أو السياسية أو الاجتماعية أو العلمية أو أية مكانة يمكن أن تستغل نفوذا لأصحابها في مجتمعاتهم، ولا يهتمها انتساب من ليس لهم مكانة يمكن استغلالها، ولذلك تحرص كل الحرص على ضم الملوك والرؤساء وكبار موظفي الدولة ونحوهم.
- ١٠- إنها ذات فروع تأخذ أسماء أخرى تمويهاً وتحويلاً للأنظار، لكي تستطيع ممارسة نشاطاتها تحت الأسماء إذا لقيت مقاومة لاسم الماسونية في محيط ما، وتلك الفروع المستورة بأسماء مختلفة من أبرزها منظمة الروتاري ولايونز. إلى غير ذلك من المبادئ والنشاطات الخبيثة التي تتنافى كلياً مع قواعد الإسلام وتناقضه مناقضة كلية. وقد تبين للمجمع بصورة واضحة العلاقة الوثيقة للماسونية باليهودية الصهيونية العالمية، وبذلك استطاعت أن تسيطر على نشاطات كثيرة من المسؤولين في البلاد العربية وغيرها في موضوع قضية فلسطين، وتحول بينهم وبين كثير من واجباتهم في هذه القضية المصيرية العظمى، لمصلحة اليهود والصهيونية العالمية. لذلك ولكثير من المعلومات الأخرى التفصيلية عن نشاط الماسونية وخطورتها العظمى وتلبساتها الخبيثة وأهدافها الماكرة، التي يجد فيها الضعفاء سبيلاً للهروب ومبرراً لتقصيرهم في جهادهم، من إعلاء راية الإيمان وحفظ الأمم والأوطان والمقدسات".

أما المجمع الفقهي في مكة المكرمة فقد أصدر برئاسة الشيخ عبد الله بن حميد قراراً شرعياً بتاريخ ١٥/٧/١٩٧٨، وبعد أن حُلت فيه نشأة الماسونية وعلاقتها وأهدافها المشبوهة، نصّ على ما يلي " تبين للمجمع بصورة واضحة العلاقة الوثيقة للماسونية باليهودية الصهيونية العالمية، وبذلك استطاعت أن تسيطر على نشاطات كثير من المسنولين في البلاد العربية وغيرها في موضوع قضية فلسطين، وتحول بينهم وبين كثير من واجباتهم في هذه القضية المصيرية العظيمة لمصلحة اليهود والصهيونية العالمية. لذلك ولكثير من المعلومات التفصيلية عن نشاط الماسونية وخطورتها العظيمة، وتلبساتها الخبيثة، وأهدافها الماكرة، يقرّر المجمع الفقهي اعتبار الماسونية من أخطر المنظمات الهدامة على الإسلام والمسلمين، وأن من ينتسب إليها، وهو على علم بحقيقتها وأهدافها، فهو كافر بالإسلام مجانب لأهله".

وفي ٤ ديسمبر ١٩٩٩ أعلن وزير الثقافة فاروق حسني أن مصر رفضت محاولات الماسونية العالمية لحضور احتفال الألفية الثالث في منطقة الهرم، على الرغم من الخطاب المرسل من قبل الكونجرس الأمريكي والبيت الأبيض يطلب من حكومته حضور المجموعة الماسونية هذا الاحتفال.

### الماسونية في الشام والعراق ودور الأمير عبد القادر

في كتابه "تاريخ الماسونية العام" الذي صدر عام ١٨٨٩، يذكر جورج زيدان أن دمشق عرفت الماسونية لأول مرة على يد راشد باشا والي سوريا ما بين ١٨٦٤-١٨٧١، ولو أنها دخلتها " بمساعي الأمير عبد القادر الجزائري، وأن أول محفل تأسس فيها هو محفل سوريا بشرق دمشق تحت شرق إيطاليا الأعظم. ولا يوجد في دمشق غير هذا المحفل. وقد ترأس عليه كثيرون من أعيان البلاد وأمرائها، ولاقي إضطهاداً قليلاً، وأنه تغلب على كل الصعوبات فثبت بمساعي الأخوة وتنشيطهم".

ولم يُكشف الستار إلا قليلاً عن علاقة الأمير عبد القادر الجزائري بالماسونية وربما يعود ذلك إلى عدم رغبة المؤرخين في تشويه سمعة هذا المجاهد الكبير قائد الثورة الجزائرية الحديثة ضد الإستعمار الفرنسي، والتي أتينا على ذكرها في عجلة.

فعندما حلت به الهزيمة نتيجة الغدر، إستسلم للأعداء الفرنسيين الذين أسروه سنة ١٨٧٤ إذ رأى من الصواب الجنوح للسلم، وشاور أعيان المجاهدين على ذلك. وأرسلوه إلى فرنسا حيث أهداه نابليون الثالث سيفاً ورتب له في الشهر مبلغاً باهظاً من المال، وسمح له بالسفر إلى الشرق سنة ١٨٥٢، فتوجّه إلى الأستانة. وهناك رحّب به السلطان عبد المجيد، وأنعم عليه بدار في مدينة بروسة، ثم استوطن دمشق، بعد توالي الزلازل على بروسة، سنة ١٨٥٥. وهناك رغب في أن يتمتع في رغد من العيش، فأقبل بنهم على اقتناء

الأراضي، بعد أن ملكته الإدارة العثمانية دارين فحمتين، وخصّصت له مبلغا ماليًا يعادل مائة ألف فرنك فرنسيّ بضغط من وزير خارجية فرنسا وسفيرها في دمشق، فكان يقضي أوقاته في الإطلاع وحلقات العلم، حتى جمع مكتبة ضخمة. وقد اشتهر بالكرم ولطف المعشر، فحبّب إليه أهل العلم وأعيان البلاد. وعندما اندلعت الفتنة بين النصارى والدروز سنة ١٨٦٠، هبّ مع ألف من رجاله، للقيام بدور إنساني أسعف به المنكوبين وأوى المهجّرين. وبذلك استطاع حماية المسيحيين وإنقاذ الكثيرين منهم من مذابح كادت أن تبطش بهم. وحين تحوّل سنة ١٨٦٣ إلى الأستانة لزيارة السلطان عبد العزيز، أهداه الوسام العثماني الأول، ثم توجه إلى باريس ولقي نابليون الثالث. وفي طريق رجوعه عبر الإسكندرية سنة ١٨٦٤، قيل إنه انتظّم هناك في محفل الإهرام التابع للشرق الفرنسي الماسوني، إذ كان يجاهر بانتسابه إلى جمعية العروة الوثقى، ومن أنصار رفض التقليد، وتبلي الأفكار الحديثة التي أخذت تفد على الشرق. وينقل عنه المؤرّخ الفرنسي (زافيي ياكونو)<sup>٥</sup>. قوله: "بني أعتبر منظمة البنايين الأحرار كأول مؤسسة في العالم، وفي رأي أن كلّ رجل لا يجاهر بالعقيدة البنائية يعدّ رجلا ناقصا، وأمل يوما أرى فيه إنتشار مبادئ الفرنسماسونية في العالم، ويومئذ فإن كلّ شعوب العالم ستعيش في سلام وأخوة".

وعندما اندلعت الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٧، جرت تحركات ومشاورات بين زعماء الشام طرحت فيها صيغة الإمارة العربية في الشام، على غرار ما قام به محمد علي باشا في مصر. وبويع الأمير عبد القادر زعيما لهذه الحركة وأميرا مرتقبا على بلاد الشام. ولكن إنهزام تركيا في تلك الحرب سنة ١٨٧٨، وقبولها بشروط معاهدة سان ستيفانو ومؤتمر برلين، حال دون سقوط الدولة العثمانية، وبالتالي تعذر نجاح الحركة الإستقلالية العربية. وعقب ذلك إتخذت السلطة العثمانية إجراءات إحترازية للفصل بين زعماء الحركة الوطنية والأمير عبد القادر. وعن هذه الفترة نشر رشيد رضا في سنة ١٩٠٩ مقالا طويلا في صحيفة (إقدام) التركية وصحيفة (كلمة الحق) العربية، وقال فيه " لم يكن يخطر على بال زعماء العرب السعي إلى انفصالهم عن الترك أو انفصالهم بأنفسهم، ولا ذكر هذا على لسان أحد إلا في عهد ولاية مدحت باشا على سوريا. ففي عهده شاع أن في البلاد حزبا كبيرا مؤلفا من و جهاء المسلمين والنصارى في بيروت والشام يسعى إلى جعل القطر السوري مستقلا كالقطر المصري تحت سيادة الدولة العلية، ويكون الخديوي له مدحت باشا. وقيل إن بعض الماسون كانوا يسعون إلى جعل الأمير عبد القادر الجزائري هو الخديوي لهذا القطر. ويقال أيضا إن لبعض الأجانب يدا في

٥ تنظر مقالته (Abdelksder, Franc- macon) بمجلة (Humanisme) الفرنسية المخصّصة للماسونية بتاريخ مايو - يونيو ١٩٦٦، كما ورد في كتاب المؤرّخ التونسي عبد الجليل التميمي عن (الأمير عبد القادر) والذي نشر فيه ثلاث وثائق بخط يد الأمير تبين إنسابه إلى الحركة.

توجّه نفوس الناس في سوريا إلى هذه الفكرة ". ولقد توارث أبناء الأمير عبد القادر الإنتماء إلى الماسونية إلى أن وصلت إلى حفيده محمد سعيد الجزائري الذي تسّم مكانة " صاحب اتلشوكة القطب الأعظم للمحفل الأكبر السوري العربي وأستاذ أعظم شرف للمحفل الأكبر الوطني المصري وقطب أعظم وأستاذ أعظم للمحفل الأكبر اللبناني " !

على أن الماسونية في المشرق العربي، لا سيّما الشام، جاءت إليه نتيجة تغلغلها في تركيا دار الخلافة العثمانية، إذ بلغ عدد المنتميين لها سنة ١٨٨٢ نحو عشرة آلاف ماسوني، على رأسهم النواب وقادة الجيش والوزراء. ومما شجع على انتشارها أن مراد أخ السلطان عبد الحميد كان معتقاً لها، إلا أن السلطان في كفاحه ضدها تمكن سنة ١٨٨٤ من إغلاق جميع محافلها، ماعدا محافل سالونيك في اليونان لارتباطها الوثيق مع الدول الأوربية والماسونية فيها. ولهذا فلا يُستغرب أن عمانويل قارصوه الرئيس الأعظم لمحفل (ريزورتا) في سالونيك، كان أحد الأربعة الذين قاموا بتبليغ السلطان عبد الحميد بقرار خلعته يوم ٢٧ إبريل ١٩٠٩. وببيع من بعده السلطان محمد رشاد الخامس، والذي في عهده تسلّم حزب الإتحاد والترقي إدارة الحكم في الإمبراطورية.

ومرت الماسونية في سوريا، عبر مراحل التطور السياسي وتقلبات الحكم فيها. وكذلك شهدت محافلها محاولات إندماج وتفكك وفترات خمود بعد الحرب العالمية الأولى. ونتيجة لوجود الإنتداب الفرنسي فقد ازدهرت أحوال هذه المحافل، وكان أقواها محفل " سوريا شرق دمشق " تحت رعاية " شرق فرنسا السامي " الذي تأسس في ١٩٢٢. وكان من بين أعضائه مصطفى السباعي الخطاط وفارس الخوري . ثم محفل " إبراهيم الخليل " تحت رعاية المحفل الأكبر بولاية نيويورك الأمريكية الذي تأسس في ١٩٢٤. وكان محفل " نور الشرق " من أقدم المحافل في سوريا ولبنان، إلى غير ذلك من المحافل الأصغر شأنًا. إلا أن بروز اليقظة القومية وتنامي الوعي بالتحرّر والإستقلال، أثار الرغبة لدى المحافل المحلية في التخلص من السيطرة الماسونية الأجنبية، ولهذا الهدف اجتمع في عام ١٩٢٤ ستة وعشرون محفلاً في دمشق لتكوين إتحاد بينها، وضمت شخصيات من أعيان البلاد ووجهائها المعروفين، وانتخبوا من بينهم جميل بيهم وسعيد صباغة وجبران تويني لإدارة المؤتمر. وقد أصدر بياناً ضافياً انتقد فيه تدهور الأوضاع العامة في البلاد في ظل الإدارة المحتلة، وطالب بإصلاحات عديدة، كأن يكون التعليم علمانياً، ولكن ليس بإدارة فرنسية كاثوليكية، وإلغاء القوانين الإستثنائية، وإعطاء القضاة الحصانة مع إلغاء المحاكم الأجنبية، وكذلك مطالب أخرى في السياسة النقدية والضريبية .. إلخ. وختمها بالتنديد بالإحتلال. ولكن المؤتمرين ناقضوا بعد بضعة سنين مطلب الإستقلال، حين أبرموا في ١٩٣٢ دستورهم الرسمي الذي تحدّث عن " الغاية الماسونية إحكام الإخاء بين البشر... وأن

تقتصر أعمال محفل سوريا على إنماء روح التعاضد والإخاء بين أعضائه، وعلى ترقّيتهم بإلقاء محاضرات علميّة إجتماعيّة وفلسفيّة أدبيّة دون التعرّض إلى الأمور الدينيّة والسياسيّة"، وواضح هنا إستجابتهم لضغوط الإنتداب الفرنسي الذي شعر بالتململ الشعبي ونذر الثورة ضده. إذ أن بعض العناصر الماسونيّة التي جرفها تيار الماسونيّة تحت شعار الحداثة والتجديد أخذت تصطدم بالسلطة المحتلّة، وخاصّة أن المستعمر الفرنسي أخذ يلعب لعبة الفتنة الطائفية بين شرائح المجتمع السوري. وعندما انهزمت فرنسا في الحرب، ودخلت الجيوش الألمانيّة باريس في يونيه ١٩٤٠، وتولى الحكم المارشال بيتان الموالي للنازيّة، حلّ جميع الأحزاب والجمعيات السريّة ومنها الماسونيّة، وتبع ذلك إصدار المفوض السامي الفرنسي في سوريا الجنرال دنتز قرارات بحلّ التانظيمات الماسونيّة، ومصادرة ممتلكاتها وأموالها المنقولة وغير المنقولة، فأنهت أعمالها وأغلقت أبوابها. ولكنها عادت إلى النشاط بعد إنتصار الحلفاء ومجيء الإنتداب الفرنسي في العهد الجديد ولا ننسى هنا أن الإنتشار الذي شهدته الماسونيّة آنذاك كان قبل حدوث النكبة في فلسطين، وانخداع الكثيرين بشعاراتها، قبل إنكشاف مراميها الحقيقيّة. وهنا يقول العلامة محمد كرد علي أول رئيس لمجمع اللغة العربيّة بدمشق في مذكراته " منذ خمس وأربعين سنة وأنا يعرض عليّ الدخول في الماسونيّة في مصر والشام وتذكر لي الرغبات والغنائم المتوقّعة منها، فكنت أقول: إن هذه الجمعيّة أنشأها اليهود للقضاء على ظلم الكاثوليك، فما شأن المسلمين الدخول فيها؟ ... وما كنت أظنّ ولا أكثر الماسون هنا يظنون، أن جمعيتهم العوبة صهيونيّة صرفة، لا يهوديّة فحسب يسعى اليهود بواسطة نفوذها أن يعيدوا مجد صهيون. ومعنى مجد صهيون نزع فلسطين العربيّة من أيدي العرب".

وكان المحفل الأكبر المصريّ ناشطا كثيرا في مصر وعلى رئاسته " الأستاذ الأعظم أحمد ماهر باشا " و" السكرتير الأعظم محمّد رفعت بك"، فاجتهدا لكي تتوسّع الماسونيّة في العالم العربي وخاصّة سورية ولبنان. فعملا على تأسيس محافل رمزيّة عديدة، ومحافل إقليميّة لدرجة ١٨ في دمشق. وكان الهدف تأسيس سلطة ماسونيّة مستقلة باسم المحفل الأكبر السوري، تيمّنا باسم المحفل الأكبر المصريّ الذي كانت تعمل تحت رعايته وسلطته، ومحافل سورّيّة ولبنانيّة كثيرة. ولهذا الغرض إنعقد في بيروت عام ١٩٤٧ مؤتمر ماسوني عام حضره أقطاب الماسونيّة في العالم العربي، بغية إضفاء الصبغة العربيّة على الحركة، بما في ذلك تعريب مصطلحات الحركة. وتقرّر فيه حلّ المحفل اللبناني وإحياء المحفل الأكبر السوري الذي نودي فيه بالأمير سعيد الجزائري قطبا أعظم. وكان إجتماع المحفل في عام ١٩٥١ قد ترأسه الأمير محمّد بن الأمير سعيد المذكور كقطب أعظم، وعبد القادر الزهراء كأمر أعظم. وفيه طالب الحاضرون بلسان محمد

رانف " على لزوم التخلّص من الإستعمار الماسوني وخلع نير الإستعباد وتأييد الإستقلال التام ماسونياً، دعوة كل أخ ماسوني يشتغل تحت سلطة ماسونية غير عربية أن يرجع إلى حظيرة فطرته، وأن يقوم بواجباته نحو وطنه العربي وشعبه الأبوي وجيشه المجاهد عامة والسوري خاصة، ورفع آيات الشكر والإمتنان والتنهائي المقرونة بعواطف الصدق والإخلاص بالنهضة الجديدة والعالم الجديد للجيش السوري الباسل، الممثل بشخصية حامل لواء الحرية والعدالة والإستقلال الأخ العارف العقيد أديب الشيشكلي الفائق الإحترام حامي الماسونية السورية العربية وتسجيل الثناء العاطر للجيش السوري الباسل الممثل بشخصية الزعيم المحبوب فوزي بك سلو (والأخ الكلي العرفان) العقيد أديب بك الشيشكلي " .

وهكذا دخلت الماسونية السورية مرحلة جديد مؤيدة إنقلابا عسكريا مستبدا مشبوها مضافا للنظام الديمقراطي، ومنغمسة في الشأن السياسي، متجاهلة ما نصّ عليه دستورها. أي أنها أخذت تتلون بألوان الإنتهازية السياسية سعيا إلى تحقيق مطامع الصهيونية واسعة الأبعاد كما شرح المناهضون لها. فما أن أعلنت الوحدة بين سوريا ومصر حتى كان أقطاب الماسونية في مصر وسوريا ولبنان مثل محمد مظهر سعيد وطه مخلوف ووجيه الصوفي، من أوائل من هنأ جمال عبد الناصر بها. وورد في إحدى البرقيات بتاريخ ١٩٥٨/٢/٧ : "مولد الجمهورية العربية الموحدة بقيادتكم، عمل متمم للثورة العظيمة التي قمتم بها ضد الإستعمار والرجعية. نأمل أن نعلم كافة البلاد العربية". أما شكري القوتلي فقد إستقبل وفد المحفل بالقصر الجمهوري في دمشق. إلا أن هذه الفرحة لم تتم، ولم يحرك المحفل ساكنا حين حدث الإنفصال. بل فوجيء الماسونيون في صيف ١٩٦٥ بصدر قرار حكومي " بإلغاء الجمعية الماسونية المسماة بالمحفل الأكبر السوري العربي والمحافل التابعة له في جميع أنحاء القطر العربي السوري إن وجدت، ويحظر على المؤسسين المنتسبين القيام بأي نشاط لصالح الجمعية، وتختتم بالشمع الأحمر، وتصفى موجوداتها". وصدر قرار آخر مماثل بإلغاء أندية الرّوتاري الدولي في البلاد.

وفي لبنان الذي يشكل مع سوريا وفلسطين مصطلح الشام، تأسس في عاصمته بيروت أول محفل منذ سنة ١٨٦٢ تحت رعاية الشرق الأعظم الأسكتلندي حسبما ذكر جورج زيدان (وهو من الماسونيين)، ثم محفل آخر فيها سنة ١٨٦٩ تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسي. وقيل إن مدحت باشا الصدر الأعظم العثماني السابق ومنشئ دستور ١٨٧٦، كان ممن رعوا هذه الجمعية، بهدف إحداث القلاقل في لبنان لفصله عن الإمبراطورية، وبالتالي إستيلائه عليه ليحكمه وتتوارثه ذريته من بعده. مثلما فعل محمد علي في مصر، وهو ما أشار إليه محمد علي رضا. إلا أن السلطان إستدعاه إلى الأستانة بعد ثلاث سنوات، فهاجر أعضاء الجمعية إلى مصر، وكان من أبرزهم فارس نمر الذي أسس في

القاهرة مجلة "المقتطف" الشهيرة وصحيفة "المقطم". وفي الفترة ١٨٤٧ - ١٨٦٨ كوّن نخبة من المثقفين على رأسهم ناصيف اليازجي وبطرس البستاني ومجموعة من الشخصيات الأمريكية والإنجليزية، وكان من بينهم الشخصية البريطانية الشهيرة ونستون تشرشل الذي أقام في بيروت وكان برتبة كولونيل، كوّنوا ما أسموه بالجمعية الأدبية ثم جمعية الفنون والعلوم ثم الجمعية العلمية السورية. وكلها كانت بدايات ما أطلق عليها جورج أنطيوخس "بالقطة العربية" في كتابه التاريخي الثمين "قطة العرب" الذي صدر بالإنجليزية في فيلادلفيا سنة ١٩٣٩، وسرد فيه نشأة وتطور فكرة القومية وتياراتها ورجالاتها. أي أن هذه الجمعيات بذرت بذور النشأة القومية العربية منسوخة عن الجامعة الإسلامية المتدثرة بالإمبراطورية العثمانية على النحو المعروف. وكانت طليعتها الجمعية السرية التي شكلها عام ١٨٧٥ - أي قبل سنتين من تولي السلطان عبد الحميد العرش - خمسة من العرب النصاري يدعمهم أمريكيون، ثم ضموا إليها العشرات من المثقفين العرب مسيحيين ومسلمين كيعقوب صروف وإبراهيم اليازجي وفارس نمر وإبراهيم الحوراني وشاهين مكاريوس وغيرهم. وحسب الرواية التاريخية فقد رأى هؤلاء المثقفون "أن إنتسابهم إلى الجمعية الماسونية فيه كل الخير لقضيتهم". ومن ذلك الوقت نشأت وانتشرت المحافل الماسونية تحت الشعارات البراقة المعروفة.

وفي ١٩٨٢/٧/٨ أي بعد شهر واحد من الإجتياح الإسرائيلي لبيروت، نشب خلاف حول المرجعية للماسونية اللبنانية، فجريدة النهار تنشر بيانا في ذلك اليوم باسم (الشرق اللبناني الأكبر) "حذر اللاعبين بالنار والمناورين على الحقائق، وهم ينتحلون لهم صفة غير شرعية، بقصد الإحتيال وابتزاز الأموال، أن يعلن في هذه المناسبة أنه سيقاضي هؤلاء ويلحقهم قانونيا وماسونيا، كما ينبه المواطنين الكرام إلى أي محاولة ترمي إلى الإساءة إلى المبادئ الإنسانية السامية، معلنا أن كل من ينتسب إلى هيئة لا يعترف الشرق الأكبر اللبناني بها، ليس الشرق مسنولا عنه، ويحظر عليه دخول المحافل النظامية في لبنان وخارجه". إلا تحذيرا مضافا قامت بنشره يوم ١٩٨٢/٩/٢٨ جريدة السفير بتوقيع رشيد الصلح رئيس وزراء لبنان الأسبق جاء فيه "حذر (الشرق الأوسط اللبناني) "كل من تسول له نفسه إنتحال الصفة الماسونية، ودعا أعضاء للحصول على بطاقة العضوية الماسونية قبل نهاية شهر تشرين الأول ١٩٨٢، تمهيدا لإجراء إنتخابات محفلية جديدة. وأنه السلطة الوطنية العليا للمحافل العامة في لبنان ومحافل اللبنانيين في بلاد الإغتراب... وأن كل من ينتحل الصفة الماسونية سيلاحق قضائيا وأمام المحاكم الماسونية، مشيرا إلى صحة البطاقات التي يحملها الأعضاء، وتحمل توقيع الرئيس (الأستاذ الأعظم) رشيد الصلح". وإزاء هذا التصارع دعا محفل الأرز الأكبر من سماهم بالإخوان الماسونيين المهجرين من كل المناطق اللبنانية إلى الإتصال به في مقره لعقد جلسة خاصة.

وحتى عندما أصدرت الحكومة المصرية قرارها بحلّ منظمات الماسونية وتحريمها عام ١٩٦٤ كما ذكرنا سابقاً، تحدّى الماسينيون اللبنانيون هذا الإجراء، وتخوّفوا من آثاره عليهم، خاصة الحملات الإعلامية المصرية، فجمعوا تبرّعات بعشرات الألوف من الليرات، وأصدروا قراراً في يونيو ١٩٦٤ برئاسة حنا إبي راشد الملقب لديهم "بالقطب الأعظم للشرق الأكبر المثالي العالمي" وعميد الطرق الماسونية المثالية مدى الحياة "يقضي باستعمال المال لمنع الصحافة اللبنانية من مجازاة الصحف المصرية، مثل "الأهرام" و"الأخبار" و"صوت العروبة" في كشف أسرار الماسونية. بل إن صائب سلام رئيس الوزراء في ذلك الوقت أصدر قراراً بتاريخ ١٩٧٢/١/١٩ بإلغاء أية تدابير مناهضة للماسونية، وجاء فيه "أن مجلس الموقرين اللبنانيين من الدرجة الثالثة والثلاثين واللجنة الماسونية العليا للدرجات العليا بلبنان، قد أصبح مصرحاً لها إعتباراً من الآن بممارسة نشاطهما طبقاً للمادة السادسة من قانون المنظمات". ورغم إنكشاف انكشفت شبكة الجاسوسية في الإسكندرية وصدر فتاوى دينية مسيحية وإسلامية ضدها، وقرارات رسمية تحظرها، يبدو أن الماسونية عادت من جديد تطلّ من عدة منابر - خارجة من ركودها أو إختباؤها التقليدي - فجريدة النهار اللبنانية عادت هي الأخرى تروّج لها في مقالة نشرتها خلال العام ٢٠٠٧، تحت عنوان (الماسونية في لبنان جمعيتها لها أسرار وليست سرية) بقلم ماري كلير فغالي. وهي مقالة إذ تعطي نبذة عن نشأة الماسونية وتطورها عبر العصور، فهي ترغّب في الإنتماء إليها كونها تساعد المنتسبين في الإرتقاء إلى أعلى المناصب السياسية. مدّعية أن لا علاقة لها بالصهيونية، وإنما شاع ذلك بسبب الخطأ في فهم موضوع بناء هيكل سليمان! وجاء في المقالة أن عدد المحافل في لبنان بلغ من ٤٠ إلى ٥٠ محفلات تبع (الشرق الأكبر) وأن عدد الماسونيين بلغ نحو ٨٦ ألف منتسب مسجلين، وينشط منهم فعلياً بين ٦ - ٨ آلاف.

ولأسباب الجوار والروابط التاريخية والعائلية وظروف الإستعمار، لم تسلم فلسطين من الماسونية، ولو أنها كانت في نطاق ضيق، ومعظم محافلها إرتبطت بالماسونية في مصر، ففي سنة ١٩٢٨ كان عددها عشرة محافل منتشرة في مدن فلسطين الرئيسة. وغني عن القول إن الصراع الفلسطيني ضد الصهيونية المحتدم منذ ذلك الوقت وحتى الآن، أجهض أي توسع للماسونية في فلسطين العربية. ولو أنها وجدت في الأردن مكانة مرموقة، لأنه منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٧، نُشرت رسالة موجهة من الملك حسين بن طلال إلى حنا أبي راشد القطب الماسوني الأعظم في لبنان، يشكره فيها على قراره بمنح الملك "أسمى درجات الماسونية الأخيرة، ووضع رسمي في صدر المجلس السامي المثالي العالمي"، وتبعه في ذلك بهجت التلهوني رئيس ديوانه الذي ردّ على دعوة أبي راشد شاكرًا له ومتقبلاً بامتنان

إنتسابه إلى الماسونية، كما جاء في رسالته بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٥٧. وفي ٢٥ ديسمبر من نفس السنة أصدر أبو راشد المذكور مرسوما بتأليف المحفل الأكبر للملكة الأردنية الهاشمية وعُيّن بهجت التلهوني أستاذا أعظم له تحت رعاية الملك حسين. وقد قيل أن أقرباء التلهوني إمتعضوا من هذا التصرف. وفي ١٧ مايو ١٩٦٠ استقبل الملك وفد الماسونية العالمية في قصره. وبذلك تحصلت الماسونية على ما كانت ترنو إليه من إعتراف سام ومكانة مميّزة. وعلى الرغم من ذلك لم يوجد في الأردن إلا محفل رسمي رئيسي في جبل القلعة وآخر تحت اسم عدنان بعيون وانتسبت إليهما جمهرة من الأعيان والمفكرين - كثيرون منهم من أصل غير عربي - إلى أن أصدر البرلمان الأردني، بضغط من الجبهة الإسلامية توجيهها بحظر الإنتماء إلى الماسونية. الأمر الذي جعل المحفل يصدر بيانا توضيحيا بتوقيع السكرتير الأعظم سيف الدين الكيلاني والقطب الأعظم عبد المجيد مرتضي، زُعم فيه أن الماسونية ذات طابع إنساني خيري محض. بل وتجرا على التبرير بأن الإنتماء إليها سوف لن يترك المجال لدعاة الإستعمار والصهيونية باحتكار هذا النشاط العالمي! ولكن البيان يناقض نفسه عندما اعترف - منبها الماسونيين - بضرورة تفهمهم لنفور أفراد الشعب منهم: " لأن حركة تولد في السرّ وتعيش وتعمل في السرّ وترتبط بهينات خارجية عالمية عن طريق السرّ وذات أهداف يكتنفها الغموض والسرّ، لابدّ أن تحوم حولها الشبهات ". وقد جاء هذا البيان ردّا على الفتوى الدينية التي نشرت عام ١٩٦١ من قبل المفتي العام، والذي لم يجرأ صراحة على تحريمها، وإنما أحجم عن ذلك بحجة أنه لا يعلم شيئا عن حقيقتها، مع إعترافه بما تثيره من ريب. ألا أن المفتي بعد ذلك وفي بيان آخر - بناء على رغبة قاضي القضاة - أصدر فتوى صريحة بتحريمها كونها من الكفر الصراح إذ قال: " فعلى المسلم أن يعتزل الماسونية، هذا إذا لم ينته فيها إلى الكفر الصراح والزندقة والإلحاد. فإن إنتهى إلى ذلك وصار فيه إلى العمل والإعتقاد، فإنه يعدّ بذلك كافرا مرتدّا، وتجري عليه أحكام الكافر المرتدّ، إلا إن تاب ورجع إلى الإيمان والإسلام، وتقبل توبته، على أن ذلك فيما بينه وبين الله ". وبناء على هذه الفتاوى، تبنى التيّار الإسلامي حملة متواصلة لحظر الماسونية، إلى أن أصدرت الحكومة قرارا رسميا بحظرها عام ١٩٩١، ولكن يبدو أن أنشطتها إستمرت في طي الكتمان، مما حدا باستئناف الحملة ضدها من نفس التيّار. وهو ما جعل الحكومة تشدّد عام ١٩٩٩ على أوامرها بمنع أي نشاط لها في البلاد.

وجدير بالذكر أن الماسونية تسلّلت أيضا إلى العراق وبلدان الخليج، وربما لأن هذه البلاد كانت قد استعمرت بدرجات متفاوتة من بريطانيا أحد معاقل الماسونية الكبرى. ففي العراق ازدهرت بعد الحرب العالمية الأولى، وتعطل نموّها في سنين تكوين إسرائيل لكنها

انتعشت من جديد. إلى أن قامت ثورة ١٤ تمّوز عام ١٩٥٨ بتصفيتها نهائيًا. فغداة الثورة هاجمت التظاهرات الشعبية المحافل الماسونية، وتمت السيطرة على الخزائن الحديدية التي كانت بالبنك المركزي العراقي والتي احتوت على قوائم مائة وخمسين من أعضائها المعروفين، ولو أنها لم تُعلن للجمهور. ولكن عُرف أن من بينهم السياسي المعروف محمد فاضل الجمالي (وقد اعترف وافتخر شخصيًا بانتمائه إليها أمام محكمة المهداوي المعروفة)، وكذلك رؤساء الحكومة العراقية السابقون نوري السعيد وصالح جبر وتوفيق السويدي، إضافة إلى العشرات من الوزراء وضباط الجيش والأطباء والمحامين. وكلهم كانوا من الطبقة البرجوازية. وبعد الانقلاب العسكري الذي جاء بحزب البعث إلى الحكم، جرى تعديل قانون العقوبات سنة ١٩٧٥ بحيث أصبح " يعاقب بالإعدام كل من حبّذ أو روج مبادئ صهيونية بما في ذلك الماسونية، أو انتسب إلى أي من مؤسساتها، أو ساعدها ماديا أو أدبيا، أو عمل بأية كيفية كانت لتحقيقها ".

وأخيرا، وعلى مستوى العالم العربي، أصدر المؤتمر الحادي والأربعين لضباط إتصال المكاتب الإقليمية لمقاطعة إسرائيل التابع للجامعة العربية " باعتبار حركة الماسونية حركة صهيونية، لأنها تعمل بإيحاء منها لتدعيم أباطيل الصهيونية وأهدافها، كما أنها تساعد على تدفق الأموال على إسرائيل من أعضائها، الأمر الذي يدعم إقتصادها ومجهودها الحربي ضدّ الدول العربية. حظر إقامة مراكز أو محافل لنشاط الحركة الماسونية في الدول العربية، وإغلاق أي أماكن لها تكون قائمة الآن في تلك الدول - لا يجوز التعامل أيا كان نوعه وطبيعته مع مراكز هذه الجماعة أو محافلها في مختلف أنحاء العالم".

## المعارضة الكاثوليكية للماسونية

لقد جوبهت الماسونية بالنقد والإضطهاد من قبل الدول ذات (الثيوقراطية) أي التي يحكمها رجال الدين. وكان العامل الرئيسي وراء ذلك الخوف من أنها تشكل دينا منافسا يؤمن بالطبيعة، أو أنها حركة زندقية، وهذا ما يتعارض مع (دوجما) الكنيسة الكاثوليكية على وجه التحديد. وبذلك ظلت الماسونية لقرون عديدة هدفا للناقمين عليها يتوجب محاربتها كونها مصدرا للشر، وتفسخ المؤامرات والفتن والثورات حتى يومنا هذا.

وفي أدبيات الكنيسة الكاثوليكية، نقرأ العديد من التصريحات البابوية ضدّ الماسونية، أولها كان من البابا (كليمينت الثاني عشر) في ٢٨ أبريل ١٧٣٨، وآخرها كان من البابا (ليو الثالث عشر) في أكتوبر ١٨٩٠. وخلال القرن العشرين توالى هذه التصريحات

البابوية على النحو الآتي: لاوون الثالث عشر (١٨٧٨ - ١٩٠٣)، القديس بيوس العاشر (١٩٠٣ - ١٩١٤)، بنديكتوس الخامس عشر (١٩١٤ - ١٩٢٢)، بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ - ١٩٣٩)، بيوس الثاني عشر (١٩٣٩ - ١٩٥٨)، يوحنا الثالث والعشرون (١٩٣٦ - ١٩٥٨)، بولس السادس (١٩٦٣ - ١٩٧٨)، يوحنا بولس الأول (١٩٧٨ - ١٩٧٨) وتوفي في نفس السنة، ولم يمض على توليه كرسي البابوية ٣٣ يوما. ورغم البيان الرسمي بأنه قضى نتيجة أزمة قلبية حادة، إلا أن هناك أقاويل وتكهنات ذهبت إلى الإدعاء بأنه مات مقتولا، وقد زادت الشكوك بأن الموت لم يكن طبيعياً نظراً للسرعة التي أبدتها بعض الكرادلة ومنهم الكاردينال (جين فيلوت) بتحنيط الجثة فوراً منعاً لتشريحها، وهذا ما حدث فعلاً. وثمة أنباء بأن إختياره للبابوية شارك فيه عدة أشخاص منهم (جين فلوت) نفسه والمستشار المالي للفاتيكان (ميكيلي سيندونا) الذي تورط في شبكة (ليتشو جيلي) كما أسلفنا، والأسقف (بول مارشنيكوس) رئيس بنك الفاتيكان و(ليتشيو جيلي) نفسه رئيس المحفل الماسوني (ب ٢)، وكذلك تصريح يوحنا بولس الثاني (١٩٧٨ - ٢٠٠٥). وكل هذه التصريحات البابوية، كانت تحذر الكاثوليك رسمياً من الإنتماء إلى الماسونية. وفي ٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٣ أعلنت جمعية عقيدة الإيمان، في وثيقة وافق عليها الأب الأقدس، " أن الحكم السلبي للكنيسة على الماسونية يظل غير متغير لأن مبادئها اعتُبرت دائماً متناقضة مع عقيدة الكنيسة؛ لهذا تُبقي الكنيسة حظرها على الإنتماء الى الماسونية. والكاثوليك الداخلون فيها هم في حالة خطيئة جسيمة، ولا يمكنهم تناول القربان المقدس."

وفي عام ١٩٩٣ أصدر الكاردينال جوزيف راتزينجير، عندما كان عميدا لمجمع فكر العقيدة بالفاتيكان والذي أصبح منذ عام ٢٠٠٥ البابا بينيديكت السادس عشرة حتى وقتنا الحاضر، بيانا ملزما جاء فيه: " إن حكم الكنيسة السلبي تجاه المؤسسة الماسونية يظل بدون تغيير طالما بقيت مبادئها لا تتلاءم مع عقيدة الكنيسة، وبذلك فالعضوية فيها محظورة، والمؤمنون الذين ينخرطون في المؤسسات الماسونية هم في وضع من ارتكاب معصية، وربما حُرّموا من التعميد المقدس ". وعلى الرغم من ذلك قام (المحفل الأعظم) الإيطالي عام ٢٠٠٥ بتصويب قس كاثوليكي كراع له. ومن ناحية أخرى إتسم رد فعل (محفل الشرق الأعظم) بالسلبية تجاه مواقف الكاثوليكية هذه، والتي تعتبر العلمانية وعدم الخضوع للكليريكية الكنسية، حركات معادية للكاثوليكية.

وعلى النقيض من ذلك اعتبرت الكنيسة البروتستانتية الماسونية حركة تصوّف وتعبد.

لقد استهدفت الماسونية منذ سنين طويلة باعتبارها مرتبطة (بالنظام الدولي الجديد) و"العلاء" الآخرين مثل **Illuminati** أي المستتيرين أو أهل التنوير، ويعتبرهم أصحاب نظرية المؤامرة أنهم يسعون إمّا للسيطرة على العالم، أو أنهم يديرون فعليًا سياسات العالم بصفة سرّية. ويتفق في هذا المفهوم اليمين المتطرّف (النازي) واليسار المتطرّف (الشيوعي). ولو أن البعض يمدح الماسونية لأنها كانت المؤسس للديمقراطية الليبرالية، لاسيما في الولايات المتحدة الأمريكية، والبعض الآخر على العكس يفترض أنها عملت على إحباطها. وفي بعض البلدان تتصلّ مناهضة الماسونية بظاهرة (معادة السامية) و (معادة الصهيونية)، وكما يذكر البروفيسور أندرو بريسكوت في جامعة شيفيلد البريطانية: "منذ زمن صدور (بروتوكولات زعماء الصهيونية) أصبحت معادة السامية ملازمة لمعاداة الماسونية، وهكذا لاغرابة في انتشار الإدعاءات بأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك كانت مؤامرة من فعل الصهيونية مقرونة بأقاول أن الهجمات قد أوجت بها حركة (النظام العالمي) الماسونية.

وفي عام ١٧٩٩ توقف نشاط الماسونية في بريطانيا بإصدار البرلمان، غداة الثورة الفرنسية ما سُمّي بقانون (الجمعيات اللاشرعية) والذي يحظر إجتماعات أي جماعة تفرض على أعضائها أخذ القسم أو الإلتزام. إلا أن احتجاجات المحافل الكبرى في فرنسا وتقديمها للتعهد باحترامها للقوانين النافذة وإطاعة السلطة الدستورية الحاكمة، وأنها تكرس نشاطها للعمل الخيري، جعل الحكومة تعفي الماسونية من هذا القانون، على أن يقدّم كل محفل قائمة بأسماء أعضائه سنويًا. وقد استمرّ هذا الإجراء حتى عام ١٩٦٧، إلى أن أدخلت عليه تعديلات تتعلق بالإلتزام بالمواطنة الوفيّة، وعدم التمرد، بل الإنصياع للنظام القضائي.

أمّا في الولايات المتحدة الأمريكية فقد واجهت الماسونية أول وأعنف هجوم ضدها، عندما اختفى في عام ١٨٢٦ (ويليام مورجان) أحد الناشطين في الدعاية ضدها، رغم أنه كان عضواً في محفلها. ولم يُكشف عن مصيره، وقيل إنه اغتيل من المنظمة لأنه أراد كشف أسرارها. وتصاعدت حملة التنديد من أجله والمعادية لها إلى درجة تكوين حزب سياسي باسم (الحزب المناهض للماسونية)، والذي قدّم مرشحا في انتخابات الرئاسة للعامين ١٨٢٨ و ١٨٣٢، ولكن عمر الحزب كان قصيرا.

وحتى في عهد الديموقراطيات الحديثة، ثمة من يتهم الماسونية كونها شبكة ينخرط فيها الأصدقاء لمباشرة إتصالات سياسية وتعاطي صفقات تجارية مشبوهة، وأن العضو يتم تربيته من قبل أعضاء آخرين وهو أمر تنفيه الماسونية بالطبع.

ويذكر هنا أن الماسونية في إيطاليا سلّطت عليها الأضواء نتيجة حدوث فضيحة ليتشيو جيلي<sup>٦</sup>. رئيس (محفلة الدعاية ٢) المتحدّر من محفل الشرق الأعظم الإيطالي الذي تأسس منذ عام ١٨٧٧، وكان مخصّصاً للزوّار الأجانب ممّن تتعدّر عليهم العضوية في بلدانهم. وقد تورّط جيلي في عملية تسبّبت في إفلاس مؤسسة الفاتيكان المائيّة. وحين إنكشفت الفضيحة واشتهرت، أدى ذلك إلى سقوط الحكومة الإيطاليّة، وحلّ المحفل سنة ١٩٨٢، كما صدرت عدّة أحكام بالسجن على جيلي، ولكنه تمكن من الهرب. وعقب ذلك قبض عليه وأمضى سنين طويلة محبوساً أو محجوزاً قسرياً في بيته. وفي عام ٢٠٠٦ فتح أسراره وأرشيفه لوسائل الإعلام، فعُرضت ونُشرت عنه تحقيقات كثيرة أكدت ما كان متداولاً كشائعات، وعمرّ حتى قارب التسعين سنة.

أمّا في بريطانيا فقد حاولت حكومة العمّال في التسعينات من القرن الفارط أن تصدر قانوناً يحظر على المسؤولين فيها الإنتماء إلى المحافل الماسونية، غير أن هذا الإجراء طعن فيه بموجب تشريع حقوق الإنسان الأوروبي. وعند قيام الحكومة البريطانيّة بالتصديق على هذا الميثاق، جرت سنة ١٩٩٩ تعديلات قانونيّة، بموجبها إقتصر أن يجري تسجيل

---

٦ هو شخصيّة إيطاليّة لعبت أدواراً خطيرة في التأمّر والإجرام السياسيين، ونشط في المنظمات السريّة الإيطاليّة الفاشية، ولانخراطه في الحزب الفاشي منذ الثلاثينات، فقد أرسله موسوليني ليحارب إلى جانب جيش فرانكو في الحرب الأهليّة الأسبانيّة. ثمّ ساهم مع كتائب موسوليني الإرهابيّة التي نكلت بالإشتراكيين والشبوعيين. وأثناء الحرب الباردة أصبح ناشطاً كأداة تستخدمها وكالة الإستخبارات الأميركيّة. وقد تبيّن أنه دبر مذبحة مدينة بولونيا سنة ١٩٨٣ والتي قتل فيها أكثر من ٨٠ مدنيّاً إيطاليّاً، وارتكبت، مع جرائم إرهابيّة مماثلة، باسم منظمةٍ يساريّة متطرّفة ضمن الحملة التي دُبرّت آنذاك مع الإستخبارات الأميركيّة للحيلولة دون مجيء الشيوعيين إلى الحكم في إيطاليا، وذلك بالصّاق هذه الأعمال بهم. وكوّن المحفل الماسوني المذكور والذي انضمّ إليه العشرات من جنرالات الجيش وقادة الإجهزّة الإستخباراتيّة، وكان بيرلسكوني وأندريوتي رئيساً الحكومة الإيطاليّة لعدّة مرّات من أعوانه، كما كانت له علاقات واسعة مع رؤساء دول مثل ريجان الذي دُعي لحضور تقلده للرئاسة الأميركيّة وجورج بوش الأب وبيّنوشيه رئيس تشيلي وفيدلا رئيس الأرجنتين الفاشيين. وقد لعب دوراً رئيساً مع رجلي المال والمصارف سبندونا وكالفي في قضية إفلاس بنك أومبروزيانو، والتي ارتبطت بأموال الفاتيكان، واكتشفت الفضيحة حين وُجد كالفي مشنوقاً على ضفة نهر التاميس في لندن، وجيوبه مملوءة بالرمل، ممّا أكد تورّط الماسونية في عملية التخلص منه لأنها تستعمل الرمل في طقوسها.

المحافل بشكل طوعي في مراكز الشرطة، والتي لها صلاحية طلب أو عدم طلب بيانات خاصة من المتقدمين طبقا للائحة (حرية المعلومات) لسنة ٢٠٠٠.

وفي ألمانيا ذكر أن حوالي ثمانين ألفا من الماسونيين، كانوا بين ضحايا معسكرات الإعتقال التي أقيمت لليهود في العهد النازي. وقد استخدمت زهرة (لاتسنسي) **Forget me - not!**<sup>٧</sup>، من قبل محفل (نحو الشمس) عام ١٩٢٦، كرمز للماسونيين في مؤتمرهم بمدينة بريمن. ولكن نفس الزهرة استعملت عام ١٩٣٨ من قبل الحزب النازي أثناء نشاط مؤسسة تابعة له للعمل الخيري لجمع المساعدات في موسم الشتاء، ويرى أعداء النازية أنها كانت ستارا استغلت أموالها في صناعة الأسلحة، ولذلك استعملها الماسونيون أيضا كإشارة سرية بينهم تعتبر عن عضويتهم في محافلهم. وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية عاد الماسونيون لتعليقها كرمز لأول مرة أثناء انعقاد تجمع المحافل في ألمانيا. وظل الماسونيون حتى وقتنا الحاضر يعلقون هذه الزهرة في أرجاء العالم للتذكير بزمانهم، وما عانوه من اضطهاد، خاصة أثناء العهد النازي.

لقد قصدنا من هذا العرض وصف كيف تسللت " الماسونية " إلى حركة التجديد والإصلاح في المنطقة العربية مع تيارات وموجات التحديث التي وفدت مع الغزو والإستعمار الغربي لها.

---

٧ زهرة ذات لون أزرق فاتح تعتبر رمزا للإخلاص والصدقة.

## الفصل السادس

السنوسية والطرق الأخرى وعلاقتها بتركيا



## الفصل السادس

### السنوسية والطرق الأخرى وعلاقتها بتركيا

- نوعية العلاقة التركيبية السنوسية
- برقة كقاعدة انطلاق للسنوسية
- نظام التسيير الإداري.
- الوضع الاقتصادي.
- الإتصالات والمواصلات
- التعليم والصحة



## الفصل السادس

### السنوسية والطرق الأخرى وعلاقتها بتركيا

والآن قد يكون من المفيد توضيح الفرق بين الطرق والزوايا نفسها لإبراز دور وفعالية كل منها، وحقيقة بواعثها ومراميها في صياغة المجتمعات الحضريّة أو الريفيّة.

لقد سبقت الإشارة في الحديث عن نشأة الطرق الصوفيّة و محافظها أو منتدياتها أو (زواياها) كما كانت تسمى في ليبيا، مثلها مثل بلدان المغرب العربي الأخرى، عن أنواع كثيرة منها انتشرت في كامل أنحاء العالمين العربي والإسلامي، وخاصة منها تلك التي تمارس الطقوس الصوفيّة. أمّا في ليبيا فإننا إذا أخذنا برقة باعتبارها المونل الأول للسنوسية كنموذج لهذا النوع من الزوايا، لوجدنا أن بعضها ترجع نشأته في بنغازي و درنه إلى أكثر من مائة وخمسين سنة قبل مجيء السنوسيّة<sup>١</sup> وأهم هذه الطرق هي القادرية، وقد سبقت الإشارة إلى أن السنوسية تنتشعب منها، والرفاعيّة والعروسيّة، والعيساويّة، والطبييّة، والعزّوزيّة، والمدنيّة، والسعديّة. وحتى عام ١٩٤٢ وصل عددها إلى ٥٢ زاوية منها ٢٢ في بنغازي و ١٤ في درنه. أمّا الباقي فموزّع بما يقلّ عن عدد أصابع اليد الواحدة في بقية المدن والقرى البرقاويّة الرئيسيّة<sup>٢</sup>. وفي طرابلس كانت المعبر الأول لكثير من الأولياء (المرابطين) الذين أنشأوا هذه الزوايا وحملت أسماءهم، إذ كان أغلبهم أتيا من المغرب الأقصى، إمّا في طريقه إلى الحج أو هربا من بطش الأسبان بعد استرجاعهم للأندلس، وانهيار الدويلات الطائفية ومجيء عهد محاكم التفتيش القمعي. وأغلب تلك الطرق كانت تختلف عن السنوسيّة في المنطلق والأهداف والتركيبية التنظيميّة. وليس صحيحا ما ذهب إليه كثير من المؤرّخين الذين ظنوا إنسجام السنوسيّة معها، إذ رغم تتلمذ مؤسس السنوسيّة على أئمة بعض هذه الطرق، كما مرّ بنا، إلا أن تواجدها على أرض الواقع واحتكاكها بالمجتمع والعوامل والظروف المؤثرة فيه، قد أظهر تباينا واختلافا عن السنوسيّة في توجّهاتها ومناهجها، لاسيما إزاء القوى الأجنبية الدخيلة. فيخلاف السنوسيّة، كانت أغلب هذه الطرق نوادي وحلقات ذكر وشعائر وطقوس شعوذة أكثر من أيّ شيء آخر. وقد استغلّتها قوى الغزو الإستعماري لتحقيق أغراضها، حتى أنها أنفقت عليها الأموال والهدايا وقربّتها إليها.

١ برينشارد ، سنوسيو برقة . ص ٨٧

٢ برينشارد ص ٨٤ - ٨٥

وتعتبر علاقة الحكام الأتراك بالطرق الصوفية وأقطابها وتأثرهم بتعاليمها، هي علاقة قديمة ووطيدة - كما رأينا في استعراض التصوف - ويروي لنا المؤرخ أحمد النائب أنه حدث في طرابلس أن العارف بالله الشيخ محد حسن ظافر شيخ الطريقة المدنية جاء في إحدى زيارته لمقامه في مصراته. ولكن التمرد الذي اندلع فيها أجبره على الانتقال الى جبل غريان والإعتكاف فيه. فاستدعي لمقابلة الوالي العثماني طاهر باشا حوالي سنة ١٨٣٤، ضمن أعيان البلاد وشيوخها، ليتداول معهم في أمور الفتن والإضطرابات التي كانت تعصف بها. ولما كان الشيخ محاطا بثلة من تلاميذه وأتباعه، فلم يرق ذلك للوالي الذي استشعر من هذه الهيئة أن الشيخ قصد تبوأ مركز يعلو على الوالي. وهنا سأله الوالي: "ما قصدك بهذه الجمعية؟ قال: جمعنا محبة الله وترويض أنفسنا بطاعته وعمارته أوقاتنا بذكره، قال: بل جمعتم لتثير بهم فتنة تكون بها رئيسا في البلاد وتسعى في الأرض بالفساد، قال: هؤلاء الذين تراهم من أهل البلد". عندها طلب منه أن يسميهم وأن يفرز منهم من يكفله، فتقدم الكثيرون عارضين ذلك "وكان الأستاذ متوكفا على عكازه فأخذه الحال (أي الإنجذاب والوجد) وتجلى فيه بصفة الجلال، وبعدما كان عكازه بيده فعلى الأرض رماه، وقال بأعلى صوته الله الله، فتلقى ذلك الإسم الشريف الحاضرون من الأخوان، وقد هزّ الذكر العسكر الواقفين للغفر، فتركوا سلاحهم ودخلوا الذكر، وكذا أتباع الوالي ومن حضر. وبعد أخذ الذكر في غاية الإنتظام مع قوة الشطح والهيام، أشار حضرة الأستاذ فيه بالختام وبقوا بغاية التعظيم واقفين والأيدي مبسوطة والأستاذ يدعو لحضرة مولانا أمير المؤمنين... وتقدم اليه الباشا بكامل الخضوع وقبل ذيل جيبته" <sup>٢</sup> واستطرد النائب في روايته ليقول إن الباشا - المذكور لم يمكث طويلا في منصبه ومن جاء بعده كانوا محترزين في التعامل مع الشيخ وأتباعه. وقبل ذلك حكى ما جرى بين الشيخ ويوسف باشا القرمانلي. فبعد الود والتحابب، تضايق الوالي من الشيخ ليروز مكانته، فكان عليه أن يرحل من البلاد. وبذلك: "فإن يوسف باشا بدا الآن لا يفلح فإن شجرته انقلعت من عروقها وفي الشمس طرحت" أي نزلت به اللعنة نتيجة دعوات الشيخ الغاضب!

ومن المعروف أن مدينة طرابلس كانت أحد المراكز الرئيسية للطريقة المدنية، وقد يكون من أسباب ذلك أن السنوسية سيطرت على إقليم برقة وسرت و(القبلة) ودواخل طرابلس الغرب. كما أن الطريقة المدنية كانت على صلة وثيقة بالخلافة العثمانية التي اتخذت من مدينة طرابلس مقرا لسلطتها المركزية. وترجع هذه العلاقة الى أن ابن شيخ

٣ (المنهل العذب) ص ٣٥٦ - ٣٥٧

الطريقة المدنية السيد محمد ظافر المدني، كان من ضمن البطانة التي استقطبها السلطان عبد الحميد و سخرها لتنفيذ مخططه عن (الجامعة الإسلامية). وفي هذا الصدد نقرأ كيف جاء الى طرابلس الشيخ حمزة أخ الشيخ ظافر المدني في مهمة للاستطلاع والمراقبة وتتبع نشاط الوالي، وما يدور في الولاية، وارساله التقارير المطولة. وقد حدثت هذه المهمة (التجسسية) بمناسبة الحركة السريّة المناوئة للسلطة والتي حاول تنظيمها في المدينة المثقف العربي المشرقي إبراهيم سراج. وسيأتي ذكرها فيما يأتي من حديث<sup>٤</sup>.

أما الطريقة التيجانية التي أسسها أبو العباس بن محمد المختار بن سالم التيجاني ١٧٣٧ - ١٨١٥ المولود ببلدة عين المهدي بالقرب من (الأغواط) بالجزائر، فقد عُرف عنها إنحياز شيوعها، في إحدى مراحلها، إلى الإستعمار الفرنسي، وعندما غزا الفرنسيون الجزائر في عهد شيخها سيدي علي بن عيسى، إتصل بها مقدم الطريقة الدرقاوية طالبا مساعدتها، ولكن شيخها رفض الطلب مؤكدا على تفرغ الطريقة وأتباعها للعبادة والذكر. ولما كرر الأمير عبد القادر الجزائري الطلب عام ١٨٣٦ عبر مراسلات كثيرة بينه وبين الشيخ ووجه بالرفض أيضا، وهنا اضطرّ الأمير عام ١٨٣٨ الى محاصرة مقرّ الشيخ في (عين المهدي) الذي تحصّن به أنصاره العديدين لمدة ثمانية أشهر، إلى أن شعر بالخطر المحدق به فانسحب إلى الأغواط. وفي عام ١٨٤٠ وصل به الأمر الى تقديم دعمه المادي والمعنوي للمارشال **vale'e** قائد جيش الغزو ضد الثورة الجزائرية. ثم حدث إنشقاق بين خلفاء الطريقة، مما أدى بالفرنسيين عام ١٨٦٠ إلى اعتقال الأخوين قطبي الطريقة أحمد والبشير وإرسالهما إلى الجزائر العاصمة لتحسّسهم من عدم إنصياعهما الكلي، إلى أن أظهرتا الطاعة للفرنسيين وسياستهم، وكذا تبعهما الخلفاء اللاحقون. كما أن الفرنسيين حين بدأوا في تنفيذ مخطط توسّعهم الإستعماري في السودان الأوسط استخدموا الطريقة التيجانية التي كانت منتشرة في تلك المنطقة قبل مجيء السنوسية، فاستضافوا في الجزائر عام ١٨٦٢ شيخ الطريقة في بلدة جويمار، ومنحوه الهدايا ليتوسّط بينهم وبين شيوخ طوارق الهوغار والإيفوقاس والأزرق، الأمر الذي مهّد لعقد اتفاقية غدامس في تلك السنة والتي سمحت للفرنسيين بالمرور عبر تلك الأراضي الليبية في القبلية<sup>٥</sup>. كما كانت ثمة طرق أخرى أقلّ شأنًا من التيجانية مثل الرحمانية، وهي طريقة إنتشرت في منطقة القبائل بالجزائر ومتفرّعة عن (الخلواتية) التي تفرّعت عن طريقة (ظاهر وردية) في خراسان المنسوبة إلى ظاهر الدين المتوقى عام ١٣٩٧. فالرحمانية هذه وقفت في وجه السنوسية

٤ وردت إشارة إلى ذلك في المقدمة التي كتبها علي. مصطفى المصراطي عن حياة أحمد النائب الأنصاري مؤلف كتاب "نفحات النسرین و الریحان فیمن كان بطرابلس من الأعیان".

٥ (الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى) ص ١٤٧ ترجمة د.علي اعزازي - إصدار مركز دراسات الجهاد، طرابلس ليبيا ١٩٨٢.

أيضا، لعلاقتها الوثيقة بالمستعمرين الفرنسيين منذ إحتلالهم للجزائر. وفي هذا الصدد يقول الشيخ محمد رشيد رضا : "استطاعت دولة فرنسا إفساد بأس جميع الطرائق المتصوّفة في أفريقيّة واستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية".<sup>٦</sup> هذا على الرغم من أن مؤسس الطريقة السنوسية تتلمذ على يد الشيخ أحمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية أثناء دراسته في فاس، كما ذكر ذلك الإمام محمد بن علي السنوسي نفسه وفقا لرواية السيد أحمد الشريف في تقديمه لكتاب (الأنوار القدسية في مقدّمة الطريقة السنوسية)<sup>٧</sup>. وكان من المتعارف عليه أن يدرس طلاب العلوم الدنيّة كافة الطّرق والفرق ومدارسها الفقهيّة. وحين شرعت السنوسية وكذلك التيجانية في ممارسة النشاط الدّعوي، ودخلنا إلى حلبة الصراع السياسي وجدنا نفسيهما في معسكرين متضادين. وكما رأينا فالتيجانية اختارت المعسكر المهادن للإستعمار الفرنسي، ولا زالت حتى وقت قصير وفيّة لهذا الخط.<sup>٨</sup>

إلا أن هذه الطرق الصوفيّة المذكورة تقلص شأنها في ليبيا، أولا : حين أصدر إدريس السنوسي (أمير برقة) في أوائل الخمسينات مرسوما يحظر ممارسة البدع والشعوذة في الطقوس من قبلها، لعدم اتفاقها مع تعاليم الدين الصحيحة وفقا للأحكام السلفية. وثانيا : بمرور الزمن وبعد أن امتدّ حكم إدريس السنوسي ليصبح ملكا على ليبيا (طرابلس وبرقة وفزان)، حيل بين هذه الطرق وبين مزاولة أنشطتها

### نوعية العلاقة التركية السنوسية

من الضّروري هنا الإشارة إلى ما تميّزت به العلاقة بين السنوسية والسلطة التركية الحاكمة في ليبيا من حذر ومراوغات متبادلة، منذ أن تمركز السنوسي الكبير في ليبيا، وسطع نجمه و دأع صيته بين جموع سكانها. ومرّد ذلك كان إحتياج كل منهما للآخر في تلك الحقبة من الزمن، وما واجههما من صراعات ومطامع ومؤامرات دولية كما تقدم شرحه.

٦ (الصلابي) ص ١٨٤

٧ طبعة اسطامبول ١٩٢٢ ص ١٣ - ٢٣

٨ من الأحكام التي جانبها الصواب في فهم العلاقة بين السنوسية وبقية الطرق الصوفيّة ما ذكره د.محمد فؤاد شكري حين أشار إلى أن السنوسية وجدت أرضا صالحة في تونس مهّدت لها الطريقة القادرية، وأنها وجدت سبيلا للذئوع بواسطة زوايا التيجانية في الجزائر، وأن زوايا الدرقاوية في بعض مدن المغرب الأقصى ساعدت على انتشار السنوسية. ينظر كتابه (السنوسية دين ودولة) ص ١٠٨ طبعة ٢٠٠٥

و قد نُقلت مواقف وتصريحات معادية لتركيا صادرة عن زعماء الطريقة مثل القول إن السنوسي الكبير وصل إلى حد تحريم التعامل مع السلطان عبد المجيد<sup>٩</sup> وإن ابنه السيد المهدي، كان يردّد مقولة أحد علماء مستغانم وهو الأخضر بن مخلوف من : " إن الأتراك والنصارى كلهم من طينة واحدة وسوف نقضي عليهم قضاء مبرما ! " ، أو ما نقله الحشاشني عن شيخ زاوية مرزق من أنه سمع السيد المهدي يتساءل مبتهلا: " يا الهي لم جعلت الأتراك كلما احتلوا بلدا في العالم، جاء الأوروبيون وطردهم منه ؟ " <sup>١١</sup> ويبدو أن هذه الروايات التي أتى على ذكرها أهمّ المؤرخين كما رأينا، إستغلها الفرنسيون والإيطاليون لخدمة أغراضهم وتمهيد الطريق لتنفيذ سياساتهم، فالأولون أشاعوها لإحداث شقاق بين السنوسيين والسلطة العثمانية حتى لا يتصدّون لتغلغلهم في السودان الأوسط أوالهنترلاند الليبي، والآخرين رجّحوا لها أيضا وصدّقوها موحيين لأنفسهم بأن السنوسيين لن يتفقوا مع الأتراك في مقاومة غزوهم لليبييا، تتويجا لجهود شاقة بذلوا وأموال طائلة أنفقوها في شراء الدّم وتغذية الأطماع الشخصية لفئة من الوجهاء الليبيين.

ولكن من ناحية أخرى اتّسمت الإتصالات بين تركيا و السنوسية كما قلنا، بتبادل المصالح، ومحاولة كلّ من الطرفين إستغلال الآخر لتحقيق مآربه، فالأتراك وجدوا في السنوسية قوة منظمة غضّوا النظر عن قيامها لملاً فراغ السلطة، أو إزالة ضعفها الذي خلقوه في ليبيا، وخاصة في دواخلها بفعل عدم أهميتها الإقتصادية لهم وبُعدها الجغرافي. وأرادوا أن يستغلّوا السنوسية كمثل لهيبتهم أمام السكان، وكطليعة تقود الشعب للتصدّي للغزاة والأعداء الأوروبيين، ومحافظة على حدود الرقعة الشاسعة للممتلكات الإمبراطورية، وحماية طرق القوافل التجاريّة في فيافي الصحراء الأفريقية التي كانت اسطامبول غائبة عنها تماما. أما السنوسية فرغبة منها في تنفيذ مشروعها، إستظلت بالحماية التركية واستعملت رايتهما ترفعا في وجه الغزاة الزاحفين، لإعطاء ضمان دولي لممتلكاتها، وتثبيت سطوتها وتعزيز مكانتها و نفوذها بين السكان، كما سنرى في الفصول الآتية من هذا البحث.

و حين جاء السنوسي الكبير وجد بيئة مؤاتية لا تكثرها تدخّلات دوليّة، والحكم التركي كان رمزيا وحتى جباية الضرائب التي سنشير الى أساليبها وما واجهته من عراقيل، كانت تفرض غالبا على سكان المراكز والثغور الساحليّة، وبالذات بنغازي و

٩ مسألة الجيوب ص ٦١

١٠ سيراميرياتو.

١١ ميرياتو ص ٦٠

درنة. أما في الدواخل فجمع الأعراس كانت عملية متقطعة تعتورها مفاسد كثيرة. وفي هذا الشأن يروي لنا بريتشارد أن السنوسية مُنحت مرسوما (فرمان) من السلطان عبد المجيد الأول حوالي عام ١٨٥٦ يعفيها من دفع الضرائب، ويُجيز لها جباية العشر من أتباع الطريقة. وقد جلب للإمام المهدي هذا الفرمان السيد عبد الرحيم المغبوب الذي أصبح فيما بعد شيخ زاوية بنغازي، و فرمان ثان أصدره بعد ذلك السلطان عبد العزيز بنفس المعنى أحضره من اسطمبول و سلمه لمتصرف بنغازي السيد أبو القاسم العيساوي الذي خلف المغبوب في مشيخة زاوية المدينة. وهناك في سجلات مدينة بنغازي رسالة من والي طرابلس إلى متصرف بنغازي تثبت أصل هذا المرسوم، كما عثر الإيطاليون في محفوظات طرابلس بعد احتلالهم للمدينة عام ١٩١١ على مراسلات تقيد بالقرار المتخذ من شيخ الطريقة والبدو بمساندة الأتراك ضد آية قوة مسيحية في أوروبا<sup>١٢</sup>.

ومنذ تأسيس الإمام الأول لزاوية (البيضاء) سعى إلى التوّد إلى السلطة التركيّة في البلاد، كما جاء في رسالته إلى محمد أمين باشا والي طرابلس، والتي قال فيها: " ثمّ إنّنا نحن وعصابة المهاجرين بحمد الله في عافية وما ذكرتم من توقّفكم إلى لقائنا بالأشواق وأخذكم من عهود الودّ بأشدّ وثاق، فهذا محقق لدينا وواجب المكافأة علينا ويؤكدّه دوام اعتنائكم بنا وبأصحابنا وملاحظتكم لنا وشفقتكم علينا وتوصيتكم أتباعكم على ما يتعلّق بمحلنا من خدمة وعمارّة، وغير ذلك مما لا يقدر على مكافأتكم عليه إلا الله سبحانه ... وإن هذه الزاوية وإن نسب إنشاؤها لمن قبلكم فإنما تمام أمرها واستمرار انتظامها بشمول نظرتم فأنتم لذلك متّابمراي ومسمع ومذكورون مع الحاضرين في كلّ مجمع والأخوان المهاجرون دائما لكم داعون ". وبعد أن يستشهد بالآيات القرآنية ويدعو للوالي، يرجوه أن يوصي حاكم بنغازي برعاية شئون الزاوية وأتباعها. وهناك رسالة أخرى بعث بها السنوسي الكبير إلى محمد باشا صالح حاكم بنغازي قبل سفره إلى الحجاز وجاء فيها: " فلما حان سفرنا وجب علينا أن نردّ الأشياء إلى محلها والأمانات إلى أهلها، وذلك أن هذه الزاوية التي حدثت بها حضرتكم مئة من جناب والدكم ... وكلّ من الزوايا حولها عربان وعلم جنابكم محيط بأحوالهم وتعدي بعضهم عن بعض فضلا عن غيرهم. وقد سبق من جنابكم وجناب الأكرم الوالد حمى حرمها وصيانة حرمها ... وإذا تأكد وشاع عن سفرنا ما هو الواقع من انتسابها لجنابكم، وعلم الجميع بذلك بعزير خطابكم، لا يُستباح لها حصن ولا تحضر لها ذمّة وتصير حرما أمنا ". والرسالة الأخرى بعث بها الإمام المؤسس إلى

حاكم فزان الذي لقبه بلقب " ولدنا مصطفى باشا قائم مقام فزان ". وبعد التحيات والتبريكات المعهودة، ينبئه بقوله: " وقد وجَّهنا ولدنا الشيخ محمد بن الشفيح يذكر عباد الله في تلك الناحية ويكون مقامه بزاوية (واو) حتى يرجع اليها الشيخ أحمد بن أبي القاسم التواتي، لأن مرادنا أن يأتينا من هناك بعض كتب غير موجودة في خزانتنا ويرجع إن شاء الله عاجلا. <sup>١٣</sup> " اعتمادا على ما ورد في كتاب السنوسي للطيب الأشهب .

## برقة كقاعدة انطلاق للسنوسية

ومن المفيد إعطاء نبذة عن هيكل الحكم والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في برقة، باعتبارها مركز الإنطلاق الأول للحركة، قبل وأثناء وبعد مجيء السنوسي الكبير وقراره بالإقامة فيها، ودور الزاوايا في ذلك:

## نظام التسيير الإداري

تزامن مجيء العهد العثمان الثاني ١٨٣٥ م إلى ليبيا وجزئها الشرقي برقة، مع المحاولة الرئيسية الأولى للإصلاح الديمقراطي في تركيا العثمانية في عهد السلطان الشاب عبد المجيد، والتي دبرها مصطفى رشيد باشا وزير خارجيته <sup>١٤</sup> وتبلورت في وثيقة دستور سُمي خط الشريف (كلخانة)، قام السلطان بتلاوتها بنفسه على جمع غير من رجالات البلاد والممثلين الأوربيين وغيرهم يوم ٣ نوفمبر ١٨٣٩ م. ونصت الوثيقة على مبادئ بحقوق المواطنين الأساسية المتعارف عليها في الدساتير الأوربية وإلغاء مساويء العهد السابق مثل الإحتكارات والمصادرات، وتضمنين جباية الضرائب في الولايات لمن يمهرها بالثمن الأعلى، كما ربطت عقوبة الأعدام بشروط التحقيق القانوني <sup>١٥</sup>.

وقد وصلت آثار هذه الإصلاحات في هيكلها الإداري إلى ليبيا التي كان يطلق عليها ولاية طرابلس الغرب؛ فقسّمت إلى سناجق يدير كلا منها متصرف. وفي ١٨٦٨ صارت برقة سنجقا مستقلا يتلقى الأوامر من الأستانة مباشرة. ولكن في عام ١٨٨٨ عُدل

١٣ الصلاحي ١٧٥ - ١٧٨

١٤ تقلد قبل ذلك منصب سفير لدى فرنسا، وكان من بين المتأثرين بأفكار الماسونية التي تبنتها الأوساط الفرنسية، والتي أخذت تترعرع بدءا من عام ١٨٥٠، وتجمع مع الفرنسيين الرعايا العثمانيين من مسلمين ويهود ومسيحيين في إطار مبادئ عصر التنوير مثل إعلان حقوق الإنسان وهي المبادئ التي ألهمت حركة (التنظيمات) كما سنرى لاحقا.

١٥ انظر بروكلمان - مرجع سابق - ص ٥٦٢

النظام ليكون السنجق تابعا لطرابلس، ثم فصل عنها ليتبع مباشرة الأستانة مرة أخرى. واستمر هذا الوضع إلى هجوم الإحتلال الإيطالي عام ١٩١١. ولهذا التقلب في التنظيم الإداري أسبابه الموجبة بالنسبة لتركيا بعد تنامي نفوذ الحركة السنوسية وامتداده إلى عمق الجنوب الليبي، ومن ثم توغله في الوسط الأفريقي كما سيرد ذكره.

قسّمت برقة إذن في آخر الحقبة التركية إلى خمسة (أقضية) يرأس كل قضاء منها **قائمقام** وهي:

درنة - المرج - أجدابيا - جالو وأوجله - والكفرة. أما بنغازي وضواحيها فكانت لواء تحت إدارة (متصرف) أي حاكم ضمّ إلى صلاحياته أراضي قبيلة البراعصة. ويزاول المتصرف الإدارة والمالية وشئون الأمن (الشرطة)، ويعاونه في ذلك مجلس إداري مؤلف من رئيس الحسابات والأمين العام والقاضي والمفتي وأربعة أعيان ينتخبون من السكان. أما القائمقام فيعين مباشرة من الأستانة يعاونه مجلس على طراز مجلس المتصرفية. وهناك مدراء للنواحي التابعة للأقضية يعيّنون أيضا من الحكومة المركزية بناء على توصية من المتصرف. وليس لهذه المديرية مجالس مقرّرة، ولكن يجوز لها استشارة رؤساء القبائل وطلب معونتهم وقت الضرورة. وقسّمت المدن الصغيرة إلى أحياء يدير كلا منها (مختار) يُنتخب من أعيان الحي. أما بنغازي ودرنة باعتبارهما أكبر تجمّعين حضريين نسبيا في السنجق (عدد سكان بنغازي كان عام ١٨١٧ لا يزيد عن خمسة آلاف نسمة، إرتفع إلى ١٦٥٠٠ نسمة عام ١٩١٥ مقابل ما يراوح ما بين الفين و خمسة آلاف نسمة في درنة) فقد تكوّن فيهما مجلسا بلدية بسيطا للتشكيل. إذ انتهجت الحكومة التركية أسلوب التهادن والتقرّب إلى شيوخ القبائل. وعادة كان أحد الأتراك يشغل وظيفة قائمقام القضاء. ولما كانت النواحي موزّعة حسب موطن كل قبيلة، فقد تأكّدت حدود كل ناحية بحدود القبيلة المعنية، وعيّن شيوخ القبائل كمدراء لهذه النواحي. وقلما وصل هؤلاء الشيوخ إلى منصب قائمقام، عدا علي الأطيوش شيخ قبيلة المغاربة الذي عين قائمقام سرت، وأبابكر حدّوث شيخ البراعصة الذي ابتنى قلعة خاصة، به والذي عين قائمقام (القيقب) نيابة عن كافة قبائل الحرابي، واتسم سلوكه بإثارة المشاغبات للسلطة. وقد تمتع هؤلاء الشيوخ بامتيازات لم يتعودوا عليها، فتصرفوا كأنهم بارونات القرون الوسطى في أوربا الأقطاعية، أكثر منهم موظّفون إداريون يُفترض فيهم تطبيق اللوائح والتعليمات التركية. إلا أن حالة من الهدوء والسكينة كانت تسود البلاد بصفة عامة. وكان السبب الرئيسي في ذلك - بلا أدنى شك - راجعا إلى هيبة السنوسية ونفوذها المعنوي بين السكان. ومع مرور الوقت أوقفت الحكومة العثمانية هذه التعيينات، وأسندت وظيفة

المدراء لموظفين من المدن مع خضوع الشيوخ لسلطتهم<sup>١٦</sup> وللتدليل على حالة السكينة والسلم التي تمتعت البلاد بها، أن عدد أفراد الحامية التركية في كافة أنحاءها لم يتجاوز ألف عسكري، ولم تنظم تشكيلات للشرطة إلا في الفترة القصيرة التي سبقت الإحتلال الإيطالي، بل كان الأمن العام يعتمد على العسس والحراس غير المنضبطين عسكريا. وكانت المحاكم تتكوّن من رئيس وأربعة ضباط، ومحاكم الجنايات تضمّ رئيسا ومحققا للنيابة، ويختار القضاة ومعاونوهم من بين أعيان المناطق الحضريّة.

ويقدّم لنا (الحشاشي) في رحلته وصفا طريفا لبغغازي التي وصلها بالباخرة عام ١٨٨٤، قادمًا إليها من مالطه فقال: " ولما نزلنا من البابور إذا برجلين واقفين على الرصيف، فلما وضعت رجلي بالبرّ طلبا منّي تذكرة السفر من بلادي، فناولتهما إياها. ولم يرداها إليّ إلا بعد ثلاثة أيام حتى ضمّتها شيخ البلد بدفتره الرسمي. ومن عوائد أهل البلد إذا قدم عليهم بابور، يخرج غالبا تجار البلد ورئيس البلدية ومدير الجمرک ولفيف الخلق فيصطقون على جوانب رصيف المرسى الذي ينزل فيه المسافرون، حتى أن المسافر لَمّا يصل إلى البلد يكون معروفا بالذات عند جميع أهاليه والحكومة ". وتحدّث عن سكانها قائلا: " إن بها اثني عشر رجلا من الجرابة وبعض الصفاقسيين وبعضا من الطرابلسيين دون العشرة، وجانبها عظيما من اليهود. أمّا أهالي البلد فلا يتعاطون الصناعة، وليست لهم إلا صناعة الفلاحة. وأهل هذه المدينة لهم همم عالية وسيرة مرضية متولعون بحبّ الإطلاع على أحوال غيرهم من أهل المشرق والمغرب، فرأيت لهم عزما عظيما وتولعا بحب قراءة الصحف. والحق أن الطريقة الصوفيّة هي التي هدبتهم ".

## الوضع الاقتصادي

وكان مستوى المعيشة عاليا مقارنة بالبلدان المجاورة العربية آنذاك، وباستثناء فترات القحط، حين تشخّ الأمطار، فإن جموع السكان كانت تتوفّر على طعام جيد ومواشي كافية لتقلها وملابس لائقة تكتسيها، لأن البلاد كانت تنتج محاصيل تفي بحاجات سكانها، ومواشيها تجد سوقها الدائم في مصر ومالطا وكريت. وعلى الرغم من عدم وجود أرقام

<sup>١٦</sup> DC. Cumming-the modern history of Cyrenaica,page 12 – university of London –1945 الذي تولّى الإدارة العسكريّة البريطانيّة لبرقة بعد الحرب العالميّة الثانيّة، ولعب دورا رئيسيّا في مصير البلاد. وأعدّ دراسة تلك عام ١٩٤٥ على هيئة تقرير محدود التوزيع – من إصدار كليّة الدراسات الشرقيّة والأفريقيّة بلندن. وهي دراسة جامعة تعتبر مرجعا هاما لاعتمادها على المصادر التاريخيّة آنذاك، وما أتاحه منصبه من اطلاع واسع على مجريات الأمور.

دقيقة، إلا أن أكبر كمية من الشعير كانت قد صُدِّرت إلى معامل الجعة في إنجلترا التي استهلكت عام ١٩٠٥، حوالي ٧٥٠٠٠ طنا مصدرًا من بنغازي. وعنها يروي الحشاشني في رحلته ما يلي: وفي زمن الصيف تأتي لها السفن من أوروبا إذا كان العام خصبا، فتشتري منها القمح. والشعير يأخذ منه الأنكليز الكثير لصنع البيرة وهو أحسن من غيره. وحكى لي يوما السيد محمد المهدي أنه أخذ من بنغازي إلى أوروبا عام ١٣١٢ هجرية ١٨٩٤ " ستين ألف قفيز ونيف ما بين قمح وشعير " <sup>١٧</sup> وفي نفس السنة كانت صادرات بنغازي عبر الصحراء، من الحيوانات والصوف والزبدة والجلود والبيض وكميات أخرى من العاج وريش النعام، قد بلغت قيمتها ٣٢٠,٠٠٠ جنيها إسترلينيا. وهذا الرقم يتضمن ٢٠٠,٠٠٠ رأس غنم وماعز و ٥٠٠٠ رأس بقر و ٤٠٠٠ رأس جمل و ٢٠٠٠ حصاناً. كما بلغت قيمة صادرات بنغازي من الشعير عام ١٩٠٥ - ويبدو ان محصول الشعير فيها كان في تلك السنة استثنائيا - مبلغ ٨٠٠,٠٠٠ جنيها إسترلينيا يضاف إليها شحنات من درنه، وحيوانات سيقت إلى مصر وطرابلس الغرب. وهناك إحصاءات أخرى سجلت أرقاماً أقل، ولكن يبدو أنها لم تأخذ في الحسبان صادرات الشعير. وكانت صادرات هذا المحصول من بنغازي إلى إنجلترا كما يلي: ٣٧٠٠٠ طنا عام ١٨٩٠ و ١٦٠٠٠ طنا عام ١٨٩١ و ٣٠,٠٠٠ طنا عام ١٨٩٨. وما بين ١٨٩٢ و ١٨٩٤ توالى على البلاد موسمان كاملان من الجفاف أعقبهما تفشي وباء التيفويد، مما أدى إلى القضاء المبرم على أي نوع من الصادرات. وفي نفس الفصل من كتابه تحدث الحشاشني عن غزارة إنتاج برقة من مواشي ولحوم " رغم كسل أهلها وعدم معرفتهم بأساليب الفلاحة المتطورة "، كما قال. وعندما تطرق إلى تجارة القوافل مع السودان الأوسط التي كانت تنطلق من بنغازي، قال إن أصحابها من التجار كانوا يقيمون ثلاثة أيام في: " الكفرة القاطن بها الشيخ السيد محمد المهدي يزورون ذاته الشريفة ويتزودون منه الدعاء ذهابا وإيابا. ثم يأتي هذا الركب بسلع من واداي بها العبيد والریش وناب الفيل والجلد. ولا يمكث الركب أزيد من سنة إلا لحادث. والذي كان سببا في هذا الركب وفتح هذا الطريق هو السيد محمد المهدي شيخ الطريقة السنوسية وأمنه من اللصوص، بحيث أنك تسير من بنغازي إلى واداي لن ترى بالطريق ما ينكد عيشك. ولم تسمع بأحد من التجار أختلس له عقال بعير، خصوصا وأن الطريق يأتي على واحات الكفرة التي بها الشيخ السنوسي ".

والتقديرات التركبية (دائرة الضريبة على الحيوان) أوردت أنه في ١٩٠٩ - ١٩١٠ كانت هناك ٢٧,٠٣٥ رأسا من الخيل و ١٨١٠٠ من الحمير و ٢٠٥٦٩ من

١٧ أنظر (ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات) ص ٢٧٦-٢٧٩ اختيار وتصنيف د. محمد يوسف نجم ود. احسان عباس - دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي ١٩٦٨

الأبقار و ٧١٣٠٠٠ من الغنم و ٥٤٦٠٠٠ من الماعز و ٨٣٠٠٠ من الإبل. ويعتقد أن هذه الأرقام الصادرة عن دائرة الضريبة لا تعكس التقديرات الصحيحة، كما أن الضريبة المجبأة على القطعان يضاف إليها ضريبة العشر على القمح و الشعير و ضرائب أخرى متنوعة صغيرة، كانت تشكل الجزء الغالب من الدخل. وكلّ الإيرادات المباشرة كانت تخصّص في الميزانية المحلية لتغطية نفقات الإدارة، ولكن باستثناء عام ١٨٩٣ و عام ١٩٠٢ فإن الميزانية المحلية كانت تعاني دائما من العجز. ورغم ذلك فما تقدّم ذكره لا يعطي صورة حقيقية عن الوضع، إذ كان الدخل الوارد عن ضريبة الملح و الدمغة يحقق ما يسدّ العجز و يفيض عليه. بالإضافة إلى أن الضرائب المجبأة على مصائد الأسماك و تجارة الحرير كانت تودع مباشرة لصالح دائرة الدين العام العثمانية. و الدخل المتوقع من ضرائب التبغ و الملح يذهب إلى الخزانة الإمبراطورية. فلو أن كل هذه الدخول ضُمَّت في الميزانية المحلية، لكان الوضع أحسن و لحققت برقة في ١٩٠٨ على سبيل المثال فائضا من الدخل يتجاوز النفقات. وواقع الأمر أن الإدارة المالية التركية كانت غير مستقيمة. و كثيرا ما كانت الجباية المباشرة فرصة لإثارة القلاق. و حسب تصريح أحد مسؤولي الضرائب فإن الضرائب المباشرة ما كانت لتجبي بتاتا لو لم يتعاون شيوخ الزوايا مع الإدارة. أما التقديرات فلم تكن سليمة، و عادة ما يُسجل ثلث المبالغ المستحقة كديون متأخر سدادها. و من الطبيعي أن يكون الإنفاق على الشؤون الاجتماعية و المرافق من هذا الدخل هزيبا لا يكفي للتأثير الملحوظ في حياة عامّة الشعب.

و كما سبق القول فالأتراك كانوا غالبا ما يلاقون صعوبات جمّة بل و مقاومة شديدة من البدو، حين يحاولون جباية العشر و الضرائب. و يوم قرّر زهدي باشا المتصرّف التركي فرض الضريبة على الزوايا، حدثت الإشتباكات العنيفة في الجبل الأخضر عندما هاجم البدو المقيمون حوالي (المرج) حامية تركية كانت مكلفة بجمع الضريبة، و أدى الهجوم إلى سقوط قتلى من بين أفرادها، و أرسلت البقية منهم إلى بنغازي مجردين من كلّ ما يملكون. و كعقاب له فقد زهدي باشا منصبه. و في عام ١٩٠٨ اجتمع مائة و خمسون من شيوخ القبائل برئاسة شيخ قبيلة (الدرسة) عمر أبو ربيعة في زاوية (الحنينة)، و قرّروا الإمتناع عن إعطاء أي نوع من الخراج للحكومة إحتجاجا على فرضها للضريبة على موارد الزوايا. فما كان من الحكومة إلا أن تراجعت، بل و وصل الأمر إلى حدّ أن أربعين شخصا من بيت طاميه المتفرّع عن قبيلة البراعصة إغتالوا عام ١٨٩٥ أحد جباة الضرائب و اسمه عبد الرحمن الخطيب، لأنه تجرّأ على تحصيل الضريبة من أفراد القبيلة بشكل مباشر و ليس عن طريق زعماء (السعادي). ثم هربوا إلى منطقة (المارماريكا)، ولكنهم توصّلوا بعد ذلك إلى تسوية مع السلطات بأن دفعوا لإبن الرجل القتيل مبلغا يعادل قيمة الضريبة ثلاث عشر مرة كدية. و في حادثة أخرى عام ١٨٩٨ مُنع أفراد من قبيلتي

(البراعة) و(الدرسة) جنود الحكومة من قطع أشجار السرو في أراضيهم لمدّ خطوط البرق، إلى أن سُوِّيَ الموضوع بدفع تعويض لهم مقابل قيامهم بالمساعدة في قطع الأشجار<sup>١٨</sup>.

## الإتصالات والمواصلات

لقد كانت هناك خدمات بريدية تربط القرى و المدن من واحة جالو حتى طبرق. وما يدعو إلى الدهشة أنه كانت هناك منظومة إتصال برقي كامل على طول الطريق من اجدابيا إلى البردية مرورا بسلوق وطمليثه، وقد شكلت جزءا من الخط الذي يربط تونس بمصر. كما أن الأتراك أنشأوا محطة لاسلكية في درنه منذ عام ١٩١٠، ولكن لم تكن هناك خطوط سكك الحديد، ومعظم النقل البحري كان يتم بواسطة المراكب الشراعية، فيما عدا السفن التجارية البريطانية التي كانت ترسو في بنغازي لشحن الشعير. وفي فترة متأخرة بدأت الشركات الإيطالية خطا منتظما للسفن التجارية مع سيراكوزا وجنوا والبندقية و نابولي، وقد سيطر في عام ١٩١٠ على ثلثي حركة الشحن البحري، علما بأن هناك حركة نقل بحري أخرى كانت تقوم بها شركات ألمانية و فرنسية و مجرية. لقد كان ميناء بنغازي سينا تعتريه المشاكل الدائمة. ودرنه لم تتعد كونها طريقا مفتوحا للمرور، ورغم ذلك فإن الحركة التجارية برر حجمها تواجد تمثيل قنصلي لبريطانيا وإيطاليا وفرنسا وأسبانيا واليونان والنمسا.

## التعليم والصحة

وفي ميدان التعليم لم تتواجد مدارس حكومية حتى العام ١٨٩٥ ، والتعليم الوحيد كان من خلال المدارس القرآنية (الكتاتيب) والزوايا السنوسية، و منها استطاع بعض التلاميذ أن يرتقوا إلى مستوى أهلهم للذهاب إلى معهد الجغبوب والأزهر. غير أنه بعد تلك السنة افتتحت مدرستان ابتدائيتان ومدرسة ثانوية واحدة في بنغازي و مدرسة ابتدائية في درنه. الأمر الذي هيا نوعا من التعليم العصري، يضاف إلى ذلك عدد لا بأس به من الطلاب الذين ذهبوا إلى الأكاديمية الحربية في إسطامبول، والتي فتحها السلطان عبد الحميد

١٨ بريتشارد ص 98 100 - مرجع سابق

للعرايا العرب، كجزء من سياسة الجامعة الإسلامية. أما الخدمات الصحية فكانت هزيلة فلم يكن بمستشفى بنغازي الحكومي أكثر من مائة سرير.

ورغم الفقر الذي عانت منه البلاد، والتسيب المعهود الذي طبع الإدارة التركي، إلا أن مرور ستين سنة على هذه الإدارة وما سبقها من إدارات - في الفترة التي تمتد من وقت استرجاعها للسلطة من القرمانيين عام ١٨٣٥ إلى الغزو الإيطالي عام ١٩١١ - اعتبرها البرقاويون سنوات سعيدة من عمرهم. ويرجع الفضل في ذلك بشكل كامل تقريبا إلى القادة السنوسيين الذين حكموا البلاد بأجمعها فعليا، أكثر مما يرجع إلى الأتراك الذين لم يستحوذوا على السلطة، ولم يمارسوها إلا في نطاق محدود خارج المدن الساحلية.

وحتى وإن كان المستوى العام لحياة السكان متدنيا نوعا ما، إلا أنهم استطاعوا أن يغدوا توفهم للحرية، ورغبتهم في العيش وفقا لرؤياهم. فالطعام كان كافيا إلا في مواسم القحط، و كل فرد تقريبا كان لديه حصان و سلاح. وحرية التنقل كانت تتيح لهم مزاولة التجارة المتجولة عبر مسافات شاسعة وقرت لهم اقتناء الملابس المزركشة والمجوهرات لنسائهم. " ولو قيض للأتراك أن يفرضوا حكمهم فرضا، لأدى هذا إلى أن يعيش العرب عيشة أقل سعادة. إلا أن العرب استطاعوا أن يتحدّوهم بحيويتهم بدلا من مجابتههم بقوة السلاح، لأن الأتراك في حقيقة الأمر لم يستطيعوا تقديم إلا القليل لتحسين طريقة العرب في العيش، ولم يكن في مقدورهم فرض مؤسسات في البلاد لا فائدة من ورائها لهم، عدا كونها تفسيراً تركياً ردينا للأساليب والمثل الأوروبية. ولكن ومن ناحية أخرى فإن الأتراك كانوا أشقاء مسلمين، ولهذا تحقق شيء من الإزدهار في عدد قليل من المدن في السنوات الأخيرة من حكمهم " ١٩ .



## الفصل السابع

عهد المهدي السنوسي ١٨٥٩ - ١٩٠٢



## الفصل السّابع

عهد المهدي السنوسي ١٨٥٩ - ١٩٠٢

١ - البدايات الأولى

٢ - التغلغل الأوروبي

- تاريخ رحلة كل بعثة وما جرى لأفرادها

- الواداي

- الواداي والباجرمي

- كانم و بورنو

- إحتلال كانم لفرّان



## الفصل السابع

عهد المهدي السنوسي ١٨٥٩ - ١٩٠٢

حين توفي السنوسي الكبير عام ١٨٥٩ ترك ابنين يافعين هما محمد الشريف ذا الأربعة عشر عاما ومحمد المهدي ذا الثلاثة عشر عاما. ويحكى أن السنوسي الكبير أمر يوما ولديه بتسلق نخلتين، ولما وصلا إلى عليهما طلب منهما القفز إلى الأرض. ولم يمتلك الشريف الشجاعة لفعل ذلك، أما المهدي فقفز على الفور، وحط على الأرض مدلا على ثقة عمياء في "الكرامة" التي يتمتع بها والده، وهكذا لم يلحق به أي ضرر، مما أشاع عنه بين البدو أن العناية الألهية ترعاه. ويروي أحمد حسنين ما كان يتناقله السكان أثناء رحلته الصحراوية: "أن المهدي كان في مجلس أبيه وأراد الإنصراف فقام أبوه وأصلح وضع حذاء المهدي، وكان قد خلعه قبل أن يدخل على أبيه. وفي ذلك ما فيه من المهابة والتواضع، ثم التفت إلى جلسائه وقال: أشهدوا أن ابن علي (السنوسي) أصلح بنفسه وضع حذاء ابنه المهدي. وقد فهم الناس ساعتئذ أنه أراد بذلك إشعارهم بأن الولد لن يخلف أباه فقط، بل يقوم مقامه أيضا في الصلاح والتقوى".

ولقد وُلد السيد المهدي في كهف ببلدة (مستة) القريبة من (البيضاء) بالجبل الأخضر يوم ١٢ نوفمبر ١٨٤٤ من السيدة فاطمة بنت أحمد الفيتوري الزوجة الثالثة لوالده الإمام المؤسس، وتلقى تعليمه بمعهد الجغبوب. وكانت زوجته الأولى السيدة فاطمة ابنة (أبو موسى عمران بن بركات الفيتوري) التي تزوج بها عام ١٨٥٩ بالجغبوب (توفيت عام ١٨٩١)، ثم توالى زوجاته حتى بلغ عددهن تسعا<sup>١</sup>.

١ وفي رواية أخرى أن مولده كان بمدينة درنة ولكن ذكرت (مستة) والبيضاء بهدف اجتذاب قبيلة البراصصة المقيمة بها وبقية القبائل الأخرى لصالح نفوذ الإخوانية.

٢ يلاحظ أنه تزوج لأول مرة وعمره لم يتجاوز الخامسة عشرة، كما كانت العادة المتبعة في الزواج المبكر في ذلك الزمان للرجال والنساء. واقترن بزوجه الثانية السيدة حواء بنت محمد أبو زيد عام ١٨٧١ بالجغبوب (توفيت عام ١٨٧٥ وبالثالثة السيدة عائشة ابنة الكبرى للشيخ وشاعر السنوسية الكبير مقرب البرعصي عام ١٨٧٢، وبالرابعة السيدة فاطمة ابنة الصغرى لمقرب البرعصي بالجغبوب عام ١٨٧٦ وبالخامسة السيدة عائشة بنت أحمد بن علي ابوسيف الخميشي من سرت عام ١٨٨٧، وهي والدة السيد إدريس الذي سيتولى زعامة الطريقة ويصبح ملكا للبلاد فيما بعد (توفيت عام ١٨٩٤)، وينتمي لنفس العائلة عبد الله بوسيف الذي كان شيخ زاوية (عين ماره)، والسادسة السيدة فاطمة بنت محمد علي بن إبراهيم العلمي الغماري الذي تولى مشيخة زاوية البيضاء، وهي والدة السيد محمد الرضا

وعلى الرغم من أن السنوسي الكبير عهد بالزعامة الروحية لإبنه المهدي لما توسمه فيه من النجابة، إلا أن قيادة (الإخوانية) كان يمارسها فعلياً إثنان من كبار الإخوان هما أحمد الغماري، والمدني التلمساني.

وما أن بلغ السيد محمد المهدي سنّ الرشد وتولى مشيخة (الإخوانية) فعلياً حتى نشط في نشر الدعوة اقتداءً بوالده، فأكثر من إنشاء الزوايا كلما أتت له. وحسب حجم هذا النشاط والمدى الجغرافي الذي وصل إليه يتضح لنا أن مخططه السياسي اتسم بعنفوان ومثابرة أثارنا شكوك ومخاوف القوى الدولية التي كانت تترصد بتلك الأقاليم في ذلك الوقت. فقد بادر منذ عام ١٨٩٥ بنقل مقرّ القيادة من الجغبوب الى الكفرة ابتعاداً - كما يبدو - عن الإنجليز الذين احتلوا مصر على مقربة منه، مثلما فعل والده الذي نقل المقرّ من الزاوية البيضاء الى الجغبوب مبتعداً عن الأتراك العثمانيين حكام البلاد والمسيطرين على سواحلها. أي أن المهدي أدرك أن السيطرة الأوربية بصفة خاصة على البلدان العربية المجاورة، وفقاً لمخططات التقسيم بينها كما سبق ذكره، قد ضيق الخناق على حركته، فاتجه صوب ماكان يسمّى بالسودان (الأوسط) ويُفصد به تشاد وما جاورها.

ولقد وصف المؤرخون ومن بينهم (كامينج) فلسفة الدعوة السنوسية المحركة لهذا التوجه بأنها تكمن في مبدأ: " أن تقديم التنازلات بقدر الإمكان هو خير من التسليم بما هو زائف ومصطنع " أو بمعنى آخر: " قبول أنصاف الحلو خير من الإضرار لقبول الزائف ".<sup>٣</sup> وكان لهذا التوجه في التطبيق العملي نتيجتان: السعي للحصول على مجال واسع وحرّ لنشاط الطريقة، حتى لاتجبرها حقائق الواقع على القبول بتنازلات تمسّ العقيدة وتُنقص من هيبتها. وقد وجد السيد المهدي السنوسي هذا المجال واسعاً في الصحراء الليبية جنوباً وشرقاً. وثانياً: التوغّل في هذه الصحراء إلى المدى الذي تنفي فيه السيادة التركية تحاشياً للإصطدام بها. ولكنه في النهاية وجد نفسه محاصراً بين شرّين: إمّا قبول الخلافة العثمانية

---

الذي سيصبح ولياً لعهد إدريس (توفيت بينغازي ودفنت بالجغبوب عام 1937)، والسابعة السيدة خيرية بنت محمد الطويل عام 1892 بالجغبوب (توفيت عام 1894)، والثامنة السيدة خديجة من عائلة بوسيف بسرت عام 1895، والتاسعة السيدة فاطمة أخت الشيخ محمد حسن البسكري بالجغبوب. وجميع هذه التواريخ تقريبية لصعوبة تعيينها بدقة في ذلك الزمن، كما يلاحظ أن أكثر الزوجات لم يعمرن طويلاً

٣ (تاريخ برقة المعاصر) مصدر سابق ص 18 ولعلّ المسنول البريطاني سمع عن القاعدة المعروفة في التشريع الإسلامي التي تقول: "دفع الضرر أفضل من جلب المنفعة"؛ فذهب في تفسيرها بشكل معابر، كما رأينا فيما ذكره.

والتبعية لها مع ما يفرضه ذلك من تكيف بالنسبة للعقيدة، وإما الخضوع والإستسلام للنصارى الأوربيين - وهم هنا الفرنسيون بالذات - الذين واجههم وهم يتسللون في تلك الأصقاع، ويسعون بالحديد والنار للسيطرة عليها. وفي مفترق الطرق هذا إزداد الوعي لدى السنوسية بكونها حركة سياسية، ونظمت نفسها لامتناع السلاح ضد العدو الذي اعتبرت أنه اقتحم عليها ديارها.

وإذا كان نشر الدعوة بين الأقاليم السودانية كان هو الهدف المعلن للسنوسية، فمما لا شك فيه أن السيطرة على طرق القوافل التجارية حتى الوصول الى منابع المياه في الإقليم، كانت وراء زحفها الحثيث المثابر. ولهذا اتخذ الإمام المهدي (الكفرة) منطلقا لهذه الإستراتيجية. والكفرة أرخبيل يتكوّن من عدة واحات صغيرة متناثرة. ولقد سبق للإمام المؤسس محمد بن علي السنوسي أن أنشأ زاوية في (الجوف) أحد مناطق الأرخبيل، حين أرسل أحد تلاميذه وهو عمر أبو حواء ليشرّف على تشييدها هناك ولذا سُميت زاوية (الأستاذ). أما ابنه السيد المهدي فشيد زاويته في واحة الجوف وسماها (التاج). ويظن أن سبب التسمية يتفق مع موقعها على أحد التلال التي تطلّ على جميع أنحاء هذه الواحة، وعين الشيخ بوحواء مقدّما لها. كما شيدت زاوية في واحة (تازربو) التي تقع جنوب (أوجله) و (جالو) وتعتبران مركزي اتصال بربطان الكفرة بالجغوب.

وبذلك تمكنت السنوسية من بسط نفوذها وسط منطقة صحراوية واسعة وناحية عن السلطة المركزية التركية، وبعيدا عن الرقابة الأوربية، محققة بذلك سيادة مستقلة على هذه الأصقاع اللامتناهية التي تبدأ من الحدود الغربية لمصر لتصل الى حدود الأطلنطي عبر الصحراء الليبية والقبلة وقرآن والصحراء الجزائرية وأقليم داخل تشاد. وبذلك سيطرت على طرق المواصلات بين البحر الأبيض والسودان الأوسط، مما مكنها من استخدام منافذ برقة وسرت على البحر من أجل تسيير تجارتها. وذكر أحمد حسنين: " بلغت الحركة في هذه الطريق حدّا قال لي بدوي عنه إنه كان في وسع الإنسان أن يسير نصف يوم من أول القافلة الى آخرها. وكانت الطريق من الكفرة الى (واداي) وعرّة وخطرة في تلك الأيام فحفر المهدي بئري (بشري) و (سارة) في الطريق الموصلة من الكفرة الى (تكرو) وكانت واحات الكفرة في أيام قبيلة (زوي) البدوية التي انتزعتها من قبيلة (تبو) السود، مركزا مهماً للسطو والإغتيال في صحراء ليبيا. وكان أفراد هذه القبيلة المتمردة ميالين للقتال لا يخضعون لقوة أو قانون، ولا يرحمون من يخترق أراضيهم، فلم

تخل قافلة تمرّ بالكفرة من النهب والسلب والإضطرار لدفع جزية. وجاء المهدي فجعلهم ينزلون عن طلب تلك الجزية لأنه أراد أن يؤمن الطريق الممتدة في صحراء ليبيا من الشمال إلى الجنوب وأن ينمي تجارة تلك الأصقاع، وعمل على ذلك حتى قال لي أبو مطاري، وهو من شيوخ قبيلة (زوي) في الكفرة: إنه صار في وسع إمراة أن تسير من برقة إلى وادي بدون أن يتعرّض لها أحد " ٤ .

وقبل أن نفضّل في سرد الأحداث التي طرأت بعد مجيء السيد المهدي لبثّ دعوته وتوسيع نفوذه في هذه الأقاليم النائية، ينبغي تقديم نبذة تاريخية عن أهمية أراضي السودان الأوسط وتكويناتها الجغرافية والديموغرافية.

## ١- البدايات الأولى

تعود علاقات ليبيا والليبيين بأغلب أقطار بلدان جنوبي الصحراء المتاخمة، أو ما كان يسمى بالسودان الأوسط وهي: تشاد والنيجر ومالي والقسم الشمالي من نيجيريا (في عصرنا الحالي)، إلى عهود غابرة من التاريخ<sup>٥</sup> ولعلّ أقدم من كتب عن الصحراء الأفريقية كان شيخ المؤرخين هيرودوت (الكتاب الثاني - الفصل ١١٤ - ١١٥) فقد حدثنا في كتابه (التاريخ) عن شباب من قبيلة (الناسامونيس) الكبيرة - وهي من أوائل القبائل التي سكنت ليبيا، وكانت تقطن على طول خليج سرت بما فيه واحة أوجله - وكيف تعاهد خمسة منهم على استكشاف الصحراء جنوبا: " إجتازوا المناطق المأهولة إلى المنطقة التي تسكنها الوحوش، وبعد أن ساروا عدة أيّام رأوا بعض الأشجار النامية في بقعة مستوية فتقدّموا منها وراحوا يقطفون شيئا من ثمارها، وبينما هم كذلك هاجمهم رجال

٤ (في صحراء ليبيا) ص ٥٧ - ٥٨

٥ أطلق الجغرافيون القدامى لقب السودان أخذاً عن الكلمة العربية - أي القوم سود البشرة - على المنطقة التي تمتد من نهر السنغال إلى نهر النيل، وحين احتلت فرنسا السنغال ومالي والنيجر وتشاد، سميت المنطقة حتى الستينات من القرن العشرين بالسودان الفرنسي تمييزاً له عن السودان الشرقي أو ما كان يطلق عليه السودان المصري الإنجليزي. أو السودان النيلي. ويسمى السودان الفرنسي الآن مضاعفاً إليه بوركينا فاسو بدول، السهل وتنطق خطأً دول الساحل، إذ أن كلمة سهل هي كلمة عربية وصحيحة جغرافياً لوقوع المنطقة في إقليم منبسط هو السهل الصحراوي، وحين تكتب باللغات الأوربية SAHEL ينسى العرب أصلها العربي لأنهم يترجمونها بدول (الساحل)، رغم أن البحر الأبيض يبعد عنها بحوالي ألفي كم وسهوا عن أن حرف H- اللاتيني هنا، هو (هـ) في العربية وليس (ح) !

قصار القامة - طولهم نصف طول الرجل العادي - فالتقوا القبض عليهم وحملوهم معهم عبر مستنقعات واسعة وصلوا بعدها الى قرية كان سكانها ضنيلي الحجم سود البشرة. وكان يمخر القرية من الغرب إلى الشرق نهر تعيش به التماسيح (الأغلب أنه نهر النيجر). وعلى مسيرة عشرة أيام من غرب أوجله - كما يقول هيرودوت - تقطن قبيلة (الجرمانتيين) كثيرة العدد وكانوا يفرشون طبقة من التراب فوق الملح ليزرعوا فيها بذورهم، وعلى مقربة منهم تقطن قبيلة اللوتوفاجيين مع أبقارهم التي تسير إلى الوراء بسبب قرونها الطويلة المنحنية حتى تلامس الأرض! بعكس بقر الجرمانتيين ذي الخلقة العادية، ويضيف هيرودوت أن الجرمانتيين كانوا يقومون بأسر رجال الكهوف الأثيوبيين - ويقصد بهم السكان السود الذين ينتشرون جنوبي الصحراء الكبرى وكان يُطلق عليها إثيوبيا وأطلق عليهم أيضا التروجلودايت - وذلك بمطاردتهم بالعربات التي تجرّ الواحدة منها أربعة خيول لأن هؤلاء التروجلودايت سريعو العدو ويأكلون الأفاعي والسحالي والزواحف، ويتكلمون لغة غريبة شبيهة بنقيق الضفادع<sup>٦</sup>. وفي رأي هيرودوت أن الجرمانتيين لم يكونوا من الزوج بل الأرجح أنهم كانوا أسلاف قبائل التبو، وقد استغلوا الموارد الطبيعية للواحات الفزانة<sup>٧</sup>، وقد ورد ذكر الجرمانتيين في كتابات المؤرخ الروماني القديم بليني **Pliny the Elder**، حين أشار إلى الموقعة الحربية التي وقعت بينهم وبين قوات القائد الروماني كورنيلوس بالبو **Cornelius Balbus** في القرن الأول الميلادي، وموطنهم كان (وادي الأجال) بفزان وعاصمتهم جارامه **Garama** وقد ثبت من الرسوم المنقوشة في صخور الصحراء الكبرى وعلى الجانب الليبي منها، وتسمى رسوم تسيللي **Tassili**، أن العربات التي تجرّها الخيول والثيران كانت هي وسيلة الحروب التي استعملها الجرمانتيون. ويرجح استعمالها أيضا لنقل السلع وتبادلها، إذ أن الإبل التي أصبحت فيما بعد هي سفينة الصحراء لم يتأكد وجودها إلا بعد الفتح العربي لشمال أفريقيا، مما يدلّ على أنهم جلبوها معهم من آسيا. أمّا الخيول فإنها أيضا لم تكن متوطنة في المغرب بل جلبت من آسيا عن طريق مصر من قبل الهكسوس الذين غزوها عام ١٧٠٠ قبل الميلاد. ولعلّ أول اتصال مدوّن بين الواحات الليبية والوسط الأفريقي، ورد فيما رواه هيرودوت عن قصة الشبان الخمسة المذكورة<sup>٨</sup>.

٦ (التاريخ الليبي القديم) لعبد اللطيف البرغوثي ص ٦٨٢ منشورات الجامعة الليبية ١٩٧١  
٧ Jhon Wright - Libya chad And the central Sahara - p.11- Hurst +co . London 1989

٨ مصطفى بعيو - دراسات في التاريخ اللوبي ص ١٧٣، الجمعية التاريخية بجامعة الاسكندرية ١٩٥٣ وكذلك جوتييه - ماضي شمال أفريقيا - ص ١٣١ ترجمة هاشم الحسيني، دار الفرجاني - طرابلس ١٩٧٠

عندما انتشر الفينيقيون منطلقين من المشرق على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط. أسسوا باعتبارهم أول شعب مارس التجارة متعدّدة الأقطار والأجناس، المستوطنات والموانئ مبدئين بـ (أوتيكا) وقرطاج، وكلاهما ضاحية بالقرب من تونس العاصمة، ثم صبراته Sabratha، و(أويا)، أي طرابلس الآن. وهي تعني بالإغريقية المدن الثلاث، ولبدة Leptis Magna، متتبعين المسارب التي كانت تربط بين تلك المنافذ الثلاثة مع جنوبي الصحراء الأفريقية من ناحية، وموانئ صقلية ومالطا من ناحية أخرى. ولقد لعبت الواحات المنتشرة في الصحراء الليبية، وخاصة في فزان، دورا رئيسيا في ازدهار الحركة التجارية عبر خطوط الإتصال تلك. وانتظمت طرق القوافل الرئيسية آنذ، وعبر العصور بعد ذلك بالنسبة لليبياء، في الطريق الأول الواصل بين برنو و(كوكا) على بحيرة تشاد، وبين طرابلس مارا ببيلمو ومرزق؛ والثاني من (أبيشا) وينطلق عبر (واداي) لينقسم إلى فرعين: أحدهما يعبر جبال تبستي متجها إلى ميناء مصراته، والآخر يمرّ بـ (العنيدي) وبوركو ثم الكفرة و(أوجل) إلى ميناء بنغازي. وهناك طريق رئيسي ثالث كان يربط أوجل بالقااهرة عبر سيوه. وغني عن القول إن هذه الطرق تتشعب عبر الواحات الصحراوية التي تعتبر محطات حيوية للقوافل للراحة والتزوّد بالماء والطعام، وتبرز من بينها (كاوار) في النيجر المعاصرة وزويله، الودان، غات، غدامس، جالو في ليبيا. ولا ننسى أن طرق الحج إلى مكة المكرمة عبر الصحراء الليبية لعبت دورا مهما في تجارة القوافل، كما كان الحجيج يعبر الطريق الصحراوي المحاذي لساحل البحر الأبيض والممتد من موريتانيا والصحراء الغربية ليشقّ الجبل الأخضر من برقه حتى القاهرة. وقد تميّزت حركة التبادل التجاري في تلك الحقبة باستيراد الذهب والرقيق من الوسط الأفريقي مقابل الأغذية والملابس من منافذ الشمال الأفريقي وتلك المصدرة إليها من موانئ الضفة الشمالية للبحر الأبيض. أما بالنسبة للحقبة الإسلامية، فقد وافانا الجغرافيون والمؤرخون العرب بكمّ وفير من المعلومات عن تلك الأقاليم المغفلة في العالم القديم، وكانت كشوفاتهم وما دوتوه من وصف وانطباعات عما شاهدوه أثناء تجوالهم فيها، مصدرا أساسيا إعتد عليه الرحالة الأوربيون بعدهم كما سنعرض له في حينه.

أجمع الجغرافيون العرب على أن دخول الإسلام إلى وسط أفريقيا (السودان الغربي) جاء في فترة مبكرة عن طريق المبادلات التجارية التقليدية، والإحتكاك الشخصي بأهل الإقليم الذين كانوا وثنيين. وفي الأثناء تمّ لعقبة بن نافع الفهري فتح فزان، بعد إستيلاء عمرو بن العاص على برقة (٦٤٢ - ٦٤٣) م ابتداء من (زويله)، وهي بلدة في فزان كانت محطة رئيسية للتجارة مع السودان الغربي، كما اشتهرت بتصدير الجلود التي عُرفت بالزويلية، ويرجح أنها كانت تأتيها من مناطق الجنوب السوداني، وكذلك اشتهرت بتجارة الرقيق.

وبعد فتح عمرو بن العاص لطرابلس عقب ذلك، أرسل قائداً آخر من قواده هو بسر بن أرطاة الذي فتح وذان وغدامس (٦٦٢-٦٦٣ م)، ثم اتجه جنوباً إلى أن وصل إقليم (كاوار) الواقع غربي جبال تبستي ويتبع اليوم جمهورية النيجر، ويربطه بفزان وادي يمر عبر سفوح تبستي تنبجس المياه من عيون في قاعه، ثم يكمل الطريق إلى بحيرة تشاد، ويبدأ من جنوب مرزق اللبية بواحة (تمو) وينتهي عند واحة (بيلما) وكلاهما في النيجر. وكان هذا هو الطريق الذي سلكه المسلمون الأوائل ومن بعدهم الرحالة الأوربيون صوب أقاليم السودان الغربي من ناحية الشرق. وهناك طريقان آخران سلكهما الإسلام إلى قلب القارة الأفريقية في القرون اللاحقة، أحدهما عبر الساحل الأفريقي الغربي من السوس الأدنى وأدغشت وسجلماسة، إلى حوض السنغال وما يليه جنوباً. وكان الرحالة والجغرافيون العرب يسمونه (غانه). والذين سلكوا هذا الطريق هم (المرابطون) أي الصنهاجيون أتباع عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين. والطريق الثاني سلكه العرب عن طريق مجرى النيل، ثم انطلقوا من (إسنا) في الصحراء إلى الواحات الداخلة، ومن ثم دارفور وكردفان حتى نشروا الإسلام في الوادي وما بعده، وكذلك عن طريق ساحل المحيط بشكل غير منتظم في غضون القرن الحادي عشر الميلادي، أي بعد اعتناق ممالك السودان النصرانية للإسلام، وهي (علوه) و(مقره) ودنقلة. وكانت وظيفة هذا الطريق أول الأمر نقل الحجّاج والمتاجرة من قلب أفريقيا إلى الحجاز عن طريق أسنا و(قفت) و(القصير) و(عذاب) ثم عبور البحر الأحمر<sup>٩</sup> وكان الشريف الإدريسي راندا عظيماً في الرحلات والجغرافيا<sup>١٠</sup>.

٩ انظر بحث د. حسين مؤنس: (فزان ودورها في انتشار الإسلام في أفريقيا) مجلة كلية الآداب - الجامعة الليبية - بنغازي ١٩٦٩

١٠ هو أبو عبدالله الشريف الإدريسي وينتسب إلى أدارسة المغرب، الذين حكموا (مالاقا) بعد الإطاحة بالخلافة الأموية الأندلسية في قرطبة في النصف الأول من القرن الحادي عشر ميلادي. وقد ولد الإدريسي عام ١١٠٠ في سبته المغربية التي لجأت إليها أسرته، ومنذ سن الشباب قام برحلات طويلة في الأندلس وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى. وفي العام ١١٢٨ أصبح معلم الجغرافيا في بلاط ملك صقلية ببالرمو (روجيرو الثاني) ويطلق عليه المؤرخون العرب جرجير، وأهدى له خارطة متكاملة للكرة الأرضية مسبوكة بالفضة وسمّاها (صورة الأرض). وبعد وفاة الملك عام ١١٥٤ ظل الإدريسي معلماً في البلاط إلى نهاية عهد وريث العرش الصقلي ويليام الثاني. ولم يتم العثور على الطباق الضخم الذي نقش فيه الخارطة، غير أن المكتبة الوطنية في باريس استطاعت أن تنسخ منه ٦٨ خارطة مصغرة. وقد توفي الإدريسي عام ١١٦٦ م. وترك مؤلفات هامة طبع منها لأول مرة في روما في عامي ١٥٩٢ - ١٦١٩ م باللغة اللاتينية كتاب (جغرافية النوبة) على أيدي العالمين G.Sionita و J.Hesronita؛ وفي لينن ببولندا عام ١٨٦٦ كتاب (وصف أفريقيا وأسبانيا)؛ وفي باريس ١٨٣٦ - ١٨٤٠ ظهر كتابه (قصة رحلات وذكريات) كما ألف مثل سابقه من الجغرافيين العرب كتاب (المسالك والممالك) الذي صدر عام ١١٦١ وتوجد له أجزاء في اسطامبول (مكتبة

وفي كتابه الشهير (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) سرد لنا رحلاته في الصحراء الليبية وواحاتها الكثيرة مثل زويله وودان وجالو وأوجله ومرزق وغدامس. أما خارطته التي سماها (بلاد سرت الكبرى وسرت الصغرى ودواخل أفريقيا) فقد ظهر فيها من أفريقيا؛ جنوب الصحراء الى حدود كانم. أما ياقوت<sup>١١</sup> فقد أخبرنا في كتابه (معجم البلدان) أن عقبة بن نافع فتح فزان حوالي ٦٤٧ - ٦٥٠ وتوغل جنوبا الى "كورة" كوار، كما أكد ما رواه البكري عن كانم، مضيفا أن أكبر مدن كوار هي "أبولبلما" أي بيلما أما اليعقوبي<sup>١٢</sup>، فقد اشتهر بكتابه (كتاب البلدان) الذي امتاز فيه بعدم الاعتماد فقط على المصادر التاريخية بل وأيضا على اتصالاته الشخصية بالرواة، ودون في كتابه احصاءات ورسوما جغرافية، وشمل وصفه عن أفريقيا بلاد (البحّة) والحبشة والنيجر، بالإضافة الى شرقي أفريقيا. وقد ذكر كوار محددا موقعها في جنوبي فزان. وتحدث عن تكوين سكانها الذين كانوا يتاجرون بالرقيق المجلوب من جنوبها، ومثله فعل البكري<sup>١٣</sup>، ومما ذكره البكري أن بزويله قبر دعبل الخزاعي الشاعر الشهير<sup>١٤</sup> ومن قول دعبل في تمجيد العلويين قصيدته التي مدح بها علي بن موسى في خراسان والتي قال فيها:

---

حكيم علي باشا) بعد أن ضاع معظمه، وفي اسطامبول أيضا وجد مؤلفه (حديقة المسرات) الذي يحتوي على ٧٣ خارطة جغرافية.

١١ (هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شباب الدين الحموي، ذو السيرة العجيبة، إذ ولد العام ١١٧٩ من والدين يونانيين في) بيزانز. وقد أخذ كرقيق في غنيمة حرب، إذ اشتراه أحد التجار العرب المقيمين في بغداد أصله من حما، إسمه مصعب الحموي، وبعد أن أنفق على دراسته وتعلم قواعد اللغة العربية، أرسله للتجارة في البلدان الشرقية فاستغل رحلاته للاطلاع والتعرف على أحوال شعوب العراق والشام ومصر وفارس وخوارزم وخراسان، وبسبب خلاف بينهما هجره سيده، فذاق الأمرين وتشرّد حتى أنه عرض نفسه للبيع كرقيق، غير أن سيده رضى عنه وعاد في خدمته. وبعد موت الحموي، عكف ياقوت على استيعاب محتويات مكتبة (ميرف الغنية. وفي مدينة حلب بدأ في تأليف مصنفه الشهير (معجم البلدان) في بداية عام ١٢٢٨ م. إلا أن المنية لم تمهله، إذ توفي في ٢٠-٨-١٢٢٩. وبهذا المؤلف فتح ياقوت منهاجا جديدا في الكتابة التاريخية، التي لا تقتصر على البيانات الجغرافية فقط، ولكن أيضا سرد الأحداث التاريخية، مستقاة من مصادر ضاع أغلبها، كما أنه مارس أسلوب الفحص والتقييم النقدي للرواية التاريخية، وأضاف تجربته ومشاهداته الشخصية لما دوته من بيانات.

١٢ هو أحمد بن أبي يعقوب من صفا العباسي، لم يعرف تاريخ ميلاده ويرجح أن تكون وفاته عام ٨٩٧ م. وهو من نسل عربي، تربى في أرمينيا وتجوّل وعمل في فارس وخراسان ثم أقام في مصر الى أن توفي فيها.

١٣ أبو عبيد البكري (٨٤٩ - ٩٢٣) صاحب كتاب (المسالك والممالك). وهو الذي قصّل فيه الحديث عن واحات الصحراء الليبية المعروفة في التاريخ.

١٤ كان دعبل الخزاعي من الشعراء الذين ناصروا العلويين وهجوا العباسيين، حين حدث الصراع بين الفتنين (موقف العباسيين أنهم يتحدرون من العباس عم النبي وهذا يجعله أفضل للخلافة من

متى عهدها بالصوم والصلوات ---- قفا نسأل الدار التي خفت أهلها  
 أفانين في الأفاق مفترقات ---- وأين الألي شطت بهم غربة النوى  
 وهم خير قادات وخير حماة ---- هم أهل ميراث النبي إذا اعتروا

كما بكى السيد الحسين في رثاء طويل جاء فيه:

يا للرجال على قناة يرفع ---- رأس ابن بنت محمد ووصيه  
 لا جازع من ذا ولا متخشع ---- والمسلمون بمنظر وبمسمع

كما أورد البكري أوصافاً لأخلاق الناس وطبائعهم، ومعلومة نادرة عنهم في كتابه (المسالك والممالك) حيث قال : " بين زويله وبلد كانم أربعون مرحلة، وهم سودان مشركون، ويزعمون أن هناك قوما من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم بالعباسيين وهم على زي العرب وأحوالهم ". وهكذا كما رأينا، كانت الإتصالات التي أجراها العرب عن طريق الإكتشاف والرحلات قديمة تعود الى قرون سحيقة وترافقت بدون شك مع رحلات قوافل التجارة بين منافذ شمال أفريقيا بما فيها مصر وأقاليم السودان الغربي المذكورة، عبر الواحات الليبية والجزائرية بالذات. ويذكر (ويلارد) أنه حوالي عام ١٦٠ م وفدت من مراكش أكبر قافلة تتكون من سبعة آلاف رجل وثمانية آلاف جمل وألف حصان متوجهة إلى نهر النيجر، وقد جاء معها بعض الأوروبيين ورجال المدفعية الإنجليز للمساعدة في حمايتها من غارات قطاع الطرق<sup>١٥</sup> غير أن اكتشاف الأوروبيين وتعرفهم المتكامل على الاقليم لم يبدأ إلا بعد أن قام رحالتهم في غضون القرن الثامن عشر بزياراتهم له في شكل منظم، وبتمويل إستعماري ذي أهداف محددة. فقد كان أمام جمعية " تشجيع إكتشاف دواخل أفريقيا " التي تكوّنت من عناصر فرنسية وبريطانية وألمانية بالذات واجتمعت في "سان أليان" عام ١٧٨٨ م لتنظيم وتوزيع عمليات الإستكشاف بين

علي بن أبي طالب، لأن العم يحجب ابن العم. إلا أن العلويين يتحججون بحقهم في الخلافة لأن علياً هو أيضاً زوج بنت النبي، والبنت أفضل من العم).  
 ١٥ جيمس ويلارد "الصحراء الكبرى" ص ١٨٣ اصدار دار الفرجاني - طرابلس، ليبيا ١٩٦٧.

أعضائها، كان أمامها ما دونه " ليون الأفريقي " ١٦ من بيانات هامة ومن حسن الحظ أنه احتفظ بمخطوط مشاهداته التي نمت ترجمتها من العربية إلى الإيطالية تحت عنوان " حكايات عن رحلات برية وبحرية ". بعدها تُرجمت إلى الإنجليزية من قبل **John Pory** أولا عام ١٦٠٠ م ثم صُحّحت الترجمة عام ١٨٩٦ على يد **Robert Brown** . وعلى أثر ذلك تدفق سيل من الرحالة والمكتشفين، وجميعهم تقريبا كانوا عيوناً وعملاء للحكومات الأوروبية وخاصة بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا، طافوا وتجوّلوا بصفة خاصة في إقليم السودان الغربي وجمعوا البيانات الدقيقة ورسموا خرائط البلدات والمدن ونقاط انطلاق ومسار، ومحطات قوافل الصحراء، ودوتوها في مذكرات ودراسات وتقارير. وقد يسّر لهم القيام بمهامهم التجسسية قنصل دولهم في أقطار الشمال الأفريقي، خاصة طرابلس وبنغازي في ليبيا، والجزائر وتونس والمغرب الأقصى والقاهرة، عن طريق إمدادهم بالأموال، وتجهيز قوافلهم بكافة المقومات، مع إستعمال هؤلاء القناصل للضغوط السياسية على الولاة العثمانيين وموظفيهم في تلك الأقطار.

وفي عام ١٧٤٩ طبع الرحالة والمؤرخ الفرنسي الكبير **J.B.Bourguignon** **d'amville** خارطته عن أفريقيا مبينا تقسيماتها الداخلية، وقد اعتمد في رسمها - بشكل نقدي- على خارطة بطليموس في القرن الثاني للميلاد، وكذلك على خارطة الشريف الإدريسي في القرن الثاني عشر. ثم جاء بعده عام ١٧٩٨ الجغرافي الشهير في زمانه الرائد **James Rennell** الذي رسم خارطته للقارة، والتي صُحّحت عام ١٨٠٢ موضحة التطورات التي شهدتها أفريقيا وعمليات اكتشافها، مشتملة على كافة البيانات والمعلومات التي أضيفت إلى المعارف الأوروبية منذ رحلات **James Bruce** في الأعوام ١٧٦٨ - ١٧٧٧. غير أن (رينيل) الذي اعتمد أيضا على بطليموس والإدريسي وليون الأفريقي (حسن الوزاني)، خلط بين غانا و(كانو)، و(كاوار) وضعت خطأ بناحية تبعد ٥٠٠ ميلا عن مكانها الحقيقي مُظهِرا إياها جنوبي (أوجله) في نقطة نقل أو تزيد، وأن نهر النيجر ينتهي بشكل مغلوط بعد أن يجري في منخفض خلال بحيرتين رئيسيتين في إقليم

١٦ إسم لُقّب به أبو الحسن الوزاني الذي وُلد في غرناطة عام ١٤٨٣ م وتوفى في تونس عام ١٥٥٢ م. وبعد سقوط غرناطة في أيدي الأسبان، رحل إلى فاس وهو يافع. وفيها تلقى علومه ثم بدأ رحلة طويلة أخذته عبر القسم الغربي لشمال أفريقيا بما في ذلك سلسلة جبال أطلس والصحراء الكبرى، حيث سجّل ملاحظاته وانطباعاته عن المواقع والسكان، كما أتبع له أن يزور إسطنبول والشام والجزيرة العربية وكذلك أمريكا وبعد زيارته لمصر قفل راجعا إلى المغرب. وبالقرب من طرابلس فاجأه القرصنة المسيحيون ونقلوه إلى روما كعبد، وباعوه لبابا الفاتيكان ليون العاشر الذي قام بتنصيره وغيّر إسمه من الحسن إلى إسم " Gian Leone كناية عن إسم البابا نفسه. وبعد ذلك لصق به لقب ليون الأفريقي.

(وانجارا). وحسب الوصف الأصلي للإديسي في القرن الثاني عشر، فإن (وانجارا) كانت جزيرة طولها ٣٠٠ ميلا وعرضها ١٥٠ ميلا غنية بالذهب ويحيط بها النيل طول السنة. وواضح أن هذا المنخفض كان يشير إلى بحيرة تشاد، ولكنه لم يكن في نهاية نهر النيجر.

## ٢- التغلغل الأوروبي

إن أهم ما جذب الأوروبيين إلى أفريقيا، كانت تجارة الرقيق. وأول (صفقة) في هذا المضمار حدثت عام ١٤٤١ للميلاد عندما خطف القبطان البحري البرتغالي **Antam Concalves** رجلا أفريقيا وزوجته على الساحل الغربي للصحراء الأفريقية، وقدمهما هدية لسيده أمير البحار هنري. ومقابل ذلك كافاه الأمير وأنعم عليه برتبة فارس. وبعد أربع سنوات من هذه الحادثة، قام البرتغاليون باحتلال جزيرة (أرجوين) في الشاطئ الموريتاني، واتخذوا من قلعة فيها ميدانا لمزاولة تجارة الرقيق والذهب.<sup>١٧</sup> ومن هنا رغب الأوروبيون في معرفة طرق أفريقيا الصحراوية، فالفرنسيون وجدوا نهر السينغال غير صالح للملاحة، والإنجليز تبين لهم أن نهر النيجر يصب في غابات إستوائية ضارة بالصحة - قبل أن يُكتشف (الكينين) كمادة تقي من الإصابة عام ١٨٥٠-. ولاستطلاع إمكانيات التغلغل على هذه الصعاب قررت (جمعية أفريقيا) الإنجليزية إيفاد الخبير **Simon Lukas** (وكان يعمل في بلاط سان جيمس) إلى طرابلس ليتوغل منها عبر فزان إلى دواخل السودان الأوسط. غير أنه لم يتمكن حتى من الوصول إلى فزان (وقد قال له علي باشا القرماتلي حاكم الولاية آنذاك: إنه سيكون أول مسيحي يدخلها - وهذا خطأ بالطبع) وذلك بسبب قيام اضطرابات ضد حكم الباشا في الطريق إلى فزان. ولكن (لوكاس) وأثناء وجوده بمصراته استطاع أن يجمع معلومات عن الدواخل، وأن يسجل أول تقرير عن إقليم جبال تيبستي، ولئن كانت هذه المعلومات غير دقيقة، إلا أنها اعتبرت إسهاما هامًا في جغرافية المنطقة لم يُسجل منذ المعلومات التي دوتها (ليون الأفريقي) منذ ستين سنة قبل ذلك. ثم جاءت رحلة **Mungo Park** إلى غربي السودان في الفترة ١٧٩٥ - ١٧٩٩. وكانت المحاولة التي تلتها من ناحية الشمال وقام بها (فريدريش هورنيمان) الألماني لحساب الجمعية الأفريقية البريطانية أيضا عام ١٧٩٨، حيث انطلق من القاهرة متجها صوب فزان. وكانت أول محاولة لألماني يتحدث العربية واعتنق الإسلام. وبعد أن مكث في مرزق لم يستطع مواصلة الرحلة إلى بورنو، وعاد إلى

17 John Iliffe (Geschichte Africas) S.172. verlag C.H.Beck - Muenchen(2000).

طرابلس ليقدّم تقريره الأولي في ديسمبر ١٧٧٩ ويرفقته محمد المكني (الملقب ببي النوبة). وعندما أعاد هورنيمان الكرة مرة أخرى عبر مرزق متّجها الى بورنو ومنها الى تيمبوكتو والنيجر، أصيب بمرض (الدوسينتاريا) واختفت أخباره منذ ذلك الحين<sup>١٨</sup>.

وهكذا لم تكن رحلات أولئك المكتشفين خالية من المغامرات والمخاطر، إذ تعرّض بعضهم لقطاع الطرق الصحراويين ودفع حياته ثمنا لهذه المهام. بيد أن السياق لايسمح بسرّد تفاصيل قصصهم وما جرى لهم وبالإضافة الى تقارير ومذكرات أولئك الرحالة، فهناك المئات من الكتب التي سجّلت ذلك. وقد قام المؤرخ الليبي مصطفى بعيو بجهد مشكور في هذا المجال، حيث عرض بإسهاب ما عثر عليه من هذه الكتب في مجلّداته الثلاث<sup>١٩</sup>.

ويكفي إيراد قائمة بأسماء هؤلاء الرحالة الأوربيين، وما جرى لهم من مغامرات ومصائر كما استمدّت من تلك المصادر:

---

١٨ - جون رايت ص ٥٥ - ٥٨  
١٩ - نقصد بها (المختار في مراجع ليبيا) وصدر الجزء الأول منها عام ١٩٦٧ والجزء الثاني عام ١٩٧٢ عن دار الطليعة للطباعة والنشر ببيروت، والجزء الثالث عام ١٩٧٥ عن الدار العربية للكتاب ليبيا. تونس. وفي هذا العرض لخص لنا أكثر من ٣٠٠ وثيقة من أعمال هؤلاء المؤرخين عن تاريخ ليبيا في كل العصور، احتلت فيها الدراسات عن السودان الأوسط وتجارة القوافل بينه وبين ليبيا الجزء الأكبر. كما أن الكاتب والمؤرخ الليبي خليفة محمد التليسي قام بترجمة كتاب (الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا) لأتيليو موري، صدر عن الفرّجاني للنشر عام ١٩٧١. وهو كتاب ضم بين دفتيه جميع الرحلات التي قام بها أولئك المكتشفون الأوروبيون مع رواية ما جرى لهم، وهوما ورد باكثر تفصيل في الكتاب المشوّق (الصحراء الكبرى) لجون ويلارد الذي سرد سيرة نفس الرحالة مع تحليل عميق وتصوير بديع لما عايشوه وماخاضوه من مغامرات. هذه الجهود تكمل كتابي (ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات) الصادر عن دار ليبيا للنشر والتوزيع - بنغازي ١٩٦٨ و (ليبيا في كتب التاريخ والسير) الصادر عن نفس الدار وفي نفس السنة. وهما من اختيار وتصنيف د. أحسان عباس ود. محمد يوسف نجم، وقد دوتا فيهما ما ذكره أشهر المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى عن ليبيا. وتجدر الإشارة الى المجلد الضخم (التاريخ الليبي القديم - من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي) من تأليف د. عبد اللطيف محمود البرغوثي ومن إشارات الجامعة الليبية - دار صادر ١٩٧١ وقد اعتمد فيه على مصادر التاريخ القديم الغنيّة كما أن مكتبة الفرّجاني نقلت الى العربية تقرير رحلة فريدريش هورنمان وتقرير رحلة ألكمستر جوردن لينج في (رحلتان عبر ليبيا) الذي صدر عام ١٩٧٤. وهذه الكتب جميعها أسهمت إسهاما كبيرا في وصف ليبيا تاريخيا وجغرافيا.

## تاريخ رحلة كل بعثة وما جرى لأفرادها

١٧٨٩ - بعثة وليم لوجاس الإنجليزي وجون الديارد الأمريكي عبر الصحراء، والذين زارا القاهرة وسيوه وفزان، وواحاتها حتى بورنو والنيجر. وقد مات الاثنان في آخر الرحلة.

١٧٩٠ - بعثة الماجور دانيال هاوتون الايرلندي الى (تومبكتو) في مالي، وقد قتل على أيدي القراصنة.

١٨٠١ - فريدرش هورنمان الألماني وبرفته يوزيف غراند ينبيرج وكلاهما اعتنق الإسلام وأتقن العربية - وقد لقي هورنمان حتفه بمرض (الدوسينتاريا) كما سبق ذكره.

١٨٠٦ - مانغو بارك الاسكتلندي، وقد وصل نهر النيجر وهويقود ٤٦ جنديا بريطانيا، ماتوا جميعا غرقا. وهو ما مر ذكره.

١٨١٩ - جوزيف ريتشي الاسكتلندي وجون بلفورد ليون الانجليزي ورحلتها عبر الصحراء، حيث مات ريتشي في مَرْزُق.

١٨٢٠ - والتر أودني، والملازم هيو كلابرتون، والميجرديكسون وانهام. وكانوا أول من وصل إلى بحيرة تشاد من بين الأوربيين، وقد توّغلت البعثة حتى نهر النيجر. ومن ذلك التاريخ بدأ الإستكشاف الأوربي لأفريقيا حسب (ويلارد). وقد لقي الأربعة جميعا حتفهم في تلك الرحلة.

١٨٢٦ - الميجر جوردن لينج الانجليزي، وكان قد تزوّج عام ١٨٢٥ باينة وارنجتون القنصل البريطاني في طرابلس وصاحب النفوذ القوي. ورافقه في رحلته الشيخ الباماني من أعيان تومبكتو.

١٨٢٨ - رينيه كاتيه الفرنسي الذي اتجه الى تمبكتو من الغرب ومنها الى طنجة.

١٨٣٥ - الدكتور دافيدسون وقد وصل الى تمبوكتو من مراكش، ومات في الصحراء.

١٨٥٠ - (ريكاردوسون) الذي كان مكلفا بمكافحة الرّق من قبل الجمعية الإنجليزية ومعه (أوفيرفيج) و (بارت) و (فوجل). وهم من الألمان، وقد اتجهوا من طرابلس قاصدين بحيرة تشاد ومنها الى تمبوكتو. وقد مات ريكاردسون عام ١٨٥١ في بورنو ومات أوفيرفيج عام ١٨٥٢ في بحيرة تشاد، وقتل فوجل عام ١٨٥٦ بأمر سلطان وادي بعد

وصوله هناك، ولم ينج إلا بارت، الذي ولد عام ١٨٢١ في هامبورج ومات عام ١٨٦٥ في برلين، بعد أن دوّن معلومات قيّمة عن السودان الأوسط.

١٨٥٩ - ١٨٦١ - بعثة (دوفيرييه) في بلاد الطوارق، وقد ورد ذكره ودوره أثناء الحديث عن تاريخ السنوسية.

١٨٦٢ - فون بورمان الألماني وقد ولد في بوتسدام عام ١٨٣٥، وكان أوّل من وصل الى (واو الكبير) وهو يبحث عن مصير فوجل، وقُتل هو الآخر شمالي بحيرة تشاد.

١٨٦٧ - جيرهارد رولفس الألماني الرّحالة الشهير والذي جاء الى ليبيا والسودان الأوسط يحمل إسما إسلاميًا وفي حماية شيخ مغربي عام ١٨٦٤، قادمًا عبر طريق توات - غدامس، وعبر لاجوس - طرابلس عام - ١٨٦٥ - ١٨٦٦. وقد قيل أن الأجهزة الفرنسية الفرنسية قد لاحقته للإشتباه في دوره في انتفاضة الجنوب الجزائري التي حدثت عام ١٨٧١. وفي عام ١٨٨٤ أصبح قنصلا لألمانيا في زنجبار. كما ورد في وثائق الخارجية الفرنسية أنها كانت تتوجّس من أن إتصاله بالسيد المهدي شيخ الطريقة السنوسية آنذ، جرى ضمن محاولة لعرقلة الزحف الفرنسي في أفريقيا.

١٨٦٩ - الأنسة تينيي الهولندية والتي قامت برحلة مغامرة من طرابلس قاصدة بحيرة تشاد، ولكنها قُتلت بالقرب من مرزق.

١٨٦٩ - ١٨٧٤ - جوستاف ناختيجال الرّحالة الألماني المعروف الذي ولد عام ١٨٣٤ ومات عام ١٨٨٥، وقد تجول عام ١٨٦٩ في منطقة تبستي وتشاد، وعاد عن طريق دارفور ومصر. وفي عام ١٨٧٢ عُيّن قنصلا في تونس ثم مات في أفريقيا الشرقية وهو في خدمة سلك بلاده الدبلوماسية.

١٨٧٣ - ١٨٧٤ - بعثة دورنو - روبيير - جوبيير الفرنسيين الثلاثة، والتي سارت من الجزائر الى تمبكتو، وقد قتلوا جميعهم بالقرب من غدامس.

١٨٧٦ - بعثة مجموعة القسس الفرنسيين البيض إلى تيمبكتو. وقد قتل منهم خلالها ثلاثة رهبان قرب واحة المنبوعة بالجزائر.

١٨٧٧ - أرفين فون باري الألماني الذي أراد التوجه إلى تمبكتو عن طريق الهوغا، ولكنه قُتل في الصحراء.

١٨٨٠ - أوسكار لينزالألماني الذي وصل إلى تمبكتو ومات هناك.

١٨٧٩ - ١٨٨١ - بعثة الضابط الفرنسي فلاترس، والذي بدأ رحلة إستطلاعية تمهيدا لتنفيذ مشروع بناء خط سكة حديد يربط الجزائر بالسودان، عبرالنيجر، بعد أن سبقتها بعثتان أخريان قدمتا معلومات أولية عن المنطقة إلى السلطات الفرنسية في الجزائر، وقد وقع أفراد البعثة الكبيرة وعددهم ١٨٥ ضابطا وجنديا في كمين نصبه لهم طوارق الهوغار وغاليتهم يستوطنون الجزائر. ومات فيه تسعون فردا منهم. وقد أخبر عن ذلك - حسب الوثائق الرسمية الفرنسية والتركية- الشيخ إيخونخ زعيم الطوارق الليبيين، وغاليتهم من الأزقار، في رسالة موجهة منه إلى الحاج طاهر البوصيري الذي كان عميلا للفرنسيين في غدامس. وأثرت هذه المذبحة تأثيرا سلبيا على فكرة مشروع سكك الحديد الصحراوي، كما أنها أججت الحقد، وزادت من قسوة القمع الفرنسي للحركات الوطنية المناوئة،وعلى رأسها الحركة السنوسية.

١٨٨٥ - بعثة القسس الفرنسيين البيض الثانية إلى تمبكتو. وقد راح ضحيتها ثلاثة رهبان قتلوا بالقرب من غدامس.

١٨٨٥ - رحلة الدكتور بالات الألماني من تونس إلى تمبكتو. وقد لقي فيها حتفه.

١٨٨٩ - رحلة (كميل دول) الفرنسي من مراكش إلى تمبكتو. وهناك ذبحه أدلاؤه وهو نائم.

أي أنه في خلال ١٠٠ سنة من رحلات الجغرافيين والمكتشفين الأوروبيين في الصحراء والسودان الغربي سواء بقصد تحقيق المطامع الإستعمارية أو مطاردة تجارة الرقيق، سقط منهم حوالي ١٦٥ ضحايا لهذه المهام دون أن تأتي على ذكر جميع الرحالة الذين طافوا بالأراضي الليبية، واقتصرنا على أيراد أسماء ومصائر البعثات التي تجولت في أقاليم السودان. وهو ما يقتضيه البحث في هذا الفصل، ومن بينهم رحالة معروفون أمثال (دوفيريير) ورولفس وناختيغال، الذين لعبوا أدوارا لصالح مطامع دولهم أثناء عمليات لتصدّي للإستعمار. وسيتعيّن التعرّض لهذه الأدوار في سياق الفصول الأخرى من الدراسة. ويهمنا في هذا البحث التركيز على الأقاليم السودانية جنوبي ليبيا، وهي (الوادي) و(كانم) و(بورنو)، لأنها ستكون مسرحا للصراع الطويل بين شعوب تلك الأقاليم، تقودها حركات وطنية أبرزها السنوسية، وبين قوات الغزو الإستعماري الفرنسي.

## الوادي

وهو إقليم يقع في شمال وسط أفريقيا تحده شمالا الصحراء الليبية وشرقا دارفور، إحدى ولايات جمهورية السودان، ويمتد غربا وجنوب غربا إلى كانم وباجرم، وجنوب شرقا إلى (داررونجا). ومن خصائصه الطبيعية أنه سهل منبسطة الجزء الأكبر منه موحد ذو كثبان رملية يرتفع - ١٥٠٠ - قدم عن سطح البحر ويشكل جزءا من الأرض الطينية لحوض بحيرة تشاد، كما تتخلله الهضاب التي يبلغ ارتفاع بعضها على هيئة شبه دوائر تنتشر من تيبستي إلى دارفور: ففي الشمال الشرقي ينتصب جبل (دارتام) على مرتفع يتراوح ما بين ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ قدما وأعلاها قمة (نييري) التي تبلغ ٣٩٣٧ قدما وهناك بعض الأراضي المعشوشبة، ومع أن السطح غالبا ما يكون رمليا إلا أنه توجد مساحات ذات تربة سوداء تصلح لزراعة القطن، وفي أقصى الشمال الشرقي تجري بعض الوديان والنهيرات الصغيرة.

والتركيب السكاني للوادي يحتوي على مزيج من الزنجانين (شبه الزنوج) والزنوج والعرب والفلو والتبو، أما المايا فيمثلون النسبة الغالبة منهم، وهم من أصل نوبي ويقطنون الإقليم الشمالي الشرقي. وفي عهد السلطنات كانوا حلفاء للقبائل العربية. وعاصمة الوادي هي (أباشر) التي كانت تنطلق منها القوافل تمخر الصحراء عبر الكفرة إلى بنغازي. وهناك طريق آخر للحج يسلكه أهل أفريقيا الغربية في طريقهم إلى مكة، ينحوا شرقا من خلال دارفور والخرطوم. أما أهم محاصيل الإقليم، فهي الذرة والذخن والقطن والنيلة (الصبغ الأزرق) والنسيج والمصنوعات الجلدية، والعاج وريش النعام. وكانت تصدر إلى طرابلس وبقية الموانئ الليبية، كما أن هناك تبادلا تجاريا في الماشية والبن مع السودان ونيجيريا. وكانت وادي مركزا لتجارة الرق يؤسر العبيد فيها أثناء الغارات أو على هيئة عطايا مقدمة من (الباجرمي) وكانم والأقوام الأخرى. وظلت الوادي نقطة لالتقاء الثقافتين العربية والزنجية. ويدين غالبية سكانها بالإسلام، ولكن العرق الزنجي كان هو الحاكم فيها. وفي العام ١٦٤٠ م قام (الماي) عبد الكريم باحتلال المنطقة واجلاء (الطنجور) عنها، وهم من أصل عربي. بعدها قاسى وادي من حروب أهلية طاحنة وغزوات كثيرة متبادلة. وسيتبين لنا كيف دخلت الطريقة السنوسية إليه

بواسطة سلطانه محمد الشريف الذي تولى الحكم من ١٨٣٨ - ١٨٥٨ م، وهي فترة زعامة مؤسس الطريقة السنوسي الكبير، وبذلك ترسخت سلطته<sup>٢٠</sup>.

## الواداي والباجرمي

بعد الإجتياح الفرنسي في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ومن خلال الإتفاق الإنجليزي الفرنسي المعلن في ٢١ مارس ١٨٩٩ اعتُبرت الواداي ضمن النفوذ الفرنسي، فتنازعتها الحروب الأهلية. وحين قُتل السلطان إبراهيم عام ١٩٠٠ وحلّ محله أحمد غزيلي، أمر بأن يُقضى على غريمه (أصيل) مما أرغم أصيل على الهروب والإلتجاء لدى الفرنسيين في الغرب. وبعد فترة وجيزة (نوفمبر ١٩٠١) عُزل أحمد عن العرش، فسعى الفرنسيون إلى التفاهم مع خليفته داوود مرّة والذي سرعان ما اعترف للفرنسيين في نوفمبر ١٩٠٣ بالسيطرة على كانم وباجرمي وأقاليم أخرى، غير أنه في ربيع ١٩٠٤ قام أهل واداي - بايعاز من السنوسيين، كما قيل - بهجمات على قواعد الفرنسيين في إقليم شاري وغنموا الكثير من العبيد. واستمرت معارك متقطعة بين الجانبين لعدة سنوات. و هذا أدى بالفرنسيين إلى تعزيز استحكاماتهم وتقوية موقع حليفهم أصيل وفي عام ١٩٠٨، ومرة أخرى بايعاز من السنوسيين، أعلن داوود مرّة الجهاد. وكان أن هُزم جيشه الذي توزّع على هيئة عقداة Aguids أو لوردات حرب إقطاعيين. وما أن جاء عام ١٩١٢ حتى استسلمت الواداي تماماً للفرنسيين وألغيت السلطة التي كانت ذات نفوذ، على الرغم من أن السلطات في المناطق الصغيرة مثل دارتاما (بين الواداي ودارفور) احتفظت بكياناتها تحت الحماية الفرنسية.

في الأعوام ١٩١٣ - ١٩١٤ اجتاح الواداي قحط مريع وقضى على أعداد كبيرة من السكان. ووصف الكولونيل Jeantilho الوضع قائلاً: " لقد قدر عدد سكان الواداي من قبل ناخيتجال بأكثر من مليونين عام ١٨٧٢ هبط إلى ٣٠٠,٠٠٠ حين وصلت الى هناك " (١٩١٧) ولم تستبق أباشر إلا القليل من مجدها الغابر، ولكن أعيد بناؤها عندئذ بالتدريج من قبل الفرنسيين. كما أن واداي لم تتأثر إلا قليلا بنشاط السنوسيين أثناء الحرب العالمية الأولى؛ فاحتلال دارفور من قبل قوات حكومة السودان عام ١٩١٦ أشاع النظام في المناطق المتأخم، ثم أدى إلى رسم خط الحدود عام ١٩٢٣. وقام الفرنسيون بالقضاء الميرم على تجارة العبيد، إلا أن التجارة الأخرى العادية ازدادت لا سيّما مع السوادان.

٢٠ الموسوعة البريطانية ص. ٢٦٥ - مرجع سابق.

أما الباجرمي، فحين بدأ الغزو الفرنسي لهذا الإقليم الذي يقع جنوب شرقي بحيرة تشاد عام ١٨٩٥ سعى السلطان جاورانج **Gaurang** - الذي تحطمت قوّاته حين أخضع المغامر رابح البلاد<sup>٢١</sup> - إلى الإستعانة بالفرنسيين، وأبدى استعداداه للقبول بحمايتهم. ولهذا وقع إتفاقية مع **Emile Gentil** عام ١٨٩٧، ووافق السلطان على أن يمدّ القوّات الفرنسية بالطعام مقابل منحه الإستقلال الذاتي. وبعد هزيمة رابح في أبريل ١٩٠٠ وقّعت إتفاقية أخرى عام ١٩٠٣ وتنازل السلطان عن مطالبته بالضفّة اليسرى لنهر شاري، وتنازل عن حقه في فرض الرقيق على السكان الخاضعين لسلطته. ومقابل ذلك حصل على ١٠٠ حصانا و ١٠٠ رأسا من الماشية و ١٠٠٠ من **Thalers** - وهي نقود فضّية - كما وقّعت إتفاقية نهائية عام ١٩١٢ حين، أحكمت القوات الفرنسية قبضتها على المزيد من أراضي الباجرمي. وأثناء إدارة الوالي **Merllit**، قام عام ١٩١٥ بتعيين العديد من مساعدي السلطان في الوظائف، أما القضاء في أمور الجريمة و جمع الضرائب فقد قام بها الفرنسيون. وبعد وفاة جاورانج عام 1918 حلّ محله عبد القادر الذي خلفه يوسف عام ١٩٣٥. ويتكوّن السكان بشكل رئيسي من: الفولاني والعرب وهم مسلمون، بينما يؤمن الزوج في الجنوب بمعتقداتهم التقليدية الوثنية. واعتبارا من العام ١٦٠٠ وأثناء حكم السلطان عبد الله السلطان الرابع أصبح أغلب السكان مسلمين.

وقد تعرّف الأوروبيون على الباجرمي وبقية الدويلات القويّة الأخرى كالوادي وبورنو وكانم لأول مرّة، حين تسلّل **Dixon Denhan** إلى بحيرة تشاد عام ١٨٢٣، ثم عُرفت التفاصيل عن المنطقة خاصة من **Heinrich Barth** الذي اعتقله الباجرميون عام ١٨٣٥ ، ومن **Gustav Nachtigal** الذي تجوّل فيها عام ١٨٧٢ وخلال القرن التاسع عشر خاضت الباجري حروبا مستمرة مع جيرانها خاصة برنو والوادي. وكانت السلطنات الأخرى تنتصر عليها. وفي عام ١٨٧١ كانت أجزاء واسعة من الباجرمي خاضعة للوادي تدفع له الجزية<sup>٢٢</sup>.

## كانم و بورنو

بورنو إقليم يقع في جنوب غربي بحيرة تشاد (أكثر من ٤٠ ألف كم مربع) وهو الآن ولاية تابعة لنيجيريا، كان أحد أشهر وأطول إمبراطورية سودانية عمراء، ألا وهي

٢١ هو مغامر من السودان الشرقي سيأتي الحديث عليه.

٢٢ دائرة المعارف البريطانية ص ١٠٣٧

إمبراطورية (كانم - برنو) والجزء الأكبر من الإقليم يقع في حزام السافانا مع سهل رملي منبسّط تتخلّله صخور مساميّة حمراء في القسم الغربي منه.

في القرن الثامن للميلاد تعرّضت كانم الواقعة مثل برنو شمالي بحيرة تشاد، والتي كانت تسكنها أقوام زنجية و ثنيّة تمتهن الزراعة وتسمّى (So) سو، تعرّضت لغزو السيفيين (وهم قوم من الفرسان غير الزوج الذين بسطوا سلطتهم على البلاد. والسيفيون يُزعم أنهم يتحدّرون من سيف بن ذي يزن البطل الحميري في القرن السادس الميلادي، والذي دعا الغساسنة إلى تحرير اليمن من حكم أكسوم (الحبش). ولا يُرجّح أن (سيفا) ذهب بنفسه إلى كانم. إذ أن المؤسّس النشيط للأسرة وأدل ماي (أي ملك أورنيس) كان دوجو وهو حفيد لسيف. وعلى أساس هذا التاريخ يكون قد حكم العام ٨٠٠ ميلادية.

ويتجه الرأي المعاصر إلى القبول بما دونه المؤرّخون العرب عن تاريخ السودان الأوسط وانطلاقاً من اليعقوبي عام ٨٩١ ثمّ من جاء بعده، إلى أن الغزاة كانوا ينتمون إلى زغاوة، وهم تجمّع ضخم متألّف من الرعاة الليبيين الذين كانوا في ذلك الزمان يسيطرون على القسم الشرقي من الصحراء الكبرى، فأى تأثير يمني أو نوبي في كانم القديمة جاء على الأرجح بشكل غير مباشر.

في البداية فصل السيفيون أنفسهم عن الزوج الذين يحكمونهم وتحاشوا التزاوج معهم. ولكن بسبب التواصل مع الرعاة الصحراويين تطوّرت التجارة بين كانم و شمال أفريقيا عن طريق فزان. ومن هنا برزت بلدة (نجيمي) كمركز تجاري للبلاد ومن ثمّ كعاصمة سياسية لها. ومع التجارة وفد الإسلام إلى كانم. وأول حاكم مسلم لها كان هو (أم) ١٠٨٥ - ١٠٩٧.

ويبدو أن عملية تحوّل السيطرة الرعويّة المتقلّبة إلى دولة إسلامية رسمية، بدأت مع حكم (دونوما) ابن أمّ في الفترة من ١١٥٠ - ١١٩١. وبالتجارة والحج نشأت إتصالات مننظمة مع تونس ومصر، وأدخلت مفاهيم الشريعة الإسلاميّة والإدارة و نظام الضرائب، وكذلك الابتكارات المادية مثل البناء بالأجر المحروق، تلك الابتكارات التي طعّمت بأفكار التشارور بدلا من الأساليب الإقطاعية التي كانت سائدة في الأزمنة الرعوية، وتشكل جيش نظامي مكوّن من فرسان الأتباع الرعاة والمجنّدين الزوج الذين يستعملون السهام و الرماح. و هكذا نشأت إمبراطوريّة وصلت إلى أطراف فزان الشمالية، وأدّت إلى استعمار بورنو. ومع الإستقرار السياسي بدأ السيفيون في الإندماج مع الزوج المغلوبين. فأسم سليم

- أي الأسود - لُقّب به الماي عبد الجليل (١١٩١ - ١٢٢٠) وبهذه الطريقة نشأ شعب (الكانوري) ووُلدت لغته<sup>٢٣</sup>.

## إحتلال كانم لفزان

عندما كانت أسرة بني خطاب البربريّة تسيطر على فزان، وزحفت سلطة كانم من الجنوب لتسيطر على معظم الطريق الموصل إلى فزان، أمكن للسلطتين كبح جماح قطاع الطرق من الرعاة. غير أنه في العام ١١٧٢ - ١١٧٣ أُطيح ببني خطاب على يد المغامر المملوكي شريف الدين قراقوش، وبذلك تدهورت أحوال طرق التجارة. وفي منتصف القرن الثالث عشرة استطاع حاكم كانم (الماي) دوناما ديلامي بقوته المتعاضمة (في الفترة من ١٢٢١ إلى ١٢٥٩) أن يتدخّل في حركة التجارة. وحتى يضمن حماية تبادلها مع طرابلس الغرب والشرق الأوسط، ويحول دون تحويلها إلى مسارب أخرى جانبية، قام بالحاق فزان بمملكته، أغلب الظن بمساعدة من التبو، وعيّن حاكما - يرجّح أنه كان من التبو أيضا- في عاصمة جديدة لفزان هي تراغن - ما بين مرزق وزويلة- وربما كانت مبادرة الماي دوناما السياسيّة والعسكريّة هذه اتبعت طريقا قديما للتغلغل شمالا قامت به أقوام أخرى سبقتة. وفي حوالي ١٣٠٠ ميلادي كانت كانم مركزا سودانياً للحضارة الاسلامية تضاهي مالي في الغرب. إلا أن الغيرة بين الأسر وبروز جماعة مضادة من الغزاة الرعويين أي (البولاله) أدت جميعها إلى تخريب وسقوط الإمبراطورية. وما أن جاء عهد علي دوناماني (١٤٧٥ - ١٥٠٥) حتى استطاع السيفيون إستجماع قواهم في ولايتهم السابقة بورنو، وجعلوا من (نقازقامو) عاصمة إمبراطورية جديدة. وخلال القرن السادس عشر تعزّزت باستمرار قوّة المملكة المستعادة. وصار سكان ممالك الهوسا الشرقية دافعين للجزية، كما أعيد احتلال كانم مع ترك ادارتها للتابعين من قبائل البولاله، وضُمَّت (أير) إلى سلطنة بورنو، واستؤنفت العلاقات مع تونس، ووصلت الإمبراطورية الجديدة قمتها تحت حكم إدريس ألوما (١٥٧٥ - ١٦١٥). وبفضل ترده المبكر على الحجّ فقد جلب إدريس معه الأسلحة النارية والقوادم العسكريين الأتراك إلى بورنو، ممّا مكّنه من بناء قوّة هائلة جعلته ليس مسيطرا فقط على الدويلات المجاورة، ولكن مكنته أيضا من أن يفرض سلطته والشريعة الإسلامية على الأتباع الذين يستعصى حكمهم في مناطق نفوذه. وحافظ أبناء إدريس من بعده على منجزاته طيلة خمسين سنة. إلا أن

٢٣ دائرة المعارف البريطانية ص ٩٧٢

المايات - جمع مايا أيّ السلطان أو الملك - أخذوا بأسباب الحياة المنعمة وملذات القصور بشكل مفرط، فانحطت الإدارة وضغفت الإمبراطورية تحت ضغوط الرعاة التوارق من قبائل الصحراء في الشمال وقبائل (كواراخا) في الجنوب، وحلت مع الهوسا، مثل (كانو) و(كاتسينا)، محلّ بورنو كمراكز مهيمنة على تجارة السودان مع شمال أفريقيا.

في أوائل القرن التاسع عشر ظهرت على المسرح قوةً سياسيّة جديدة، عندما أدت حروب الجهاد التي شنتها قبائل الفولاني ضد ملوك الهوسا، إلى إقامة إمبراطورية (سوكوتو) تحت قيادة (عثمان دان فوديو) وابنه محمد بيللو. وكان أن هوجمت بورنو عام ١٨٠٨ . وقد سبق ذلك تسلل الفولاني إليها منذ القرن الثالث عشر وطرده (الماي) من (انجازارقامو)، غير أن نداءه بطلب المساعدة لقي استجابة من مرابط كانم الشيخ محمد الأمين الكانمي، ويُلَقَّب بالأمينو، الذي قاد حركة إحياء وتجديد وطنيّة عجلت بطرد الفولاني وجعلت منه الحاكم الحقيقي، إن لم يكن السيد المطلق لبورنو، وأصبحت (أكوار) العاصمة الجديدة. وعندما مات الأمين عام ١٨٣٥، وحاولت البقية الباقية من السيفيين إبعاد ابنه عمر، هُزموا وقُضي عليهم، وتقلد عمر السيادة الملكيّة المطلقة بلقب (شيخو). وفي عام ١٨٩٠ احتلت بورنو من قبل راج. ولكن ما لبثت أن سقطت في فلك النفوذ الأوروبي. وفي عام ١٩٠٢ احتلت بورنو من قِوات **Frederick Lugad** (فريدريك لوجارد) البريطانية، وقام بتنصيب خليفة شيخو الذي قتله راج، وأعلن بورنو ولاية من ولايات المحمية الإنجليزية في شمال نيجيريا. ومنذ ذلك الوقت ارتبط تاريخ الإقليم بتاريخ الشمال النيجيري.

أما التكوين السكاني في بورنو فقد اُتسم بامتزاجه بالعديد من القبائل ذات الأعراق واللغات والثقافات المتباينة، نتيجة لتاريخ تلك الإمبراطورية. وجنس الكانوري هو الجنس الغالب على السكان وهم يقطنون الحوض الشرقي لتشاد. وأخيرا أصبحت بورنو أوسع ولايات القطاع والمقر الرئيسي لشيخو. وفي عام ١٩٦٠ كَوّن الكانوري مع عصبيّات وجماعات الكانيمبو حوالي نصف السكان وكان عددهم ١,٨٣٣,٢٠٩ نسمة، ورغم سواد جلدتهم وتقاطيعهم الزنجيّة، إلا أن أصولهم قد تنصّن أرومة بربريّة، ولغتهم لا هي اللغة البربريّة التي يتكلمها طوارق شمال تشاد، ولا اللغات النيجرية، فهي شقيقة للغة (التيدا) التي يتكلمها (التبو) في منطقة تيبستي جنوب شرقي الصحراء. وتسود الشريعة الإسلامية - خاصة فيما يتعلق بالأحوال الشخصية - بين السكان الكانوري، وهم كغيرهم من بقية الأعراق يتحدّرون من أب واحد (**Patrilineal**) باستثناء الفولاني الذين يتميّزون بحمل علامات خاصة (حجامة) في الوجه، أمّا علامة الكانوري، فهي خطّ حجامة عمودي في

الجهة - يشاركهم فيها كل من البادي والتيدا - والسكان الذين يمارسون دون غيرهم الحياة الريفية في بورنو هم: (الشعرا) العرب وكان عددهم ٩٨٩٠٩ عام ١٩٦٠ والفولاني ١٦٨,٩٤٤، وكانوا قد وصلوا متأخرين. وفي القرن التاسع عشر إقتطع الفولاني إمارات الحديجية في ولايتي (كانو) و(باوتشي) في مقاطعة بورنو. كما أن الكانمي دعا إلى أن يقوم الشعرا بإخضاع أولئك السكان الذين كانوا يقيمون في وسط برنو<sup>٢٤</sup>.

## تعمق العلاقات في العهد القرمانلي

رأينا فيما سلف أن الإسلام بدأ انتشاره في مناطق السودان الأوسط - إنطلاقا من الواحات الليبية - منذ فتح عمرو بن العاص لليبيا (٦٤٢ - ٦٤٣) <sup>٢٥</sup>.

ويحدثنا جون رايت في كتابه الممتع المليء بالمعلومات (ليبيا و تشاد و الصحراء الوسطى) عن سطوة المسلمين التجارية - في القارات الثلاث - و أسلوبهم الفريد في مزاوله التجارة وبت المدنية، وكيف استخدموا الشريعة في تسيير شئون المجتمعات المحلية، وفي نفس الوقت استطاعوا أن يجذبوا السكان الذين اختلطوا بهم إلى اعتناق الدين الجديد، حتى لا يقعوا عبيدا وهم كفار. أما في شمال أفريقيا فقد استطاع التجار المسلمون أن ينشئوا المدنية بمحاذاة المجتمع المحلي، لأن الإسلام يتجذر في المجتمع الحضري، كما اتخذوا من الأفريقيات أزواجا وجواري وإماء لخدمتهم في البيوت. وقد استمر ازدهار الأسواق التي أنشأوها إلى ما بعد وصول الأوروبيين في القرن الخامس عشر. ثم يشرح (جون رايت) أن من أسباب إقبال الأفارقة - بما في ذلك حكامهم - على اعتناق الإسلام، كونه يقدّم نظاما إجتماعيا كاملا تقريبا، مع ربطه للسكان المحليين بالعالم الخارجي عن طريق ضمهم إلى (الامة)، كما أن الشريعة أعطتهم ما يحتاجون اليه من سلوك يفتن شئون الحياة، مقرونا بنشر واسع للفكر واللغة العربيين المرموقين<sup>٢٦</sup> وقد مرّ بنا نشوء وتطور العلاقات التاريخية والديموغرافية بين ليبيا وبلدان السودان الأوسط منذ أقدم العصور،

٢٤ دائرة المعارف البريطانية ص ٩٧٢

٢٥ ردد الكثيرون - و ما يزالون - أن الإسلام دخل تلك البقاع من الصحراء الكبرى على يد السنوسية. وهذا ليس صحيحا كما دلت آثار المؤرخين العرب والتي المحنا إليها. علما بأن السنوسية ساهمت في نشره بين بعض الأقوام الوثنية في تيبستي بالذات، كما نشرت عقيدتها في فهم الدين، وصححت المفاهيم المغلوطة عن الإسلام عند أقوام أخرى، إذ اختلطت لديهم بالطقوس الوثنية.

26 \*Jhon Wright Libya Chad and the Central Sahara ص 34 -Hurst 35  
London

ولكن تبلور هذه العلاقات وإحداثها لوقائع جديدة متشابكة جرى منذ عهد يوسف باشا القرماني الذي تولى الحكم في طرابلس عام ١٧٩٤ بعد أن قتل أخاه الأكبر وعاقب الآخر، وحكم لمدة ٣٨ سنة بنفس الأسلوب القاسي الفظ. وقد وصفه أحد المؤرخين بقوله: " كان طاغية متوحشاً لا أخلاق له، لم يحترم قط إنترامته مالم تتفق مع مصالحه الشخصية. ورغم ذلك كان يوسف أعظم باشاوات القرماني. لقد عمل على تحقيق مطامح بلاده بأسلوب في منتهى الغلظة، واستعمل جيشه ببراعة ضد القبائل المتمردة دائما في الدواخل، مما جعل نفوذه محسوسا وإسمه يثير الرعب إلى مدى وصل برنو<sup>٢٧</sup>. وفي الفترة من ١٧٩٥ - ١٨٠٥ رسخ سلطته. وفي الفترة ١٨٠٦ - ١٨١٧ أخضع ليبيا بكامل حدودها الحالية وفرض حكمه المباشر على الواحات التجارية الرئيسية في الدواخل. ومن ١٨١٧ حتى ١٨٢٤ عمل على تأسيس ونشر نفوذ طرابلس عبر الصحراء إلى داخل السودان الأوسط. وفي بداية عهده استطاع أن يعزز سلطة وسمعة وثراء طرابلس بفضل انهماكه في غارات القرصنة في البحر الأبيض على بواخر الملاحة التابعة للدول الأوروبية الأصغر حجما، بينما كانت الأخرى الأقوى والأكبر التي عادة ما تحجم عن هذا النشاط، منشغلة بحروب نابليون. وحتى قبل صعود هبة بريطانيا بفضل انتصارات نيلسون وطرده للفرنسيين من مصر ومالطا، فإن والي طرابلس رجب باشا كان يستجيب لطلبات القنصل البريطاني، في أن تقوم البعثات البريطانية بعمليات الاستطلاع للدواخل الأفريقية، انطلاقا من طرابلس، بحجة الإكتشافات الجغرافية والعلمية. والحقيقة أنها كانت تهدف إلى رصد عمليات تهريب العبيد هناك، وتتبع الطرق الرئيسية التي يستعملها المهربون. ومن أهم تلك البعثات التي شجعها الوالي العثماني المذكور رحلات كل من لوكاش وهورنيمان التي سلف الحديث عنها. ولا شك أن تجارة الرقيق التي انتشرت آنذاك في تلك الأقاليم وأثرت في الحياة الليبية وأوضاعها الديموغرافية والاقتصادية، لجديرة بإعطاء نبذة عنها كما يلي:



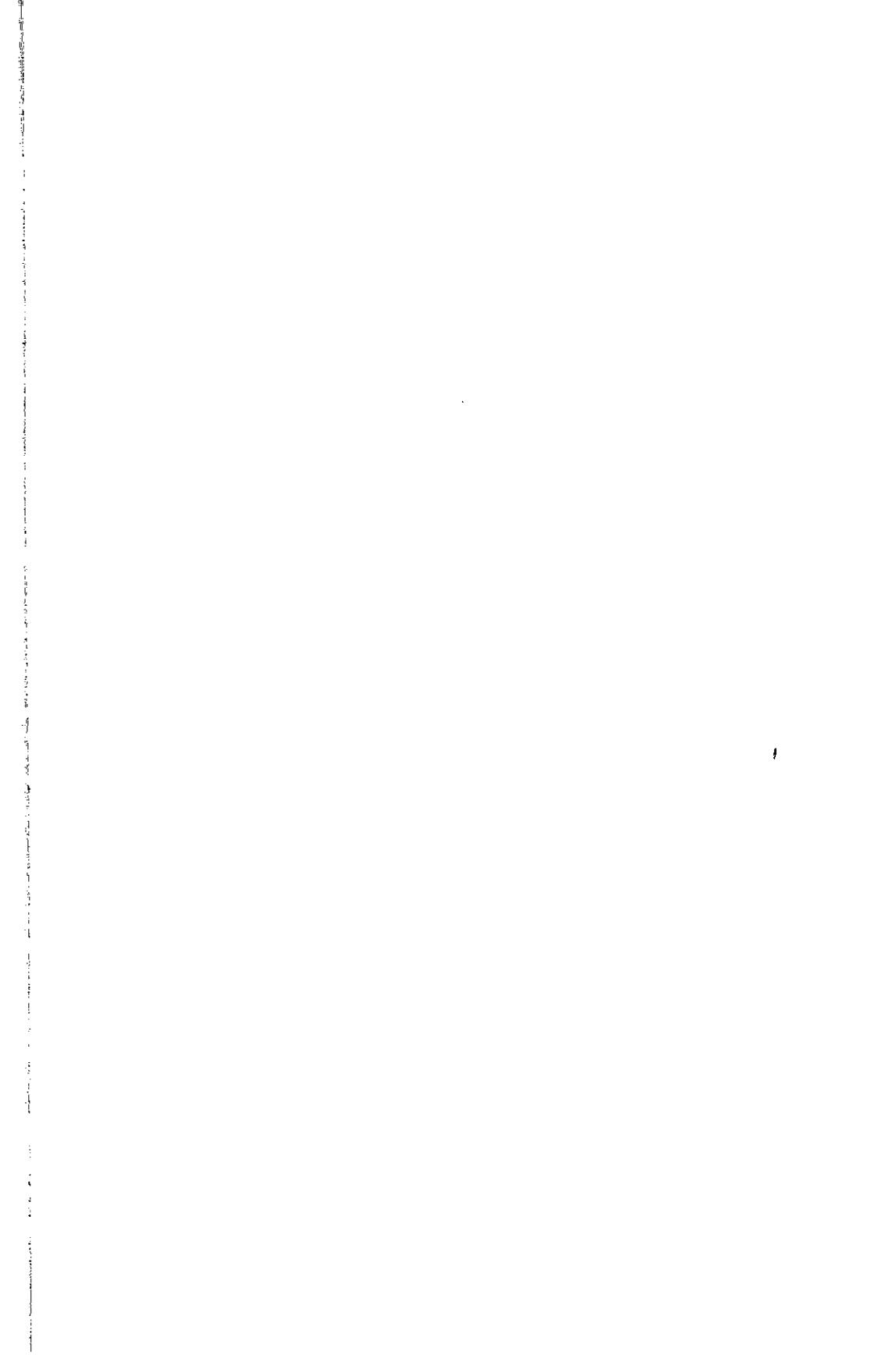
**الفصل الثامن**  
**ليبيا وتجارة الرقيق**



## الفصل الثامن

### ليبيا وتجارة الرقيق

- الرقيق عبر القرون وفي نظر الأديان السماوية
- تطوّر عمليات إلغاء الرقّ
- قضية الرقّ في ليبيا
- هجرة أولاد سليمان و تأثيرهم في حياة تشاد



## الفصل الثامن

### ليبيا وتجارة الرقيق

#### الرقيق عبر القرون وفي نظر الأديان السماوية

الرقيق لغويا مشتق من رقّ فهو رقيق ضد الغليظ الثخين، وتعني الهين الضعيف. والرّق هو الملك والعبودية. وفي الإصطلاح العربي ورد قول أبي العباس: " سُمّي العبيد رقيقا لأنهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون ".

وقد تطوّر الرّق مع تطوّر المجتمع البشري في مراحلهِ المتتالية، ففي عصر الصيد كما قال Dunoyer لا يقوم المحارب المتوحش باستعباد عدوّهِ الذي ينتصر عليه، بل يقتله للتخلص منه ويتخذ من نساء القبيلة المغلوبة زوجات وخادمات له. وعندما جاء العصر الرعوي كان الأسرى يُباعون ما عدا القليل منهم الذين يُستبقون لجني ثمار الحقول. وفي عصر الزراعة المستقرة مورست العبودية على نطاق أوسع، وأضحت وسيلة لإنتاج الغذاء للسيد وإغناؤه عن حياة الكدح بنفسه لتوفير لقمة العيش له ولعائلته. وفي تلك المرحلة من تطوّر الحياة البشرية صارت العبودية سلوكا عالميا لصيقا بالإنسان. وحتى الحضارات القديمة استغلت هذا الوضع، ففي الحضارة السومرية في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، كانت مؤسسة الرّق منظمة بموجب قانون هامورابي ملك بابل (١٩١٣ - ١٩٥٥) قبل الميلاد، وأشهر جندت العبيد في حروبها ضدّ بابل والممالك المصرية القديمة والفارسية، ثم تلاهم العبرانيون في ممارسة الرّق. وفي مصر الفرعونية تواجد الرّق بشكل ضئيل إذ لم تنشأ الحاجة الماسة إليه بحكم توقر الفلاحين المطيعين ذوي الأجور الرخيصة، واقتصر استخدامهم في العهد البطليموسي في بيوت الأغنياء كخدم. أما الحضارة الإغريقية فلم تُلغ الرّق رغم مبادئها المناهية بالحرية والديمقراطية. وفي القرن الخامس قبل الميلاد - مع نشوء طبقة أثرياء وجدوا ربحا في هذه التجارة خاصة في جزيرة Khios أي (خانية) التابعة لكريت قبالة الساحل الشرقي لليبيا. وفي جزيرة (أتিকা)، بلغ العبيد فيها سنة ٤٣٠ قبل الميلاد مائة وخمسة عشر عبدا من مجموع عدد سكانها البالغ الثلاثمائة وخمس عشرة نسمة. وعند الرومان كانت تجارة الرقيق مزدهرة في القرنين الأول والثاني قبل الميلاد. وكانت جيوشهم في شرقي البحر الأبيض تتخذ من

جزيرة (ديلوس) سوقا يُشترى فيها الرقيق السورويون واليهود والإغريق والمصريون ليباعوا في روما. وفي العصر الحديث وبزوغ الآلة والصناعة، جاء أوسكار وايلد (١٨٥٤ - ١٩٠٠) - وكان إشتراكيا فوضويا وطوباويا - ليقول: " من المحقق أن المدنية كانت تتطلب وجود الرقيق. والإغريق كانوا صانئين هنا، فلو لم يكن هناك رقيق يقومون بالأعمال البشعة والرهيبة والهامشية، لاستحالت الثقافة والتأمل الروحاني. والآن يعتمد مستقبل العالم على العبودية الميكانيكية، أي العبودية للآلة ".

ولعل من أطرف التعليقات التي ساقها بعض المحللين الغربيين، القول بأن ظاهرة الرق لدى الإغريق والرومان القدامى نشأت كوسيلة من وسائل التخلص من عادة كانت متبعة وهي: تعريض الأطفال الرضع لعوامل الطبيعة في العراء حتى يموتوا تخلصا منهم، لأسباب عديدة أهمها الفقر وضغط الحاجة. ولذا كان هؤلاء الأطفال يُنقذون أحيانا من قبل التجار الذين يعثرون عليهم فيقومون ببيعهم كعبيد. ولكن ليست عملية بيع الأطفال هي تجارة الرق في حقيقتها، حتى لو كانت لإنقاذهم من الموت ؟.

أما عملية عتق العبيد في هذه الحضارات القديمة فقد اتخذت أساليب وأشكالا عدة: ففي الثقافة البابلية يصبح الرقيق حرا إما بالعتق الرسمي أو بالتبني أو بأن يشتري نفسه. وفي أثينا كانت الدولة تستخدم الرقيق كإداريين ورجال شرطة يتقاضون أجورا يومية. وكانوا يطمحون إلى التحرر بقرار رسمي. وفي العهد الذهبي للسياسي الحضيف بيريكلس Pericles (٤٢٩ - ٤٩٥ قبل الميلاد) الذي قاد أثينا نحو الحكم الديمقراطي الدستوري، فقد كثر الرق واتسع عتقه. ولعله من المفيد أن نذكر هنا قول أرسطو (٣٢٢ - ٣٨٤) " كل قادر على أن يكون تابعا للآخر هو عبد بالطبيعة "، أي أنه كان يرى الرق ضروريا وطبيعيًا. وهو قول يصور بجلاء شروط ذلك المجتمع الموضوعية وعلاقات القوى بين أفرادها، بينما كان إفلاطون يشجبه، والرواقيون كانوا يعتبرون الحرية والرق عرضا خارجيا غير مهم من وجهة نظر الحكمة. وقالوا: " من غير المعقول أن يُنظر إلى الحرية على أنها مصدر للفخر، وإلى العبودية على أنها موضوع للتذمر ". وفي ثقافة الرومان، للسيد أن يعتق عبده، ولكن في حالات نادرة وبإجراءات شكلية معقدة، وإذا ما عتقه جاز له أن يُعيد استرقاقه متى شاء. وفي العصر الإمبراطوري اتسع العتق وأخذ السادة يتباهون به. وفي آخر مرحلة من تطور الرقيق العتيق تحول من شكله التقليدي إلى رق الأرض Serfdom أو Servage، أي القنانة. وهو عمل الرقيق في الأرض لقاء جزء من المحصول الذي لا يحق أن يُنتزع منه. وكان ذلك دافعا للقنان لكي يضاعفوا من بذل

الجهد لزيادة الإنتاج. وهكذا أُجيز لهم بناء بيوتهم على الأرض الممنوحة، فأنجبوا أولادا ينتسبون إليهم مما أكسبهم شخصية قانونية، كما استردوا شيئا من كرامتهم الإنسانية. لكنهم ظلوا رغم ذلك ملتزمين بالخضوع لأسيادهم في كل ما يأمرونهم به، فلا يزرعون الأرض التي مُنحت لهم إلا بآذنهم، ولا يتزوجون إلا بإجازة منهم ومن نساء رقيق إقطاعياتهم، ولا يستطيعون هجر الأرض أو مغادرة الإقطاعية. ويرث أولاد السيد رقيقه من بعده لأنهم أرقاء أرض يولدون ويموتون عليها، فكانوا يُباعون هم وأسرههم مع الأرض. ويحدث أن يلجأ العبيد المستضعفون إلى سيد إقطاعي قوي يحميهم، وأن ينقلب مدينون لسيد إقطاعي عجزوا عن الوفاء بديونهم، إلى أرقاء له. ومنهم من أصبح رقيقا للإقطاعيات الكنسية، وآخرون يدخلون طواعية في رقعها طمعا في الثواب. وقد انتشر هذا النوع من السخرة في روسيا القيصرية في القرن الثامن عشر للميلاد، وفي عصر الإمبراطورة كاترين الثانية. ولكن في عهد الإمبراطور باول الأول الذي حكم من ١٧٩٦ - ١٨٠١ عمل على الإصلاح من أوضاعهم. وفي عهد الإسكندر الثاني كَوّن عام ١٨٥٥ لجنة سرية لوضع مخطّط نتج عنه قانون يلغي السخرة بحلول عام ١٨٦١، وإذ ذاك كان عدد الخاضعين لنظام السخرة ٢١ مليونا إضافة إلى نصف مليون منهم كانت تملكهم الدولة. وفي النهاية بلغ عدد المحرّرين منهم أكثر من أربعين مليونا.

وفي الأديان التوحيدية الثلاثة تفاوتت مواقفها من الرّق، حسب كتبها المقدّسة: ففي اليهودية ذكر الرّق في التوراة (العهد القديم) لأول مرة في سفر التكوين ٩: ٢٠: ٢٧ أثناء رواية قصة سيدنا نوح الذي كان مخمورا فنام في خيمته عاريا، وحينما دخل عليه (هام) أحد أبنائه استيقظ ولعنه قائلا له: إن نسله سيكونون عبيدا لنسل إخوته. وفي السفر ٢٥: ٤٤ - ٤٦ ورد القول " إن ذكرك وأنتاك هما عبيدان سيأتيان من الأوطان المجاورة حواليك؛ ومن بينهم يمكنك شراء العبيد. ويمكنك أيضا شراء العبيد من المقيمين بينكم مؤقتا وكذلك أعضاء عشيرتهم الذين وُلدوا في بلادكم، فهم سيكونون من أملاكك، وتستطيع أن تورثهم لأبنائك كتركة وأن تجعلهم عبيدا طول الحياة. ولكن يجب ألا تتحكم في إخوتك الإسرائيليين بقسوة. " ومن هنا يتضح، أنه بينما كان الإسترقاق نظاما متبعًا في الشرق الأدنى الغابر، مُنع الإسرائيليون بصفة خاصة من أن يتخذوا من مواطنيهم عبيدا دائمين. وفي (سفر الخروج) ٢١ ثمة أحكام بإمكانية تحرير العبيد في نطاق محدود مع حماية قليلة ضدّ سوء معاملتهم. والتوراة عبرت نوعا ما عن القلق تجاه راحة العبيد الأجانب الذين يعيشون في إسرائيل.

وفي المسيحية فقد ورد في الإنجيل (العهد الجديد) عدة رسائل تشيد فيها بقيمة العبد والحرّ عند المسيح عليه السلام، مثلما جاء في رسالة بولس الرسول ٣:٣٨ من أنه لم يعد هناك يهودي أو مسيحي أو يوناني، ولم يعد هناك عبد أو حرّ، ولم يعد هناك ذكر أو أنثى؛ لأنكم جميعا واحد في المسيح عيسى. ولكن هذا لم يكن حثا على تحريم الرقّ أو إلغائه، فمثلا وفي عام ١٤٨٨. أرسل ملك أسبانيا فيرديناند إلى البابا (أيتوشينتي الثامن) مائة جارية من مسلمي الأندلس جرى أسرهنّ بعد سقوطها، فقام كبير الكرادلة بتوزيعهنّ على أساقفة الكنائس. على الرغم من أنه وردت عدة رسائل إنجيلية وعظية مثل: أيها العبيد أطيعوا سادتكم في الأرض بخشية وارتجاف و: يا أيها العبيد أطيعوا سادتكم في الأرض في كلّ شيء وافعلوا ذلك، ليس فقط عندما يراقبونكم لتنالوا رضاهم، ولكن بإخلاص من القلب وبتبجيل للربّ. وهناك مواعظ أخرى تؤكد أن طاعة العبد وإخلاصه لسيدّه وتقبل العذاب في خدمته هي موجهة لذات الربّ. ومن ناحية أخرى وجّه النداء للسادة المسيحيين لكي يعاملوا عبيدهم معاملة إنسانية. ويجادل المسيحيون اليوم أن القديسين بولس وبطرس لم يدافعا أو يدينا الرقّ، ولكنهما بكلّ بساطة اعترفا به كممارسة كانت متبعة على نطاق واسع في الإمبراطورية الرومانية. مشيرين الى أن القديس بولس لم يكن مُصلحا اجتماعيا، ولكنه رسول.

وفي الإسلام فعلى الرغم من أن المؤرخين الغربيين حاولوا أن يعتبروا الإسلام - مثل اليهودية والمسيحية قبله - قد غصّ النظر عن ممارسة الرقّ، بل وشجّع على تعاطيه، إلا أن الفقهاء المسلمين أنكروا ذلك مؤكدين أن الدين الإسلامي اعتبره مكروها وأمر بتجنبه وشجّع، على العكس من ذلك، على تحرير العبيد. واستشهدوا في ذلك بآيات من القرآن والأحاديث النبوية، كما ورد في السورة ٤: **قَالَ تَعَالَى: أَعْرُضْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّعْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٠٠﴾ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ**

**وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا لِكُلِّ فِتْنَةٍ أَجْرًا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْتَبِيهِمْ وَأَجْزَلْنَا لَهُمْ أَجْرَهُمْ وَنَنصُرُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَيُجْزَوْنَ أَجْرًا كَثِيرًا مِمَّا كَسَبُوا وَسَيُعَذَّبُونَ فِيهَا بِمَا كَانُوا فِيهَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٠١﴾**

النساء: ٣٦ - ذهب كبار الرواة للأحاديث والمفسرين إلى أنها وصية بالأرقاء " لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن النبي جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول: الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم. فجعل يردّها حتى ما يفيض بها لسانه " - أي أن آخر ما نطق به قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة (ﷺ) - هي وصيته بإقامة الصلاة والرقق بالعبيد - وروى أبو ذرّ عن النبي قوله عن الأرقاء " هم إخوانكم حولكم

وجعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم. " كما أشاروا الى قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ﴿٢﴾** النساء: ٩٢ أنه لإتيان الكفارة ينبغي "فكك عبد من أسر العبودية ونزاعها، وأصل التحرير الفكك من الأسر"، وكذلك ما ورد في الآية **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِنَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَكَبُواهُمْ أَنْ عَدَمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآثَرُهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ ﴿٢﴾** النور: ٢٣ والمراد هنا الأمر بأن يورث السيد عبده شيئا من ماله إن توسم فيه خيرا. ويستدل الفقهاء المسلمون بالآية **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴿٢﴾** الحجرات: ١٣ لتقرير السواسية بين جميع الناس. وثمة سور أخرى بها آيات تتحدث عن حسن معاملة الرقيق، وقصص في سيرة الرسول بنفس المعنى.

ويأتي النقاد الغربيون بعد كل ما مر ذكره من آيات بيّنات وأحاديث نبوية مجمع عليها من كبار الرواة، ليتساءلوا: إذا كان النبي معارضا للرقّ فلماذا إقتنى عبدا أساسا؟ واستدلوا على ذلك بما رواه البخاري عن عروة بن الزبير من قيام السيدة عائشة بعنق أربعين عبدا للتكفير عن حنثها لليمين، ليقولوا من أين جاء هؤلاء العبيد إذن؟ ألم يكونوا قبل ذلك أحرارا ثم وقعوا أسرى في أيدي المسلمين فتحولوا إلى عبيد؟ ثم قصّوا ما حدث لأسرى بني قريظة وما جرى لهم على يدي سعد حارس النبي. وهم في هذا النقد تناسوا أن الفقهاء المسلمين لم يُنكروا وجود الرقّ في الإسلام، مثلما لم تنكره اليهودية والمسيحية قبله، وإنما كانوا يبرهنون على الرقّ بهم وعتقهم ضمن عملية التدرّج المرهلي الذي كان يستهدف التوقف عنه، أو وضع العراقيل المانعة لحدوثه، وهو ما سيأتي ذكره. كما أن النقاد الغربيين تجاهلوا أن الرقّ في الإسلام لم يحدث إلا أثناء الحروب. وردّا على ما رواه مسلم عن إمكانية إعتاق العبيد والقبول بزواجهم وإنجابهم للأولاد وسعيهم لكسب الرقّ وجمع المال.. إلخ، أشاروا إلى أن ذلك كان معمولا به حتى قبل الإسلام، ليستطردوا الى القول إنه لا معنى لاقتناء العبيد، ثم العمل على تحسين أوضاعهم! وهذه لاجابة لأنها محاولة لإسقاط المفاهيم والروى الحاضرة على قضايا انطوت في عصور قديمة.

والخلاصة أنه وبمرور الزمن ترتب على ممارسة الرّق في الإسلام والتدرّج في إلغائه، أن أصبحت له مؤسسة ذات أعراف وتقاليد تختلف قليلا بين المذاهب الأربعة: المالكيّة والثافعية والحنبليّة والحنفيّة عند السّنة. وكانت هذه المنظومة تتراوح ما بين (العنق) و (الولاء). والعنق كان هو الهدف تأسيا بقول النبي: إن من عتق عبدا نجا من نار جهنم. وعلى هذه القاعدة انتظمت معاملة الرقيق، طبقا لصفاتهم وظروفهم، (فأم ولد) أي الجارية تُعتق بمجرد وفاة سيدها، وبالتبعية يعتق بقية عبيد أقرباء المتوفى. وفي المذهبين المالكي والحنفي إذا ما قال أحد الملاك لعبده: " إنك تصبح حرا عندما أموت " سُمي ذلك (تدبيراً) والمعنوق (مُدبراً). ولا يمكن لهذا المالك أن يُلغي (التدبير) ويستردّ عبوديته بعد هذا الإعلان. بينما في المذهب الثافعي يسري على العبد ما يسري في وصية الإرث: أي إمكانية إسترجاعه أو بيعه للغير. كما جاز للعبد أن يشتري حريته من سيده بدفع ما يتفق عليه، وتُسمى الصفقة (مكاتبه) - وهو ما ورد في القرآن الكريم في الآية: **قَالَ تَمَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ**

**الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿﴾ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾** النور: ٣٣ وهناك ما سُمي " بأم الولد " وهي العبدة التي تُنجب طفلا لسيدها، وفي حالة وفاة السيد تُصبح حرة، وعلى هذا لا يجوز بيعها أو رهنها. وإذا كان أحد العبيد مملوكا لعدة أشخاص - ويُسمى (بالمبعوض) - جاز لأحدهم أن يحرره مقابل دفع أنصبة الآخرين. أي أنه، في جميع الحالات، من المستحبّ العمل على تحرير الرقيق والتخفيف من الإجراءات بما في ذلك تخفيض الثمن، بل واستخدام (الزكاة) في ذلك. أما (القن) حسب هذه المنظومة فهو الذي ليس (مكاتباً) ولا (مُدبراً) ولا (أم ولد) أو (مبعوضاً). وثمة العديد من التنظيمات الأخرى المتعلقة بالإرث والولاء والتزواج بين السادة والأرقاء لا يسمح المجال بالتطرّق إليها.

وكما سبق القول فالحالة الوحيدة للإسترقاق حسب القرآن والشريعة الإسلاميّة هي حالة أسرى حروب (الجهاد)، وفي هذا جاء في الآية: **قَالَ تَمَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ﴾** الأنفال: ٦٧ ثم جاء تخيير النبي بين المنّ وبين الفداء في سورة محمد: " فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها "، وقد ذهب بعض العلماء إلى القول إنه بنصّ هذه الآية لا يجوز استرقاق أسرى الحرب، حيث الآية خيّرت النبي بين المنّ وبين الفداء، ولم تذكر الإسترقاق. غير أن علماء آخرين يرون أن هذه الآية نُسخت بقوله: **قَالَ تَمَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿﴾ فَإِذَا أَسْلَحَ الْأَشْهُرُ لِلْحُرِّ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**

وَحَذَرُهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَعَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ التوبة: ٥ - ٦. وهو ما فسره الإمام الشافعي بقوله: إن الآية تخير

بين قتله أو المنّ عليه أو مفادته أو إسترقاقه. وفي السيرة أن النبيّ في غزوة خيبر وقعت في أسره صفية بنت أخطب، وهي يهودية من بني النضير، فأعتقها فأسلمت ثم تزوجها.

وينبغي التذكير هنا أنه حدثت في التاريخ الإسلامي إحدى أكبر ثورات الرقيق الجماعية، بالمعنى الطبقي للكلمة ونعني بها ثورة الزنج عام ٨٦٨ ميلادية في عهد الخليفة العباسي المعتمد والتي قادها علي بن محمد، وبدأت في البحرين سنة ٨٦٣ م، وهي التي اشتهرت باسم (ثورة الزنج). ونظرا إلى أهمية هذه الثورة وندرة ما كُتب عنها، نرى من الضروري إعطاء نبذة كافية عنها كما يلي، حسب إجماع المؤرخين العرب حولها وخاصة ما أورثته عنها الموسوعة الإسلامية :

" كان قائد هذه الثورة هو علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان شاعرا وعالما يمارس في (سامراء) تعليم الخط والنحو وعلم الفلك. وكان واحداً من المقرّبين الى الخليفة المنتصر بالله . ولما قتل الأتراك المنتصر بالسّم، ومارسوا السّجن والنفي والإعتقال والإضطهاد لحاشيته، كان علي بن محمد ضمن المعتقلين. ثم حدث تمرد من فرقة " الجند الشاكرية " ببغداد، شارك فيه العامّة، واقتحم المتمردون السّجون فأطلقوا سراح من فيها، ومنهم علي بن محمد، الذي غادر بغداد إلى " سامراء " ومنها إلى البحرين، حيث دعا الى الثورة ضدّ الدولة العباسية الواقعة تحت سيطرة الجند الأتراك. وقد اشتهرت " بثورة الزنج " نسبة الى جزيرة زنجبار في شرقي أفريقيا (تتبع تنزانيا الآن) التي جُلب منها العبيد للعمل. الا أنها لم تكن ثورة عنصرية للزنج وحدهم، فلم تفت أهدافها عند المطالبة بتحرير العبيد أو تحسين ظروف عملهم، فقاد هذه الثورة عربيّ علويّ، رغم تشكيك خصومه في صحّة نسبه العلوي<sup>١</sup>. وأغلب قوادها كانوا عربا كذلك، مثل: علي بن أبان (المهالي)، وسليمان بن موسى الشعراوني، وسليمان بن جامع، وأحمد بن مهدي الجبائي، ويحيى بن محمد البحراني، ومحمد بن سمعان.. الخ. وعلى امتداد السنوات الأولى من عمر هذه الثورة

١ منذ عهد المتوكل العباسي ٨٤٧ - ٨٦١ قامت عدّة ثورات ضدّ سيطرة الجند الأتراك على مقاليد الأمور الحقيقية. وكان أغلب الثوار من العلويين مثل ثورة الكوفة بزعامة أبي الحسين يحيى سنة ٨٦٢ وفي طبرستان بقيادة الحسين بن زيد ٨٦٤ ثم ثورات (الرّي) وقزوين والكوفة مرّة أخرى. وبما أن قواد هذه الثورات كانوا جميعا ينتسبون الى الإمام علي، فتعتبر هذه الثورة امتدادا لها.

(٨٦٢ - ٨٦٨) كان جمهورها وجندها ومحيطها عربياً خالصاً، فهي قد بدأت في مدينة " هجر"، أهم مدن البحرين، ثم في " الأحساء" بين أحياء " بني تميم" و " بني سعد"، ثم في بادية البحرين وسط عربها. وفي هذا المحيط العربي قامت سلطة هذه الثورة و دولتها " وحدثت الحروب بينها وبين جيش الدولة العباسية. ويصف الطبري سلطة علي بن محمد في هذا المحيط العربي، فيقول: " لقد أحله أهل البحرين من أنفسهم محلّ النبي حتى جُبي له الخراج هناك، ونفذ حكمه بينهم، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه! ". وفي موقعة " الردم"، بالبحرين، أحرزت الدولة انتصاراً مؤثراً ضدّ الثورة، فانسحب علي بن محمد الى البصرة، ونزل هناك بين عرب بني ضبيعة (من نزار بن معن بن عدنان). فدعاهم للثورة، فتبعوه، وكان منهم عدد من قادة دولته وجيشه. ولما طرده الدولة، وألقت القبض على أغلب أنصاره، ووضعته في السجون، مع ابنه الأكبر وابنته وزوجته، غادر علي بن محمد البصرة الى بغداد، فأقام بها عاماً. وفي سنة ٨٦٩ حدثت بالبصرة فتنة بين طائفتين من جندها، " الجند البلالية" و " الجند السعدية"، وأسفرت هذه الفتنة فيما أسفرت عن إطلاق سراح السجناء، ومنهم أنصار علي بن محمد، فغادر بغداد ووصل الى ضواحي البصرة ليواصل ثورته من جديد. وفي هذا التاريخ بدأ أول انعطاف للثورة نحو الزنج، في البصرة أهم المدن في جنوب العراق، التي كانت مشحونة بالرقيق والعمال الفقراء الذين يعملون في مجاري المياه ومصايبها، ويقومون بكسح السبخ والأملح الناشئين من مياه الخليج، وذلك تنقية للأرض وتطهيراً لها، كي تصبح صالحة ومعدّة للزراعة. وكانوا ينهضون بعملهم الشاق هذا في ظروف عمل قاسية وغير انسانية، تحت اشراف وكلاء غلاظ قساة، ولحساب ملاك الأرض من أشراف العرب ودهاقنة الفرس. وبعض هؤلاء العبيد - إضافة الى المجلوبين من زنجبار- كانوا نوبيين وقرمانيين، أما فقراء العرب فكانوا يُسمّون الفرّاتين. وشرع علي بن محمد يدرس حالة هؤلاء الرقيق، ويسعى لضمّهم لثورته، كي يحرّره ويحارب بهم الدولة العباسية. وكان أول زنجي ينضمّ اليه هو ريحان بن صالح، الذي أصبح من قادة الحرب والثورة. وأخذ علي بن محمد ينتقل، مع قادة ثورته بين مواقع عمل الرقيق والفرّاتين، ويدعوهم الى الثورة والهرب الى معسكره وترك الخضوع لسادتهم، فاستجابت لدعوته جماهير غفيرة، وانضمّوا الى العرب والأعراب الذين تبعوه من جنوبي العراق. ولقد فشل وكلاء الزنوج في الحيلولة بينهم وبين الالتحاق بمعسكر الثائرين، فكانوا يحبسونهم في البيوت ويسدّون أبوابها ومنافذها بالطين! ويصف ابن خلدون إقبال الزنج على الثورة، وزحفهم للقاء قائدها فيقول: " لقد تسائل اليه الزنج واتبعوه". ولقد أعلن علي بن محمد أن هدفه، بالنسبة للزنج والعرب الفقراء، الذين يعملون في اصلاح أرض العراق الجنوبي، هو: ١- تحرير الرقيق من العبوديّة، وتحويلهم الى سادة لأنفسهم ٢- إعطاؤهم حق امتلاك الأموال والضياع، بل ومناهم بامتلاك سادة الأمس الذين كانوا يسترقونهم ٣- ضمان المساواة التامة لهم في ثورته ودولته التي تعمل

من أجل نظام اجتماعي هو أقرب الى التّظم الجماعيّة التي يتكافل فيها ويتضامن مجموع الأمة، ونظام سياسي يرفض الخلافة الوراثيّة لبني العباس، والتي أصبحت أسيرة بيد قادة الجند الأثرak، ويقدم بدلاً عنها دولة الثورة التي أصبح فيها علي بن محمد أميراً للمؤمنين. ولقد استطاعت الثورة أن تكتسب، أكثر فأكثر، ثقة جماهير الزّنج وفقراء العرب، وخاصة بعد أن رفض قائد الثورة مطالب الأشراف العرب والدهاقين والوكلاء بأن يرّد إليهم عبيدهم لقاء خمسة دنائير يدفعونها عن كل رأس! لقد رفض علي بن محمد هذا العرض، بل وعاقب هؤلاء السّادة والوكلاء، فطلب من كل جماعة من الزّنج أن يجلدوا سادتهم ووكلاءهم القدامى، وزاد من اطمئنان الزنج للثورة ما أعلنه قائدها من أنه " لم يثر لغرض من أغراض الدنيا، وإنما غضباً لله، ولما رأى عليه الناس من الفساد .. وعاهدتهم على أن يكون في الحرب بينهم " أشرككم فيها بيدي، وأخاطر معكم فيها بنفسي " بل قال لهم: " ليحط بي جماعة منكم، فإن أحسوا مني غدراً فتكوا بي؟! ". وبهذه الثقة تكاثر الزنج في صفوف الثورة وفي كتائب جيشها، بل وانضمت إليها الوحدات الزنجيّة في جيش الدولة في كل موطن التقى فيه الجيشان، حتى لقد سُميت لذلك بثورة الزنج، واشتهرت بهذا الاسم في مصادر التاريخ. وفي عشرات المعارك التي وقعت بين الدولة العباسية وبين ثورة الزّنج، كان النصر غالباً للثورة على الدولة، وتأسست، كثمرة لهذه الانتصارات، للثورة دولة قامت فيها سلطتها، وطبقت بها أهدافها، ونفذ فيها سلطان علي بن محمد. ولقد بلغت درجة من القوّة فاقت بها كلّ ما عرفته الخلافة العباسيّة قبلها من إنتفاضات وثورات. والمؤرّخون الذين كانت الدنيا عندهم هي الامبراطورية العباسية قالوا: إن الزنج قد " اقتسموا الدنيا، واجتمع إليهم من الناس ما لا ينتهي العد والحصر إليه! ". وكان عمال الدولة الثائرة يجتمعون لعلي بن محمد الخراج على عادة السلطان، حتى لقد " خيف على ملك بني العباس أن يذهب وينقرض ". ولقد أقام الثوّار لدولتهم عاصمة سموها المختارة أنشأوها انشاء في منطقة تتخللها فروع الأنهار، كما أنشأوا عدة مدن أخرى. وضمت دولتهم مدناً وقرى ومناطق كثيرة مثل: البحرين والبصرة والأبلة والأهواز والقادسية وواسط وجنبلاء وبذاورد والنعمانية والمنصورة وجرجرايا وجبل ورامهرمز والمنبجة والمذار وتستر والبطيحة وخوزستان وعبادان وأغلب سواد العراق. ولقد استمرت الحرب بين دولة الثورة هذه وبين الخلافة العباسية لأكثر من عشرين عاماً بلغ العنف فيها، من الجانبين، حدّاً لم يسبق له مثيل، حتى ليقول المؤرّخون الذين يتواضعون بأرقام القتلى في هذا الصّراع بأنهم بلغوا نصف مليون قتيل! ولقد أقلت الخلافة العباسية بكلّ ثقلها في المعركة ضد الثورة، وكرّست كل إمكاناتها للجيش والقتال. وبعد أن عهد الخليفة المعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢ م)، بالقيادة إلى أخيه الموفق، تحوّل قائد الجيش إلى خليفة حقيقي، وتحولت المدينة التي بناها تجاه عاصمة الثوّار، والتي سماها الموقية، إلى العاصمة الحقيقيّة للدولة، يأتي إلى بيت مالها كل خراج البلاد، وتصدر منها

الأوامر إلى كل الولاة والعمال بأن يقدموا للجيش كل ما لديهم من امكانيات، حتى لقد حاول المعتمد الفرار من سامراء إلى مصر، فألقوا القبض عليه وأعادوه إلى قصر الخلافة شبه سجين. ولقد رجحت كفة الجيش العباسي بما احتشد له من فرسان وسفن وعتاد، فأحرز عددا من الإنتصارات على جيش الزنج، وبدأ حصارا لعاصمتهم استمر أربع سنوات. وكانت مصر قد استقلت عن الخلافة تحت حكم أحمد بن طولون (٨٨٠ م). وكان لها جيش قوي بالشام يقوده لؤلؤه، غلام ابن طولون، فخان سيده وانضم إلى جيش الدولة المحتشد لقتال الثوار. وعند ذلك تمكن الموفق من اقتحام المختارة وهزيمة الثورة التي ظلت قائمة تقاوم حتى ١٠ أغسطس سنة ٨٨٣ م. فكانت أطول ثورات العصر العباسي وأخطرها. "

وإذا ما استرسلنا في تقصي تجارة الرقيق عبر القارات، فسنجد أنها انتشرت أيضا في قارة آسيا، ففي الهند كانت تتخذ عدة أنواع أشهرها رقيق العمل، وخاصة أثناء الحكم المغولي، فكان أصحاب الأموال يقايضون ديونهم بالفلاحين والعمال من الذين يعجزون عن دفعها. ولقد استغل أكثر من جيل كامل بهذه الطريقة، إذ قد يجبر الصبي على العمل طوال حياته من أجل تسديد الدين، مع ما يصحبه من سعر الفائدة. ومن ناحية أخرى معظم الهند حكمت من قبل ما سمي (أسرة العبيد) في الفترة من ١٢٠٦ - ١٢٩٠ لأن قطب الدين أيك، وكان عبدا لمحمد الغوري، ارتقى عرش الحكم بعد وفاة سيده واستمر خلفاؤه من نسله يحكمون لقرن كامل من الزمان. وفي اليابان يعود تاريخ الرق إلى القرن الثالث في التاريخ الصيني، إذ سجل فيه تصدير عبيد من اليابان وكانوا يسمون العبد (سايكو) وفي القرن الثامن سمّوه (نوهي). وفي عهد إمبراطورية سينجوكو (١٤٦٧ - ١٦١٥) أصبح الحديث عن الرق شائعا كونه مجلبة للمفارقات، وفي لقاء أساقفة كاثوليك مع الإمبراطور (أوكا نوبوناكا) قدموا له عبدا أسود من أفريقيا كهدية، وهي المرة الأولى التي يُشاهد فيها شخص أسود في اليابان. إلا أنه منذ سنة ١٥٨٨ أصدر الإمبراطور (تويوتومي هيدي يوشي) أمرا بإلغاء تجارة الرقيق، وهو ما حافظ عليه خلفاؤه. وفي المستعمرات التي ضمتها إليها اليابان في آسيا، فاعتبارا من القرن التاسع عشر ألغت اليابان فيها المؤسسات التي كانت تتعامل بالرق منذ فترة طويلة. إلا أنه وأثناء حرب الباسيفيك في الفترة ما بين ١٩٣٧ - ١٩٤٥ فإن الجيش الياباني استعمل مئات الألوف من السجناء المدنيين في أعمال السخرة - وهي نوع من الإسترقاق - في مشاريع كثيرة، كمد خطوط سكك الحديد في بورما.

وفي حضارة البحر الأبيض المتوسط العتيقة وكذلك في ثقافة الخلافة الإسلامية، كان الرق مزيجا من العبودية بسبب الديون وبدافع الزواج، وكعقوبة على الجريمة، وكغنيمة في الحروب. وفي أوروبا القرون الوسطى كانت هذه التجارة تُمارس علنا في أسواق المدن

الكبرى كمارسيليا ودبلين وبراغ. وكانت جميعها تتاجر فيها مع بلدان الشرق. وكان (المور) **Moors** وهو الإسم الذي كان يطلقه المؤرخون الغربيون على سكان المغرب، أثناء غزواتهم في القرن الثامن للميلاد على المناطق الساحلية المواجهة لهم فيما سُمي بحرب القراصنة، قد نقلوا أحيانا سكان قرى بكاملها الى أسواق ما سُمي بالساحل البربري. ومن ناحية أخرى أخذ السلاطين العثمانيون، بعد فتوحاتهم في القارة الأوربية، الرجال السلافيين من البلقان والشركس من جبال القوقاز وشرقي البحر الأسود كعبيد، وخلقوا منهم نواة الجيش الإنكشاري، كما سيلي شرحه، والذي حكم قادته في إيلات المغرب بصفة خاصة، مثلما حكم أشباههم المماليك في مصر. وفي شمالي أفريقيا جلب العبيد من أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وفي القرن التاسع عشر - وفي غمار حروب القرصنة المتبادلة - إزداد أخذ الأسرى كعبيد. وهي الفترة التي كانت فيها أوروبا غارقة في الحروب الطائفية واستنزفت فيها أساطيلها. وغالبا ما كان ينظم حرب القرصنة هذه المغاربة (المور)، ويشنون حملاتها وغاراتها على المدن الأوربية قباطنة وملاحون من أصل أوروبي. على أنه في بداية القرن التاسع عشر شرعت القوى الأوربية في محاولات تحرير الأسرى المسيحيين. وكانت أول محاولة ذات شأن قصف مدينة الجزائر التي جرت عام ١٨١٦.

وهكذا تطورت ظاهرة الرق عبر العصور، حتى وصلت كتجارة الى القارة الأفريقية. وكانت أبوابها إليها متعدّدة. وكما سلف القول لم يلتصق الرق بجنس أو لون بشري معين، حيث أنه تسرب الى القارة منذ عام ١٤٤٢ عندما كانت قوة من الجيش البرتغالي في عهد الأمير هنري تستطلع الشاطئ الأفريقي، فقبض (أنتام كونكالفيس) أحد ضباطه على بعضهم، ولما جلبهم للأمير، أمره هذا بإرجاعهم الى بلادهم الأفريقية، ففعل شريطة أن يقاوض المغاربة أنفسهم مقابل عشرة من السود، وكمية من الثبر. ومنذ ذلك الحين سرت العدوى بين الأوروبيين الآخرين وخاصة الأسبان، عندما شرع البرتغاليون في بناء المستوطنات على الساحل الأفريقي، إذ شيّدوا في جزيرة (أرجوين) قبالة الشاطئ الموريتاني قلعة اتخذوا منها مركزا لتسويق العبيد والثبر. ومنها توسّعوا - بالنسبة للغرب والوسط الأفريقي - في بناء هذه المراكز والمستوطنات جنوبا، هكذا: سينجامبيا (السنغال) وتتبعها جزيرة كوري التي كانت أول مرفأ لتصدير العبيد ومعها جامبيا)؛ ساحل الذهب (غانا)؛ خليج بنين؛ خليج بيافرا (نيجيريا)؛ لوانجانو (كابيندا وزانير) ثم أنجولا. وجميعها كانت منافذ لجلب العبيد من الدواخل الأفريقية. أما تجارة الرق مع بلدان ساحل شرقي أفريقيا فكانت مراكزها في مومباسا وزنجبار ودار السلام، لتمارس عبر البحر الأحمر إلى عُمان وبقية البلدان المجاورة ومنها إلى تركيا.

وفي القرن السادس عشر نشط الأوربيون في تصدير الرقيق، فالهولنديون استوردوه من آسيا إلى مستعمراتهم جنوب أفريقيا، ومن ثم تطوّر استخدام العبيد لكي لا يقتصر على خدمة المنازل، بل إلى العمل في الحقول لاسيما مزارع السكر، حيث تدفقت بكميات هائلة على أمريكا والكاريبّي، فمذ العام ١٦١٩ بدأ وصول الفوج الأول من العبيد الأفارقة الى ولاية فيرجينيا التابعة لأمريكا كمستعمرة بريطانية في عهد الملكة إليزابيث، حيث أفرغتهم باخرة هولندية وباعتهم لمزارعي التبغ البيض. (كان مجمل سكان ٣٨ ولاية أمريكية لا يتعدى أربع مليون نسمة!) وما أن حلت سنة ١٧٩٠ حتى بلغ عدد الرقيق ٢٠٠,٠٠٠ عبدا في ولاية فيرجينيا وحدها. وشهدت حركة التصدير عبر الأطلنطي بعد ذلك نموًا مضطربا، فبعد أن كان العدد ٣٦٧.٠٠٠ عبدا في الفترة من سنة ١٤٥٠ - ١٦٠٠، قفز إلى ٦,١٣٣,٠٠٠ في الفترة من ١٧٠١ - ١٨٠٠. وفي القرن الثامن عشر بلغ العدد الذروة، عندما بدأ القبض على العبيد من بني جلدتهم في غرب أفريقيا وشحنهم للعالم الجديد. وقد استغلت بريطانيا الحروب الأسبانية من أجل السلطة لتستولي على عملية إحتكار نقل العبيد إلى أمريكا الجنوبية الأسبانية. ويُذكر أن أشهر الشركات التي تاجرت في الرّق كانت: **The Royal African** و **South sea company** البريطانيّين، وشركة **Le compagnie de logos** أو **Compagnie Francaise de Guinea** الفرنسية. وقد قُدّر أنّ ما شحنه التجّار الأوربيّون من الرقيق الأفريقي عبر القرون، قد بلغ ما بين إثني عشر مليونا إلى عشرين مليونا، مات منهم ١٥ % نتيجة ماكبده من عذاب أثناء الشّحن، وغالبيتهم وُجّهت إلى أمريكا مع البعض منهم إلى أوربّا وجنوبي أفريقيا نفسها. وبعض المؤرخين قدّر أن مجموع الأموات منهم ما بين من سقط منهم قبل الوصول إلى الأسواق وأولئك الذين قتلوا في الغارات، قد فاق السبعين مليون نسمة، وهو عدد السكان الذين بقوا في أفريقيا جنوب الصحراء عندما انتهت هذه التجارة الوحشية. وفي الفترة من ١٨٠١ - ١٩٠٠ هبط عدد ما ساقه التجّار الأوربيّون الى ٣,٣٣٠,٠٠٠ عبدا.

## تطوّر عمليّات إلغاء الرّق

لقد مرّ علينا أن الرّق قد صاحب الإنسان منذ ما قبل التاريخ، ولكن حركات التخلّص منه ومحاولات إلغائه كانت أيضا مرافقة له بشكل جدلي. وقد بدأت هذه المحاولات في نطاق ضيق أو فردي أو محصورا في فئة معينة. ويسوق المؤرخون دليلا على ذلك **Exodus** أي النزوح أو الرحيل الذي ورد في سفر الخروج ثاني أسفار العهد القديم من التوراة، والذي قصّ بالتفصيل قيام النبيّ موسى بقيادة العبيد الإسرائيليين في مصر القديمة، ممّا اعتبر تحريرا لهم من الفراعنة. وفي إنجلترا وقعت سنة ١٧٧٢ حادثة هروب العبد

جيمس سوميرست، والذي حاول سيّده أن يُرجعه إلى جامايكا، وجاءت قضيّته أمام رئيس القضاة ويليام موري الذي استند على نصوص (الماجنا كارتا) وحكم بعدم جواز إرغام العبد على الخروج من إنجلترا، والذي أصبح بعد نذ قاعدة، وبعد خمس سنوات صدر حكم في سكوتلاندا في قضيّة مشابهة للعبد جوزيف نايت، حيث حكم القاضي أن الرّق منافي للقانون في سكوتلاندا. وعندما جاء العام ١٧٨٧ وقّعت دعاة تحرير العبيد بقيادة (ويليام ويلبيرفورس) إلى تأسيس جمعيّة لمحاربة تجارة الرّق، بحيث لا تقتصر على داخل حدود بريطانيا بل تتعداها إلى حظر نقل العبيد والمتاجرة بهم من قبل التجّار العاملين في المستعمرات البريطانيّة والبلدان الأخرى، بما في ذلك تحريم الأسهم التي كانت الشركات تتداولها والخاصة بهذه التجارة. وقويت الحركة المناوئة للرّق بدعم جماعة (الكويكرس) الدينيّة من طائفة (البابتيست) والتي أسّسها جورج فوكس في أميركا، ومن طائفة (الميثوديست)، ومن طبقة العمّال الصناعيين الناشئة.

وفي فرنسا لم تكن تجارة الرقيق مصرّحا بها مطلقا داخل حدود البلاد، ولكن كان مسموحا بها في مستعمراتها أو ممتلكاتها ما وراء البحار. وفي ٤ فبراير ١٧٩٤ قام القسّ جريجوار وطائفته بتحريمها. وعندما رفض حكام هايتي الفرنسيّون هذه الأوامر الكنسيّة، ثار العبيد فيها، ثمّ أعيدت ممارستها فيها من قبل نابليون عام ١٨٠٢. إلا أنها لم تصمد أمام ثورة الهايتيين عام ١٨٠٣ ممّا أدّى إلى حصول البلاد على استقلالها، وبذلك أضحت هايتي أوّل جمهوريّة سوداء في تلك السنة. على أن الإلغاء الفرنسي الرّسمي للرّق لم يبدأ فعليا إلا يوم ٢٧ إبريل ١٨٤٨، وهو التاريخ الذي أصدر فيه فيكتور شولشير **Viictor Schoelcher** وكيل وزارة المستعمرات الفرنسيّة مرسوما بإلغائه. وحتى يدفع إلى تنفيذ المرسوم، ألحقه بتحذيرات تهدّد من حدوث إنتفاضات، كذلك التي مرّ ذكرها، إن لم ينصع إليه الجميع. وهكذا، كما جاء في دراسة نشرتها مجلة " لوموند ديبلوماتيك " الأسبوعيّة الفرنسيّة المعروفة بمناسبة مرور ١٥٠ سنة على إلغاء تجارة الرقيق، فإن المقاومة من قبل الإرقاء أنفسهم كانت الحافز الهام على القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسيّة. أي أن تحرّر العبيد حين جاء، كان الفضل فيه يرجع إلى جهود الأفارقة الذاتيّة، وليس إلى مشاعر إنسانيّة فجائيّة إعترت تجّار العبيد. أمّا أفريقيا القرن التاسع عشر فقد كانت مختلفة عن القارة التي عهدها الأوروبيون لفترة أربعمان سنة خلت، فأفريقيا جرجرت بسبب تجارة الرّق إلى طريق خطر جعلها مختلفة، وبذلك انتعشت مجددا في هذه الظروف المواتية التفرقة العنصريّة المتجدّرة في تجارة الرّق، حسب قول المؤرّخ الترينيدادي " ولتير رودني "، فالخطاب الأوروبي الآن تحوّل إلى التركيز إلى مقولة " التخلف " و " التوحش " الذي يطبع القارة. وعلى قاعدة هذا الحكم التقييمي أصبح الغرب يدعي لنفسه النموذجيّة،

أي أن الإنحطاط والتأخر في أفريقيا لا يُعزى إلى التطور التاريخي الذي لعبت فيه أوروبا دورها، بل إلى " الطبيعة الغريزية " للأفارقة أنفسهم.. وبذلك فالإستعمار والإمبريالية الجديدين يكتسيان زيا إنسانيا للوصول إلى " تفوق عنصري " وما يتحمّله " الرجل الأبيض من أعباء ". وبذلك رأينا الدول التي تاجرت سابقا بالرقيق تتحدّث فقط عن " العرب والحكام السود الذين استعبدوا ". على الرّغم من أنهم شاركوا في هذه التجارة أيضا. كما يتحدّث بحث " لوموند ديبلوماتيك " عن الإنتفاضات والثورات التي خاضها المستعبدون الأفارقة، ودور كلّ من الإسلام والمسيحية في إذكاء جذوتها؛ فعندما حاول بعض ملوك السينغال عتقهم ببيعهم في القرن السابع عشرة، نشبت ما سميت " بحرب المرابطين " و " حركة التيبونان " (من لفظة التائبين العربية وعنوا بها الذين اعتنقوا الإسلام). فقد أعلن مؤسس الحركة ناصر الدين " إن الله لم يجز للملوك أن ينهبوا وأن يقتلوا ويستعبدوا شعوبهم. وعلى العكس من ذلك فقد عيّنهم لكي يحافظوا على رعاياهم ويحموهم من أعدائهم. فالناس لم يخلقوا للملوك، ولكن الملوك خلّفوا للناس ". وفي جنوب القارة، فيما يعرف الآن بأنجولا، كانت شعوب الكونغو تفسّر المسيحية بنفس الطريقة، أي ضدّ الإرساليات التي انتهجت أسلوب المساومة إزاء تجارة الرّق، وكذلك ضدّ الحكام المحليين. وفي بداية القرن الثامن عشر برزت داعية دينية في العشرينات من عمرها إسمها كيما فيتا، (وعُرفت أيضا باسم دونا بياتريس)، وكانت تدور على رؤوس تجار العبيد وتحاججهم عن العنصرية. ومن ضمن مواظباتها " أن ليس هناك آخرة سوداء وأخرى بيضاء " وأن " السيّد المسيح وقديسين آخرين كانوا سودا وجاءوا من الكونغو " . وفي ذلك العصر شهدت عمليّات سُحِن العبيد ونقلهم من أفريقيا عبر الأطلنطي، وتوزيعهم على ولايات العالم الجديد في أميركا، محاولات هروب بالجملة وإنتفاضات وثورات قادتها رموز كانت تعلم علم اليقين أن مصيرها الموت المحتم، لعدم وجود ملجأ آمن في القارة الجديدة. وبعض قصص الثورات طُمس ودُفن مع الثوار المقموعين. فمُنذ ١٧١٢ قامت مجموعة من العبيد بحرق بيوت للبيض في نيويورك راح ضحيتها عشرة من البيض، وكان ردّ الفعل وحشيا إذ أحرق المتسلطون البيض ٢١ من العبيد وشنقوا وجرجروا على الأرض حتى الموت عشرات الآخرين. وفي ١٧٣٩ مات في الثورة ٢٠ من البيض و ٤٠ من العبيد. ولعلّ أبرز معارك الثورة ما جرى في ريتشموند عام ١٨٠٠ عندما قام الثائر (جبرائيل بروسير) Gabriel Prosser بحملة غير موقّعة للإستيلاء على المدينة. أو عندما قام في ساوث كارولاينا (دينمارك فاسي) Denmark Vasey سنة ١٨٢٢ بالهجوم على مدينة شارلستون، وهو عبد جرى عتقه وكان مفكرا سياسيا لامعا، وساعده في تنظيم الثورة عبد عملاق من أنجولا إسمه (قولا جاك) Gullah Jack. وفي

٢ ينظر مقال " تأثير تجارة الرقيق على أفريقيا " بقلم إيريك ميوكولو - لوموند ديبلوماتيك، إبريل ١٩٩٨

فيرجينيا عام ١٨٣١ قاد رجل الدين الأسود (نات تيرنير) **Nat Turner** مجموعة من الثوار داهمت مدينة (جبروساليم)، فاحترق من سكانها البيض ٥٧ شخصا جزاء الهجمة. وكان مصير هؤلاء القادة الشنق وعُلفت جثثهم في الميادين العامة عبرة لمن يفكر في التحرر، كما جرى حرق ٣٥ عبدا من أنصار فاسي فقط. ويروى أن القس الأسود تيرنير، عندما كان في السجن تمهيدا لشنقه، كان يبتهل ويقول: " إنني أرى أشباحا بيضاء وسوداء تتقاتل .. والشمس تتوشح بالسواد والرعد يزجر والدماء تسيل أنهارا .. حينها أسمع صوتا يقول لي: أنظر ماذا خلفته الكراهية، ويهب الأعوان لنجدة من لم يشارك في موقعة أرماجيدون (وهي الساحة التي شهدت الحرب بين الخير والشر حسب إنجيل العهد الجديد). وفي ١١ نوفمبر ١٨٣١ شُنق القس تيرنير!<sup>٣</sup>

ولا غرو إذ شهدت هذه الحقبة صدور القوانين المحرمة لتجارة الرق لأنها أثارت سخط الإنسانية لما صاحبها من قهر وتعذيب وحشي. وهكذا أصدر البرلمان البريطاني " قانون منع تجارة الرق " بتاريخ ٢٥ مارس عام ١٨٠٧ والذي فرض غرامة عشرة جنيهات عن كل عبد يُعثر عليه على ظهر أية سفينة. ولكن التحايل على القانون بدأ من قبل ريان السفن حين أخذوا يتفادون عمليات التفتيش التي كانت تقوم بها البحرية الملكية في عرض البحار، وذلك برميهم للرقيق في البحر تجنباً لدفع الغرامة. وهو ما حدا بالحكومة البريطانية إلى أن تشدد العقوبة، فأصبحت عام ١٨٢٧ بمثابة "قرصنة" حكمها الإعدام. وفي ٢٣ أغسطس ١٨٣٣ صدر القانون بتحريم التجارة في المستعمرات البريطانية، وبتاريخ ١ أغسطس ١٨٣٤ تم عتق جميع العبيد في الإمبراطورية البريطانية. غير أن التحايل استمر عن طريق جعل الرقيق يوقعون عقودا زمنية وكانهم يمارسون مهنة معينة مع سادتهم، وهو ما حتم صدور قانون الحظر الكلي للتجارة عام ١٨٣٨. وعلى الأثر كلفت " جمعية مناهضة الرق البريطاني والأجنبي " والتي تأسست منذ عام ١٧٢٧ مراقبة هذه التجارة القذرة وممارسة الضغوط على الجهات الأجنبية بمنعها، وملاحقة قراصنتها. ثم توالى المواثيق الدولية بتحريمها ومطاردة مرتكبيها من البلدان والأفراد والشركات.

وإذا ما تتبعنا حركات وتطور الكفاح ضد الرق وعتقه عبر القارات، فيمكننا إيجازها كما يلي:

كما سبق القول فإن أول عملية جلب للعبيد من أفريقيا السوداء كانت بالباخرة المشحونة بهم والمتجهة إلى أمريكا الشمالية المستعمرة من بريطانيا، وقد رست بمدينة (جيمستاون) بولاية فيرجينيا عام ١٦١٩. وبدأ الرق تحت الحكم الأوروبي باستيراد اليد العاملة

<sup>٣</sup> Susne Everett - Geschichte der Sklaverei –Bechtermuenz Verlag 1998

المهنية، ثم أعقب ذلك استعباد السكان الأصليين في جزر الكاريبي، وأخيرا جرى استبدالهم بالأفارقة.

وفي خلال القرنين السابع والثامن عشرة بدأت الثورات والإنفاضات التي أشرنا إليها ضد الرق: فيموجب (التنظيم الشمال غربي للعام ١٧٨٧ Northwest Ordinance) وسُمي أيضا (بتنظيم الحرية) الذي أصدره المجلس القاري Continental Congress ، حُظر الرق في الغرب الأوسط مع استمراره في الشرق. إلى أن مُنع بعد ذلك. وبتاريخ الأول من يناير ١٨٠٨ جرى حظر إستيراد الرقيق إلى الولايات المتحدة الأمريكية، دون منع تجارته داخلها أو تبادلها خارجها. وكان من نتيجة تجمّع ولايات الشمال الحرة في كتلة جغرافية مترابطة شمال نهر أوهايو وخط ميسون - ديكسون القديم، أن حدث إنفصال بين الشمال الحر والجنوب المستعبد، الأمر الذي أدى إلى حدوث صراعات سياسية وثقافية واقتصادية حادة. واضطرّ العبيد إلى الهروب من الجنوب إلى الشمال عبر سكة حديد الأنفاق، وهذا بدوره أثار ثائرة الشماليين، كما أن الغرب الأوسط أصرّ على الحق في رفض القواعد التي أصدرها الإتحاد المتعلقة بحق اللجوء. وازداد التوتر والاضطراب، وأخذ الشماليون يناهضون الرق، وانفجر الصراع المسلح بصدور قانون كانتاس - نيراسكا في أراضي الأخيرة التي أصبح على سكانها أن يقرّروا بين أن تكون ولايتهم ضمن الولايات الحرة أو تلك المستعبدة. واستطاع المشرعون المناهضون للرق السيطرة على الحكم تحت راية الحزب الجمهوري.

بعد انتخابات عام ١٨٦٠ التي فاز فيها الحزب الجمهوري باكتساح لينقُلد إبراهيم لنكولن الرئاسة، لم يظهر اسمه في الولايات الجنوبية، التي بعد اسنثارها بالحكومة الإتحادية لعدة عقود، قرّرت الإنفصال عن الإتحاد (الولايات المتحدة الأمريكية) لتشكل (ولايات أمريكا المتألفة). وهو ما يعني نشأة وطن جديد يُباح فيه الرق مع السيطرة على نهر ميسيسيبي والغرب. واعتبر القادة مثل لينكولن أن هذا أمر لا يمكن القبول به، ومن ثمّ اندلعت الحرب الأهلية. وكان من نتيجتها أن وُضع حدّ لتبادل تجارة الرق، وأصدر لينكولن عام ١٨٦٣ (البيان بالعتق أو التحرر) Emancipation Proclamation كرمز لانعتاق العبيد داخل الإتحاد، ولكن دون أن تطبّقه ولايات هامة داخل حدوده، وقيل إنه هو أيضا احتفظ ببعض العبيد في خدمته الخاصة!. ومن ثمّ شرع الإتحاد في شنّ الحرب رسميا وأخذ في الإستيلاء على أراضي الولايات الرافضة وتطبيق البيان، وتحرّر العبيد فيها وبعضهم انخرط في خدمة الجيش كمساعدين، والكثير منهم انتقل إلى الشمال. والواقع أن الرق - قانونا - بقي في الولايات المتحدة إلى حين المصادقة على التعديل النهائي الثالث عشر للدستور في ٦ ديسمبر ١٨٦٥ أي بعد مرور ثمانية شهور على انتهاء الحرب الأهلية.

ومما يذكر أن (سيراليون) في غربي أفريقيا أنشئت كبلد مأوى للعبيد الذين كانوا تابعين للإمبراطورية البريطانية وتمّ عتقهم. وكذلك أصبحت ليبيريا المجاورة لها بالنسبة للعبيد الأمريكيين، الذين أراد سادتهم بعثهم التعويض عن استرقاقهم، بإعادتهم إلى قارتهم الأصلية، خاصة وأن بعض نقابات العمال رفضت تشغيلهم كأيدي عاملة رخيصة. ورغم ذلك بقي الكثيرون منهم في الوطن الجديد. وثمة من هرب من حياة العبودية واتجه إلى كندا المجاورة عبر " نفق سكة الحديد ".

ويعتبر الميثاق حول العبيد الذي صدر بمبادرة من عصبة الأمم المتحدة سنة ١٩٢٦ نقطة تحول فاصلة في تحريم الرق في العالم. ثم جاء " تصريح حقوق الإنسان " والذي أبرمته الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٤٨، ونصت المادة الرابعة منه على تحريم الرق بشكل صريح. وفي سنة ١٩٥٦ انعقد مؤتمر " العهد الإضافي الخاص بإلغاء الرق " تحريم العبودية واعتبارها غير قانونية في جميع أنحاء العالم، بما فيها رق الأطفال. وفي ديسمبر ١٩٦٦ صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على " العهد الدولي حول الحقوق المدنية والسياسية الذ انبثق عن عن التصريح العالمي عن حقوق الإنسان. وورد في المادة الثامنة منه تحريم الرق. وأصبحت هذه الاتفاقية الدولية نافذة المفعول في مارس ١٩٧٦ بعد أن صادقت عليها ٣٥ دولة. واعتبارا من نوفمبر ٢٠٠٣ أصبح عدد الدول التي صادقت عليها ١٠٤ دولة.

وعلى الرغم من هذه المواثيق والمعاهدات، اتخذ الرق وتجارته أوجها وأشكالا عديدة في بلدان العالم النامية والمتقدمة على حدّ سواء، وهي تتراوح ما بين إستغلال الأطفال كأيدي عاملة، إلى إستغلال المرأة في تجارة البغاء. وتقدر جمعيات مكافحة الرق المعاصر أن هناك ٢٧ مليونا من هذه الأنواع من الرقيق أغلبهم من الأطفال والقصر منتشرين في جميع أرجاء العالم. ولقد جرت محاولات لمكافحتها مثلما سمّي (بروتوكول الكاكو)، الذي ينصّ على احترام ومراعاة القيم الأخلاقية، والإلتزام بمسئوليات مرتبطة بمجمل عمليات الإنتاج في هذه المادة، وهناك مساعي ومفاوضات لتطبيقها فيما يتعلق بمواد السكر والقطن وبقية السل. وبغضّ النظر عن الصعوبات في تتبّع أساليب الرق في مسلسل العمليات الإنتاجية، إلا انها خطوة متقدمة لمطاردة هذا الإستغلال البشع المهين للكرامة الإنسانية.

ومن ناحية أخرى انعقدت مؤتمرات دولية لشجب وإدانة الرق، والمطالبة بالإعتذار عن ارتكابه، بل والتعويض عنه. وأبرزها كان المؤتمر الدولي الذي انعقد بتاريخ ٣ سبتمبر

٢٠٠١ بمدينة دوربان في جنوب أفريقيا تحت شعار " مناهضة العنصرية ". وفي بيانه الختامي " أدان المؤتمر واقع أن العبودية والممارسات المشابهة ما زالت قائمة أيضا اليوم في بعض مناطق العالم، ويرجو من الدول أن تعطي أولوية لاتخاذ إجراءات فورية لإنهاء هذه الممارسات التي تعتبر خرقا فادحا لحقوق الإنسان ... ولاحظ المؤتمر أن بعض الدول بادرت بتقديم إعتذارات ودفع تعويضات، في حالات مناسبة، عن إنتهاكات خطيرة وشاملة تم إرتكابها ". ولما أثير موضوع الصهيونية انسحب الوفد الأمريكي بأمر من وزير الخارجية آنذاك (كولين باول)، وتبعه طبعاً الوفد الإسرائيلي، بحجة التنديد بالصهيونية، ولو أن المؤتمر صادق بإجماع الوفود بما فيها العربية والأفريقية على فقرة تقول: " يدعو المؤتمر الدول في كفاحها ضد جميع أشكال العنصرية إلى الإعراف بضرورة محاربة مناهضة السامية والعنصرية المعادية للعرب وكرهية الإسلام في العالم أجمع ". وحول انسحاب الوفد الأمريكي في البداية، صرح الناطق باسم حكومة جنوب أفريقيا: " بأن الإنطباع لدى أغلب الوفود أن الوفد الأمريكي أراد أن يتفادى مناقشة الرق ومظاهره ". والواقع أن عمليات الإعتذار وجدت رفضا وصدودا من قبل بريطانيا وأسبانيا وهولندا والبرتغال (الدول العريقة في ممارسته في أفريقيا)، وذلك عندما عرض الأمر على الإتحاد الأوروبي في نفس السنة. وبالنسبة للتعويض، فرغم تعقد التقديرات وتشعبها، إلا أن المؤتمر الثاني للجنة الدولية " للتعويضات وحقيقتها " والذي انعقد في غانا عام ٢٠٠٠ توصل في مداولاته إلى التقدم بالتماس إلى محكمة العدل الدولية بلاهاي، يطالب الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ودول الإتحاد الأوربي بتعويضات مالية قدرت بـ ٧٧٧ تريليون دولار (التريليون يساوي ألف مليار) وذلك " بسبب التحويل غير القانوني والتدمير للموارد التعدينية والبشرية لطالبي الإلتماس والذي جرى في القارة الأفريقية " في الفترة من عام ١٥٠٣ إلى نهاية عهود الإستعمار في أواخر الخمسينات والستينات من القرن المنصرم. وهي المرة الأولى التي قدرت رقما معينا للتعويضات. ولكن هذا الأمر لم تجر متابعتة كما نرى، بل طواه النسيان كما يبدو.

## قضية الرق في ليبيا

كانت تجارة القوافل مع السودان تمرّ عبر فزان، و خاصة انطلاقا من (أبو نجيم) ووحدات الجفرة وعلى طول المنطقة ابتداءً من سرت، وتسيطر عليها القبائل العربية أو البربرية المستعربة وتبرز من بينها قبيلة أولاد سليمان العربية المعروفة برئاسة سيف التصر وعائلته الذين كانوا مناوئين لسلطة القرماني في طرابلس، ودانمي الثورة ضدها كما هو معروف. وفي العام ١٨٠٦ - ٧ كانت الأوضاع في برقة مضطربة بسبب انتفاضات القبائل، وخاصة بمدينة درنة، مما اضطرّ الباشا الى إرسال ابنه البكر محمد بي لقمعها

وهو ما قام به بوحشية، إذ أعمل النهب والتدمير في درنه، وفي طريق عودة محمد بي بجيشه تعرّض له أحمد سيف النصر عند سرت واشتبك معه في معركة انتصر فيها محمد بي، حين قتل سيف النصر وجذّ رأسه، وحمله معه مبتورا إلى طرابلس التي دخلها يوم ١٠ فبراير من السنة التالية<sup>٤</sup>.

بينما كانت طرابلس الغرب في عام ١٨١٤ تتمتع بفترة هدوء، بعد انتهاء أزمة السفينة (فيلاديلفيا) الأمريكية وتوقيع اتفاقية الصلح بين أمريكا ويوسف باشا عام ١٨١٥، ومما مهد الطريق أمام يوسف باشا للقضاء على الفتنة التي زرعها الأمريكيون واستغلوا فيها أخاه أحمد القرماني، وكان هاربا وقتذاك في مصر. وفي نهاية شهر نوفمبر من نفس السنة وصل إلى طرابلس قنصل بريطانيا الشهير **Hanmer Warrington**، الذي سيكون له شأن كبير وتأثير في الصراعات التي نشبت مجددا في بلاط القرماني. وسنرى كيف قام هذا القنصل فيما يأتي من عقود بتوسيع النفوذ والمصالح الإنجليزية في الولاية ومذها إلى ما وراء الصحراء. وهي الفترة التي شهدت الضغوط البريطانية والفرنسية المتعاضمة على يوسف باشا، لكبح جماح عمليات القرصنة البحرية بما فيها استرقاق المسيحيين، وجاءت كنتيجة لقرارات مؤتمر **Aix-la-Chapelle** (مدينة آخن الألمانية حاليا)، والذي انعقد عام ١٨١٩ وقررت فيه الدول البحرية الكبرى توحيد جهودها لمواجهة القرصنة البحرية. والمعني بها باشاويات طرابلس وتونس والجزائر، بل وقمعها بالقوة بغية منعها منعا تاما<sup>٥</sup>. ودخل الأسطول الفرنسي طرابلس وحاصرها عام ١٨٣٠، وفرض على يوسف باشا دفع مبلغ ثمانمائة ألف فرنكا فرنسيًا، ولذلك ساءت أحوال الخزانة في دولة القرماني، حتى أن يوسف باشا - لما ازدادت أعباء الديون عليه- ضرب عملة جديدة رديئة، ثم زاد من تعسقه في فرض الضرائب الباهظة مما أشعل انتفاضات القبائل في وجهه. ففي (القبلة) وفزان قادت الإنتفاضات والتمرد قبيلة أولاد سليمان التي تسيطر عليها، وفي الجبل الغربي اشتدت انتفاضة قبائل النوايل بقيادة شيخهم غومة بن خليفة المحمودي. ومن ناحية أخرى اضطرّ الياشا إلى أن يتحول إلى تجارة الصحراء، وخاصة تجارة العبيد السود كبديل عما كان يحصل عليه من عوائد القرصنة.

٤ رودولفو ميكاكي (طرابلس الغرب تحت حكم القرماني) ص 166

٥ كان قيام الأسطول الفرنسي بقصف ميناء الجزائر العاصمة عام ١٨١٦ مثلا صارخا على القمع الشديد من قبل فرنسا على وجه التحديد.

ويمكن تلخيص أبرز المراحل التاريخية التي مرتّ بها عمليات التوغّل القرمانلي في عهد يوسف باشا في العمق الأفريقي، وانعكاساتها على العلاقات مع بريطانيا وفرنسا، فيما يلي من محطات:

- كانت غدامس لألفين سنة ماضية إحدى المراكز الرئيسية لتجارة الصحراء. وحين قام الباشا عام ١٨١٠ بإرسال فرقة عسكرية إليها رغبة منه في تدشين النشاط التجاري المستقر والدائم مع السودان، قام التجار الغدامسيون بإرسال العطايا والهبات له، إلا أن جشع الباشا كان بلا حدود مما هدّد بإفلاسهم.
- والواقع إن محاولات الباشا لتنظيم العلاقة بين طرابلس و فزان بدأت منذ أواخر ١٧٩٠ حين أوفد أحد معاونيه، وهو محمد الكانمي كجاب للضرائب، لذلك كان يلقب بي النوبة. وبعد أن ذهب إلى مرزق لهذا الغرض وجد أن ما يحصل عليه قليل بالمقاييس إلى الثروة الطائلة التي كان يتمتع بها سلطان المنطقة، لذا اقترح على الباشا أن يضاعف ثلاث مرات مبلغ الـ ٥٠٠٠٠ دولارا أسبانيا التي كانت مفروضة كضريبة لعدّة سنين، في هيئة التبر والمسك (Senna) والعبيد.
- وبما أن سلطان فزان محمد المنتصر كان يتدخل في تنشيط تجارة طرابلس المباشرة مع برنو حتى أنه أيد انتفاضات أولاد سليمان، لذا قرّر الباشا الإطاحة به، فقام المكني بمؤامرة انقلابية عام ١٨١١ أسفرت عن قتل السلطان وبعض أفراد عائلته وتشتيت البقية. ومن ثمّ منحه يوسف باشا لقب (بي فزان) والذي كان يتحوّل محلياً إلى لقب سلطان فزان. واستمرّ لمدة تسع سنوات يمارس أسلوب البطش والطغيان لإثراء نفسه و تقوية مركزه.
- منذ العام ١٨١٧ باشر الباشا توسيع سلطته بفرضها بعيدا حتى بورنو، دون أن يثير نظام محمد علي في مصر شرقا والأسرة الحسنية الحاكمة في تونس غربا. وكانت برنو آنذاك تتعرّض لاختراقات سلطة واداي المتنامية شرقها، كما تعرّضت في العام ١٨٠٨ لهزيمة عسكرية ألحقتها بها (قوّات الجهاد) من الفولاني. وفي خضم هذه الإندحارات بزغ نجم الشيخ محمد الأمين الكانمي ليقودها إلى النصر، وهو من مواليد فزان ومن أصل عربي. فبعد أن تعلم في القاهرة، جاء إلى كانم ليصبح فيها شيخا عالي المقام، و بدأ في البحث عن حلفاء ضد تهديدات الباجرمي في جنوب الشرق، والفولاني في الغرب، واتجه إلى طرابلس طالبا دعم الباشا وتوحيد جيوشهما لإلحاق الهزيمة بالباجرمي. ومن جهة أخرى سبق لبورنو أن حصلت على أسلحة من طرابلس ممّا قوى من مركزها.
- هذه المبادرة جعلت يوسف باشا يتطلع إلى انشاء نفوذ واسع المدى يجعله يستولي على برنو، فطلب من بريطانيا عن طريق صديقه وارنجتون عام ١٨٢٠، مساعدة لإعداد جيش يتكوّن من ٦٠٠٠ جندياً، وهو ما يتطلّب توفير ٢٥,٠٠٠ جنيتها إسرلينيا، وأراد أن يقاوض ذلك بالتوقف عن تعاطي تجارة العبيد، لأن ما توقّره

التجارة مع السودان وبورنو بالذات بالإضافة إلى مسحوق الذهب سوف يعوّض عنها.

مع قناعة وارانجتون بمصلحة بريطانيا في تأييد المشروع قام الرحالة الرائد **W.H.Snyth**، الذي زار طرابلس عام ١٨١٦ بحجة البحث عن الآثار، بالاقتناع هو الآخر وكتب إلى حكومته بدعم المشروع غير أن الملازم **Alexander Gordon Laing** ، الذي قام برحلته من طرابلس إلى تمبوكتو عام ١٨٢٥، شكك في وجود سلطة للبasha أبعد من غدامس جنوبا، ولو أنه يعترف بأن الطريق التجاري إلى بورنو يقع تحت سيطرته. كما أن وارانجتون، في تحمسه للمشروع وحثه **Whitehall** (أي وزارة الخارجية) على دعمه، وصل إلى أن يكتب إليها قائلا: " إن الطريق من طرابلس إلى بورنو مفتوح بقدر إنفتاح الطريق بين لندن وأدنبره " <sup>٦</sup> وأجمع المكتشفون مثل جيمس ريتشاردسون على أن وارانجتون كان يقلل من خطورة ووعورة اجتياز طرق القوافل في الصحراء. وكتب عن وارانجتون: " إنه جعل الباشا رهن إشارته بل ومنساقا من خياشيمه تحت إمرته ". وهو بذلك قلل من خطورة الطريق حتى جعله "أما مثل الطريق من لندن إلى باريس " <sup>٧</sup>.

ويذكر هنا أن انحطاط الوضع المالي ليويسف باشا قد أوقعه بين برائث الإبتزاز والصراع البريطاني الفرنسي في الولاية المتمثل في النزاع الشخصي بين القنصل البريطاني وارانجتون **Warrington** والقنصل الفرنسي روسو **Rousseau**. وكان تحسن علاقة الوالي مع القنصل الفرنسي أدى إلى سونها مع القنصل البريطاني، يضاف إلى ذلك أن الرحالة الإنجليزي لينج المشار إليه أعلاه، والذي تزوج ابنة القنصل البريطاني (إيما وارانجتون)، قد قتل أثناء رحلته في تمبوكتو سنة ١٨٤٦ على أيدي قطاع الطرق، وإدعى وارانجتون أن روسو إستولى على ما كان لدى القاتل من وثائق وخرائط. ولكن التحقيقات أثبتت عدم صحة الإدعاء. ورغم ذلك سحّب القنصل الفرنسي من قبل حكومته بناء على طلب يوسف باشا - إضافة إلى أن التغييرات في أجهزة التمثيل الفرنسي في الدول الأجنبية بعد الثورة الفرنسية عام ١٨٣٠ قد شملت القنصلية في طرابلس- وقد حلّ محله القنصل شفييل **Scwebel** الذي وجد حظوة لدى الباشا لحسن سلوكه. وهو الأمر الذي أغاظ وارانجتون. <sup>٨</sup>

٦ ورد في بوفيل - مهمات - ناقلا نص المراسلات بين وارانجتون و لينج ، ص ١٥٨

٧ جون رايت - مرجع سابق ص ٥٩ - ٦٨

٨ لقد رأينا وسيوضح لنا الدور الخطير والمؤثر الذي اضطلع به هذا القنصل، الذي قضى في منصبه أكثر من عقدين من الزمن في عهد يوسف باشا القرمانلي إلى أن عصفت به الأحداث المعروفة، فتدخل في صراعات الأسرة، ودعم المكتشفين والرحالة وكان له دور ملحوظ في اكتشافات الرحالة في الجنوب الليبي والسودان الأوسط، وكذلك الآثار الرومانية مثل (لبدة). ولكنه عمل أيضا على نقل بعض محتوياتها الثمينة إلى متاحف لندن. مات ودفن مع بعض أفراد أسرته في مدينة طرابلس يوم ١٢/١٢/١٨٤٣ (وقد أثبت ذلك المؤرخ مصطفى بغيو في كتابه -المختار في مراجع تاريخ ليبيا- الجزء الثاني ص ٢٥ بصورة له أمام القبر ونصبه المنقوش

- روى ليون عن قيام الفرانسين بجلب العبيد بأنفسهم بدلا من شرائهم من التجار العرب والتبو، وذلك بشن الغارات. فقد شاهد في مرزق تجهيز حملة عسكرية ضد نيو (بوركو) مكونة من عرب وصلوا من سوكنه والقرى المجاورة لها، كما أن قوة من الفرسان جاءت من بني وليد. وفي ١٢ يوليو ١٨١٩ تجمعت القوة وقوامها ٣٠٠ من الفرسان و ٨٠٠ من المشاة ومعهم ٢٠٠ جملا. وبعد ستة أشهر من ذلك التاريخ رأى بنفسه عودة الحملة من بورنو وبحر الغزال (في تشاد) وهي محملة بـ ٨٠٠ من البؤساء كهياكل عظمية رثي الثياب، ومن ٢,٠٠٠ - ٣,٠٠٠ من المهري و ٥٠٠ من الحمير بالإضافة إلى ١٠٠٠ بعيرا، والكثير من الأسرى لقيوا حتفهم في الطريق. أما الموتى من الأطفال فقد تم تجاهلهم.<sup>٩</sup>
- في عام ١٨٢١ إستجد الشيخ الكانمي من بورنو بيوسف باشا، طالبا تجهيز حملة مشتركة للقضاء على تمرّد مملكة باجرمي. واستجاب الباشا بأن أعد جيشا قوامه ٤٥٠ من الفرسان و ١٣٠٠ من المشاة بقيادة بيّ فزان آنذاك مصطفى الأحمر، وفي نيّته استغلال الحملة للقيام بجلب العبيد. و فعلا تمّ له ذلك مع اكتسابه خبرة عسكرية بتوغله عسكريا لأول مرّة إلى هذه الحدود القصية من السودان الأوسط، ممّا سيساعده بعدنذ على تنظيم هجوم مقبل للإستيلاء على بورنو.
- في الأثناء كان التنسيق جاريا بين الباشا و السلطات البريطانية التي أرسلت في الأعوام ١٨٢٢ - ١٨٢٥ بعثتها الإستطلاعية إلى بورنو، بعد التمهيد الذي قامت به الغارة القرمانيّة. وكانت البعثة البريطانية مكونة من **Dr. Walter Oudney** الجراح الإسكتلندي، الذي أصبح نائب قنصل في بورنو، - حسب التعليمات المعطاة له من رينشي- " بتحقيق إكتشافات ناجحة أكدت ما جرى من محاولات في دواخل أفريقيا، وساهمت في نشر وتوسيع نطاق تجارتنا في أعماق تلك القارة، كما حمل معه عينات من البضائع الإنجليزية، وطلب منه في التعليمات بأن يعوّد السكان هناك على تعلم إسم بريطانيا وأساليبها.<sup>١٠</sup>

أما العضوان الآخران، وهما المقدم هيو كليورن و المقدم ديكسون دينهام، فقد كلفا باستطلاع دواخل القارة، واتبعا مجرى نهر النيجر مع ترتيبات سرية أُخذت في لندن كي تظهر البعثة مرة أخرى في حوض النيل في مصر. واتخذ التنسيق القرماني البريطاني صيغة عملية حين اقترح وارنجتون أن يُعيّن نائب قنصل مقيم في مرزق لخدمة الأهداف البريطانية تحت غطاء حماية من باشا طرابلس، الذي اتفق معه على حماية البعثة البريطانية إلى بورنو بقوة ألف جندي، مقابل مبلغ زهيد قيمته ٥٠٠٠ جنيها. إلا أنه حين غادرت البعثة مرزق إلى بورنو في نوفمبر ١٨٢٢ لم يقم بحراستها أكثر من ٢٠٠

٩ بالإنجليزية. وهذا يخالف ما ذكره المؤرخ بوفيل الذي ادعى في تاريخه لسيرة القنصل أنه مات في بلدة بتراس في اليونان عام (١٨٤٧).

٩ ليون Travels ص. ٢٤٩ - ٥٠

عسكري من جنود الباشا، وقوبلت البعثة يوم وصولها خارج كوكا، وهي عاصمة بورنو الجديدة غربي بحيرة تشاد، بثلة من جيش الكامي تمتطي الجياد ومنظمة تنظيمًا جيدًا أدهش القوة العربية والبعثة البريطانية على السواء.

- أتاح هذا التعاون القرماني البريطاني للباشا أن يظهر قوته العسكرية، وحقق لبريطانيا اكتشافات في أفريقيا وقواعد انطلاق لمستعمراتها في المستقبل، خاصة أن بعثة دينهام وكليبورن قامت بمسح لبورنو وبلاد الهوسا، بعد أن مات أودين عام ١٨٢٤ في بورنو. ورغم أن السلطات البريطانية عبّرت عن الرغبة في الاستفادة من الإستطلاعات و نتائجها المساعدة في محاربة تجارة الرّق، إلا أنها لم تستطع أن تصل إلى ترتيبات عملية في ذلك مع المسؤولين في طرابلس إلا بعد مرور ٢٥ سنة من ذلك الوقت.

- بعد إلغاء تجارة الرّق عبر الإطلنطي، فتحت حملة **Thomas Fowell Buxton** عيون الرأي العام البريطاني لأول مرة عام ١٨٣٠، على فظائع هذه التجارة. وقد فُدر أن معدل ٢٠,٠٠٠ عبدا كانوا يُجلبون سنويًا إلى موانئ طرابلس والمغرب ومصر، مع نسبة وفاة في الطريق تصل إلى ٤٢ % . ورغم أن تركيا العثمانية أطاحت بالقرماني، وأعدت حكمها المباشر على ليبيا عام ١٨٣٥، إلا أن هذا لم يغيّر من امتهان تجارة الرّق. فاعتبارًا من عام ١٨٤٠ أو ١٨٤٣ مارست بريطانيا وجمعيات محاربة الرّق الضغوط على سلطان تركيا وحكام شمال أفريقيا المسماة آنذاك (البرباريا) لإلغائها، فاستجابت تونس على الفور، ورفضت المغرب، وكانت أكثر قوة و أقلّ عرضة للتهديدات. أما طرابلس والأسنانة فكان موقفهما غامضًا. ورغبة منها في إكمال تحرير تجارة الرّق، وتشجيع التجارة المشروعة، استجابت الحكومة البريطانية لاقتراح قنصلها وارغنتون ففتحت قنصلية واحدة في مرزق عام ١٨٤٣، والأخرى في غدامس عام ١٨٥٠ وهما محطتان رئيسيتان لتجارة الرّق. و بذلك أرادت بريطانيا السيطرة على طرق قوافل الصحراء وتوسيع تجارتها مع كامل السودان الغربي، لكي تُحرم فرنسا من مطامحها التي أخذت تتوسّع في الصحراء بعد احتلالها للجزائر.

- في عام ١٨٤٥ - ٦ وصل إلى مرزق **Jams Richardson** مندوب جمعية مكافحة الرّق، وأجرى أبحاثه التي أظهرت أن معظم العبيد في غدامس جاءوا من بورنو، والبعض الآخر جاء من السودان و تمبكتو. ولم تكن غدامس آنذاك خاضعة لقوانين منع الرّق، لأنها تجارة تدرّ دخلا رئيسيًا على حكامها، خاصة أن الطريق إلى تونس أغلقها البيّ، وأن الجزائر وقعت تحت الإحتلال الفرنسي. ثم يصف ريتشاردسون حالة العبيد المزرية، كما يذكر تقرير من **GB gagliuffi** نائب القنصل البريطاني في مرزق أن التجار المور والعرب، رغم أنهم لا يربحون كثيرا من تجارة الرّق، إلا أنهم رغم ذلك يزاولونها (كربح عاطفي) أو كمتعة عاطفية ! ووجد ريتشاردسون أن التبو كانوا أشع من يسوق العبيد قياسا بالتوارق، بل وحتى بالتجار الطرابلسيين. وفي تقريره الذي رفعه إلى الجمعية، وصف ريتشاردسون

هذه التجارة كونها" أفضح شرّ مستطير شهده العالم ". وفي كتابه (رحلات Travels) إستشهد بما كتبه جاليو في عام ١٨٤٩ من أن قافلة من ١٦٠٠ عبدا جيء بها من بورنو، مأتوا عن بكرة أبيهم عطشا، وأعقبها ٨٠٠ آخرين ماتوا على نفس الطريق. ولم يمنع وجود نائب القنصل من إستمرار هذه التجارة، إذ أنها تحوّلت إلى ممرات أخرى غير معروفة نحو البحر الأبيض.

- وقد لاحظ هاينريش بارت وهو في بورنو عام ١٨٥١ إقلاع قافلة من ٧٥٠ عبدا. وقال إن العبيد مازالوا يشكّلون الصادرات الرئيسية لهذه السلطنة. وقدر القنصل البريطاني في طرابلس عام ١٨٥٨ أن تجارة الرقيق تمثّل ثلثي حجم التجارة عبر الصحراء، و يؤكد ذلك أن عائدات ميناء طرابلس عام ١٨٥٠ ازدادت مع كل من ألبانيا، رودس، قبرص، إسطنبول والشرق. وفي ذات الوقت فإن بنغازي التي كانت آنذاك المحطة النهائية في الشمال لتجارة عبر الصحراء الآتية من طريق الواداي، والتي جرى تطويرها، غدت أهم منفذ يصدر منه الرقيق الأسود. وحسب تقرير للقنصل البريطاني هناك عام ١٨٤٩، أن ٤٠٠ عبدا كانوا يموتون من مجموع ١٦٠٠ عبدا أثناء المسيرة من واداي<sup>١١</sup>.

- تحت الضغوط البريطانية حظر السلطان التركي تصدير العبيد من طرابلس بنغازي ودرنه إلى كريت ومنها إلى أنحاء الإمبراطورية العثمانية. وأعقب ذلك صدور مرسوم بمنع شحن العبيد عن طريق البر أو البحر بين طرابلس وتركيا، ثم صدر عام ١٨٥٧ أمر بإلغاء التعامل في الرق - وليس الرق نفسه - داخل الإمبراطورية، وذلك حسب التفسير التركي للشريعة الإسلامية. ومما تضمّنته الأوامر: منع بيع الأم وولدها بيعا منفردا، ويصبح الولد حرا عندما يقبل السيد أبوته وبذلك تتخلص الأم من عملية بيعها. والولد عندئذ يتساوى في الحقوق مع ابن السيد الحقيقي وبالتالي لا يستطيع السيد بيعه من جديد دون رضاه، كما أن السيد يعتق العبد الذي يريد أن يتزوج<sup>١٢</sup>.

ومما لا شك فيه أن إلغاء تجارة الرقيق في الإيالة، كانت له آثار سلبية على حجم تجارة القوافل في الصحراء، إذ تغيّرت طرقها واتجاهاتها. وقد جاء هذا في تقرير للفنان الألماني **Wilhelm Heine** الذي زار طرابلس عام ١٨٥٩ حيث قال فيه: " منذ إلغاء تجارة الرقيق في الإيالة، فإن القوافل الآتية من الدواخل حوّلت اتجاهها إلى الشرق، أي مصر،

١١ في حديثه مع المؤرخ الليبي د. فرج عبد العزيز نجم، يذكر المؤرخ البريطاني جون رايت أنه زار مدينة إجدابيا عام ١٩٩٨، وقابل فيها بعض الرجال الذين كانت لهم علاقة بتجارة العبيد، وروو له قصصا مروعة عن التجار الليبيين عديمي الإنسانية الذين كانوا يجرجرون الإيلاء بالسلاسل وهم يحملن أطفالهن، وإذا ما صرخ الأطفال قاموا بانتزاعهم من أمهاتهم ورميهم في الصحراء! - القدس العربي اللندنية أكتوبر ٢٠٠٢

١٢ (الصراع التركي الفرنسي) لعبد الرحمن تشايحي، ص ٥٥

أو إلى الغرب، أي الساحل المراكشي، ونتيجة لذلك اضمحلت حركة المواصلات وهبطت الواردات بشكل ملحوظ<sup>١٣</sup>

وكما سبق ذكره فقد كان الرخالة الجغرافيون يقومون بمهمة متابعة هذه التجارة عبر الحدود الليبية، ولذلك واجه أغلبهم مشاق ومخاطر أودت بحياتهم مثلما جرى لبعثة رينشاردسون الذي اتجه عام ١٨٥٠ إلى كوكا عاصمة بورنو، ولكنه مات في الطريق، وبارت ذهب إلى المدينة التجارية الكبرى (كانو) ثم استطلع مع أوفيرفيج المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد. وبعد موت الأخير في نوفمبر ١٨٥٢ سافر بارت إلى سوكونو في طريقه إلى تمبكتو التي وصلها في سبتمبر ١٨٥٣ وأقام فيها لمدة ستة أشهر، وفي طريق العودة التقى بعثة إدوارد فوجيل **E. Fogel**، وهو ألماني آخر كان في خدمة الحكومة البريطانية. وبينما عاد بارت إلى طرابلس ومنها إلى إنجلترا في خريف ١٨٥٥، واصل فوجيل رحلته إلى السودان حيث قتل عام ١٨٥٦، ومات بقية أعضاء بعثته الخمسة في العام التالي. وبعد عامين من رحلته نشر بارت تحقيقاته في خمسة مجلدات تحت عنوان (رحلات واكتشافات في شمال ووسط أفريقيا)، والتي اعتبرت خاتمة أو تنويجا لجهود بريطانية دامت سبعين سنة للتغلغل في دواخل أفريقيا إنطلاقا من طرابلس.

وحسب جون رايت سرعان ما تخلت بريطانيا عما حققته من نجاحات سياسية وتحولت إلى الاستطلاع والتغلغل عن طريق الملاحة النهرية من خلال النيجر وروافده، فمذ عام ١٨٤٥ توجهت الباهرة **Pleiad** التي صُممت خصيصا وعلى ظهرها ست وستون من البحارة لم يمت أحد منهم أثناء الرحلة، بسبب تناولهم (للكينيين) كعقار واق وليس كعقار للعلاج. والمراكب التجارية التي زُودت ببنادق محشوة طويلة المدى والكينيين، كانت جميعها إذن هي العدة التي استعملتها بريطانيا لاستطلاع دواخل أفريقيا الوسطى عبر نهر النيجر، مفتحة عصرا جديدا من أساليب الاستغلال والاستعمار، تاركة بذلك التوغل عبر الصحراء لقوى أوروبية أخرى مثل فرنسا التي أتيح لها أن تتوسع من مراكزها في الجزائر والسينغال، لعلها تجد تعويضا عن هزيمتها في حرب ١٨٧٠. وبذلك تكون بريطانيا قد تخلت عن الوهم الذي طالما راودها حول ثروات أفريقيا - اعتمادا على تقارير ومؤلفات الجغرافيين العرب - وتأكد لديها عن طريق مكتشفيها أن هذا الإقليم من أفريقيا هو إقليم فقير، ولولا تجارة العبيد ومنظومتها لكان أفقر مناطق العالم في ذلك العصر.

وجاء إغلاق القنصلية البريطانية في غدامس عام ١٨٦٠ أيذانا ببدء هذه المرحلة من إنحسار الإستعمار البريطاني في الوسط الأفريقي.

وإشباعا لطموحها في العظمة الإمبراطورية، فكرت فرنسا في إنشاء خط سكك الحديد عبر الصحراء إنطلاقا من الجزائر. ونتيجة للإنسحاب البريطاني تحول الصراع من صراع فرنسي - بريطاني مباشر عبر الصحراء، إلى صراع فرنسي ليبي فيها<sup>٤</sup>.

ومن بين الذين رصدوا تجارة الرقيق في أفريقيا، كان جيمس ويلارد في كتابه القيم (الصحراء الكبرى) الذي انطلق برحلته في أواخر الستينات من القرن المنصرم، من طرابلس عبر مرزق، ومنها توغل في الصحراء الجنوبية. وقد لخص مشاهدات الرحالة الأوربيين الذين سبقوه. وفي تعرّضه لتجارة الرق، كتب يقول: " في البداية كان القبض على عشرات الآلاف من الأسرى عملا يقوم به شيوخ العشائر الأفريقية في حروبهم العشائرية من أجل الحصول، قبل كل شيء، على النساء يضيفونهم إلى الحريم. أمّا العبيد الذكور فلم تكن لهم فائدة. وهكذا كان شيوخ العشائر يتخلصون من الأسرى الرجال الذين أصبحوا فيما بعد غنائم ثمينة. وقد شهد (بارت) في رحلته بالسودان عام ١٨٥٢ إحدى طرق التخلص فكتب يقول " لقد شهدنا برعب عظيم كيف ذبح مائة وسبعون رجلا بلا رأفة وبدم بارد من بين ألف أسير. وكان أكثرهم ينزف دمه حتى يموت إذ تُقطعت إحدى ساقيه لهذه الغاية ". إن هذا القتل العايب لحيوان نافع للعمل هو بالطبع خاصة نموذجية من خصائص شيوخ العشائر الأفريقيين الذين لم يبنبهم العملاء بقيمة ١٧٠ رجلا من البالغين. ذلك حيث أمكن العرب تنظيم تجارة الرقيق، أنقذت آلاف الأرواح، أو على الأقل حظيت بفرص البقاء على قيد الحياة بنسبة واحد إلى عشرة. إن مبدأ بيع الناس هذا بدلا من ذبحهم قد أقرّه مثلا الكونغوليون، فنحن نجد مستكشفا إيطاليا يحدثنا كيف أن واحدا من سكان الكونغو الأصليين كان في حالة من اليأس الشديد لأنه باع إخوته وأخواته وأولاده وأباه وأمه، ولم يبق لديه للبيع سوى زوجته، وشرفه الشخصي يمنعه من أن يبيعهها. وعندما بلغ العرب البلاطات الملكية الأفريقية نظموا فوراً أسلوب البيع على الأساس المعتاد، وهو الأساس الذي كان القرطاجيون قد اعتمدوه قبل ألفي سنة. ويتلخص في تبادل العوبة أوربية مموهة لقاء (منتوجات) أفريقية قيمة، مثل شاب قوي أو فتاة سوداء جميلة أو فتيان وفتيات يصلحون لقصور الحريم. وأصبحت المسألة الآن مسألة الحصول على عدد كاف من الأسرى أحياء، لا مسألة قتلهم عندما يقعون في الأسر. ولهذه الغاية نظم العرب الغارة، وهي كلمة تعني صيد الإنسان،

١٤ جون رايت - مرجع سابق ص ٦٨ - ٧٢.

رغم أن المسلمين لم يرغب عن بالهم يوما أن الكافر هو من وجهة النظر المعنوية رقيق أفضل من الأسود. " <sup>١٥</sup> ويورد (ويلارد) رواية ليون - وكان أول أوروبّي قام برحلة في فزان - غارة قام بها الرعاة العرب على قبائل التبو عام ١٨١٩، إذ قال: " إن مائتين أو ثلاثمائة رجل فقط حصلوا في صبيحة يوم واحد على ألف أو ألف وخمسمائة رقيق. وعندما أعطي الأمان للسكان، استولى المغيرون على الجمال والأغنام والمؤن، وتابع العرب مرهوبو الجانب هؤلاء سيرهم وغزوا عشائر متنقلة أخرى بالطريقة نفسها ". ويشرح ويلارد الوضع كما يلي: " لقد كان في استطاعة العرب إذن، مع إغضاء شيوخ القبائل الأفريقيين وتسترهم، أن يحققوا غاية مزدوجة عن طريق غاراتهم هذه. فهم أولا يؤدون خدمة نافعة لملك ما من الملوك المحليين يريد إضعاف جيرانه بأخذ رجالهم للإسترقاق، وهم ثانيا يزودون التجار الأوربيين بسلعة أفريقية لم يكن باستطاعة هؤلاء أن يحصلوا عليها بعد لأنفسهم. " <sup>١٦</sup> أما الرحالة ليون فيصف " خصي الأسرى الذي كان جاريا في المنطقة ما بين بحيرة تشاد - بيلما - مرزق إلى طرابلس، لاستخدامهم في قصور الملوك الأفارقة وشمال أفريقيا وجزيرة العرب وتركيا. بينما يذكر الرحالة (دينهام): أنه كان لسلطان برنو أكثر من ٢٠٠ خصيا في حريمه لا يتجاوز أحدهم عشرين سنة، في الوقت الذي كان لسلطان باجيرمي- الذي يقال أن زوجاته بلغن ألف امرأة تقريبا - ثلاثة أضعاف ذات العدد من الخصيان الذين وقعوا أسرى. وهناك قصص أخرى تصف الوحشية في نقل العبيد عبر الصحراء <sup>١٧</sup>. وفي هامش الفصل يذكر ويلارد بالمصادر الأولية التي بحثت في الإسترقاق من قبل الأوربيين - لأن العرب لم يدونوا عنها شيئا كما قال - مثل كتاب بيبترو كافازي **Pietro Cavazzi** الإيطالي في كتابه " التاريخ السري لممالك الكونغو الثلاث " الصادر في بولونيا عام ١٦٨٧، والذي قرّر فيه أن الإسترقاق على نطاق واسع، ولم يُعرف له مثيل سابق، كان قد توّطد في جميع أنحاء أفريقيا الوسطى قبل وقت طويل من وصول العرب والرجل الأبيض لاستغلاله.

### هجرة أولاد سليمان و تأثيرهم في حياة تشاد

حتى القرن التاسع عشر كانت العلاقات التجارية المتبادلة نشيطة بين ليبيا و تشاد المتجاورتين، ومن ثم بين طرابلس وإمبراطورية (بورنو) عبر كاوار، وهي مناطق تشكل اليوم أجزاء من جمهورية النيجر المعاصرة و شمال نيجيريا. وعلى الرغم من أن التجارة

١٥ (الصحراء الكبرى) لجيمس ويلارد ص ١62 -- مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا - مايو

١٩٦٧

١٦ نفس المرجع ص ١٦٣ .

١٧ نفس المرجع إعتبارا من ص ١٦٦

مع كل من كانم و الباجرمي و الوادي، والتي كانت ذات أهمية ثانوية مع ليبيا كمتنافس لبورنو على المنافذ البحرية ومصدرا للمواد الخام من أجل تجارة التوزيع لبورنو على المنافذ البحري، إلا أنه منذ العام ١٨٤٠ توطدت العلاقة والصلات الشخصية بين رجال قبائل الجانبيين، بالإضافة إلى انتشار التأثير الديني السياسي الذي بدأ من ليبيا في وسط تشاد الحالية، كما فتح طريق تجاري مباشر بين شرقي تشاد وبرقة. وكان رواد هذه العلاقات الوطيدة قبيلة أولاد سليمان القاطنة في الوسط والجنوب من ليبيا، والتي شكلت بعد نذ تحديات ومخاطر سياسية إقتصادية خارج الصحراء.

وأولاد سليمان، المنحدرون من بني سليم الغزاة العرب في القرن الحادي عشر، هم قبيلة برزت بعد أن حسمت النزاعات بين فصائلها المتناحرة ووحّدت صفوفها، فاتخذت تحت زعامة عائلة سيف النصر المرموقة موقعا عسكريا و سياسيا معتبرا في الصحراء الوسطى عند نهاية القرن الثامن عشر، وكما هو الشأن مع أغلب القبائل الليبية الكبيرة، كان اتجاهها صوب الشمال والجنوب ما بين السهوب الصحراوية من خليج سرت - حيث ترعى الإبل و الخيل والغنم، ويُزرع الشعير في الوديان الخصبة نوعا ما، وحيث واحات النخيل المثمر في شمال فزان.

وخلال القرن السابع عشر أنشأت القبيلة علاقة سيّد بمسود مع أقوام (السمنو) و(التيمنهت) وواحات سبها، حيث كانت تحصل منهم على احتياطيتها من التمور المجففة اللازمة لقوافل الصحراء ذات المسافات البعيدة، وارتبطت بالمصالح التجارية مع واحات الجفرة في هون والودان وسوكنه في التخوم الغربية لأراضي قبيلة أولاد سليمان، ومع واحة زلة في الشرق على طريق أوجله - مصر. والذين استطاعوا أن يحافظوا على روابط مترامية إقتصادية و سياسية وعلى شكل منتظم وسنوي للتجارة والتحركات البشرية في الصحراء، كانوا هم القبائل الكبيرة أو تجمعات القبائل الصغيرة التي تدين بالولاء لنفوذ قبيلة مركزية. أما القبائل الأخرى الأقل حجما فليس لديها من منافذ إلا التوجّه إلى موارد طرابلس الغرب أو شمال فزان، مالم تنشئ تواجدا أوسع بالارتباط مع تجمعات أخرى من شبه الرعاة في غربي ليبيا<sup>١٨</sup> ومنذ بداية القرن التاسع عشر ثمة أربع مجموعات رئيسية في منطقة سرت: أولاد سليمان؛ القذافنة؛ والمغاربة ومعهم ورفلة من جنوب شرقي طرابلس الغرب. وهذه القبائل غالبا ما توحد صفوفها - ضمن حفاظها على هوياتها الخصوصية - في وجه

١٨ (فزان وطرابلس) باريس ١٩٦٣ ص ١٠٢ E.L. Peters و A. Gaunceille (التنوع الثقافي والإجتماعي في ليبيا - ليبيا منذ الاستقلال) ص108 Beckeorham 1982

القبائل الأخرى، أو إذا ما شعرت بدنو أخطار خارجية. وهذا التحالف الذي يطلق عليه الصفّ الفوقي يجمع القبائل التي ترعى في منطقة سرت الداخلية. وهم أخصام تقليديون لصفّ البحر، وهو تحالف القبائل المطلة على ساحل البحر الأبيض. ورغم كبر حجم قبيلة أولاد سليمان بمقاييس الصحراء إلا أنها لا تستطيع أن تجتد إلا بضعة مئات من المحاربين في معركة واحدة، إذ يعتبر عدد ٣٠٠ محاربا كبيرا نوعاً ما. وفي وقت السلم يعتمد بقاء القبيلة على حرية حركتها بين منطقة الرعي شمال شبه الصحراء في سرت وواحات فزان، مع التدفق المنتظم لأفرادها من الفجاج التي تبعد أكثر من ٥٠٠ كم. ومما يرسم حدود نفوذ القبيلة هو ممر التجارة الرئيسي بين طرابلس الغرب والسودان الأوسط، فهذا يمكنها من توسيع هامش حياتها لأنها تحتمي بالقوافل أو تغير على تلك التي ترفض الدفع. وأثناء الحرب، حين يتوقف النجاح على مدى حشد الرجال أكثر من مدى رقعة الأراضي، فإن بقاء القبيلة يعتمد على قدرتها في الهجوم والإغارة بسرعة، وباستعجال عنصر المفاجأة اعتماداً على الخيل والإبل، كما أن الدفاع يعتمد على القدرة على تفادي ملاحقتها في الصحراء من قبل الخصوم.

والمصدر الآخر لاسترجاع القبيلة لقواها، هو قدرتها على التغلب السريع على النكبات. فمنذ نهاية القرن الثامن عشر عانى أولاد سليمان من سلسلة الهزائم المدمرة التي بدا أنها ستنتهي وجودهم المادي، إلا أن القبيلة استطاعت أن تستعيد قوتها العددية مثبتة نفس المقاومة المذهلة في تحدي الأعراب، تطلعا للسيطرة على الصحراء الوسطى بين البحر الأبيض وفزان. ونظراً لقلّة مواسم الرعي الجيد، فإن القطعان الضالة غالباً ما يسهل تجميعها، بينما تمّ - في غضون ١٥ إلى ١٧ سنة- تنشئة جيل جديد من المحاربين القساة من نساء القبيلة ومن العبيد الناجين من المذابح، إلى ذلك يُضاف أسرى الحروب الذين صار تبنيهم. علاوة على ذلك فإن زعامة القبيلة الممتلئة في عائلة سيف النصر كانت مترابطة وفقاً للتقيد بالزواج من الأخوات الصغيرات للسلطين، مع إنشاء تحالفات بالتزاوج من النبلاء المقيمين في تخوم الصحراء. وكان أولاد سليمان وحلفاؤهم من القبائل الأخرى دائماً معارضين لمحاولات القرماني تروسيخ سلطتهم في طرابلس، متضامقين بصفة خاصة من دفع الضريبة السنوية. ولم تكن علاقة القبيلة مع طرابلس ما بين عام ١٧٨٠ و ١٨٤٠ ثابتة، إلا أن أهدافها كانت بكل بساطة أن يسمح لها بالحرية وأن يُعترف لها بالنفوذ السياسي والإقتصادي في وسط ليبيا.

ومنذ العام ١٧٨٠ بدأت سلسلة من الانتفاضات والثورات قامت بها القبيلة ضد القرماني، وتوجت بالاعتراف الرسمي لأولاد سليمان بحقوقهم، وهو ما مكن للقبيلة من استغلال

الكارثة الإقتصادية والاجتماعية التي ألمت بعهد علي باشا القرماني، فسيطرت على الطريق التجاري إلى فزان عبر مصراته، وأحيانا قطعتة. وحتى يسيطر بدوره من جديد على التواخل فإن يوسف باشا الذي ورث علي باشا، كان عليه أن يشن سلسلة من الحملات ضد أولاد سليمان وحلفائهم ما بين ١٨٠٥ و ١٨١٦. وبعد أن مُنيت هذه القبيلة بالهزيمة الماحقة تشتت وبدا أنها هلكت تماما، غير أن أحد أحفاد الشيخ سيف النصر وهو عبد الجليل أخذ كرهينة في بلاط القرماني، فهيأت له مواهبه الحربية أن يتقلد قيادة غارات الباشا في تجارة العبيد داخل كانم عام ١٨٢٠. وفي عام ١٨٣١ وفي إحدى مظاهر انبعاث قوة القبيلة من جديد، تحول عبد الجليل إلى معاداة القرمانيين خلال الأعوام التي أخذت فيها قوتهم السياسية والاقتصادية تتضاءل في أواخر عهد يوسف باشا الطويل، حتى أنه في نهاية تلك السنة استولى عبد الجليل على فزان وعين نفسه كسلطان مستقل في مرزق. ورغم أن أولاد سليمان اضطروا إلى التقهقر في الصحراء إلا أنهم مكثوا بشكل واسع في فزان. ومستفيدين من الخبرة التي اكتسبوها من الغزوات السابقة التي قاموا بها لصالح القرماني، فإنهم أخذوا يشنون الغارات لصالحهم في كانم وبورنو، وفي نفس الوقت فقد القرمانيون سيطرتهم على فزان وطرق القوافل الجنوبية صوب بحيرة تشاد والطرق جنوب غربية نحو النيجر. فقد كان عبد الجليل قائدا عسكريا محنكا: " ينطلق من مبادئ ثابتة وانضباط صارم كان باستطاعته أن يستخلص النظام من الفوضى. ورغم معوقات الحياة الصحراوية والنزعات الانقسامية التي يتصف بها الرعاة، فإنه لم يتمكن فقط من تنظيم وتوحيد قواته العسكرية، بل إنه منحهم أيضا تدريبا ممتازا، وحافظ بينهم على مستوى عال من الانضباط " <sup>١٩</sup> ولفترة طويلة كان القنصل البريطاني وارنجتون معجبا بزعامة عبد الجليل سيف النصر حتى أنه عرض وساطته بين أولاد سليمان وبين يوسف باشا، ونظرا لوثوق العلاقة الشخصية بين القنصل وعبد الجليل سيف النصر، فقد رفض يوسف باشا هذه الوساطة، كما أن زعماء القبيلة كانوا يترددون على بيت القنصل الريفي جنوب شرقي طرابلس. وفي تلك الأثناء بدا واضحا أن عبد الجليل كان على استعداد للعمل لكي تكون طرابلس محمية بريطانية مقابل سيطرته على بقية أنحاء البلاد <sup>٢٠</sup> وبما أن يوسف باشا واجه الثورات المستمرة والإنهيار الاقتصادي، بفعل الكبح الدولي للقرصنة وعدم استتباب الأمن على طرق القوافل، فقد اضطر إلى أن يتنازل عن الحكم لابنه على القره ماللي في يوليو ١٨٣٢.

١٩ فولايان - طرابلس ص ١١٩.

٢٠ فولايان ص ١٢٠.

وكانت البلاد في حالة فوضى والثورة عمّت طرابلس نفسها حين أرسلت الحكومة العثمانية في مارس ١٨٣٥ أسطولا حربيًا لفرض حكم الأستانه المباشر على البلاد (بطلب من الأهالي، ومن القناصل الأوربيين) وبذلك أنهت ١٢٠ سنة من حكم دولة القرماني المستقلة.

وبعد سقوط الجزائر تحت الحكم الفرنسي عام ١٨٣٠، ونيل محمد علي ما يقارب الإستقلال لمصر، كانت دوافع تركيا وراء إعادة احتلال طرابلس هي الحيلولة دون ضياع مزيد من الممتلكات في شمال أفريقيا. ولكن الولاة العثمانيين - مثلهم مثل من سبقوهم من باشاوات القرماني - سرعان ما وجدوا القبائل مستعدة للولاء لسلطان الأستانه، ولكنها غير راغبة في دفع الضرائب، أو الخضوع لسيطرتها. ولهذا استمرت ثورات أولاد سليمان وغيرهم من القبائل خلال العام ١٨٣٠ حيث قويت شوكة أولاد سليمان، وأصبح عبد الجليل واقعيًا الحاكم الفعلي لجميع فزان، وبذلك احتفظ بعلاقات مباشرة مع بورنو، واتصال دبلوماسي مع مصر محمد علي وفرنسا في الجزائر، الأمر الذي جعل العثمانيين يتوجسون خوفاً من تحويل طريق القوافل الصحراوي من طرابلس إلى منافذ أخرى في شمال أفريقيا. ووطد عبد الجليل سيطرته على الصحراء الوسطى عن طريق التحالفات الزيجية مع الجيران: فهو شخصياً تزوج من أخت سلطان بورنو عام ١٨٣٥، وتزوجت اثنتان من أخواته بشخصيتين نافذتين في بورنو، بينما تزوجت الأخرى من أحد أعيان التبو في منطقة تبستي<sup>٢١</sup> وفوق ذلك فإن عبد الجليل كان يُنظر إليه من قبل القنصل وارانجتون والحكومة البريطانية كعامل يعتدّ به للإلغاء الكلي لتجارة الرقيق في الصحراء، وظاهرة الرق في الصحراء الوسطى، وتنظيم التجارة المشروعة مع حت الحكام الآخرين على اتباع النهج نفسه. ففي اجتماع عُقد في سرت بينه وبين وارانجتون في أبريل ١٨٤٢، تعهّد عبد الجليل بتولي هذه المهام شريطة أن يُمنح بعض المخارج إلى الساحل، وبالذات مرفأ بنغازي، والاعتراف به من قبل الباب العالي (كُتبي) على فزان. غير أن كلّ هذه المشاريع التي كانت كفيلة بإعطاء بريطانيا ممراتٍ سياسية وتجارية إلى أقطار السودان الأوسط، عبر طرابلس أو بنغازي وفزان، لم تؤت أكلها.

وكما فعل الفرنسيون في الجزائر، تبنى الأتراك في طرابلس في البداية تدخلا ديناميكيا في سياسة الصحراء، بدلا من سياسة سلبية ودفاعية. فبعد إخماد الإنتفاضة في مصراته واحتلها من جديد عام ١٨٣٠ واجهوا ثلاث ثورات في ثلاثة مراكز رئيسية وهي: في ترهونه ومسلاته جنوب شرقي طرابلس؛ في الجبل الغربي؛ وكذلك في منطقة سرت

وفزان. وكان الأتراك سادة جدا أكثر جبروتا من القرمانيين، ورغم أن الأساليب القاسية التي استعملوها ضد الثوار لم تذلل العقبات أمام مهمته، إلا أن عبد الجليل دُوم في مايو ١٨٤٢ بقوة تركية في منطقة تابعة لورفلة - ما بين سرت وأبي نجيم - وذلك مباشرة عقب لقائه مع القنصل وارنغتون (تشتت هنا رائحة غدر وخيانة)، إذ ذكر إتوري روسي: " في سنة ١٨٤٢ انتقل عبد الجليل إلى سرت، ويقال إن القنصل الإنجليزي استدعاه مقترحا عليه الاجتماع بإحدى المناطق الساحلية متعهدا بالعموم الإنجليزي له والإعتراف بسيادته على فزان، شريطة الكف عن تجارة الرقيق. وعندما غادر عبد الجليل الاجتماع فوجيء بقوة عسكرية بقيادة حسن بك البلعزي تحاصره وتطوقه بين سرت وأبي نجيم. وحين هُزم لجأ مع البقية الباقية من رجاله إلى مرتفع ما يزال يحمل اسمه حتى اليوم (قارة عبد الجليل). وظلّ يقاوم حتى النهاية. وقُتل في هذه المعركة كما قُتل أخوه سيف النصر وولدان لهذا الأخير، كما قُتل مصطفى الأدمم ابن آغا مصراتة، وأحمد المريضة شيخ ترهونة، وابنه وأخوه. وكان ذلك في أوائل يونيو ١٨٤٢، وقُطع رأس عبد الجليل ونقله الجيش المنتصر إلى طرابلس.<sup>٢٢</sup> بينما هناك روايات متضاربة عن مقتل عبد الجليل ذكرها روسي وريتشاردسون وناختيجال فيما دونوه في كتبهم.<sup>٢٣</sup> وتقول إن القنصل وارنغتون هو الذي نصح محمدا بن عبد الجليل بأن يجلو مع قبيلة أولاد سليمان وحلفائها إلى بورنو وكانم، ليتفادوا الوقوع في قبضة الأتراك. وبتوغلهم مسافة ١٥٠٠ كم في عمق أفريقيا الوسطى، فإن أولاد سليمان وحلفاءهم وخاصة القذافذة وورفله، وجدوا البيئة الصحراوية التي تماثل بيئتهم. ومن الناحية السياسية فإن موطنهم الجديد لم تختلف ظروفه كثيرا عما تركوه وراءهم، فبدلا من الأتراك العثمانيين وما وراءهم من ضغوط دبلوماسية واقتصادية أوروبية، كان عليهم أن يتباروا مع سلطة محتضرة في امبراطورية بورنو، وصعود خطر توسعي هو خطر الواداي في الشرق. فالسكان البرناويون والتبو المحليون لا يصل مستواهم إلى القوة العدوانية للعرب الليبيين والعرب البربر الوافدين، رغم أنهم نسبيا قليلو العدد، فأغلبهم فضل البقاء في إقليم سرت مع التفاهم مع الأتراك. وقد قيل إن جماعات أولاد سليمان المختلفة في كانوا، تجاوز عددهم ١٧٠ خيمة (أي نجع)، يضاف إليها ٣٠ نجعا من الحلفاء والتابعين القذافذة وورفله. ويبدو أن تفوق الليبيين كان يُعزى إلى امتلاكهم للأسلحة النارية. وبذلك لم تستطع أي مجموعة رعوية قريبة أن تنافسهم. وأكثر جيرانهم رهبة كان تحالف (Kel Owi) من الثوار المتمرزين غربا في مرتفعات (الأير). وفي العام ١٨٤٤ استغل أولاد سليمان، مدعومين من قبائل أخرى، ما تدره

٢٢ (ليبيا منذ الفتح العربي..) ص ٣٦٥ واعتمد المؤلف في روايته على تقرير لقنصل سربينا إلى وزارة خارجيته، وعلى تقرير القنصل الفرنسي (بليسيير دي رينود) وشارل فيرود في حولياته، والذي قال فيها إن الزعماء المذكورين مع عبد الجليل لم يقتلوا أثناء المعركة، ولكن أعدمهم أشقر باشا بعد شهر من ذلك..

الغزوات من غنائم، والتي كانت تُسَنّ على القوافل السنوية الضخمة التي يطلق عليها (غزلية)، ولعلها تحريف لكلمة غزوة العربية، والتي كان ينظمها (الكيل أوي) لإمداد دويلات الهوسا بملح كاوار. وكانت قوة أولاد سليمان تتكون من آلاف الإبل، وكان أسلم لها لو أنها تفادت استفزاز الطوارق: إذ في بداية ١٨٥٠ فوجئ الغزاة الليبيون بقوة مكونة من ٧٠٠٠ من (الكيل أوي) وحلفائهم في وادي (عللاه)، وتعرضوا فيه لمذبحة ماحقة لم ينج منها إلا الشبان الشجعان. وكان الشيخ محمد من بين القتلى، وخلفه في زعامة القبيلة غيث ابن سيف النصر البالغ من العمر ٢٢ سنة<sup>٢٤</sup> وقد زارهم الجغرافي الألماني المذكور بعد نكبتهم هذه، وأفرد فصلا كاملا لما أسماه (بعصاية اللصوص). وما أن حظوا رحالهم في كانون عام ١٨٧٠ حتى التحق بهم عدد كبير من المغامرين من القبائل العربية جاءوا من البادية ومن فزان، وتحولوا إلى حلفاء بورنو على وادي كما ذكر الرحالة الألماني (ناختيجال)، الذي شاهدهم آنذاك ووجدهم مسيطرين، قد أدخلوا الرعب في روع السكان، ثم قاتلوا الفرنسيين عند إحتلالهم لكانم. وحسب بارت كان باستطاعة القبيلة أن تجند لميدان المعركة ما بين ٩٠٠ - ١٠٠٠ فارسا. وحتى تحافظ على وجودها استعانت بحلفاء من طوائف التبو المحلية. وفي الواقع تولت الدفاع عن السلطنة التي عجز أهلها عن توفيره، كما تمرست القبيلة بمهارة في ضرب قبيلة مستقرة أو رعوية بأخرى. واستطاع أولاد سليمان أن يمدوا غزواتهم كيفما شاءوا إلى مناطق أبعد، متمتعين بسلطة أكتسبهم مزيدا من حرية العمل أكثر مما كانوا يمتنعون به في سرت<sup>٢٥</sup> وقد صور ناختيجال كيف كانت القبيلة تجند الأنصار من بين أقاربها قائلا عنها: " بتماسك عجيب وحذق ماهر قاتلوا ضد القبائل المنتشرة بين تشاد والحدود الجنوبية لتبستي من ناحية، وبين بورنو والطريق المؤدي من بنغازي إلى الوادي من ناحية أخرى. ولقد قاموا بذلك بقوة لا تتعدى ٥٠٠ فارسا، أو ما يعادلهم من المشاة، فهم ببسالة قتالية عنيدة تراهم، تارة يحاربون في موسم الحصاد في بوركو، وتارة ينضمون إلى القبائل العديدة في بحر الغزال، وتارة أخرى أثناء ترحالهم للتسوق في بورنو أو سلطنات الهوسا. وإن منحدرات (عجي) و (بوديلي) الغنية بالنباتات والمياه الغزيرة، رغم ملوحتها، تعتبر المحطات المفضلة للقبائل الممتطية للإبل القادمة من الصحراء الجنوب شرقية، والتي ازدادت تصحرا. وإن ما استولى عليه هؤلاء القساة منذ وصولهم لا يمكن تعداده. وكانت الصحاري وشبه الصحاري تمدهم بما يؤثرونه أي الإبل، كما أن السكان الحضر في السودان المجاور كانوا يزودونهم بما يغذي جشعهم من كنوز نفيسة يزر بها ذلك الإقليم من الفضة والعنبر واللؤلؤ والأقمشة القطنية. وكانت الروايات عن غزواتهم الناجحة، رغم ما تتطوي عليه من مبالغات بفعل بعد المسافة والتضخيم الخرافي، قد تسربت إلى مواطنهم الأصلية،

٢٤ بارت (Travels - Discoveries) 275p.

٢٥ كلوديل - ص ٣٣٢.

فجذبت إليهم مواطنيهم والمغامرين المتعطشين للنهب من الحدود المصرية إلى طرابلس وفزان، ومن ورقله وقذائفه وفرجان وجوازي ومقارحة. والذين انضموا لفترة ما إلى هذه المهنة، دون نفور من معاناة ووحشة الهجرة، ومن هموم الانفصال عن الوطن والأسرة، إذ ظهروا في أقصى الجنوب كحلفاء مؤقتين يعودون بعد سنين قليلة محملين بالغنائم".

وأحد مصادر القوة لدى أولاد سليمان يكمن في محافظتهم على ارتباطهم الوثيق مع أهلهم في ليبيا. فبينما يعود أعضاء القبيلة في المناسبات إلى أراضي سرت، تعمل أعداد أكثر منهم في ليبيا كمدد سواء بشكل مؤقت أو دائم، وفقا للنجاحات التي حققها أقرباؤهم في الجنوب.

وفي عام ١٨٦١ نزع عدد كبير من قبيلة المغاربة من مناطق رعي الإبل شمال شرقي اجدابيا إلى شمال كانم<sup>٢٦</sup> وهكذا تمكنوا - وإن ليس بسهولة - من العيش مع أولاد سليمان والقيام بالغزوات في تشاد<sup>٢٧</sup> وقد روى ناخيتجال عام ١٨٧٢ أنه سمع عن فريق من الغزاة مكون من ٣٠٠ رجلا وصلوا من سرت إلى كانم، للإندماج إلى حلفائهم من القبيلة هنا". وهذا الأسلوب من القبائل الليبية المغيرة في اعتبار كانم وبوركو والأراضي المجاورة، كصيد ثمين تنبغي المحافظة عليه، إستمر حتى نهاية القرن تقريبا. وكما هو الحال في إقليم سرت فأولاد سليمان والمرتبطون بهم استطاعوا البقاء في تشاد عن طريق الغنائم المنهوبة والمغتصبة، وبواسطة المتاجرة والتنقل البشري في المناطق البيئية المتنوعة، ما بين الصحراء الجنوبية والسودان الشمالي والسيطرة المحكمة على المحطات المتباعدة عبر الطريق التجاري الرئيسي الموصّل بين طرابلس وبورنو. وتكمن قوتهم في القدرة على شن الغارات على الرعاة والسكان المستقرين بجسارة كبيرة. وكانت هذه الغارات تجلب لهم الغنائم، كما أن الرعب الذي بثوه، ضمن لهم الحصول على الجزية المنتظمة. وحتى الرعاة الآخرون مثل التوارق والتبو نشطوا في شن غاراتهم، إلا أن أولاد سليمان استخدموا الخيل والإبل والأسلحة النارية، كلها مجتمعة، مما بوأهم التفوق في حياة تشاد الوسطى. وكان تكتيكهم الذي اعتادوا عليه هو الإغارة على الهدف باستعمال الجمل مع مراقبة حصانين دون راكب. ويستخدم الحصان النشط وقت الهجمة الأخيرة، ومن ثم عند الهروب. وبذلك يستفيد الغزاة من قدرة التحمل عند الجمل، ومن سرعة وقصر العمل الخاطف الذي يتم عن طريق الحصان، مع استعمال السلاح الناري ضد

٢٦ (كارديل) أولاد سليمان ص ٢٣٤

٢٧ زيلتبير ص ٢٤

أولئك الذين لا يملكون إلا الأسلحة البيضاء كالرمح والحربة والسيف والخنجر<sup>٢٨</sup> وبهذه الوسائل تمكن أولاد سليمان - رغم قلة عددهم إذ لم يستطيعوا تجنيد أكثر من ألف مقاتل في عملية واحدة - من السيطرة على كانم والطرق المتجهة شمالاً لمدة خمسين سنة. وقد صار هذا الإغتصاب المنفلت تقليداً بين السكان والأراضي في أقصى الصحراء المعرضة للغزوات.

أما بقية القبائل العربية النازحة فكانت تعيش في السهل التشادي لعدة قرون قبل مجيء أولاد سليمان. وقد بدأ وصولهم من السودان النيلي ومصر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وإن كانوا بأعداد كبيرة في القرن السابع عشر. ومن ثم توالى موجاتهم إلى بداية القرن العشرين. وكانوا ينقسمون إلى فريقين من النازحين: (الإبالة) أي رعاة الإبل من السهل الشمالي، و(البقارة) أي رعاة المواشي والأبقار من المناطق الأكثر رياً في الجنوب. ويتفرعون جميعاً إلى حوالي عشرين قبيلة رئيسية من الرعاة وشبه الرعاة والمستقرين. ورغم أنهم كانوا أكثر تواجداً وتزاحماً داخل حدود السلطنات: كانم، بورنو، باجرمي والوادي، واختلاطاً مع بقية السكان الآخرين، إلا أنهم حافظوا دائماً على انسجام ملفت للنظر ثقافي وسياسي بشكل خاص. لقد لعبوا دوراً بسيطاً في عملية بناء الدولة، بيد أنهم التصقوا بالممالك المحلية حتى أنهم دفعوا الضرائب وقدموا الرجال وقت الحروب. وفي حياتهم الإقتصادية تغلغلوا بين كافة فئات المجتمع التشادي، وحافظوا على روابط تجارية وثيقة مع البلدان الإسلامية المجاورة. ففي أواخر القرن التاسع عشر تغلغل المغاربة والزوية من قبائل برقة الشرقية - ويسمّون خطأ في تشاد بالفزانين - في أراضي السهل كتجار، ومكثوا هناك منذ ذلك الوقت. وكما يقول **Chapelle** : " لقد عبر العرب تشاد من الشرق إلى الغرب زاحفين بهدوء، وانتشروا كما الوشاح المرمي أو طريق الحليب، وسط نجوم الكواكب، وتواصلوا رعاة أو مستقرين مع بقية الشعوب، والتي غالباً ما تفوقوا عليها عدداً، وشاركوها تماماً في طريقة الحياة، والبحث عن مصادر العيش وتبادلوا معها القيم المادية والثقافية بشكل وطيد " <sup>٢٩</sup> ورغم أن العرب لم يمثلوا على الأرجح أكثر من ثلث السكان في المناطق التي تشكل جمهورية تشاد الحالية " فإنهم يلعبون دوراً ثقافياً هاماً نظراً إلى لغتهم والتعليم التقليدي للقرآن. وحتى مجيء الحقبة الاستعمارية، فاللغة العربية كانت هي اللغة الوحيدة المكتوبة في تشاد. لقد انتشرت كلغة دين للمسلمين من الأعراق الأخرى دون زوال اللغة الأم لأولئك المسلمين، إلا في القليل النادر. إن رعاة المواشي العرب وزوجاتهم يعتبرون زواراً إعتياديين لأسواق المناطق

٢٨ كارديل ص ٣٣٣

٢٩ جون رايت مرجع سابق ٧٢ - ٧٨

السهلية، أين يبادلون منتجاتهم من القطعان واللبن والزبد مقابل المواد الغذائية والمنسوجات والسلع المصنعة المتنوعة. وهكذا انتشرت لغتهم كلغة تجارة تحت تسمية محرّفة شعبيا تسمى (توركو).<sup>٣٠</sup> وبذلك فإن الناطقين بالعربية في تشاد ليسوا بالضرورة عرباً، ولو أن العربي يعتبر أن من كانت لغته الأصلية عربية فهو في حكم العربي، وهناك تعريف آخر يزعم أن العربي هو من لديه وعي بأنه عربي<sup>٣١</sup>.

ومن المعروف أن هجرة القبائل الليبية إلى أقاليم تشاد المتاخمة، لم تقتصر على أولاد سليمان - وإن كانوا هم السباقون - ولكن جاءت موجات من قبائل أخرى، خاصة منذ عام ١٨٦١ التي شهدت تدفق قبيلة المغاربة على نفس إقليم (كانم) الذي حط فيه أولاد سليمان. وبعد ذلك في العام ١٨٧٣ تبعتها جماعات من قبيلتي ورقله والقذافه، فُدر عددها بـ ٣٠٠ نفرا. ولعل تمركز هذه القبائل في إقليم واحد، وهو كانم مع انتمائها الواحد وتجاورها للحماية، قد جعل منها كتلة قوية في الإقليم، وأدى إلى تودّد سلاطين المناطق المتناحرة إليها، مثلما قام به الشيخ محمد أمين الكانمي أو (أمينو) سلطان برنو - وهو من أصل فزانى كما سبق القول - حين تحالف معها وأمدّها بالسلاح في وجه تقدم نفوذ خصمه سلطان واداي، الأمر الذي أشعرها بالحاجة إلى أقتاع الأخير بالتسليم بنفوذها في كانم. وبذلك انصهرت مع بقية قبائل الإقليم من توارق وقرعان وغيرهم، إلى أن جاء الغزو الفرنسي اعتباراً من ١٨٩٩<sup>٣٢</sup>.

ثم توالى الهجرات الليبية استجابة لدواعي الجهاد الذي رفعت رايته الحركة السنوسية ضد الغزو الفرنسي، كما سنرى والتي استمرت حتى سنة ١٩٣٠ وانضمت إليها هذه المرة جماعات من قبائل الزوية والمجابرة والبركات والحسون، إضافة إلى المزيد من القبائل التي سبقتها.

٣٠ نفس المرجع ص ١٧١

٣١ MRodinson The Arabs ص. ٤٥

٣٢ العلاقات الليبية التشادية لسعيد عبد الرحمن الحنديري ص ٢٢ - ٢٤ منشورات مركز الجهاد - طرابلس - ليبيا ١٩٨٢.

## الفصل التاسع

الصراع السنوسي - الفرنسي المسلح



## الفصل التاسع

### الصراع السنوسي - الفرنسي المسلح

- التعلغل السنوسي
- التوجس التركي
- الغزو الفرنسي
- مقاومة السنوسية للغزو
- مواصلة المقاومة بقيادة السيد أحمد الشريف



## الفصل التاسع

### الصراع السنوسي – الفرنسي المسلح

#### التغلغل السنوسي

من العرض السابق تبين لنا أن الإسلام دخل تلك الأصقاع من السودان الغربي منذ القرن السادس عشر الميلادي، بل لقد علمنا أن جذورا عرقية عربية تغلغت فيه منذ غابر الأزمان. وكان من أهداف السنوسية من وراء توغلها في هذا العمق جنوبي ليبيا، إضافة لنشر مذهبها السلفي الإصلاحية ومنافسة بقية (حركات الجهاد) والطرق الصوفية الرئيسية الأخرى التي سادت قبلها في تلك الأقاليم، التحكم في طرق القوافل وتوسيع نطاق تجارتها كما أوضحنا سابقا. وكان هم الطرق الصوفية الأخرى منصبا على بث دعواتها الخاصة بها والإستحواذ على مزيد من الممتلكات، إلى درجة الصدام المسلح مع السلطات المحلية، حتى ولو كانت مسلمة مثلها. فغرضها كان هو التوسع وبناء (الإمبراطوريات)، على العكس من السنوسية التي لم ترفع السلاح في وجوه الآخرين من الحكام والدويلات. بل ركز السنوسيون نشاطهم على التغلغل السلمي عن طريق بث الدعوة وتشبيد الزوايا أينما وصل نفوذها لاجتذاب المريدين وكسب الأنصار وتوطيد النفوذ.

ويمكننا أن نأخذ مثلا على الحركات غير السنوسية والمخالفة لسلوكها، ما قام به الشيخ (عثمان فان دان فوديو) زعيم قبائل الفولاني، والذي أسس مملكة سوكتو (شمالي نيجيريا الحالية)، فنجده قد أعلن الجهاد عام 1804 ضد الوثنيين من أقوام (الهاني) وملوكهم حتى هزمهم وسحق قواتهم عام 1808. وفي المرحلة الثانية من زحفه والتي استمرت حتى عام 1811، هاجم سلطنة (بورنو) المسلمة المناوئة والمنافسة له في إقامة إمبراطوريتها الخاصة بها. أما في المرحلة الثالثة التي استمرت حتى عام 1830، فقد زحف الفولاني جنوبا حاملين رايات توسع ذي طابع سياسي أيضا. وعندما مات الشيخ المؤسس (دان فوديو) عام 1817 خلفه ابنه محمد أبيلو الذي أدار الإمبراطورية بحنكة، إذ كان ورعا تقيا، ففضى على الفساد ونظم جباية الضرائب، وأصبحت سوكتو في عهده عاصمة إمبراطورية تتكون من عدة إمارات تحت حكم وراثي لتلك العائلة استمرت حتى عام 1859، حين دب فيها الوهن بسبب التناحر والإنقسامات بين تلك الإمارات والسلطنات، وبسبب ما قامت به من غزوات وغارات سلب ونهب ضد بعضها البعض.

غير أنها - رغم ذلك- حافظت على هيكلية مؤسساتها راسخة. وحين جاء الإستعمار البريطاني عمد إلى احتوائها دون الإصطدام بها. وبذلك احتفظت بهيبتها ومؤسساتها الدينية إلى وقتنا الراهن.

أما بالنسبة للطرق الصوفية التي كانت تنافس السنوسية في تلك الأقاليم، فنجد أنها كانت ثلاث طرق هي: القادرية وهي إصلاحية دينية مثل السنوسية التي تُعتبر متفرعة عنها كما جاء في السرد. وقد أسس القادرية عبد القادر الجيلاني في العراق في الأعوام من 1066 إلى 1079. وانتشرت أولا في الجزائر (وهران) والمغرب (فاس) ثم امتدت إلى السودان الشرقي (الخرطوم وكردفان)، والوادي وبورنو وسوكوتو. والثانية كانت الطريقة الرحمانية، وقد سبق الحديث عن دورها في مناوئة جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ضد الإستعمار الفرنسي، بل وتواطئها مع هذا الإستعمار إلى درجة التحالف معه في اجتياح قواته للسودان الأوسط. وإن كان البعض يُرجع هذا التحالف إلى كراهية الطريقة للهيمنة العثمانية على بلدان المغرب وقت ذاك. وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ التركي عبد الرحمن تشايجي أن مقدم زاوية (قويمار) التابع لهذه الطريقة قام بإقناع شيوخ الطوارق عام 1891 بأن يرسلوا وفدا منهم إلى الجزائر مكونا من ثلاثة أعضاء، واحد من الهوغار وواحد من الأيفوغاس وواحد من الأزرق، لكسب ود السلطة الإستعمارية الفرنسية فيها، والتي أغدقت عليهم الهدايا الثمينة حتى يعقدوا الصلح معها. غير أن مقدم الزاوية المذكورة دفع حياته ثمنا لهذا التواطؤ، إذ قتل على أيدي الثوار الطوارق مع من قتلوا في بعثة (فلاترس) الفرنسية عام 1881 والتي سبقت الإشارة إليها. وعلى الرغم من أن القادرية عملت ضد الإستعمار الفرنسي في البداية، إلا انها، مع الرحمانية والتيجانية، "كانت تهاجم السنوسية وتقف إلى جانب فرنسا ووقفا مباشرا أو غير مباشر. وقد لاحظنا ذلك في دراسة وثائق الإرشيف الفرنسي".<sup>1</sup> ولا غرابة في موقف التيجانية هذا، وفقا لما سبق لنا ذكره عن مناوئتها لجهاد الأمير عبد القادر الجزائري.

أجمع المؤرخون الأوروبيون الذين رصدوا نشأة وانتشار السنوسية، أن أوّل إتصال بين قادتها وبين سلاطين تلك الأقاليم السودانية قد جرى في غضون عام 1830، عندما تعرّف الإمام محمد بن علي السنوسي على محمد الشريف الذي جاء إلى مكة للحج، ثم

١ تشايجي - مرجع سابق ص 162. ويلاحظ هنا أن الكاتب في دراسته هذه ركز على نشاطات الدولة العثمانية ضد التغلغل الفرنسي في السودان المتآخم للبيبا، متجاهلا دور الحركة السنوسية. وذكره للسنوسية هنا جاء نادرا في سرده، لأنه ليس مواليا لها، وبذلك أكد صفتها النضالية.

أصبح سلطان (واداي) عام 1838. وقيل إنه ارتبط معه بأواصر صداقة توطدت بعد أن شيد السنوسي الكبير زاويته في الجغبوب، والتي أصبحت مركزا دينيا، وأيضا محطة رئيسية للقوافل في طريقها من أقاليم السودان إلى الثغور البحرية على الساحل البرقاوي، كما قيل إن السنوسي الكبير سمى أحد أبنائه (محمد الشريف) تيمنا بصديقه سلطان واداي. ومن ثم صارت زيارات سلاطين الواداي للجغبوب متتالية. وذكر (دوفيريير) قصة قافلة العبيد التي كانت مجلوبة من واداي في طريقها إلى البحر الأبيض عبر الجغبوب والتي حررها الإمام السنوسي بنفسه، وأرجعها إلى الواداي حاثا أفرادها على نشر تعاليم الطريقة في أرجائه بعد أن لقنهم إياها. كما ترجمت الرحالة الإنجليزية (روزينا فوربيس) وثيقة من العربية كانت عبارة عن رسالة سبق أن بعث بها السنوسي الكبير إلى سكان (واجيجا) بالواداي يلخص فيها تعاليم السنوسية في: تنبيه الغافل وتعليم الجاهل وهداية الصالح. وفيما يلي نصها: "إنه من عبد ربه سبحانه محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي إلى المكرم الأجل العمدة الأفضل الفقيه النبيه ولدنا الشيخ فرج الوجدقاوي وكافة جماعة بلد وجنقه كبيرا وصغيرا ذكر وأنثى سلمهم الله جميعهم وأنالهم من خير الدارين مرامهم أمين. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحياته ومغفرته ومرضاته وبعد فالقصد المطلوب والأمر المرغوب هو السؤال عنكم وعن كلية أحوالكم جعلها الله جارية على منهاج كتابه وسنة نبيه (ص) وشرف وكرم وعظم. وثانيا فإنا ندعوكم بدعاية الإسلام من طاعة الله ورسوله. قال تعالى في كتابه العزيز: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول" وقال تعالى: "من يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا". والطاعة هي امتثال أمر الله ورسوله من إقامة الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان وأداء زكاة الأموال وحج بيت الله الحرام واجتتاب ما نهى الله عنه من الكذب والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق وشهادة الزور وغير ذلك مما حرّم الله ورسوله، فبذلك تتألون الخير الأبدي والربح السرمدي الذي لا يعتريه خسران ولا يحوم حول حماه حرمان. وقد طلب منا أناس من ذلك الطرق أن نبعث معهم بعض إخواننا يذكرون عباد الله ويعلموهم ما فرض الله ورسوله عليهم ويهدوهم إلى سبيل الرشاد. وعزما على ذلك لكون هذه الوظيفة هي التي أقامنا الله عليها، ننبه الغافل ونعلم الجاهل ونرشد الضال. ولكن نحن الآن بالحرمين الشريفين. وعندما قدمنا لهذه النواحي واشتغلنا بدلالة العباد إلى الله، وما رأينا أحدا من ناحيتكم حتى نوجه معه من يعلم الناس دينهم الذي ارتضاه. والآن فإن أتباعنا -جماعة زوية- الذين هم أهل (تزرور) -موقع - المعلومة عنكم قدموا إلينا وتابوا على أيدينا

٢ نلاحظ هنا أنه لم يُكمل بقية الآية وهي: "... وأولياء الأمر منكم". فهل تعتمد ذلك لأنه قصد عدم حثهم على الخضوع لحكامهم؟!

وطلبوا بناء زاوية بموقع (تزور) المذكورة، وقصدنا في ذلك مجاورتكم وتعليمكم أنتم وأبنائكم كتاب الله وسنة نبيه محمد (ص) وإصلاح ذات البين، بينكم وبين هؤلاء العربان الذين يغيرون عليكم ويأخذون أبناءكم وأموالكم عاملين بقوله تعالى: "إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما". "وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين"، وبقوله تعالى "لاخير في نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو لإصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما" فبذلك يحصل التعاون على البر والتقوى كما أمر الله بذلك في قوله: "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان". وبقوله (ص) "كونوا عباد الله إخوانا وعلى الدين أعوانا". وأما الفتنة والمنازعة لا خير فيها بل لقد نهى الله عنها في كتابه العزيز بقوله: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين" وإن شاء الله إذا امتثلتم أمرنا وتبعتم نصيحتنا فسيقدم عليكم بعض أبنائنا يعلمون أبناءكم كتاب الله، ويعلمون رجالكم سنة رسول الله (ص)، ولا تخافوا بعد ذلك إن شاء الله من أحد وترون فضل الله ورحمته ما ليس عليه من مزيد، وبلغوا سلامنا وكتابنا هذا الى كل من حولكم ممن يريد طاعة الله ورسوله وأتباع الكتاب والسنة، وربنا تبارك وتعالى يجعلكم هادين مهديين دالين على الخير وبه عاملين بمنه وكرمه آمين. ودمتم بخير وعافية، ونعم متواترة ضافية .

وأغلب الظن أن الذي قام بهذه المهمة كان الشيخ فرج الوجدناوي الذي ورد ذكره في كتاب بازامة، والذي وصفه بأنه: "كان أنجب الأرقاء الذين امتلكتهم السنوسية فاعتقه السنوسي وعني بتربيته وتعليمه حتى إذا نال من العلم قسطا وكمل إعداده بعث به إلى قومه مرشدا، فمهد الطريق ببيت الدعوة هنا، وعني بأمر النزاع القائم ما بين التبو والزوية، فسعت السنوسية ما بين الفريقين بالمصالحة ونجحت في إحلال السلام، ولم تعد العلاقة بينهما على ذات التوتر الذي كان، فأمن التاجر واطمان الطريق ما بين الكفرة والوجدقات، ولا يستبعد أن يكون للشيخ فرج الوجدناوي بالذات دور حماسة السلام".<sup>٣</sup> وبعد موت سلطان الواداي في عام 1858، أعلن خليفته السلطان علي الذي حكم حتى عام

٣ (تاريخ برقة في العهد العثماني الثاني) هامش (1) ص 503. وهو إعراف بالتور الإيجابي الذي كانت تلعبه السنوسية، على الرغم من أن بازامة كان متحملا عليها في هذا الفصل، إذ أنه في الهامش (2) من نفس الصفحة قال أن "معظم ما قامت به في تاريخها كان من عمل كبار الأخوان، ولذا فإن ما تم من إنقاذ هذا الرجل وعتقه وإعداده، إنما تم في فترة من الزمن كان محمد بن علي السنوسي خلالها أو في معظمها متغيبا بشخصه عن برقة". ولا يدري المرء لماذا أغفل بازامة دور الإمامين الذين خلفا الشيخ المؤسس، أي السيدين المهدي وأحمد الشريف؟ ولماذا فصل بين مؤسسها و"الإخوان" من تلاميذه وأتباعه؟ ولم أسقط حادثة عتق الإمام المؤسس شخصيا لقائلة الرقيق التي مرت بالجغوب كما رواها (دو فيريير) وهو من الذ أعداء السنوسية؟ وأخيرا كيف يناقض بازامة ما ذكره في المتن من أن "السنوسي اعتقه"، وما ذكره في الهامش من أن عتقه حدث في غياب السنوسي؟

1874، ثم السلطان يوسف الذي حكم البلاد في الفترة ما بين 1874-1898، ولاءهما للسنوسية. ولكن الخلاف نشب مع السيد المهدي في عهد السلطان إبراهيم الذي حكم اعتباراً من عام 1898، حسب رواية الكابتن الفرنسي Julien في كتابه عن تاريخ الواداي، لأن السلطان هذا رفض إرشادات السيد المهدي بعدم شرب التبغ و(المريسة)، وهي نوع من الجعة المسكرة كانت شائعة بين الأفارقة من أهل السودان، حتى قيل إن التصاق الوادايين بها كالتصاق الجلد باللحم. ولذلك رفض السلطان هذه الإرشادات خشية نفور أتباعه من الطريقة، بل والعقيدة إذا ما تعلق الأمر بالمريسة! فما كان من السيد المهدي إلا استعمال الحنكة، فتراجع وأفتى بمنح استثناء لأهل الواداي. وبذلك ضمن المحافظة على نفوذه ونفوذ الطريقة، حتى أن السلطان الذي خلف إبراهيم عام 1900 اعتنق شخصياً السنوسية .

ولعل من أبرز من تتبّع ورصد نشاط التغلغل السنوسي في السودان الأوسط، المؤرخ الإيطالي فرانثيسكو ماريانو الذي يفيدنا: بأن السيد المهدي ما أن استقرّ في الكفرة، حتى سارع إلى أن يصبح المهيم القوي على التجارة السودانية، والملك العاهل الحقيقي لأفريقيا الصحراوية كما سماه. ففي بلاد التبو قام السنوسيون بفتح المدارس التي كانت تؤمّها بانتظام الفتيات اللاتي كنّ يميّزن بتفوق فكري على الذكور في ذلك الجزء من العالم، حسب وصف المؤرخ الإيطالي. ولا شك أن اعتناق سلطان واداي للإسلام عدّ فتحاً ذا قيمة سياسية؛ فبلاده كانت غنيّة ومنتجة، والعلاقة الودية بين الواداي والسنوسية ترجع إلى عهد مؤسس الطريقة كما ذكرنا. وقد مرّ علينا ما جرى بينه وبين قافلة العبيد التي حرّرها، وتوثقت هذه العلاقة في عهد المهدي. وتحت حماية السنوسيين استؤنف النشاط التجاري عن طريق القوافل عبر الصحراء في ليبيا. ففي الكفرة كما في بقية النقاط الأخرى المحتم على القوافل المرور بها، كانت تلك القوافل تدفع الرسوم المقرّرة من قبل الإخوانية. وقد جاء الموقع الجغرافي للإقليم كمعبر لتجارة القوافل في صالح أهداف السنوسية، فالواداي أثناء بدء انتشار السنوسية في السودان الأوسط لم يكن لها منافذ إلى الأسواق الكبرى الأوروبية، لأنّ طريق القوافل - الكفرة - جالو ليس طويلاً كطريق للبضائع، لأنه يستطيع أن يجد منفذاً مباشراً إلى بنغازي أو عن طريق الجغبوب - سيوه إلى القاهرة والإسكندرية.

ومن المهم تسجيل ما كتبه الكابتن ماريو كورنيه Mario Cornet عام 1904، وهو أحد الضباط الفرنسيين الكبار الذين شاركوا في أوّل حملة كبرى ضد سنوسيّ كانم والبوركو والعنيدي، حيث كتب:

"إن المسألة السنوسية كثيراً ما اتسمت بالتشويش وتضارب الآراء، فالبعض ينظر إليها بلامبالاة، والبعض الآخر يعتبر هذه الإخوانية قوة غامضة لها تشعبات في جميع أنحاء العالم الإسلامي لكنها، في أحد الأيام وبحركة بسيطة، ربما تتحول إلى منظمة دينية لا يمكن مقاومتها، وهي ستشكل بذلك إحدى الإمبراطوريات التي سيكون من عدم التبصر تمزيقها في قلب الأقطار الإسلامية. وهذا من شأنه أن يجعل المسألة أكثر غموضاً؛ فالأخطار المجهولة هي تلك التي تُرعب أكثر وتجعل المرء يببالغ فيها. وحتى الآن لم يستطع أحد بعد تصنيف السنوسية بشكل دقيق، فالهدف من النشاط التبشيري لها كان بالتأكيد وضع الدين في خدمة شهوات الحكم المدني (السلطة الزمنية)، ولهذا فرئيس (الإخوانية) حين نشر منذ عام 1850 نشاطه بين العديد من الشعوب في أفريقيا الوسطى كان في ذهنه قبل كل شيء تدبير أمور إمبراطورية في أقطار غنية بالسلع التصديرية وبالعبيد، إذ لم يصلها بعد التفوق الأوروبي"

ثم يستطرد ماريو كورني قائلاً: "لا يمكننا تجاهل أن الإسلام يتغلغل أعمق إلى الجنوب في ممتلكاتنا الأفريقية في اتجاه خليج غينيا، من خلال منافذ النيجر وفي اتجاه الكونغو عبر نهر (شاري) وبورنو وسلطنة دار الكوتي". وختم بالقول: "إن التغلغل الإسلامي هو تغلغل تجاري، وليس هناك أدنى شك في أنها تجارة الرقيق، بينما واجبنا هو إلغاء هذه التجارة، والسماح فقط باستغلال الموارد الطبيعية. والأمر أصبح محققاً بالنسبة للسنوسية، فقد رأينا سيدي المهدي يحتكر التجارة الطرابلسية (الليبية) ويلزم القوافل بأن تمر عبر زاويته في الكفرة، ويرسل إلى كانم أحد أعضاء أخوانيته مبعوثاً له، ويسارع إلى الاستيلاء على الموانئ جنوبي الصحراء ليسوق القوافل إليها. وكان من نتيجة هذه البعثة ذهاب سيدي البراني إلى كانم في مهمة احتلال البلاد باسم السنوسية، ملاحظين أننا في تلك الفترة، أي حتى عام 1898، فإن تشاد لم تُزر إلا من قبل رحالة نادرين وقد استغرق البراني ثلاث سنين ليقتع طوارق (الإير) والسكان التبو، ما بين البوركو وتشاد، بأن يحتلوا بلدان الجنوب الغنية. وبذلك فُتحت على الفور طريق قوافل عبر بوركو إلى الكفرة،

٥ إن المكتشفين الذين زاروا تشاد قبل الاحتلال الفرنسي كانوا كما يلي CLAPPERTON+ DENHAM في 1823، OVERWEG في 1851، NACHTIGAL في 1871-1872، MONTEIL في 1892، FOUREAU أثناء بعثة LAMY -FOUREAU في 1900-1902 وسبق التطرق إلى مهامهم وما جرى لهم

حيث تلتقي مع تلك الآتية من واداي. وهكذا صار السنوسيون أكبر تجار العبيد في أفريقيا".

وهنا يتضح مدى تضليل وتحامل المؤرخ الفرنسي المذكور لتشويه سُمعة السنوسية - وقد كانت تقاوم الزحف الإستعماري لدولته في القارة- إضافة إلى عنجهيته العنصرية في تعظيم الجنس الأوروبي- وليس في نيتنا الآن الحديث عن نشأة الرق في الوسط الأفريقي، فقد أفردنا لذلك فصلا كاملا في هذه الدراسة، كما مرّ على القارئ. فليس هناك ما دلّ على ممارسة شيوخ السنوسية للرق كتجارة. ولعلّ العكس هو الصحيح، كما اتضح من تحرير مؤسس الطريقة لقاقله العبيد المهداة إليه. وإذا كان الرق حين يذكر في القارة الإفريقية، يذهب ليعني الأقوام السود من أهلها، فبعض أفراد العائلة السنوسية هم أيضا من السود بحكم زواج آبائهم الشرعي من سيّدات سوداوات البشرة، ولم يكن - حسب التحقيق التاريخي- من الجوارى أو الإيماء، بل ينتمين إلى شيوخ وعلماء الطريقة المعروفين، وجلّهم من قبائل القرعان والتبو والتوارق. ولم يمنع سواد بشرتهم من تسّمهم لقيادة الإخوانية وبت دعوتها كسادة ميجلين من جميع السكان. وفي تاريخ المقاومة المسلحة التي قادتها السنوسية بعد ذلك ضدّ الغزو الإيطالي، كان أحد قادة هذه المقاومة الكبار الشيخ قجة بن عبد الله وأصله من "تبو" تشاد قائد وبطل معركة (بئر بلال) سنة ١٩٢٣. وبلغ من درجة قربيه من القيادة السنوسية وعلو مكانته، أنه كلف من السيّد إدريس سنة ١٩٢٣ الكي يطارده هلال السنوسي (ابن عمّ السيّد إدريس) وبأمره بالعودة فوراً إلى إجدابيا، لأنه هرب مع أحد الأسرى الإيطاليين في منطقة جالو لينضمّ إلى الجيش الإيطالي. وعندما همّ الشيخ قجة باعتقاله مستعملا السلاح، إستسلم له واتجه إلى جالو، وعقب ذلك إعتقله السيّد محمّد الرضا شقيق السيّد إدريس في خيمة ببلدة غات لمدة شهرين، إلى أن توسط لدى السيّد الرضا شيخان من أتباع السنوسية هما "إفتيته" و"فرحات" لإطلاق سراحه مقابل وعده بعدم الإنحياز إلى الإيطاليين. وهكذا سمح له بالذهاب مع عائلته إلى الجغبوب، ولكنه تمكن من الهرب إلى مصر. وهناك كاتب المفوضية الإيطالية بالقاهرة، وبمعرفة الملك فؤاد سهّل له المجيء إلى بنغازي التي سقطت تحت الحكم الفاشي<sup>٦</sup>. والمعروف أن عقوق السيّد هلال وخروجه على طاعة أخيه السيّد أحمد الشريف، بدأت منذ الحرب ضدّ القوات البريطانية على الحدود المصرية، ثمّ تعاونه مع الإيطاليين سنة ١٩١٦، ممّا جعل السيّد

6 ورد تفصيل هذه الحادثة في كتاب "مسألة الجغبوب" لفرانشيسكو ماريانو ص ١٩٢. وقد نقل فيه المقابلة التي أجراها الصحفي الإيطالي أورسينو أورسيني مع السيّد هلال والذي إنقاه بمنزل السيد الشارف الغرياني في (البركة) إحدى ضواحي بنغازي، حيث نزل ضيفا عليه بعد هروبه، ونشرت المقابلة جريدة "تريبونا" في ١٠ سبتمبر ١٩٢٥.

إدريس يطلب من السلطات الإيطالية في بنغازي العمل على منعه من التجاوزات التي كان يمارسها ضد شخصه. وسيحدين تفصيل ذلك في جزء آخر من الدراسة.

ويتحدث الإيطالي فرانسيسكو ماريانو عن وضع السنوسية في أفريقيا الصحراوية والإستوائية قبل الغزو الفرنسي فيقول: إن الرحالة الألماني الشهير ROHLFS رأى، عند وصوله إلى الكفرة عام 1876، حجاجاً سنغاليين قطعوا مسافة 3900 كم مشياً على الأقدام لرؤية السيد المهدي، ولم يرجعوا إلى وطنهم دون متابعة الرحلة إلى مكة. وهناك تقارير أخرى أوردتها DOVEYRIER الرحالة الفرنسي، الذي وجد آثاراً للسنوسية في أقصى غرب الصحراء الوسطى، وفي واحة (قوداره) وفي التوات وعين صالح وبلاد التوارق، أي الهوجار (أير) في تومبوكتو. أما في بورنو فقد أبدى السلطان العجوز مقاومة شديدة في وجه تغلغل السنوسية. وهناك منطقة في غاية الأهمية من الناحية الديموغرافية، وتقع شمال بحيرة تشاد وكانت محلّ نزاع بين سلاطين بورنو والوادي. فمنذ 1845 أقامت فيها قبيلة أولاد سليمان الفزانية لتختبئ من رقابة الحكومة العثمانية. وقد اعتنق سكانها المحليون من (الكانيما) والتبو و(البابيلي) المذهب السنوسي، وقام أولاد سليمان بمعارضتهم بل وقيادتهم في منافحة الكفار. وحتى نوضح هذا الموقف لأولاد سليمان، وهم حسب أصولهم الشمالية استمدوا روحاً من التسامح الواسع، فمن المناسب أن نروى مذكره ناختيجال<sup>٧</sup> فقد رأى حين وصوله إلى معسكر (مخيم) لأولاد سليمان في (بئر البركة) في كانم، رسلاً من الإخوانية السنوسية وهم يحاولون حماية التبو والبابيلي التابعين لهم من أولئك الذين كانوا يقودونهم، ولكنهم عندما فشلوا في ذلك تراجعوا، بيد أن المقدم السنوسي أرسل إلى عبد الجليل رئيس أولاد سليمان خطاباً يلتمس فيه إرسال أمتعة مجموعته بغية وصولها إلى الزاوية في بوركو، منتقداً وجود شخص ملحد بين أولاد سليمان، وقصد به الرحالة الألماني المذكور، لأنه لم يسبق أن لطخ الأوربيون هذه الأرض بأقدامهم!.

وفي البوركو عُثر على آثار الإخوانية في بلدتي (نقوراما) و(جالاكا). وثمة زاوية شُيّدت للتبو في Scimedru في منتصف الطريق بين فزان وبورنو. ويروي ناختيجال أنه حين وصل هذه الزاوية في عام 1870 وبصحبة (سفير) من قبيل حاكم طرابلس الغرب لدى بلاط بورنو،<sup>٨</sup> شاهد منظراً مألوفاً. فعلى العتبة أمام الزاوية جلس المقدم بلا حراك

٧ أنظر كتابه SAHARA UND SUDAN BERLIN 1879-81

٨ قصد به محمد بو عيشة الذي أوفده الوالي علي رضا باشا كرَسُول إلى السيد المهدي. وقد فصل د. محمد فؤاد شكري في هذا النشاط السنوسي في الوسط الأفريقي، ومراسلات السيد المهدي

ضاغطاً على حبات مسبحة، وعيناه شاخصتان إلى كبد السماء، يستقبل - دون أن ينقطع عن نشوة التعبد - تعظيمات جموع المسافرين الذين تزاحموا على تقبيل صدره أو طرف البرنس الذي كان يرتديه. ولكن ما أن اقتربت منه شخصية ذات هيبة كالسفير، حتى أفاق المقيم وكأنه استعاد وعيه بالعالم، ورد فقط على الإحترامات التي خصه بها السفير، وكل جزء من حركة كان يوزن بالضبط حسب مرتبة الشخص. وحسب وصف الرحالة ناختيجال، لم يكن يهتم كثيراً أن الزائر كان مبعوث والي طرابلس علي رضا باشا الشخصية المرموقة، سواء من ناحية النشأة أو الأتباع الموالين له، فقد كان على هذا السفير أن يستصغر حجمه أمام نائب سيدي محمد بن علي السنوسي، في تلك الواحة التائهة في قلب أفريقيا، لما كانت تتمتع به السنوسية من نفوذ هناك!

في شمال بوركو تمتد السلسلة الجبلية لتبيستي التي تقطنها قبيلة (التيدا) أي التبو الأصليون الذين لم يعتنقوا الإسلام. بيد أن السنوسية قامت بنشر الدعوة بينهم، ولكن لم تقض كلية على عبادة الأوثان. فعند قدوم ناختيجال عومل معاملة سيئة، وهُدّد بالموت من قبل هؤلاء السكان، وشرب حتى الثمالة من حليب النخيل المخمر (ويسمى في ليبيا باللاقبي)، إلى درجة أن اعتبره السنوسيون أنما.

وتابع ماريانو سرد روايته بالقول: إن أهم فتح للسنوسيين كان إستيلاؤهم على الوادي. ومنذ تكوينه في وحدة إسلامية ابتداء من 1612، أغلق الوادي - وهو عبارة عن اتحاد كونفيدرالي يضم ثلاثين مجموعة عرقية ولغوية لا تربطها أواصر سوى حكومة قوية - أغلق حدوده في وجه النفوذ الخارجي، وحتى العرب لم يستطيعوا اختراقه. وفي 1856 قُتل قتلة شنيعة المكتشف Edward Vogel، وكان أول أوروبي جرؤ على القيام بهذه المغامرة. وفي 1869 أعلن أن سلطان وادي علي بن محمد أصبح سنوسياً متعصباً. ولا يمكن القول هنا إن الدعاية السنوسية أذكت روح التعصب لدرجة ارتكاب أعمال القتل، إذ أن ناختيجال تمكن من أن يمثّل بين يديّ السلطان الذي وصفه بأنه شخص فصيح

---

مع إسطنبول ورسّل السلطان إليه، وذلك في كتابه "السنوسية دين ودولة" دون أن يشير إلى مراجع الرحالة الأجانب الذين ذكرواها هنا، والذين إعتد عليهم هو أيضاً في روايته. تنظر ص ١٢٩ - ١٤٩ إصدار مركز الدراسات الليبية - أكسفورد، ٢٠٠٥، وإغفال ذكر المصدر في كتابة التاريخ حسب الأصول - أي إثبات الاسم وتاريخ الإصدار ومكانه ورقم الصفحة إن أمكن - هو عيب وسم هذا السفر القيم الذي ألفه أستاذ ومناضل قومي كبير قدّم خدمات جلى لقضية إستقلال ليبيا تذكر له بالعرفان. صحيح أنه أثبت قائمة بأسماء مصادره في آخر الكتاب، ولكن هذا لا يُعتدّ به كثيراً.

الحديث، نشيط وذكيّ ومحارب، وكلّ الشخصيات الأكثر ثقافة في الإمبراطورية اعتنقت الطريقة. ولكن إنتشار الدعوة بين الرعية كان بالطبع أكثر صعوبة. أما (دو فيريير) فقد رأى أن السليقة القتالية لسكان الوادي كانت مفيدة للسوسيين في كفاحهم المسلح ضد الغزو الأوروبي. وعقب موت السلطان علي في 1876، كُشف النقاب عن النفوذ المتفوق للسوسية في هذا الإقليم، إذ أنه لما نشب النزاع حول الخلافة، وكاد يُشعل نار الحرب الأهلية بين ابن السلطان علي وعمه يوسف، استغلّ السيد المهدي السوسي نفوذه لصالح يوسف، فما كان من ابن الأخ إلا أن يُدّعن دون أن ينبس ببنت شفة. وبذلك أصبح العمّ المستحوذ على السلطة دافعا للجزية وخاضعا للجغوب (يقصد عاصمة السوسية وكانت آنذاك الكفرة).

وفي شمال شرقي الوادي، كانت العنيدي و(واديانجا) منطقتي نفوذ للسوسية (أطلق عليهما الكاتب صفة إقطاعيتين للسوسية). والكفرة التي تفصلها عن هذا الإقليم صحراء يصعب اجتيازها، كانت العاصمة الدينية لأفريقيا المسلمة، ومصدر إنطلاق جميع ردود الفعل في مواجهة التغلغل الأوروبي. وقد ازداد سنة بعد الأخرى نفوذها، ليس بسبب تلقينها المريدين العبادات والشعائر الدينية وطاعتهم لها فقط، ولكن أيضا لتمتعها بالموقع الجغرافي الذي أبعداها عن أي إتصال مع المدينة الأوروبية. وهكذا يبدو أن الإحصائية التي وضعها Depont+Cappolani في كتابهما *Les Confreries* 1897 *Relegieuses Musulmans-Alger* كانت متواضعة، إذ تبين أن هناك 33 زاوية سوسية في برقة و 5 في طرابلس الغرب وواحدة في الجزائر و 3 في السودان الشرقي (النيلي) و 2 في مصر و 3 في الجزيرة العربية، أي ما مجموعه 47 زاوية. وقد لاحظ Andrews في تقريره<sup>9</sup> أن هذا الرقم كان قطعاً منخفضاً جداً بالنسبة لعام 1897، لأنه بعد عام 1900 استحوذ الفرنسيون على عدد من الزوايا يفوق العدد المذكور، ومن غير المرجح أن تكون قد أقيمت كلها بعد عام 1897".

## التوجس التركي

وقد أجمع المؤرخون للحركة السوسية أن ذبوع إنتشارها عن طريق بناء شبكة زواياها، كان سببا لإثارة قلق وتحسب الدوائر العثمانية في إسطنبول. ولشعورها بتضاؤل نفوذها في أصقاع نائية من الإمبراطورية موالية في العقيدة للإمبراطورية

9 "Confraternities in French North Africa Islam and"

الإسلامية ومتاخمة لها أي السودان الأوسط، فقد تراءى لها أن تستخدم تأثير الدعوة السنوسية وعبواتها بغرض صدّ التغلغل والتمدد الأوربيين في داخله رغبة في التحكم والسيطرة على طرق القوافل وتجارتها، خاصة أن السنوسية كانت أثيرة لدي الباب العالي وأن معتنقي دعوتها كان بعضهم من الحاشية لديه. ومن السهل تبين توثق العلاقات بين الجانبين من رُسل السلطان الذين أخذوا يتوافدون على شيخ الطريقة والخطابات المتبادلة. وكما سبق القول، إذا كانت هذه هي مرامي إسطامبول، فإن زعامة السنوسية عملت ما وسعها من جهد للإبتعاد عن نفوذها حتى يتسنى لها نشر دعوتها والحصول على ما يحفظ مصالحها ويحقق أهدافها، مع إستغلال الصفة الدولية للإمبراطورية من جانبها كغطاء لنشاطها. ونجد ذلك جلياً في الزيارة التي قام بها رشيد باشا حاكم بنغازي سنة ١٨٩٩ للسيد المهدي مذ كان في الجغبوب<sup>١٠</sup>. واصطحب معه فيها موفد السلطان الصادق مؤيد العظم، وهو من أعيان دمشق المعروفين وكان حاجبا للسلطان. ولأن الدعايات الأوربية ضد السيد المهدي ونفوذه ومطامحه قد وصلت إلى السلطان، فإنه تحسباً لضغوط أوربا عليه، كلف هذا الحاكم لكي يستطلع، ولدى السيد المهدي شخصياً، حقيقة الإدعاءات حوله. وعندما ذكر له رشيد باشا أن السلطان "يعتقد بوجود خزائن مملأ بالأسلحة والذخائر والقذائف لدى السنوسيين" ما كان من السيد المهدي إلا أن فتح خزائن الكتب قائلا له: "هذه هي خزائننا" الأمر الذي أدخل الطمأنينة إلى نفوس أعضاء الوفد، ومن ثم هدأت من مخاوف السلطان.

ولا شك أن تقارير الرحالة الأوربيين إلى حكوماتهم، التي ذكرناها سابقاً، قد لعبت دوراً كبيراً في نشر الدساتن ضد السنوسية، ومنها ما كتبه الرحالة الفرنسي "دوفيريير" من تخزين للأسلحة في زاوية الجغبوب، أو الأباطيل التي روجها من أن السنوسيين كانوا مسئولين عن مقتل العديد من هؤلاء الرحالة مثل "فوجل" و "فون بورمان" و "فون ديدرديكن" والأنسة "تيني" و "دورنو دوبريه" و "الكولونيل فلاترز" وغيرهم، وقد سردنا فيما مضى وقائع مقتلهم. وحتى يسمموا الرابطة بين السنوسية وسدة الحكم في إسطامبول إدعوا أنها تكن الكره لتركيا وتعتبر الأتراك والنصارى ملة واحدة ينبغي القضاء عليهم جميعاً. وإذا كانت دوافع السنوسي الكبير إلى نقل مقر زعامة الحركة من "البيضاء" إلى

١٠ كان يعدّ من الإخوان السنوسيين وشيخه كان هو شيخ زاوية بنغازي آنذاك عبد الرحمن المقبوض، مثلما كان سلفه علي كمال باشا تابعا لسيدي عبد الله بن زناد المريني شيخ الزاوية قبل ذلك، والذي صرح بأنه يعتبر نفسه "خادما للسنوسية وتابعا لها أولاً، ثم موظفاً وحاكماً بعد ذلك". بينما كان مقدّم السنوسية في طرابلس في ذات الوقت سيدي حمزة بن جعفر وهو شقيق محمد بن جعفر الذي كان مستشار السلطان في إسطامبول

"الجغبوب" تباديا للتدخلات والمضايقات المحتملة من الإنجليز في مصر والإدارة العثمانية في بنغازي، فإن نقلها من "الجغبوب" إلى "الكفرة" بعد تولي السيد المهدي، قد جاء اضطرارا تحت ضغط التوجس الذي أظهره الصادق العظم موفد السلطان، والذي أشرنا إليه آنفا. ومما يؤكد ذلك أن السيد أحمد الشريف الزعيم الثالث للحركة ذكر في التاريخ الذي دونه عن سيرة الشيخين الزاحلين، السنوسي الكبير وإبنة المهدي، وقال فيه إنه "عندما أمر بالخروج من الجغبوب شق ذلك على أهلها" أي أنه لم يكن طوعا وبرضا النفس. ثم يصور السيد أحمد يوم الرحيل إلى الكفرة بقوله: "ففي يوم الإثنين الموافق ٩ من شهر شوال ١٣١٢ الموافق ١٥ إبريل ١٨٩٥ دخلا - أي السيد المهدي وشقيقه السيد محمد الشريف- الروضة الشريفة (حيث ضريح والدهما) للوداع. وفي صبيحة يوم الخميس ودعا الأهل والأخوان، وفي عشية ذلك اليوم المذكور كان إرتحالهما من زاوية الجغبوب متوجهين إلى الكفرة". وقد قص في هذا الكتاب أخبار الرحلة التي رافق فيها والده بمعية السيد المهدي، وما لقوه من ترحيب وضيافة من أهالي المناطق التي مروا بها، مصورا بدقة بيئة هذه المناطق الصحراوية، حتى أنه ذكر أن "حطية" تازربو التي أقام فيها السنوسي الكبير زاوية لسكانها من قبيلة الزوية، مرض فيها والده (أي السيد محمد الشريف) مرضا شديدا، ومن ثم انتقلوا إلى حطية بالزيمة التي قال عنها "إن السائح البروسي - ويقصد به الرحالة الألماني رولفس الذي زار الكفرة في عام ١٨٧٩ كما سبق لنا ذكره- أن بها ثلاثة معادن ذهب ونحاس وحديد" ومنها وصلوا حطية ربيانة، وأخيرا دخلوا الجوف "التي هي المقصود من الرحلة" بتاريخ ١١ يونيو ١٨٩٥. وما أن نزل السيد المهدي بالكفرة حتى أوفد إلى السلطان في اسطامبول رسوله الشيخ عبد العزيز العيساوي في سبتمبر ١٩٨٥ وبرفقته ابن أخيه السيد محمد الأخضر العيساوي<sup>١٢</sup> ناقلا رسالة يلتمس فيها من السلطان تأكيد الأوامر السابقة إلى متصرف بنغازي بإعفاء الزوايا السنوسية من دفع الضريبة، كما أهدى السلطان مجموعة من "الأحزاب". وفعلا قام إبراهيم درويش باشا ياور السلطان بالرد باسمه موافقا على طلبات السيد، ومحملا رسوله السيد عبد العزيز العيساوي نسخة مطبوعة من كتاب صحيح البخاري كهديّة من السلطان مع ساعة " لتكون في الأوقات الخمسة مذكرة له بصالح دعواته لجنابه العالي"، كما رافق الوفد السنوسي صادق بك المؤيد كمبعوث خاص. وفي رسالة السلطان إلى السيد المهدي تأكيدات على أحقية السلطان بالخلافة التي يمتع بها آل عثمان منذ مئات السنين. إلا أن

١١ جاء ذلك في كتاب "السنوسية دين ودولة" للدكتور شكري - مرجع سابق ص ١٣٦ - ١٣٨ نقلا عن كتاب السيد أحمد الشريف بعنوان "الكوكب الزاهر في سماء مجلي الظلام العاكر" وهو مخطوط عثر عليه د. شكري.

١٢ محمد الأخضر العيساوي هو مؤلف كتاب "رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار" الذي أصدره سنة ١٩٣٦، وردّ فيه على كتاب الشيخ الطاهر الزاوي عن شيخ المجاهدين موضحا لكثير من الحوادث والحقائق.

أهم ما فيها قوله: "إن الأغيار من الكفار، بل الملاحدة والمارقين والمفسدين في جميع الأقطار، يحزبون ويتوالمون في السرّ والعلن، خصومة للسنة السنّية على هدم منار الخلافة العثمانية الإسلامية [ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره]. وحتى من المسموع أن جماعة الإنجليز والإيطاليين وغيرهم قد تدرّجوا إلى أطرافكم بطريق السياحة، وأنتم تعلمون بالفراسة وقرائن الأحوال ما في نفوسهم، وما يخالج سرائرهم من المقاصد المضرة للدين وللمسلمين" إلى أن يوصيه "بالمدافعة عن الحقوق الدينية والسلامة والأمن في الممالك المحروسة الإسلامية العثمانية من التجاوزات غير المشروعة من أولي الأطماع السيئة الرديئة... وأبين لحضرتكم أن من المسموع أن بعض الرهبان علمهم بأن السودان أكثرهم على جهل وغبوة، ويرغبون بالخرز ومثله من أمتعة اللماعة، فهم يأخذون منها الكثير ويذهبون إلى ديار السودان وترجمة الإنجيل وغيره من كتبهم بالعربي، فبعد إهداء الأغبياء أشياء من الخرز وأمثاله يقرأون لهم من كتبهم وكأنهم من وعاظ الإسلام، وبالتدريج يضلّونهم والعباد بالله ويدخلونهم في دينهم". وقد سافر المبعوث ووصل يتغازي في نوفمبر من نفس السنة، ومنها إلى الكفرة بقافلة صحبه فيها شيوخ من السنوسية وأعيان بنغازي. وقد رحّب السيّد المهدي بالوفد، وسرّ صادق بك ممّا شاهده من حماس الأخوان ونشاطهم، وولانهم للخلافة واستعدادهم لتأييدها، فأنشأ قصيدة يمدح بها السيّد المهدي مطلعها:

يا ابن السنوسي يا من شمسهُ سطعت      بدرا أضاء قلوب البدو والحضر  
لو أرسل الله بعد المصطفى رسلا      لكنك أول مبعوث إلى البشر

ومن جانبه أرسل السيّد المهدي مع صادق المؤيد خطابا إلى طاهر باشا متصرف بنغازي ينفي فيه وشايات الأجانب عن دور السنوسية ونشاطها في تلك البقاع. ومن بين ما جاء في الخطاب: "وقد أشرتم إلى ما بلغه (أي السلطان عبد الحميد) عن بعض الأجانب، وغض الطرف عنه لكونه عاريا عمّا يوارى عولاته من المين، لم يخطر لدينا بخاطر، ويحسب أن منبته يروج، وأن أمنيته تذكر وتموج. كلا فإن الناقد بصير وميزان عدله نصره الله في غاية التحرير، ولسان حاله حريّ بالإستشهاد على رؤوس الأشهاد:

يخالون أن الطود يؤلمه الحصا      وأن السبتي بالنبيح يروّع  
فلا يملك العلياء إلا سميدع      وهأنذا الأريحي السميدع<sup>١٣</sup>

١٣ "السنوسية دين ودولة" ص ١٤١ - ١٤٥

ويقول المؤرخ الإيطالي ماريانو: "يبدو أن السيد المهدي رغبة منه في التركيز على نشر الدعوة وترسيخ بنيتها إبتعد عمدا عن مراكز النزاع السياسي، إذ أصمّ أذنيه عن سماع الدعوة الموجهة إليه من مهدي دنقله لمؤازرته في مفهومه عن الجهاد في السودان، وقاوم الإغراءات المعروضة عليه من العثمانيين، إذ في صيف 1896 إستقبل في الكفرة، مرة أخرى، الجنرال صادق بك المؤيد كسفير للسلطان عبد الحميد، وأرجع إليه الهدايا الثمينة التي أهداها السلطان إليه، رافضا أساليب البلاط العثماني في استمالة ولاء الأتباع بالهدايا والرشاوى.<sup>١٤</sup> وبعد ذلك وحين قام والي برقة (يقصد متصرف بنغازي) رشيد باشا بجولة في الدواخل، لم ينس أن يقوم بزيارة المهدي في الكفرة. وإعراباً منه عن مظهر الصداقة والتقدير فإنه لم يصطحب معه مرافقين مسلحين، وارتدى زياً عربياً بدلاً عن لباس جنرال تركي. وفي عام 1897 نزل بالكفرة شريف مكة كلفتة إحترام منه للسيد.<sup>١٥</sup>

إن سياسة الهدايا والوفاق هذه إنتهجها الوطنيون العثمانيون،<sup>١٦</sup> في مظهر تصرف متعمد ضد القوى الأوروبية، بعكس سياسة الجامعة الإسلامية للسلطان عبد الحميد التي كانت تبني للمستقبل البعيد، أي إعطاء التنازلات الترابية والاقتصادية المخجلة، والتي أرغمت عليها تركيا. ولهذا كتب الشبان الأتراك في ديسمبر 1909 في جريدة (أشدام) الصادرة في اسطامبول قائلين: "إن عبد الحميد كان محطماً للإسلام عن وعي، وأن سيدي محمد المهدي السنوسي عمل هو الآخر الكثير لتقسيم الإسلام وجعله مكروهاً. وهذان المجرمان الكبيران (هكذا!)، سعياً لنفس المقاصد، وإن تباينت أغراضهما. بيد أن شهوة التسلط تجعلهما يلتقيان في نفس الموقف المخزي". ثم يستطرد المؤرخ الإيطالي الفاشي إلى القول:

١٤ لم نجد مصدراً آخر يؤكد قيام السيد بإرجاع هدايا السلطان، فليس هناك ما يبرر ذلك. ولو أن أحمد صدقي الدجاني في كتابه عن الحركة السنوسية، أشار (ص ١٣٧ - ١٣٨ من ليبيا قبيل الإحتلال الإيطالي) إلى أن الصدر الأعظم سعيد نامق طلب من أحمد راسم والي طرابلس الغرب في نفس السنة أن "يحسن معاملة السنوسية وأن يبين (للسيد المهدي) حرص السلطان على معرفة أسباب إنتقاله من الجيوب إلى الكفرة". أي أن هناك توجساً من السلطان، ربّما كان هو ما أثار غضبه وجعله يُرجع الهدايا، حسب استنتاجنا. وفي نفس الرسالة عبّر له عن عواطف طيبة، لأن الصحف المصرية نشرت ما يفيد أن السيد المهدي نصح أنصار مهدي السودان بالإلتزام بطاعة الدولة العلية.

١٥ تفرد هذا المؤرخ الإيطالي بذكر الزيارة المذكورة التي لم تمرّ علينا فيما اطلعنا عليه من مصادر.

١٦ لعل المؤرخ الإيطالي يشير هنا إلى جماعة الإتحاد والترقي المعروفة "بالشبان الأتراك" أو "بتركيا الفتاة"، والتي تكوّنت بشكل سرّي عام ١٨٨٩، ثم استطاعت تنحية عبد الحميد عن العرش والسيطرة على الحكم إبان ثورتها عام ١٩٠٨ كما سيأتي ذكره.

"إن الزمن يجري بسرعة، والغنوصية (ويعني بها هنا اللاأدرية أو إنكار حقائق العالم) التي يتبعها المهدي مآلها أن تنتهي. فإذا ما تمتع عن إعطاء العون لإنقاذ تركيا، فالوقت سيأتي ليجعله مضطراً للدفاع عن نفسه وأتباعه من غزو الكفار (غير المؤمنين). أما إذا ابتعد عن المشرق ليهرب إلى الحرب، فالحرب ستداهمه من المغرب". ويضيف: "وقد تنبأ بوقوع هذا دوفيريير<sup>١٧</sup> حين كتب: "بين النيل والمحيط، بين أفريقيا الشمالية وأفريقيا الوسطى، تتراعى صحراء واسعة لم يستطع أن يتوغل فيها سوى رحالة نادرين كانوا تحت رحمة سكانها، وحيث لم تتسخ أرضها بأقدام الكفار. وستكون هي الصحراء التي يختارها السنوسي كميدان لمشروعاته: صحراء بدون ماء تفتقره فيها شمس محرقة، حيث تشبث بها كحيل ينجيه من عدوى الوياء الأوروبي". وأول بلد أوروبي حاول تقوية حبل النجاة هذا كان فرنسا بالذات. وعموما كانت الخطوات الأولى مسالمة، فالمهدي طالب بكل بساطة بالألا يتم إزعاجه. وكان ممتناً لو أن فرنسا ثارت له من العدو المشترك، أي التخلّص من رابع، سلطان بورنو الذي كان هو مركز القوة في الصحراء.<sup>١٨</sup>

فرنسا إذن، باشرت التوغل - في ظلّ أحسن الظروف - نحو بحيرة تشاد، والذي استمرّ من 1895 إلى 1900، حتى أن فورو Foureau قال في كتابه (داخل الهرّوج - تجوالي في الصحراء ديسمبر 1895 - 1896): إن عداوة التوارق لم تكن مدعومة من قبل السنوسيين. كما أن Bencetti وغيره من المستكشفين الإيطاليين رواد التوسع التجاري في أفريقيا الشمالية أماط اللثام عن هذه النوايا السلمية للمهدي في صورة لا تخلو من المبالغة إذ قال: إن السنوسية لا تعدو أن تكون طريقة دينية، وهي لا تصدر عن شعور معادي ضد الأوروبيين، فالشيخ لا يرغب إلا في أن يُترك في هدوء، وهو لا يملك أسلحة أو ذخيرة. وذهب Camperio إلى درجة أن لقب المهدي بـ الرجل المقدّس" (المرابط).

ومما تقدّم ندرك التصوير الملتبس والمضلل من قبل المبعوثين الأوروبيين التي تناصب دولهم السنوسية العداة لحقيقة السنوسية ونشاط إمامها، ودسّمهم ضدّه لدى السلطان، دون أن يفلحوا في زعزعة موقفه، وتصميمه على مقاومة مخططاتهم، مع حرصه على الاستفادة من سلطة الإمبراطورية في الوقت نفسه.

١٧ ص 302 من كتابه Les Tuarg du Nord  
١٨ المرجع Oppenheim = Washington Rabeه ص 136-137

ولكن قبل مجيء السيد المهدي الى الكفرة كمنطلق الى السودان الأوسط، سبقه الى ذلك الإحتلال الفرنسي الذي ينبغي سرد كيف بدأ وكيف توغل في الإقليم. بعد توقيع إتفاقية (فاشوده)، إنطلقت القوات الفرنسية متجهة صوب الوسط الأفريقي، دون أن تلقى مقاومة تذكر إلا من المغامر الشهير رابح بن فضل الله، الذي مرّ ذكره عدّة مرّات في استعراضنا للتغلغل الحربي الفرنسي في أفريقيا، وما رافقه من صراعات داخلية. فمن هو رابح بن فضل الله هذا؟

وُلد في الخرطوم عاصمة السودان، الذي كان تحت الحكم الإنجليزي - المصري، لأب عربي من قبيلة (فونجي)، وانخرط في خدمة فرقة الخيالة بالجيش وكان عمره عشرين عاما. وبعد أن أصيب بجروح نتيجة حادث، عاد الى الخرطوم. وهناك تعرّف على القائد السوداني الزبير الذي كان يتعاطى تجارة العاج والرقيق في منطقة بحر الغزال. وعندما نُصّب الزبير واليا على هذه المنطقة عام 1873، قام بالإستيلاء على دارفور وضَمّها باسم الخديوي. ولكن سرعان ما تمّ استدعاؤه إلى القاهرة، ووُضع في الإقامة الجبرية لما أشيع عنه من أنه أراد أن يتوّج نفسه ملكا على دارفور بفضل سطوته وثروته، فقام ابنه سليمان بالعصيان وتمردّ على الوالي الذي عيّن محلّ والده، غير أن سليمان هُزم في المعركة واستسلم، وظلّ رابح وهو أخ لسليمان في الرضاعة يحارب رافضا الإستسلام، وهرب مع جيشه المكوّن من حوالي خمسمائة جندي (وقيل بضعة آلاف وهو مستبعد) نحو الغرب، حيث قام بغزوات وغارات السلب والنهب ما بين عام 1880 الى عام 1885، عندما حطّ رحاله في منطقة (دار كوتي) - وهي تابعة الآن لجمهورية أفريقيا الوسطى- ومن هناك صدّه هجوما شنه ضده سلطان واداي. وحين تلقى أمرا بالخضوع لمهدي السودان رفض الأمر مستقويا - كما ذكر بروكلمان- بموقف شيخ السنوسية الذي رمي هذا المهدي بالزندقة.<sup>19</sup> وفي عام 1892 زحف رابح على (باجرمي) وهزم سلطانه واستولى على البلاد، ثمّ غزا عام 1893 بورنو ودمرها واتخذ (ديكرا) - جنوبي بحيرة تشاد- مركزا لقيادته في يونيو 1894. ومن هناك إنطلق غازيا واستولى على جميع سلطنات وإمارات (بورنو) و(بندر) و(سوكوتو) و(كانو). وبعد أن استقرّ في تشاد في الفترة من 1893-1896 واصل غاراته في النهب ومهاجمة قوافل التجارة، لأن

19 بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) ص 651

الضرائب التي كان يفرضها ويقتطع نصفها لنفسه، لم تكن كافية لتمويل نفقات جيشه وحملاته المستمرة. بيد أن غاراته على القوافل ألحقت الضرر بتجارة السودان الأوسط، وتحولت إلى طريق وادي الكفرة- بنغازي، فشعر بخسارته للعوائد والغنائم، ولذلك أخذ يسمح بمرور القوافل دون أن يتعرض لها بالغايات. وقد تضاربت الآراء حول علاقته بالسيد المهدي السنوسي، فبعض المؤرخين قال إن السيد المهدي استخدمه في الجهاد ضد الفرنسيين الذين بدأت طلائع زحفهم في تلك السنين، وأنه أنشأ صلات حتى مع الأتراك الذين شوهت بعض أعلامهم ترفرف في صفوف جيشه<sup>٢٠</sup>، بينما ثمة روايات أخرى على العكس من ذلك وتفيد بأنه لم يستجب لطلب السيد المهدي السنوسي بأن يتحالفوا لصّد الزحف الفرنسي. وقد تزامن تعاظم خطر رابع هذا، وسعيه إلى إنشاء إمبراطورية تقوم على النهب والإسترقاق، مع بداية التوغّل الفرنسي تطبيقاً للإتفاقيّة الأنجلو - فرنسيّة الموقعة في 21 مارس 1899، والمترتبة عن التقاء الجيش الإنجليزي الزاحف من السودان -بعد سقوط دولة مهدي السودان- مع الجيش الفرنسي الزاحف من الكونغو بقيادة (مارشان) **Marchand**، وذلك في بلدة فاشوده بالسودان -وتسمّى الآن كودوك- وهي الإتفاقيّة التي قسّمت الممتلكات الأفريقيّة بين الدولتين الإستعماريّتين العظيمين، كما سبق لنا ذكره في الفصل المتعلق بتطوّر الحركة السنوسية.

وبناء على ذلك قرّرت القيادة العسكريّة الفرنسيّة إزاحة خطر رابع عن طريق زحفها، والقضاء عليه فجهّزت ثلاث وحدات للإطباق عليه، حتى يتسنى لها إحتلال تشاد وذلك على النحو التالي:

-- وحدة بقيادة المقدم لامي **Lamy** مكونة من أكثر من ثلاثمائة جندي وعشرة ضباط، وتحمل إسم (فيرو)<sup>٢١</sup> تحركت من ورقلة ووصلت زندر عن طريق (تماسنين). وبعد أن عبرت الصحراء هاجمت قوآت رابع على ضفاف بحيرة تشاد .

-- وحدة ثانية كانت باسم قافلة (فوليه شانوان) **Vohlet Chanouine** التي كان عليها أن تستولي على زندر، بعد أن تُخضع في طريقها الأراضي المعطاة لفرنسا بموجب الإتفاقيّة الأنجلو - فرنسيّة.

٢٠ تشايحي ص 159-162 غير أن المؤرخ بحث في الإرشيف الفرنسي ولم يجد دليلاً على هذه الصلات.

٢١ هو شارل فيرو مؤلف الحوليات اللبنيّة ترجمة د.محمد عبد الكريم الوافي، مكتبة الفرجاني بطرابلس ليبيا، وقد شغل فيرو منصب قنصل فرنسا في طرابلس منذ عام 1878، وتجوّل في الصحراء الكبرى في حركة استكشاف استعماريّة، ودوّن ملاحظاته عن بعثته مع المقدم لامي المذكور في كتاب بعنوان Documents scientifiques de la mission saharienne - Paris, Masson et c. 1905

-- الوحدة الثالثة والتي كانت بقيادة جنّيل **Gentil** وتحرّكت من (أوبانجي) وهاجمت قوّات رابح من ناحية الجنوب، ولكنها واجهت مقاومة شديدة أوقفت تقدّمها. وبعد أن خسرت أربعة مدافع في موقعة (كانو)، عادت القهقري في الوقت الذي كانت فيه الوجدتان الأخریان قد وصلتا إلى أهدافهما.

ولما كان رابح يتوقّع أن تُطبق عليه هذه الكماشة من القوّات، فقد خاض معركة استبسال ضارية وفاصلة معها في (كوسيري) على ضفة نهر شاري جرت يوم 21 أبريل 1900. وقد قُتل فيها رابح كما قُتل المقدّم لامي أيضا. وبهذا تسّى للقوّات الفرنسيّة أن تقضي على هذا الخطر الأوّل الذي واجهها في زحفها الإستعماري، ومن ثمّ زحفت على كانو ووادي وبوركو وتبستي، لتصطدم مع القوّات الليبيّة بقيادة السنوسية التي كانت لها بالمرصاد.

وسرعان ما أدرك السيّد المهدي أن المخطّط السياسي العسكري لفرنسا كان يسعى إلى تحطيم تجارة طرابلس الغرب مجبرا القوافل على التوجّه إلى تونس، ورأى في ذلك إعتداء على مصالح قومه، ممّا اضطرّه إلى خوض الكفاح. وفي الأثناء برزت حادثة (فاشوده) التي سبقّت الإشارة إليها، والتي هدّدت بإشعال الحرب بين فرنسا وانجلترا. وراود المهدي الأمل في أن الأطماع المضادة للقوتين الأوروبيّين العظميين ستنتهي بتصفية بعضهما البعض. ولكن بعد أن تلقى الكابتن **Marchand** أوامر حكومته بالتراجع، وتركّت أعالي النيل للورد كيتشنر، تمّ التوصل إلى الميثاق الإنجلو فرنسي بتاريخ 21 مارس 1899 الملحق باتفاقية 14 يونيو 1898<sup>٢٢</sup>. والذي حدّد مناطق النفوذ الفرنسي في أفريقيا الوسطى، ضامًا تبستي وبوركو وكانم والوادي والعنيدى والواديانجا، أي باختصار الأقاليم التي تسيطر عليها السنوسية بلا منازع. وفي الجزء الأخير من الإتفاق أشير إلى ميثاق 1900 و 1902 التاليين، واللذين حظرا على فرنسا أن تتجاوز الحدود شمال جبال **Tummo**. وهي الحجة المرتبطة بالحدود الجنوبيّة لليبيا، والتي كان على إيطاليا أن تواجهها على أرض الواقع بعد معضلة الجغبوب.

٢٢ جاء اتفاق 1890 هذا قبل الإتفاقية الإنجلو- ألمانية عام 1893 - والفرنكو ألمانية عام 1894 والتي ثبتت الحدود الفرنسية في الكاميرون، ونتجت عنها دولة الكونغو المستقلة وأمنت لفرنسا الدخول إلى تبستي شمالا وإلى النيل شرقا

وفي غمار هذه الأحداث قرّر المهدي سنة ١٨٩٩ نقل مركز الطريقة من الكفرة إلى (قورو) شرقي تبستي، حتى يتسنى له مراقبة التحركات الفرنسية عن كثب، حسب رواية المقدم الألماني فون بولوف.<sup>٢٣</sup>

## مقاومة السنوسية للغزو

انتقل السيد المهدي - إذن- من الجيوب إلى الكفرة سنة ١٨٩٥، وبعد ذلك سنة ١٨٩٩، من الكفرة إلى (قورو) جنوب شرق تبستي (تشاد الآن). وقد سبق أن أتينا بشيء من التفصيل على ذكر الهجرات الليبية إلى السودان الأوسط وخاصة تشاد، منذ العهد القرمانلي حوالي ١٨٤٢، وخاصة هجرة قبيلة أولاد سليمان وما قامت به من أدوار وتأثير في حياة السكان في تلك المناطق وصراعات حكامها، ثم هجرة بعض القبائل والبيوت وغالبيتهم من المغاربة من سرت وغربي إجدابيا منذ عام ١٨٦١، ثم الهجرة الثالثة في الفترة من ١٩٢٨ - ١٩٣٠ من عدة قبائل من فزان وورفلة والجنوب الشرقي من ليبيا<sup>٢٤</sup> أي أن تلك الأقاليم كانت مألوفة بين قبائل (القبلة) في ليبيا، وكان السيد المهدي في هذا التنقل محفوقا بكوكبة من المشايخ وزعماء القبائل الذين يشكلون مجلسه الإستشاري، وإضافة إلى كونهم مشرفين على تشييد الزوايا وحفر آبار المياه وتعمير الأرض فقد كانوا رسله وقادة قواته لخوض الكفاح إذا ما اضطر إليه، ففي الرحلة من الجيوب إلى الكفرة رافقه أحمد اليسكري وأحمد التواتي وأحمد الجراولي وأحمد الثني الغدامسي ومحمد بن عبد الله السنّي وغيرهم،<sup>٢٥</sup> ومن الجوف أوفد إلى الوادي المرتضي بورخيص للتنسيق مع سلطانها، وفي أواخر ١٨٩٧ أوفد محمد السنّي إلى أبيته لنفس الغرض بطاب من يوسف سلطان واداي. وعندما عسكر في قورو حوالي سنة ١٨٩٩ كان مرافقيه من أبرز زعماء وشيوخ القبائل. وللأهمية ننشر قائمة بأسمائهم ، كما أثبتتها مؤرّخ السنوسية الطيّب الأشهب في كتابه "برقة العربية أمس واليوم" : مازق بو بكر حدّوث - عبد الله حقالش - محمد بو فروة - المبروك سعيد بوزوير- عيسى بو عمر - التواتي بو عمريّة - محمد أحمد عريضة - عبد ربّه بو حنطيشه - عبد القادر ناصر - الفضيل بو خريص الكزة - محمد عبد القادر الكزة - محمد بوزيد العبيدي - محمد عقيله العبيدي - عبد الهادي

٢٣ في كتابه Bericht über Politiche Verhaeltnisse in Mitleren Sudan In mitteilungen Des Seminars fur Orientalesche Sprachen Berlin 1904 والنشرة الفرنسية Les Senoussia, in Reinseignements Coloniaux Afrique Francaise - أبريل 1902

٢٤ " العلاقات الليبية التشادية" ص ١٧-١٨ لسعيد عبد الرحمن الحنديري - منشورات مركز الجهاد طرابلس ليبيا ١٩٨٢

٢٥ "الحركة السنوسية الجزء الثاني للصلاحي ص ٧٢

البرّاني المغربي - مصطفى بو طيغان - عبد الكريم موسى الدرسي - رجب بو حويش المنفي - محمد المهدي الجرّاري - إفتيته المجبري - عبد الله البشاري - يونس عبد العكي - إبراهيم فريطيس - علي قرجيلة - أحمد جبريل. "وقد ساهم في تنظيم وقيادة الحرب عدد من المجاهدين مثل : عمر المختار - عبد الله الطوير الزوي - غيث عبد الجليل - البرّاني السّاعدي - محمد السنّي - محمد بو عقيلة - صالح بوكريم"<sup>٢٦</sup> أرسل محمد البرّاني السّاعدي إلى كانم حيث بدأ الفرنسيون توغّلهم، فقاد جحفا تصدّى لهم وشنّ عليهم عدّة هجمات كان من نتيجتها أن تخلص من خليفة جوراب أحد القادة المحليين الذي مال نحو الفرنسيين وعقد صلحا مع قائد جيشهم جولاند Joalland. كما شيد سيدي البرّاني زاوية في بئر علالي شمال Mao، وقد قتل الكابتن ميلو Millot في ١٠ نوفمبر ١٩٠١ حين أراد الإستيلاء على الموقع. ولكن في النهاية تمكن (القومندان تيتار) Comm Tetart. من احتلالها في ١٨ يناير ١٩٠٢. وخلال معركة ثالثة بالقرب من بئر علالي سقط شهيدا يوم ٤ ديسمبر ١٩٠٢ المجاهد محمد أبو عقيلة الزوي الذي خلف البرّاني في القيادة. بعدها جلا السنوسيون عن كانم. وقد شارك في هذه المعارك شيخ الشهداء عمر المختار الذي رافق للإمام المهدي في انتقاله إلى "قورو" في أواخر ١٨٩٣ "وكان محلّ ثقته ومعقد آماله. وكان السيّد معجبا به، وكان يثني عليه بما هو أهله حتى كان يقول: لو كان عندنا عشرة مثل عمر المختار لاكتفينا بهم، وولاه السيّد المهدي شيخا لزاوية كلك (أو عين جالاكا) ، واستمرّ بالسودان نائبا عن السيّد المهدي وقائما ببيت الدعاية الإسلاميّة وتعليم أولاد المسلمين إلى أن رجع إلى برقة سنة ١٣٢١ هجرية (١٩٠٢ ميلادية) وتولى شيخا لزاويته القصور للمرّة الثانية"<sup>٢٧</sup>.

وكانت وفاة السيّد المهدي التي سبقت العمليّات الحربية الرئيسيّة للسنوسية، والتي سيتولى قيادتها ابن عمّه ووريثه السيّد أحمد الشريف، لم تحلّ البتّة دون ما أصبح دفاعا جماعيا، وحربا مقدّسة أو جهادا. وتضاربت الآراء حول تاريخ الوفاة، فالرخالة المصري أحمد (باشا) حسنين يقول إنها كانت في أغسطس 1900، والمقدّم الألماني فون بولوف ذكر أغسطس أو أكتوبر 1902، ثمّ نقل جثمانه من قورو إلى الكفرة حيث دُفن في زاوية

٢٦ "العلاقات اللبنيّة التشاديّة" للحدديري، ص ٧٩- مرجع سابق

٢٧ الطاهر الزاوي في كتابه "عمر المختار" ص ٣٦ - إصدار مكتبة الفرجاني، طرابلس ليبيا، الطبعة الثانية ١٩٧٠. وينفرد الزاوي بذكر أن سيدي عمر كان نائبا للسيّد المهدي في السودان، وتولى هذه الزاوية في تشاد التي إستمدت شهرتها من الصراع حولها بين قوّات السنوسية والقوّات الفرنسيّة الغازية، والتي سقطت في أيدي الفرنسيين سنة ١٩٠٧ كما سيلي ذكره. أي أن سيدي عمر قضى في السودان الأوسط حوالي تسع سنوات، ورجع في السنة التي توفي فيها الإمام المهدي.

(الأستاذ). وبما أن سبب الوفاة لم يُعلن عنه، فثمة مؤرخون يجزمون بأنه توفي شهيدا متأثرا بجروح أصيب بها في إحدى المعارك.

### مواصلة المقاومة بقيادة السيد أحمد الشريف

وقد ولد السيد أحمد الشريف بمقرّ الإخوانيّة الرئيسي الجغبوب في نوفمبر/ ديسمبر 1873<sup>٢٨</sup> كإبن أكبر للسيد محمد الشريف النجل الأوّل للإمام المؤسس، وذلك من زوجته الثالثة السيّدة خديجة بنت أبي موسى بن عمران الفيثوري. وتلقى تعليمه أولاً على يد والده الذي كان علامة متفهما في الدين، ومشرفاً على شئون التعليم في زوايا الإخوانيّة ورئيساً لجامعة الجغبوب. وعندما توفي والده كان قد بلغ السادسة من عمره، فكفله عمّه الإمام المهدي وأشرف شخصياً على تعليمه، وصاحبه في الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة ومنها إلى "قورو". وهناك شارك عمّه في إدارة معارك الجهاد ضد التغلغل الفرنسي. وفي نفس الوقت اعتنى شيوخ السنوسية الكبار بتلقيه الدروس والعلوم، مثل أحمد الرّيفي ومحمد المدني التلمساني وعمران بن بركة جدّه من ناحية الأم.<sup>٢٩</sup>

وجاءت وفاة عمّه شيخ الطريقة السيد المهدي، إبان الهزائم التي تعرّضت لها السنوسية على أيدي الفرنسيين في السودان الأوسط، وخاصة الواداي، ممّا زاد الأوضاع عسراً أمام الحركة، ونظراً لصغر سنّ السيد إدريس نجل الإمام المهدي عند وفاته (لم يبلغ الثالثة عشر من العمر)، أوصى بزعامتها للسيد أحمد الشريف ابن أخيه، وأن يتولى في الوقت نفسه الوصاية على نجله إدريس الذي سمّاه خليفته الشرعي عندما يبلغ سنّ الرشد، تمشياً

٢٨ وهناك من يورّخ مولده في سنة ١٨٧٥ دون ذكر الشهر كالدكتور محمد فواد شكري في كتابه "السنوسية دين ودولة" ص ١٥٦، والمعروف صعوبة التدقيق في تاريخ الولادة في ذلك الزمان، ومهما يكن من أمر فالفرق عدّة شهور.

٢٩ تزوّج السيد أحمد زوجته الأولى السيدة مسعودة السودانية بالجغبوب التي نوقيت في "أبو رواش" بمصر سنة ١٩٤٢- وتزوّج الثانية السيدة خديجة بنت السيد أحمد الرّيفي بالجغبوب سنة ١٨٩٥- وتزوّج الثالثة السيدة عائشة بنت مصطفى المحجوب بالجغبوب سنة ١٨٩٥ والتي قضت بالكفرة سنة ١٩٠٩- وتزوّج الرابعة السيدة حواء القرعانية بالجغبوب سنة ١٨٩٦ التي توفيت بمرسى مطروح سنة ١٩٣٤- وتزوّج الخامسة حواء القرعانية بالكفرة سنة ١٩٠٣- وتزوّج السادسة السيدة مريم التارقية بالكفرة سنة ١٩٠٤- والسابعة السيدة خيرة بنت السيد محمد الهاني الأكرمي بالكفرة سنة ١٩٠٤- والثامنة السيدة زينب القرعانية بالكفرة سنة ١٩١٣- والتاسعة بالحجاز سنة ١٩٢٨، وكانت ابنة عمّه السيدة صفية بنت السيد محمد المهدي السنوسي ابنة الكبرى من زوجته الأولى السيدة فاطمة بنت السيد موسى عمران بن بركة الفيثوري- وقد توفي قائد المجاهدين السيد أحمد الشريف في منفاه بالمدينة المنورة سنة ١٩٣٣. بعد أن خلف سبعة أبناء وست بنات.

مع التقليد المتبع في الطريقة. وكان السيد أحمد قد بلغ سنّ الثلاثين حين تولى زعامة الحركة، ولأنه كان مقرّباً من السيد المهدي، فقد تأثر به وتبنّى مناقبه وتأسى بسيرته. وعندما انتقل السيد المهدي من الجغبوب إلى الكفرة مع شقيقه السيد محمّد الشريف، رافقهما نجل الثاني السيد أحمد، وصور وقائع هذه الرحلة وطبيعة المناطق التي عبروا منها، في الكتاب المخطوط الذي أشرنا إليه.

وقد قضت المقادير والأحداث كي ينغمس الرئيس الثالث للسوسية في معترك الحياة السياسة للبلاد.

وتحت قيادته شهدت الإخوانية نقلة مفصلية تاريخية، إذ أنه خاض صراعها ضدّ مصالح الدّول الأوربية التي اتخذت من ليبيا وجوارها السوداني حلبة لهذا الصّراع. وحتى تجابه الغزو الفرنسي، قامت السوسية بتسليح القبائل وعلى رأسها قبيلة أولاد سليمان التي سبقت بالمجيء إلى هذه الأقاليم كما رأينا.

وحتى نرصد كيف واصل السيد أحمد الشريف جهاد عمه في تلك الأقاليم، سنجد في البوركو أن القائد الفرنسي **Reibell** ومعه الكابتن **Robillot** طوّقا آخر زحف للجماعات السلطانية التي كان يقودها ابن رباح، كما سبق ذكره. أما العقيد **Destenave** فقد توغل في كانم، وهنا التقت الجيوش الفرنسية والسوسية. وتأتي أهمية هذا الحدث في أنه كان إشارة البدء في مرحلة جديدة في تاريخ أفريقيا المسلمة. وقد وصفها **Oppenheim** بهذه العبارة: "إنه أول نزاع تخوضه الإخوانية السوسية ممتسقة السلاح ضد قوة أوروبية". وجرت المعارك الطاحنة بين الجانبين، والتي شهدت في إحدى مراحلها إحتلال زاوية بير علالي وتهديمها من قبل الجيش الفرنسي بقيادة **Fouque** في 9 نوفمبر 1902، ممّا أرغم السوسيين على الإنسحاب واللجوء إلى بوركو، إلا أن الفرنسيين لم يشأوا التوقف عند كانم. والسبب في ذلك عرضه بوضوح **Cornet**<sup>3</sup> دون أن يخدع نفسه على أية حال بسهولة الإنتصار حين كتب يقول، معترفا بالتفصيل بالستراتيجية الإستعمارية لدولته من وراء توغلها في السودان الأوسط: "إن إحتلالنا الدائم لبوركو قد أوقف إنسياب القوافل على طريق بنغازي-الواداي صوب دارفور من شرق البحر الأبيض المتوسط إلى الوسط الأفريقي، مما سيثير على الأرجح مقاومة شديدة". ثم يضيف: "لقد فرض التمرکز في بوركو نفسه، فهذه المنطقة هي مصدر الحبوب للسوسيين والحدود التي تحمي طريق القوافل، وتحوّلت بؤر الغارات الموجهة ضد كانم والأير إلى مصادر أمن مستتب.

٣٠ أنظر ص 248 في كتابه المشار إليه

واحتلالها يعني إذن تجنب معاونينا الإداريين خطر الحملات السنوسية، والقضاء على تجارة الرق والسلاح بين وسط أفريقيا والبحر الأبيض، وحرمان السنوسيين من إقليم غني بالحبوب. إن هذا القرار إضافة إلى ذلك أملى الحاجة إلى تأمين طريق القوافل الذي نريد أن ننشئه بين تونس وتشاد عن طريق (كادو) و(بيلما) على حساب طرابلس الغرب. وهذا الطريق غير مؤمن في الوقت الحاضر، بسبب هجمات المغيرين من تبستي الذين يهاجمون القوافل وينهبونها، فإذا ما أردنا فتح التجارة التونسية، فعلى إبداء احتلال تبستي، وهذه ستكون مهمة سهلة، لأننا لن نواجه هناك قوات منظمة. ولكن هذه البلاد تلتصق جنوب بوركو ويبدو من المستحيل أن تسمح الحاميات السنوسية في هذه المنطقة الأخيرة بقبولنا كجيران لها، لذا علينا أن نطردها من بوركو لكي نصون تبستي. وباختصار فإن احتلال تبستي وبوركو سيؤدي إلى إبعاد مركز هجوم السنوسيين من الشمال صوب الواحات الليبية، وعرقلة (الدويلات) الإسلامية الكبيرة في وسط أفريقيا من أن تتزود بالسلاح بوتيرة سريعة، والقضاء على الطريق الوحيدة للرقيق التي لا زالت قائمة في أفريقيا، مؤمنين لتونس منافذ للتسويق إلى تشاد وبوركو وتيمبوكتو واجرمي، ومحققين لإير وكانم أمناً لم تعرفه إلى اليوم".

ويعلق المؤرخ الإيطالي ماريانو على ذلك، مشيراً إلى مقاصد دولته إيطاليا الإستعمارية فيقول: "لقد كانت كلمات **Cornet** متنبئة بالمستقبل، فبالنسبة لنا ما يهنا بالدرجة الأولى هو إغتنام الفرصة لاستغلال تجارة القوافل لصالح تونس وعلى حساب طرابلس الغرب. وهذه السياسة من ناحية تعتبر طبيعية عند أية قوة استعمارية، ومنطقية لو لم يتم التغيير في طرابلس الغرب، وتحل إيطاليا محل تركيا. ولكن من ناحية أخرى فمن الطبيعي أن تحرس إيطاليا الحدود الجنوبية والشرقية لليبيا، بعد إتمام التصديق على اتفاقية الحدود الغربية مع تونس".

وقبل أن تعلن فرنسا عزمها على متابعة زحفها على طول تبستي كان أحمد الشريف، مستشعراً الحظر المجاور له، قد قرّر نقل مركز الطريقة من قورو إلى الكفرة منذ عام 1902، حسب **Mariano**، حتى يخلق العديد من العقبات أمام الغزاة. ولقد توالى الكفاح ضارياً ومنهكاً لعدة سنوات، ولكن بعد سقوط عين جالكا في 21 أبريل 1907، احتلت بوركو أيضاً من قبل الفرنسيين، فانتقلت المقاومة السنوسية حينئذ إلى الوادي. غير أن التقدم الفرنسي تواصل بانتظام : ففي 1909 سقطت أباشة عاصمة الوادي، ومع مجيء حملة الكابتن **Chauvelot** والعقيد **Moll** ضد مساليت **Massalit** في عام 1910، أصبح الوادي كله موطأ للفرنسيين. وبهذه المناسبة لاحت لأول مرة في بوركو وتيبستي حاميات

عثمانية. فالزحف الغربي المتنامي جعل تركيا تفتيق، ولكنها كانت صحوة قصيرة المدى، لأن إيطاليا - أثناء توالي هذه الأحداث- أعلنت الحرب ضدّ تركيا، وبدأت في احتلال ليبيا. بل إن آخر حامية عثمانية في بوركو، وهي حامية عين جالاكا، سُحبت بمجرد نزول القوات الإيطالية في طرابلس وبنغازي. وحسب تعبير ماريانو كان هذا فضلاً قدمته إيطاليا لفرنسا، التي تسنّى لها بذلك البدء الفعلي لاحتلالها أفريقيا الصحراوية والإستوائية.

وكان اندلاع الحرب الأوروبية مضاعفاتها في المستعمرات، فبالنسبة لفرنسا بدا أن إستيلاءها على عين جالاكا لم يحسم حملتها في أفريقيا الإستوائية، لأن الحروب الإستعمارية ليست مثل الحروب الأوروبية والتي غالباً ما تنتهي ببساطة بتوقيع إتفاقيات سلام. بينما في المستعمرات حيث لا توجد منظومات إقتصادية محكمة تربط المواطنين بمصالحهم وبالتالي بأرضهم، حتى ولو سقطت هذه في أيدي قوّة أخرى، وحيث السكان شبه رعاة والحدود في غاية الميوعة، ولا يستطيع الأوروبيون التوطن إلا لماماً، وحيث المحميّات العسكرية غير الثابتة تكون تحت رحمة المعاهدات؛ فمن الطبيعي، والأحوال هكذا، أن تتحرك الأمور بسهولة، إذ حتى بعد المفاوضات يطغى أزيز الحرب، ويستسلم السكان مستفيدين من غفلة أنية للمحتلين<sup>٣١</sup>، ثم يثورون ويسترجعون استقلالهم الفعلي. ففي عام 1913، بعد أكثر من إحدى عشرة سنة من الحرب، حافظت السنوسية على الأقل على سبع زوايا مهمة في منطقة النفوذ الفرنسي. وبعضها كان محصناً جيداً في بوركو و تبستي. غير أن حملة (لارجو) سنة 1913-1914 استطاعت أن تسيطر عليها بعد إشتباكات عنيفة، وأن تجعل سيدي محمد السنّي قائد القوات السنوسية في الإقليمين وإبنه المهدي وما تبقى من قوّاتهما، يلجأون إلى الكفرة. ولكن سلطة الطريقة لم يقض عليها وإن انكسرت إلى حدّ ما. فقد كتب (اندروس)<sup>٣٢</sup>: "إن الحرب ضدّ الفرنسيين لم تنته بعد". وفي الواقع، فالسنوسية أثناء الحرب الأوروبية إستأنفت، من بوركو وتيبستي بالتحديد، الزحف ويهدوء نحو الغرب، محتلة أراض عسكرية في الواحات، الواحدة بعد الأخرى. وإن في سقوط الثكنة العسكرية الفرنسية القصية (جانيت) في أيدي فرسان قافلة كانت متجهة إلى

٣١ في حالة فرنسا وإيطاليا اضطررتا بحكم الضرورة إلى إنقاص حمايتهما في المستعمرات من أجل الحرب الأوروبية

أير، علامة واضحة في ذلك الوقت على الأقل، على سيادة السنوسية المطلقة على الصحراء الوسطى.<sup>٢٣</sup>

يزعم المؤرخون الفرنسيون<sup>٢٤</sup> في تسويغهم لتوسع دولتهم الإستعماري، أن حكم تركيا لطرابلس الغرب (ليبيا) منذ أن عادت إلى إحتلالها - بعد سقوط دولة القرماني عام 1835- لم يصل بتاتا إلى تبستي وبوركو والعنيدى. وفي جنوب برقة، لم يتعد مطلقا (وادي الفارغ) بين جالو والكفرة. فناختجال حين كان في تبستي، في الفترة من 22 يونيو إلى 3 سبتمبر 1869، لم يذكر أنه لمح ضباط الباديشاس أو حرس الحدود التركي. بالإضافة إلى أن امتلاك فزان من قبل تركيا اعترف به من الدول المعنوية على اعتبار أنه الهنترلاند الطبيعي لطرابلس الغرب،<sup>٢٥</sup> فاللورد (سالزبوري) وزير خارجية إنجلترا صرح يوم 11 أغسطس 1890 في مجلس اللوردات، أن ليس في تصريح 5 أغسطس 1890 (الإنجلو - فرنسي) ما يمس حقوق تركيا التي تملكها في المناطق الواقعة جنوب طرابلس. وكان المتوقع هنا أن تعترف فرنسا وإنجلترا بحقوق الباب العالي في فزان. وقد أعطت إيطاليا نفس التفسير وفقا لتصريح وزير خارجيتها أمام مجلس الشيوخ بتاريخ 24 أبريل 1899، كما نُصَّ على هذا الاعتراف في الرسائل المتبادلة بين فرنسا وإنجلترا والملحقة بتصريح 1890. بينما تصريح 1890، الذي عدل بتصريح 1899، إعتبر الحد الشرقي للنفوذ الفرنسي يمتد مائلا، ثم يخرق خط عرض 15. أما الأتراك فإنهم في احتجاجهم على تصريح 1890 و1899، فقد حدّوا (الهنتر لاند) لطرابلس الغرب. ولكن منطقة النفوذ التي يطالبون بها إعتبرها القانونيون والدبلوماسيون الأوروبيون قابلة للجدل. والواقع أن هذه المنطقة لم تحدّد دبلوماسيا، لأنها جاءت على هيئة مطالب أحادية الجانب لم يسندها أي اتفاق، مع قوة لها حضور فعلي في المنطقة. على العكس من المنطقة الفرنسية. ومن ناحية أخرى، فإن المذكرة التركية في رأي (روندي كاردي) بالغت في حجم الهنترلاند حتى وصلت إلى جهات ليس للإمبراطورية العثمانية أية ممتلكات فيها.

٢٣ ماريانو في "مسألة الجغبوب" ص 98

٢٤ مثل Bernard Lanne في كتابه (تشار وليبيا) ص ٢٨ - ٢٩

٢٥ نظرية (الهنتر لاند) هي اصطلاح ألماني يعني (البلاد الداخلية أو الخلفية - أو القبلة بالتعبير الليبي). وقد واجهت هذه النظرية في القرن التاسع عشر أساتذة القانون الفرنسيين الذين درسوا تطبيقها في ضوء ترسيم الحدود بين فرنسا وإنجلترا في الصحراء. وفي كراس وضعه عام 1910 البروفيسور Rounnd de Cand من جامعة (تولوز) ذكر فيه: " أن مؤدى تصريح 1890 بكل وضوح، ما هو إلا تعبير على أن منطقة النفوذ الفرنسي يمكنها أن تتوسع نحو الشرق، إلى خط يمتد إلى أقصى جنوب فزان حتى Bannoua على بحيرة تشاد"

وبهذا فإن المطالب التركية في نظر هذا القانوني الإستعماري، من شأنها نسف الحقوق التي حصلت عليها فرنسا وانجلترا، بل وألمانيا أيضا بالنظر إلى شمال الكامبيرون الواقع على ضفة بحيرة تشاد.<sup>٣٦</sup>

وبدا أن السيد أحمد الشريف، حين تولى القيادة مباشرة بعد وفاه الإمام المهدي سنة 1902. أراد أن يتفادى الخطر الفرنسي الذي أخذ يطبق كالمأشاة على قوات المقاومة، ففضل أن يمارس حرب العصابات المتناثرة وغير القارة، فسارع بإخلاء ( قورو ) في ١٩٠٣ عائداً إلى الكفرة. ثم عسكر السنوسيون في بوركو على خط الواحات المجاورة لفايا. ومن هناك أخذوا يشنون الغارات على المواقع الفرنسية في كانم وكوار، وهي تابعة لبيلمبا في أراضي النيجر. ولهذا السبب ولمواجهة هذه الغارات، أنشأ الفرنسيون مفرزة من (المهاريست) في كانم، وقادها ابتداء من ١٩٠٤ الملازم **Rangin** والذي شرع في شن غارات مضادة كانت أحداها في فايا في ٢٨ يونيو ١٩٠٦. وفي ١٨ نوفمبر من نفس السنة، إصطدم **Comm.Gadel** في (فاشي) **Fachi** بقوة سنوسية كانت متجهة صوب بيلما. وفي ٢١ أبريل ١٩٠٧ استولى الملازم **Bordeaux** على قلعة عين جالاكا في معركة استشهد فيها سيدي محمد البراني. وفي ١٩٠٧ أقيمت نقطة مراقبة في (**Ziguel**) لمراقبة الحدود جيداً. وفي ١٩٠٨ شنت غارات سنوسية جديدة على كانم وكوار، وانتقاماً لها عاد الملازم **Cellier** إلى عين جالاكا، ولكنه أخفق أمام الزاوية التي أعيد بناؤها (٢٦ - ٢٧ سبتمبر ١٩٠٨). في ١٩٠٩ شنت غارات جديدة على زندر شمال بيلما وعلى كانم، مما أدى في ٢٧ نوفمبر ١٩٠٩ إلى حدوث قضية "وادي شيمكالي" **Oudchemkale**. ففي ذلك اليوم غزت بشكل مفاجئ مجموعة من التبو يقودها عبد الله الطوير معسكراً للقناصة، وأخذت النساء والأطفال الذين بيعوا عقب ذلك كعبيد<sup>٣٧</sup> وفي ٢١ مايو ١٩١٠ شنت غارة أخرى على **Maul**، وهو موقع للمهاريست شمال **Nguigmi**. وكلها تقع على ضفاف بحيرة تشاد.

ويواصل المؤلف الفرنسي لكتاب "تشاد وليبيا" سردته بالقول: لقد أظهر السنوسيون بشكل مستمر عداءهم للفرنسيين كغيرهم من المسيحيين (النصارى - هكذا في النص) وأحد دعاة السنوسية وعد بالجنة كل من يغتال (ناختيجال) أثناء تجواله في تيبستي في ١٨٦٩. وكان الوادايون هم الذين اتخذوا موقفاً عدوانياً حيال الفرنسيين خلال عام ١٩٠٢. فقد

٣٦ ينظر كتاب (ليبيا - تشاد) ص ٢٢ - ٢٣ - ٢٤

٣٧ لقد روى لارجو هذه الحادثة (واد شيمكالي) في الرسالة التي بعث بها إلى السيد أحمد الشريف في ٣١ ديسمبر ١٩١٣، بعد السيطرة على عين جالاكا

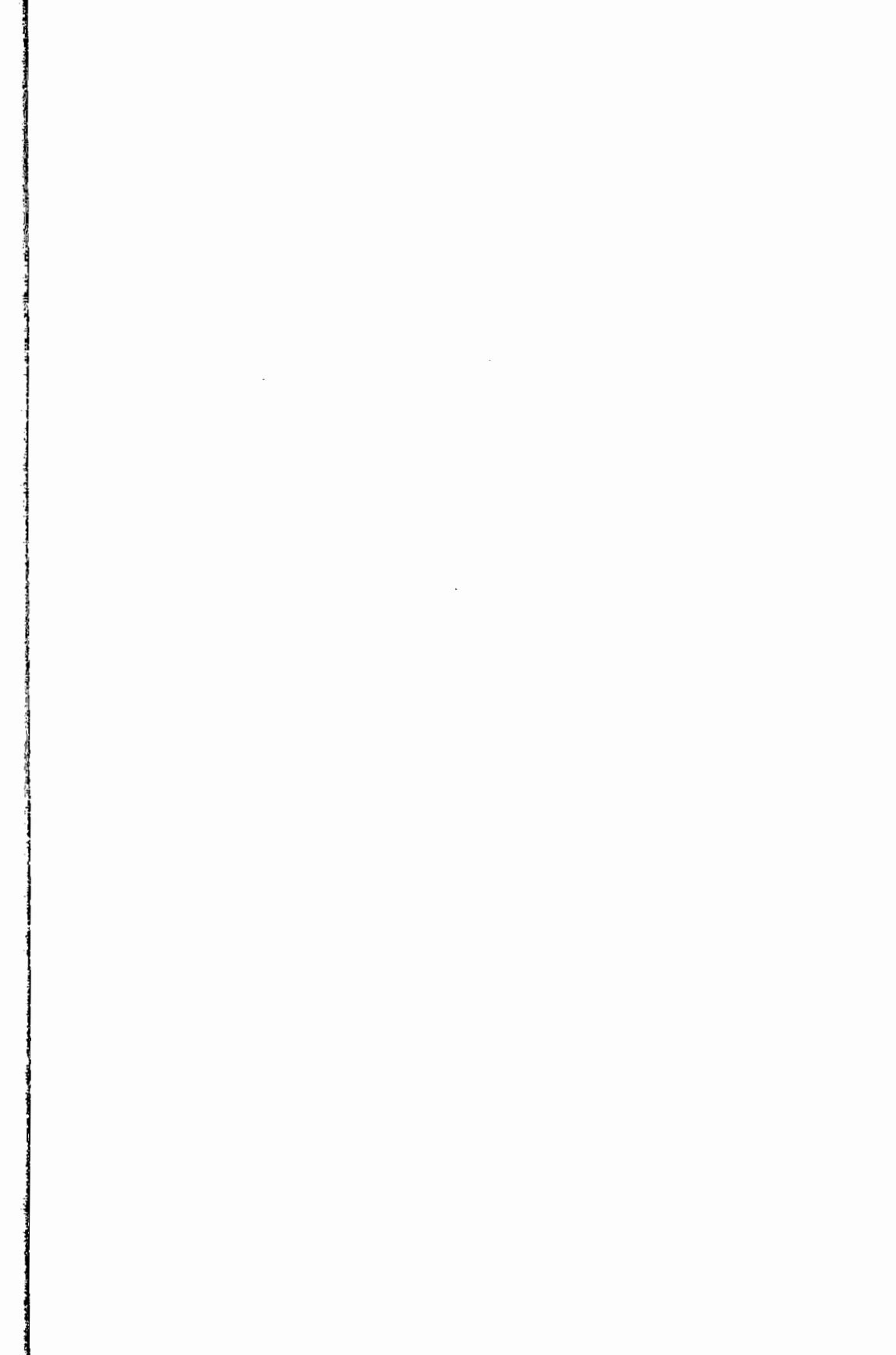
حرّضوا Gouramg على إلغاء التحالف الذي عقده مع Gentil عام ١٨٩٧ وجُدّد عام ١٩٠٠. إذ وُجِدت مراسلة تُثير الشبهات حول ملك (سلطان) باقيرمي، ضمن أرشيف السنوسيين بعد اخلائهم بنر علالي. وفي عام ١٩٠٦ تدخل السيّد أحمد الشريف لدى سلطان (دارفور) حتى يتوقف عن إزعاج الواداي. ولكي يكرّسوا كلّ جهودهم وقوّاتهم في الكفاح ضد الفرنسيين.

ومع أن العلاقات بين السنوسيين والأتراك نادراً ما كانت طيّبة، بالرغم من كونهم كلهم مسلمين.<sup>٣٨</sup> فإن (كاربو) أكد أن السنوسيين يكرهون الأتراك واعتبروهم كمسلمين سيئين، وأنهم ينتهجون أسلوباً إدارياً غير فعّال واجراءات مالية استغلالية. فإذا ما رأينا قادة الطريقة المتعاقبين يتمركزون في الصحراء البلقع، فما هذا إلا لأنهم أرادوا تحرير أنفسهم من أية تبعية تجاه إسطامبول. ولقد أرسل الأتراك بعض المبعوثين إلى الجغبوب في ١٨٩٦ وإلى قورو سنة ١٩٠٠، غير أن هؤلاء لم يكن في مقدورهم إلا المرور. فحسب (كاربو) مدّت الإخوانية نفوذها في فزان دون أن يحاول الأتراك معارضتها.<sup>٣٩</sup>

---

٣٨ ذكر الحشائشي في كتابه، (رحلة في بلاد السنوسية) أن مؤسس الطريقة إستمطر اللعنات في آخر الأيام على الأتراك، ويطعن كثير من المؤرخين في هذه الرواية، ويعتبرونها دعاية روجت لها السلطات الإيطالية، لبتّ الاعتقاد بأن السنوسيين على عداة مستحکم مع الأتراك، وذلك ما يسهل أمام القوّات الإيطالية تقبّل السكان الليبيين لها بل والترحيب بها لأنها أنقذتهم من نير الأتراك! ولا يُستغرب أن يكون الحشائشي ضمن المروجين لهذه الفرية، طالما كان يتعاون مع الفرنسيين حلفاء الإيطاليين، حسبما ذكر أحمد صدقي الدجّاني في كتابه "ليبيا قبيل الإحتلال الإيطالي ص ٣٢٠

٣٩ (تشار وليبيا) ص ٣٥.



## الفصل العاشر

الوضع بعد مجيء (الشبان الأتراك)



## الفصل العاشر

### الوضع بعد مجيء (الشبان الأتراك)

- اتفاق مؤقت بين رفقي ولارجو.
- أدوات السنوسيين.
- الوضع أثناء الغزو الإيطالي.
- ترتيب الأوضاع بين المستعمرين الفرنسي والإيطالي.



## الفصل العاشر

### الوضع بعد مجيء (الشبان الأتراك)

وكان مجيئ (جمعية الشبان الأتراك) إلى الحكم عقب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٠٨، هو الذي حرك آنذاك العمل الهجومي التركي في تبستي، وبعد ذلك في بوركو، وأدى إلى توتر العلاقات مع فرنسا، والالتقاء بين الأتراك والسنوسيين، طوعا أو كرها، ضد فرنسا. وكانت طرابلس الغرب تعتبر منفى للمعارضين الأتراك قبل الثورة المذكورة. وكان الوالي رجب باشا عسكريا عجوزا أبعدته إسطامبول بأن وضعت على رأس الحكم في طرابلس الغرب. وأحاط به (المتحررون) - أي دعاة الليبرالية - حيث عيّن متصرفاً لفزان أحد أساتذة مدينة بورصة، وهو البروفيسور جلال، والذي كان يحمل هو أيضا أفكارا حديثة. وحاول جلال تحسين الإدارة في الإقليم، ولكنه إصطدم بمعارضة كبار التجار الموالين للسنوسية، والمعادين للإصلاح. ولذا سعى إلى مكافحة السنوسية، وفتح مدرسة تلقن تلاميذها دروسا معارضة لتعاليم الطريقة. \* كاريو ص . ١٤٥. وما أن جاءوا إلى الحكم، حتى انتهج أعضاء جمعية "الشبان الأتراك" في فزان سياسة توسعية ومعادية لفرنسا، طبقوها آنذاك بإرسالهم مفارز صغيرة إلى تبستي وبعدها إلى بوركو. وبمقياس ما فإن هذه السياسة تترافق مع ما قام به السنوسيون، نظرا إلى حسن التعاطف الذي جربه كل منهم تجاه الآخر.

وهكذا إتسم الإهتمام التركي بالإقليم في العهد الجديد، بطابع العون العسكري للجماعات المقاومة للغزو الفرنسي.

أولا: في تبستي حيث أجمعت المصادر الفرنسية، المتمثلة في كتب الرحالة والعسكريين، أن التواجد أو التسلل التركي بدأ ما بين ١٩٠٧ - ١٩٠٨ بطلب من حاكم المنطقة المحلي ويسمى ديردي خي **Derde Chai** وهو زعيم مستقل لسكان (تيدا تو) **Teda Tou** القاطنين في تبستي. ويبدو أنه استنجد بالأتراك خوفاً من زحف المسيحيين الفرنسيين فأرسلوا إليه من مرزق (قائمقام) يلقب بعثمان أفندي، الذي جاء إلى برداي مصحوبا بجنديين وعلم تركي. و هناك رواية أخرى مناقضة تقول بأن القائد التابوي طلب عام ١٩١٠ من الجانب التركي المعسكر في مرزق، ومن الجانب الفرنسي المعسكر في برداي، إرسال الحامية في لعبة مزدوجة. وفي يونيه ١٩١٠ تمركز الأتراك ب ١٧ جنديا نظاميا ومعهم الطبيب العسكري عثمان زوبي الذي عين قائمقام لتبستي. وفي ١٩١١ تمّت تقوية الحامية في

برداي فبلغ عددها ٦٠ جنديا تحت قيادة عقيد، ومعهم ٦ مدافع. كما أنشئ معسكر تركي آخر في (يو) أو (خارده) جنوبي شرق (زوار) على طريق فايا. وبدا واضحا أن الأتراك عن طريق هذين الموقعين، وبعد ثورة "الشبان الأتراك"، كانوا ينوون الإقامة في المنطقة والدفاع عنها، لو لم تندلع الحرب الإيطالية التركية في أكتوبر ١٩١١ وتضع حدا للمشروع التركي في الصحراء بشكل نهائي.<sup>١</sup>

ثانيا: في بوركو، إذ يقول فيراندي " إن الاندفاع التركي عام ١٩١١، كان عبارة عن غزوة أوحث بها روح المغامرة لدى سامي بك حاكم مرزق والمنتمي للجمعية، ونتيجة للنداء الذي وجهه مقدّم الزاوية السنوسية في قورو سيدي محمد السني الذي كان منزعجا من عدم انضباط قبائل القرعان" وحسب قول (كاربو) فقد قامت مجموعة من المعتقلين السياسيين الأتراك في فزان، بالهروب من مرزق نحو الجنوب، فما كان من متصرف فزان آنذاك جلال بك، إلا أن أمر الحاكم المحلي التقليدي لكوار والملقب (ماي أدنيو)، بالقبض على الفارين، كما كتب إلى قائد كنة أو دائرة بيلما بنفس المعنى. ويذكر (فراندي) من بين هؤلاء المعتقلين سامي بك أحد أعضاء تركيا الفتاة المنفيين من إسطنبول لأسباب سياسية. وقد وجد الكابتن (كولونا دي ليكا) Colonna De Leca -والذي كان في جولة شمال بيلما- المذكورين هائمين في الصحراء، يكاد العطش أن يقتلهم، فأعادهم إلى بيلما لأنه كان يعلم بالصدقة التي تجمعهم مع سامي بك، ولم يتم طبعا تسليم هؤلاء الفارين السياسيين، ولكنهم تمكنوا من مواصلة السير حتى نيجيريا، ومن هناك إستقلوا الباخرة متوجهين إلى اسطامبول حيث اندلعت ثورة الشبان الأتراك آنذاك. وحسب فيراندي عاد سامي بك عام 1910 كوال لفزان، وفي نفس الوقت رُقّي (ليكا) لرتبة قائد فرقة، ووجهت إليه الدعوة من سامي بك، الذي ربطته به علاقة صداقة، لزيارة مرزق ومعه (فيراندي). وتعرّف خلال إقامته في طرابلس على الكابتن رفي الذي كان يُتقن الفرنسية ويميل إلى فرنسا، وبعدها عاد الضابطان الفرنسيان إلى باريس.<sup>٢</sup>

وفي رواية أخرى ذكرها (فيراندي) سنة ١٩٣٠، أن دي ليكا المذكور كان يعترّم الذهاب إلى طرابلس مندوبا عن الحكومة الفرنسية، لكي يُقنع الوالي التركي بضرورة حماية طرق القوافل بين طرابلس وغات، ولكن رحلته أُلغيت نظرا إلى معارضة حكومة الأستانة. وفي رأي نفس الكاتب (إعتقادا على الأرشيف السنوسي الذي استولى عليه) أن أوّل إتصال بين الأتراك والسنوسيين حول مشاكل (الهنتر لاند) جرى عام ١٩٠٨، إذ إطلع على خطاب مرسل بتاريخ ٢٦ أبريل ١٩٠٨ من السيد أحمد الشريف إلى الشيخ محمد السني مقدم زاوية (قورو) ذكر فيه أن إثنين من الإخوان أوفدا من الكفرة إلى تركيا، في نفس السنة،

١ ينظر "تشاد وليبيا" الصفحات من ٣٦ - ٤٠ .

٢ نفس المرجع ص ٤١

رغبة في تأكيد سيادة الباب العالي. وجرى استقبلهما إستقبالا حسنا كأخوين، ولكن مسئولو الزوايا رفضوا أية تبعية للأستانة. وهناك روايات أخرى متضاربة تقول إحداهما إن السيد أحمد الشريف هو الذي أرسل المبعوثين إلى الأستانة حاثا إياها على إعلان السيادة على مناطق الهنتر لاند، خوفاً من التوسع الفرنسي هناك. وعلى العموم فإن هذه التحركات بدأت منذ ١٩٠٧ حين وصل محمد السني إلى (بوركو). وفي مايو من نفس السنة زار (فايا) و(عين جالاكا) وأعاد بناء الزاوية التي دمرها الملازم (بوركو) أثناء هجومه في مارس - أبريل. ثم أعطى السني قيادة الزاوية في بوركو لأهل المنطقة، كما أن مرسل الطويل خلف سيدي البراني كمقدم في عين جالاكا. وبعد إستشهاد هذا عام ١٩٠٨ أثناء المعركة التي أعقبت هجوم الملازم Cellier قام عبد الله الطوير، ويصفه (كاربو) بأنه رجل "شديد البأس" و"مقاتل رهيب"، قام بدور كبير مع محمد السني كي يجعل الأتراك يأتون إلى تبستي و(بوركو) ويتمركزون وينصبون العلم العثماني دليلا على السيادة على المنطقة. كما أن الكيلاني الأطيوش الذي كان قائمقام الكفرة هو الذي جاء مبعوثا من السيد أحمد الشريف إلى بوركو لهذا الغرض. وبذلك فإن السنوسيين كسروا حاجز العزلة التي كانت ديدينهم. كما أن العلاقة بين العرب والتبو شهدت تقاربا بدل التناحر بينهم، بفضل موقف عبد الله الطوير<sup>٣</sup> والخلاصة: أن الملازم رقيقي، مع سبعين جنديا من الألبان سبتي التغذية وبرواتب زهيدة ومدفع ومائة وخمسين جملا، حطوا في (بوركو) عام 1911 مباشرة، بعد رحيل المبعوثين الأتراك المشار إليهم سابقا. وقد ذكر أن عبد الله الطوير لم يكن مرتاحا لرقيقي بك قائد المفزة واستقبله استقبالا سيئا، بل ورفض في البداية السماح له بالتمركز في (عين جالاكا).

وبدا أن الأطراف المتصارعة على المسرح كانت تدفعها مقاصد ونوايا متباينة: فالأتراك رغم ضعف إمكانياتهم أرادوا من وراء العملية إظهار صورة لدولة ذات احترام وهيبة على الصعيد العالمي. وتبو (بوركو) الذين يشعرون بروح التضامن مع إخوتهم المسلمين، كانوا أيضا ينشدون الحفاظ على مصالحهم والدفاع عنها ضد الجميع إذا ما أحسوا بالمساس بها. والسنوسيون - الذين لا شك في تعاطفهم مع سكان المنطقة من التبو و مع الأتراك أيضا- كانوا يسعون إلى تكتيل الجميع نحو هدف مشترك وهو التصدي لخطر المسيحيين (كما لقبهم المؤرخ الفرنسي، ويقصد بهم جيش دولته). والفرنسيون : وكانت بغيتهم السيطرة على الأراضي التي ضمنها لهم اتفاق 1899 مع إنجلترا، ولكنهم في نفس الوقت كانوا حريصين على تقادي أية مضاعفات دولية .

٣ تتضارب روايات مختلفة بين المؤرخين الفرنسيين حول تاريخ عملية التمركز التركي ومن دعا إليها.

ويعتقد أن محمد السني، باعتباره ممثلاً للسوسيين، كان يرمي من وراء استدعاء الأتراك أن يجعلهم يلعبون دوراً ثانوياً عن طريق تشجيع الغارات ضد المناطق الخاضعة للفرنسيين والتصدّي لهم في كل الجبهات، ولا سيما تدعيم مقاومة (داود مورّه) سلطان وادي. وفي رأي (فيراندي) "كان عبد الله الطوير الذراع الضارب" في (بوركو) والسني "الدماغ المفكر" في (قورو). وسرعان ما تكتشفت حقيقة الدور الذي كان يلعبه رقيقي بك، فالأتراك، إعتقاداً منهم في تمثيلهم لدولة عضو في الأسرة الدولية التي وقعت على اتفاق برلين، أرادوا أن يظهروا بمظهر من له حقوق لا يمكن النزاع حولها. ولكن فقط بالوسائل التي تتفق والأساليب الدولية المتعارف عليها. وبعد أن وقع ما وقع، يمكن إعتبار أن رقيقي بك وجد نفسه أمام (لارجو) مثلما وجد (مارشاند) نفسه أمام (كيتشنر) في حادثة (فاشوده).

ولا شك في أن وقتاً طويلاً كان سيستغرقه أي أمر سياثيه من الأساتنة. وانتظاراً لذلك أخذ يحافظ على العلاقات الودية. وكان لهذا الموقف نتائج مثمرة، إذ رفض رقيقي بك أن يلعب الدور الذي أراد السوسيون أن يمثله. وهكذا كما قال (مالفال Malval): "بقي الإتفاق التركي- السوسني أعرج"، وبدلاً من ذلك عقد "اتفاق جنتلمان" على أرض الواقع بين الأتراك والفرنسيين: كلاهما احتفظ "بحقوقه" ولكن كان عليه الإنتظار لإقرار النظام وضمن الأمن.

وكان موقف رقيقي بك يختلف عن موقف سامي (أو جامي) بك والتي فزان عام 1910، فالأخير كان قد سمح لقافلة بالإقلاع من فزان في اتجاه بيلما، ومعه حراس من الجنود الأتراك النظاميين وعددهم خمسة وعشرون جندياً يقودهم الملازم عمر لطفي. وقد اكتشفت هذه القافلة يوم 23 مارس 1910 الكابتن Cottes رئيس دائرة (أغاديس)، وكانت تابعة للأراضي الفرنسية في (Yat)، حيث كان يختبئ فيها حوالي تسعة وخمسون من التبو (المهاريست) الذين كانوا ينوون الإغارة على (أير). وسرعان ما وقع الصدام بين الطرفين، وانتهى الأمر بالأتراك، الذين كانوا يريدون مواصلة السير حتى بيلما، بأن يُطردوا إلى الحدود". وهكذا تبين أن سامي بك كان يختبئ مغيرين من التبو للإقتصاص على المنطقة الفرنسية.

## اتفاق مؤقت بين رقيقي ولارجو

وعلى العكس من ذلك تصرف رقيقي، فبمجرد وصوله كتب إلى (كولونا دي ليكا) معبراً عن الرغبة في حسن الجوار، ومن ناحيته كتب إليه (لارجو) يدعو إلى أن ينسق مع السلطات الفرنسية لصيانة النظام وأمن القوافل، وبذلك تتم المحافظة على الحقوق الفرنسية،

وأجابه رفاقي بأنه سيعمل جهده لإيقاف الغارات. وقد لاحظ ( لارجو ) أن رفاقي لا يملك نفوذاً البتة على عبد الله الطوير. ومن ناحية أخرى طلب رفاقي معونة الفرنسيين لإقرار الأمن والنظام في بوركو، وكتب لارجو إليه في 12 يناير 1912 بأن فرنسا تقف على الحياد في النزاع الإيطالي - التركي، كما اشتكى من استمرار الغارات من قبل أهالي بوركو. وكان من نتائج هذا الإتفاق المؤقت بين القائدين العسكريين أن استتب نوع من الهدوء استطاعت القوافل بفضلها أن تتاجر فيما بين كانم وجوراب وبين (القوى). كما اتضح أن (لارجو) بعد الإستيلاء على بوركو كان ينوي إستخدام الأتراك (الذين تخلوا عن ليبيا للإيطاليين) ضد السنوسيين، ففي خطابه الذي وجهه من (وانيانجا الكبير) إلى السيد أحمد الشريف بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٩١٣ كتب لارجو يقول: " إن العثمانيين أصدقاء فرنسا لأكثر من ربع قرن، قد جاءوا إلى بلاد الشمال (يقصد شمال تشاد) لإقرار السلام بينكم وبيننا. "

وكما سبقت الإشارة فإن عبد الله الطوير إستقبل رفاقي بك وجنوده استقبالا سيئاً ومنعه من نصب خيامه في Yen. ورفض إعلان الطاعة للأستانة، كما أبلغ الأتراك أنهم إذا أرادوا تسليم كانم للفرنسيين فهذا شأنهم، أما بوركو فإنه سيظل السيد فيها.

وقد اختلف العسكريون والمؤرخون الفرنسيون حول شخصية عبد الله الطوير الزوي، (ففيراندي) إعتبره عسكرياً قديراً وأطرى ثقافته وذكاءه وحيويته. وعلى العكس من ذلك فقد ذمّه (لارجو) ذمّاً شديداً لأنه لم يغفر له ما فعله في واقعة (واشينكالي) في ١٧ نوفمبر ١٩٠٩، إذ ادعى بأنه سحق مجموعة من (المهاريست) عن بكرة أبيهم، وذبح الأطفال والنساء. وقد كرّر (لارجو) هذه الإتهامات في خطابه إلى السيد أحمد الشريف بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٩١٣ حين قال له بالحرف: "إن عبد الله الطوير بقر بطون النساء، ورمى بالجرحي في النار، وخرّب الأرض وهشم جماجم الأطفال الصغار!".

وقد أستشهد عبد الله الطوير، ذلك المكافح الصنديد ضد الغزو الفرنسي، في معركة (أم العدم) في (واو) يوم ٢٣ مايو ١٩١٣. وكانت معركة فاصلة خاضها ببسالة ضد الراند (Dufour). وحلّ محله في قيادة عين جالاكا محمد أبو عريضة.

أما رفاقي بك فبعد أن أدرك الحرب الإيطالية التركية في ليبيا، وشاهد تفتت السلطة التي أنشأها في بوركو رحل إلى البحر الأبيض المتوسط في شهر مارس ١٩١٢ وكتب إلى (كولونا دي ليكا) يعلمه بالرحيل. وقد ذكر إتوري روسي Ettore Rossi، في مجلة Oriente Moderno في أبريل ١٩٢٩، أن رفاقي عاد إلى تركيا بعد عقد معاهدة السلام (يقصد إتفاقية لوزان)، وترك أرشيفه للإيطاليين، الذين استفادوا من المراسلات المتبادلة

فيه بينه وبين (لارجو) لتثبيت حقوق الأتراك في شمال تشاد، و بالتالي تدعيم وتبرير مطالبهم (أي الإيطاليين) حول حدود ليبيا التي غزوها

## أدوات السنوسيين

أطلق هذه الصفة على الأتراك "بيرنارد لان" مؤلف كتاب "تشاد وليبيا"، مبرهنا على قوة النفوذ السنوسي وتأثيره<sup>٤</sup> إذ يحدثنا أنه بعد رحيل رفقي لم يبق في بوركو من الوجود التركي سوى ملازم عجوز إسمه (محمد البي)، وهو قائمقام أصله من الكفرة شديد الإرتباط بالسنوسية، وصفه (فيراندي) بأنه "شخص صلب لدرجة الفظاظه". وأغلب الظن أنه كان الكيلاني الأطيوش حسب ترجيح (فراندي)<sup>٥</sup>. وفي الواقع لقد حاول رفقي أن يتصرف باستقلالية عن السنوسية، لولا الاعتراضات التي أبداها محمد البي، وهو بالرغم من رتبته العسكرية الفاققة، فقد كان خاضعاً لنفوذ هذا القائمقام السنوسي الصميم. وحين قام الملازم الفرنسي **Detchbarne** بالتوغل حتى واحة فايا، قابله هناك بوذ الملازم محمد البي الذي وصل من عين جالاکا يوم ٢٥ يوليو ١٩١٢، لكن عبد الله الطوير رفض التحدث معه عندما أراد أن يشرح ضرورة احترام اتفاق الأمر الواقع الذي عقد مع رفقي بك، ومن ثم إيقاف الهجمات السنوسية. وبعد أن عقدت اتفاقية (لوزان) في ١٨ أكتوبر ١٩١٢، والتي وضعت نهاية للحرب التركية الإيطالية، تخلى الأتراك عن طرابلس الغرب كما هو معروف. وفي ١٠ أكتوبر ١٩١٢ أعلن قائمقام عين جالاکا (التركي) (ويقصد به الأطيوش) الحماية التركية على العنيددي، وتمركز فصيل عثماني في (أم شالوبا). وكان هدف السنوسيين من ذلك مراقبة طرق القوافل من الكفرة إلى أباشه وإلى دارفور وسيوه.

ويبدو أن الأتراك مستفيدين من رسالة وضعها في القاهرة **Bonnel De Meziere** المكلف بمهمة ضابط اتصال لطلبة واداي في جامعة الأزهر<sup>٦</sup> أرسلها إلى الكفرة، ورسم فيها حداً فاصلاً موازياً لبلدة عرادة بين المنطقة السنوسية في الشمال والمنطقة الفرنسية في الجنوب. (ويقول الكاتب أن هذه الرسالة ليس لها بالطبع أية قيمة دبلوماسية!). وفي ٤ نوفمبر إحتج قائد دائرة الواداي **Jannot** لدى القائمقام ضد النوايا التركية، مؤكداً حقوق فرنسا على هضبة العنيددي، ولكن هذا أجابه بأنه سيحيل

٤ مرجع سابق ت ص ٥٢-٥٣

٥ أخطأ المؤلف الفرنسي في أكثر من مرة حيث اعتبره تركيا. بينما كان هو شيخ قبيلة المغاربة الشهيرة في تاريخ الجهاد الليبي، ومحمد بي لقب كان يطلقه أهالي المنطقة على كل ضابط في صف الأتراك

٦ كان هذا عضواً قديماً في بعثة **Maistre** ١٨٩٢-١٩٣ ورنيسا للفريق الذي رسم حدود غينيا الإستوائية الإسبانية في ١٩٠١

الأمر إلى حكومته<sup>٧</sup>. وفي نفس شهر نوفمبر التقى الملازم (الرائد) **Dufour** رئيس  
 كتيبة المهاريست في (عراده)، الملازم محمد بي عند ناحية الوطنية ومعه بعض  
 الجنود في حالة يرثى لها من الفقر الشديد، فاشفق عليه وأعطاه كيساً من (الكسكسي)  
 وبعضاً من السجائر والشاي والسكر، وأسّر الملازم التركي (يعني الكيلاني  
 الأطيوش) لدوفور بأنه ينوي مهاجمة بلدة (باكي) - جنوب غرب فاذا - ويقوم فيها  
 قاعدة. وعلى كلّ قافلة تمرّ عليها دفع (تالير) - عملة ألمانية - عن كل جمل. وعبئاً  
 حاول دوفور إقناعه بأن تركيا تخلت عن طرابلس الغرب، لأن الملازم التركي في  
 رأي (فيراندي) كان يؤكد "بأن الجيوش التركيّة - حسب مصادره الأمنية - تغمرها  
 أفراح النصر". و بعد أن أُنذرت الحامية التركية بضرورة إخلاء الموقع وجاءت  
 التعليمات من باريس بذلك، قام دوفور يوم ١٢ مارس ١٩١٣ ومعه تسعون من  
 القناصة بالتهديد باستعمال القوّة ، فما كان من الحامية التركية إلا إخلاء (باكي) يوم  
 ١٤ مارس، وعندما أراد دوفور بلوغ برداية أُغتيل في أحد أطراف بوركو.  
 وبعد الجلاء وجد الفرنسيون رسالة من قائمقام (جالاكا) عليها أوامر مكتوبة كملاحظة  
 هامشيّة من عبد الله الطوير، ممّا يدل على أن الأتراك لم يكونوا أكثر من أداة في أيدي  
 السنوسيين. وفي أثناء معركة (أم العدم) يوم ٢٣ مايو ١٩١٣ والتي سقط فيها عبد الله  
 الطوير شهيداً كما أسلفنا، وجدت جثتان لاثنتين من الجندمة الأتراك (أو الزبطية) من بين  
 المهاجمين لمعسكر درفور.

وفي رسالته إلى أحمد الشريف صوّر (لارجو) العمليّة الحربيّة التركية في العنيدى بلهجة  
 متعطرسة، حين قال: "لقد سمح الأتراك لأنفسهم بأن ينجروا في وقت ما حتى ( )  
 (باكي) على طريق أبشته، ثم انسحبوا أمام طلائعنا. وها هي سلطتنا تترسخ هناك." وما أن  
 استولى طابور لارجو على عين جالاكا عنوة يوم ٢٧ نوفمبر ١٩١٣، حتى اختفى كلّ أثر  
 للقائمقام (الأطيوش) والأتراك.

## الوضع أثناء الغزو الإيطالي

منذ عام ١٩١١ بدأ الإحتلال الإيطالي لليبيا، إلا أن القوات الفرنسية رغم عدم قيامها  
 بعمليات عسكرية كبيرة تذكر في مناطق تشاد الشماليّة- خاصة بعد إستشهاد عبد الله  
 الطوير وجلاء المفارز التركية- إنتقل مسرح صراعها مع القوات السنوسية الى الأقاليم  
 الثلاثة وهي : بوركو - العنيدى - تبستي، ويمكن تصوير هذه المواجهة المباشرة والنهائيّة  
 بين السنوسيين والفرنسيين في غيبة الأتراك كما يلي:

٧ علق المؤلف الفرنسي بأن هذا يُعدّ تجاهلاً لانسحاب تركيا من ليبيا

• في بوركو والعنيدى : قاد الضباط **Tilho و Dufour و Larfeau** إعتباراً من ٣ سبتمبر ١٩١٣ ثلاث مفازز إندفعت من كانم وواداي وفورت لامي (أي أنجامينا الآن)، والتحمت يوم ٢٧ نوفمبر من نفس السنة في عين جالاكا في معركة حامية الوطيس مع القوات السنوسية، التي كانت متحصنة بالزاوية السنوسية هناك، حسب المؤرخين الفرنسيين، مما يدل على أن المجاهدين السنوسيين استردوها من الغزاة الفرنسيين بعد احتلالها الأول كما أوردنا. وقد تمكنت القوات الفرنسية من إحتلالها مجدداً، مخلفة وراءها واحداً وثلاثين قتيلاً [ من بينهم الضباط **Lagrion و Maignan و Barrier Fontaine** ].

• في ٣ ديسمبر جلا السنوسيون عن فايا فاحتلها الفرنسيون. وفي ١٤ ديسمبر إحتل الفرنسيون (قورو). أما محمد السني فقد استطاع النجاة، ولكن ألقى القبض على عائلته. و في ٢٤ ديسمبر سقطت أونيانجا الكبيرة في أيديهم، ثم تحول (لارجو) عقب ذلك صوب العنيدى، ثم الواداي. وفي ١٠ فبراير ١٩١٤ وصل إلى (عراده). وهكذا أخلى السنوسيون بوركو والعنيدى تماماً، عاندين إلى الكفرة. أما الفرنسيون فأقاموا قواعدهم في فايا - عين جالاكا - قورو - فاذا وأونيانجا.

• في تبستي. جاء الإحتلال من قبل القوات الفرنسية التي كانت معسكرة في بيلما من أعمال الأراضي العسكرية في النيجر، إذ بدأ القائد **Loefler** يوم ١٠ ديسمبر ١٩١٣ باحتلال (زوار). وفي ٢٥ ديسمبر قبض على المجاهد خليفة قوبطين رئيس (زوار)، وأرسل إلى فايا ليجبر على الإستسلام. وفي ١٥ فبراير ١٩١٤ قتل السرجنت الفرنسي **Gouaillard** وخمسة من القناصين في معركة **Labague** بالقرب من زوار، ثم قام (لوفلير) بهجوم على الهضاب واستولى على برداي يوم ٢٣ يونيو ١٩١٤. وعلى إثر ذلك هرب المجاهد (ديردى ماي - شفامي)، وواصل لوفلير زحفه حتى أوزو التي وصلها في ٩ يوليو ١٩١٤. وفي ٣٠ يوليو تحقق ربط بوركو بتبستي. وفي أكتوبر تم تفكيك مفرزة لوفلير. أما (تيلو) الذي كان معسكراً في فايا فإنه فقد عام ١٩١٥، ربّما نتيجة البركان الهائل الذي انفجر في (أمي كوستي). وفي ١٩١٦ ساء وضع القوات الفرنسية لأن الإيطاليين جلا عن فزان في ١٩١٥، ولجأوا إلى الساحل.

ومن الكفرة أعاد السنوسيون تشكيل كتائب جهاد معادية للفرنسيين، ومن خلال تحركها عبر فزان استطاعوا بها كسب طوارق الأير والهوجار إلى جانبهم في الكفاح. ولم يتم إستعمال السلاح، لا في تبستي ولا في بوركو، لأن قائد قاعدة (برداي) الفرنسي الملازم أول **Lenoir** الذي استولى عليه الذعر أخلى موقعه يوم ٢١ يوليو ١٩١٦، ولجأ إلى زوار، ومنها واصل رحلة الجلاء إلى فايا. إلا أن السنوسيين لم يتوغلوا في تبستي. وقامت قوات بيلما الفرنسية باستعادة موقعها في زوار.<sup>٨</sup> إلا أن السلطات الفرنسية التي كانت

٨ إنسحاب لينوار نتيجة الذعر أعتبر جبناً أثناء الحرب، ولذا مثل أمام تحقيق عسكري

حديثاً العهد في احتلال تشاد، معروف عنها ظاهرة الخوف؛ ففي ٢٩ مايو ١٩١٥ إقترح **Gaston Doumergue** وزير المستعمرات الفرنسي إخلاء المواقع في (قورو) و(وانيانجا)، لأنها معزولة ومعرضة لأن تكون تحت رحمة هجوم سنوسي مباغت. غير أن **Aristide Briand** وزير الخارجية ورئيس الحكومة أجاب على ذلك يوم ٣٠ مايو مطالباً بالمحافظة على موقع (قورو)، بالنظر إلى المفاوضات التي كانت ستبدأ من أجل السلم مع إيطاليا. أما (أونيانجا) فقد تمّ الجلاء عنها وانتقلت حاميتها إلى (أتي) في النيجر. وفي ١ ديسمبر ١٩٢٠ إستسلم (ديردي ماي شافامي) للعقيد روف **Rueff** في بيلما. وأخيراً وفي ١٩٢٩ تقرّر إعادة إحتلال تبستي، لأن الإيطاليين بدأوا يضعون أقدامهم في فزان. وقام بالعملية كل من **Comm. Rottier** من بيلما و **Comm. Aubert** من فايا، اللذين نظما إستعادة المواقع. وفي نوفمبر ١٩٢٩ ضُمَّت فايا مع بوركو - عنيدي - تبستي تحت الحماية الفرنسية بموجب بلاغ رسمي. وبقيت القوات الفرنسية محتلة لتشاد وجوارها حتى عام ١٩٦٤ موعداً إعلان الإستقلال.<sup>٩</sup>

### ترتيب الأوضاع بين المستعمرين الفرنسي والإيطالي

حين أعلنت الحرب العظمى في أغسطس ١٩١٤، قرّرت إيطاليا أن تبقى على الحياد، مع أن الرأي العام الإيطالي كان مؤيداً (للحلف) ومعادياً لألمانيا، وخاصةً للاتحاد النمساوي - المجري الذي كان يحتلّ أراضي تسكنها غالبية إيطالية. وهكذا تحوّلت المشاعر إلى قوّة ضاغطة عام ١٩١٥ جعلت وزير الخارجية الإيطالي (سونينو) يتفاوض مع الحكومات أعضاء (الوفاق الثلاثي) بغية دخول إيطاليا الحرب. وبناء عليه وقعت يوم ٢٦ أبريل ١٩١٥ في لندن إتفاقية سرّية مع فرنسا وبريطانيا وروسيا. وقد تضمنت الإتفاقية شروطاً تكفل مصالح ترابية تُمنح لإيطاليا، مقابل مشاركتها في الحرب. فالمادة ١٣ منها تنص على ما يلي : " في حالة قيام فرنسا وبريطانيا العظمى بتوسيع رقعة ممتلكاتهما الإستعمارية على حساب ألمانيا، فإن هاتين القوتين تعترفان مبدأياً بجواز أن تطالب إيطاليا بشئى من التعويضات العادلة، وخاصة في إطار ترتيبات لصالحها في المسائل المتعلقة بالحدود الاستعمارية الإيطالية في أريتريا والصومال وليبيا، وفي المستعمرات المجاورة لفرنسا ولبريطانيا".

ورغم أن هذه الفقرة لا تلزم فرنسا وبريطانيا بأية تنازلات لغموضها وعموميتها (حسب وجهة نظرهما) إلا أنها بالنسبة لإيطاليا كانت حجة تاريخية تعللت بها لمدى عقدين من الزمان في المطالبة (بحقوق تعاهدية) أثناء مناقشات حدودها في ليبيا مع الدولتين

٩ "تشاد وليبيا" م مرجع سابق ص ٨٢-٨٣

المجاورتين لها ( أي حدود ليبيا مع كل من مصر وتونس والجزائر وتشاد). وكان من المفترض أن تبقى هذه المعاهدة سرية إلا أن تصريح الرئيس الأمريكي ويلسون المشهور، أمارت عنها اللثام. وهو التصريح الذي قدمه إلى الكونجرس الأمريكي والمتضمن للنقاط الأربع عشرة، وأهمها شجبه للإستيلاء على الأراضي وإحاقها بالقوة، وإعلانه لحق تقرير المصير وتحرير الأوطان.

واستغلت القوى الاستعمارية الإيطالية - مثل غيرها من القوى التوسعية النهمة - هذا النص وأعلنت أن مطالبها تطبيقاً له تستهدف :

- الإنتشار الإيطالي في شرقي البحر المتوسط.

- توسيع رقعة الحدود الليبية.

- التغلغل داخل أفريقيا الشرقية بجوار أثيوبيا وجيبوتي والصومال.

واستمرت إيطاليا تتشبث بهذه المطامع حتى عام ١٩٤٠ أي قبل هزيمتها في الحرب العالمية الثانية.

ولعل أهم ما توصلت إليه خلال محاولاتها وضغوطها طيلة هذه المدة:

**أولاً :** إتفاقها بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩١٩ مع فرنسا وبريطانيا حول تقاسم مناطق النفوذ في أثيوبيا والصومال وليبيا. وقد أسفر بالنسبة لليبيا على تبادل رسائل تفاهم تبودلت في باريس في نفس التاريخ، بين Pichon وزير خارجية فرنسا و Bonin سفير إيطاليا في العاصمة الفرنسية، وتضمنت (التخلي) - حسب تعبير المؤلف الفرنسي - لليبيا على (البركات) و(تيهوت) ومنطقة (طرق القوافل) من غدامس إلى غات وإلى توقو، أي أن هذين النتينين ابتلعا الحدود" وجعل ليبيا تكسب ٢٣٣٠٠٠ كم". وبما أن هذا الاتفاق عدل الحدود المرسومة بموجب إتفاقية ١٨٩٩ بين ليبيا من ناحية والجزائر والنيجير من ناحية أخرى، دون أن تمسّ حدود تشاد التي تبدأ شرقي (توقو)، فقد قام (Tittoni) وزير الخارجية الإيطالي في تلك السنة بعرض المسألة على البرلمان يوم ٢٧ سبتمبر حيث أعلن: أن مسألة تيبستي والبوركو - أو أية تعويضات ترابية أخرى - ثركت مفتوحة وموضوعاً لمفاوضات لاحقة". ولم تخف الأهمية المادية لهذه المنطقة الواسعة، فقد ذكر بأن " البوركو والعينيدي وتيبستي رغم أنها أقاليم قاحلة وقيمتها الزراعية ضئيلة، إلا أنها ربما تحتزن في باطنها بعض الثروات المعدنية".<sup>١٠</sup>

---

١٠ حسب اطلعنا على مجمل ما كتب على الموضوع، فإن هذا يعتبر أول تصريح رسمي عما قيل كثيراً بعد نذ من شائعات حول ما تحتزنه تيبستي من موارد نفطية ومعادن الأورانيوم، وخاصة في منطقة

**ثانياً:** معاهدة روما في ٧ يناير ١٩٣٥ والتي وقعها كلٌّ من لافال **Laval** رئيس جمهورية فرنسا وموسوليني **Mussolini** رئيس الحكومة الإيطالية الفاشية. والجزء الأول منها تعرض في المادة (١) (للمسائل التوسعية) وهي المتعلقة "بوضع وحقوق الإيطاليين والرعايا المعمّرين الإيطاليين في تونس، والتونسيين في إيطاليا، والتي ستُنظّم بموجب معاهدة خاصة". أما الجزء الثاني فهو يتعلّق في المادة (٢) بالحدود بين ليبيا والمستعمرات الفرنسية المتاخمة والتي نصّت على أن: الحدود التي تفصل ليبيا عن أفريقيا الغربية الفرنسية وأفريقيا الإستوائية الفرنسية شرقي توفو في النقطة النهائية التي حدّدها الخط المرسوم بموجب اتفاقية باريس ١٢ سبتمبر ١٩١٩، سوف تُقرّر حسب الخطوط التالية: - وقد عيّنها بأسماء مواقع وبلدات ذُكرت في الإتفاق.-.

ومع تصاعد الخيّلاء والخطورة الفاشية، ازدادت مطالب إيطاليا للحصول على مزيد من المستعمرات حتى أن موسوليني في خطابه بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٣٩ أفصح عن مطالبه في السّويس وجيبوتي وتونس! وردّ عليه **Daladier** رئيس الوزراء الفرنسي يوم ٢٩ مارس ١٩٣٩ (أي بعد ثلاثة أيام) مؤكداً الجشع الفرنسي من جهته قائلاً: "لن نتنازل عن شبر واحد من أراضينا ولا عن ذرّة واحدة من حقوقنا".<sup>١١</sup>

---

(أوزو) مسرح الصراع المشهور بين ليبيا القذافي وتشاد ( الحديثة) والتي آلت ملكيتها لتشاد، كما هو معروف.

١١ كتاب " تشاد وليبيا" - مرجع سابق ص ٩٤ - ١٣٢.



الفصل الحادي عشر  
بذور التكوينات الحزبيّة الثوريّة



## الفصل الحادي عشر

### بذور التكوينات الحزبية الثورية

- أول حزب سياسي سرّي في طرابلس
- ثورات غومة.
- ميلاد الحركة الليبرالية في تركيا



## الفصل الحادي عشر

### بذور التكوينات الحزبية الثورية

قدّمنا في الفصل السابق عرضاً مختصراً لتوسّع النفوذ السنوسي في السودان الأوسط، ومقاومته الطويلة للغزو الفرنسي للإقليم، إلى أن استطاعت القوتان الفرنسية والإيطالية من الهيمنة عليه وعلى ليبيا وجوارها المغربي. ومما لا شكّ فيه أن الكفاح المسلح الطويل الذي خاضته القبائل الليبية بقيادة السنوسية، على الرغم من أنه لم يحقق الانتصار الدائم لها بسبب عدم التكافؤ في أدوات الصراع، إلا أن هذا الكفاح أكسب القيادات الليبية الممثلة في الزعماء والشيوخ الذين ذكرنا أبرزهم، تجربة ومرانا على فنون القتال والمناورة، سنجد أنها استفادت منهما في مواجهتها للغزو الإيطالي الذي اجتاح أراضيها، فأذاقت الغزاة معاناة وأهوالاً في حرب ضروس لم يكونوا يتوقعونها.

ولقد كان حديثنا منصّباً على تلمّس التكوينات الأولى لتبلور حركة وطنية تمثل السكان وتقودهم في معترك الصراعات الدولية التي أحاطت بالبلاد عشية إنهيار الإمبراطورية العثمانية، ونعني بها السنوسية التي بدأت كطريقة صوفية متفتحة، لتتحول بفعل الظروف وتطور علاقات القوى، إلى حركة وطنية جامعة إنغمست في النشاط السياسي. وكان مجال هذا النشاط موجّهاً في الدواخل، ومنطلقاً منه إلى الجوار الأفريقي، لأن الإدارة العثمانية ركزت تواجدها في المدن على سواحل البلاد الليبية المترامية.

#### أول حزب سياسي سرّي في طرابلس

وفي تلك الأزمان التي ساد فيها القبول بالحكم العثماني كخليفة إبتسبط في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي في المشرق والمغرب، إلى البلقان والجنوب الأوروبي، لم تنشأ منظمات محلية مستقلة، أو حركات ذات أهداف سياسية مناوئة لذلك الحكم. ولكن مع انبعاث تحركات وتبدلات في هيكل السلطة باسطامبول التي دخلت معمعة الصراعات والحروب الأممية، فقد وجدت هذه الصراعات لها صدى - ولو كان خافتاً- في ولاية طرابلس الغرب (ليبيا). إذ كشف المؤرّخ الفلسطيني د. أحمد صدقي الدجاني عن وثيقة

عثر عليها في "دار المحفوظات التاريخية" بطرابلس<sup>١</sup>. وحل ما ورد فيها من تحقيقات أجرتها سلطات الأمن العثمانية بتاريخ ٦ أغسطس ١٨٨٣ مع المثقف والناشط السياسي إبراهيم سراج الدين الذي وفد إلى البلاد من المشرق العربي، بتهمة تشكيل جمعية سرية مع شباب وطنيين في مدينة طرابلس<sup>٢</sup>. وقد استأجروا مقرًا يلتقون فيه هو مقهى "مصطفى آغا" بالقرب من شارع ميزران، "ونظموا لجمعيتهم قانونًا ونظامًا داخليًا للجناح العسكري فيها. ويوضح قانون الجمعية الذي أطلقوا عليه تسميًا اسم (فوائد ونصائح خيرية) أفكار الجمعية وأساليبها في العمل. وهو يضمّ عشرين فائدة تشرح أيضًا أهدافها وتقاليدها ومثلها". ويعتبر ما احتواه هذا القانون بمثابة برنامج إصلاحي للبلاد نصّ على أمور كثيرة لإصلاح سياسات الولاية، مثل تعميم التعليم وترقيته وجعله إجباريًا، وإدخال التعليم المهني بإنشاء مدارس عليا للطب والصناعة والهندسة والإدارة والشؤون العسكرية، وربط الدواخل والأرياف بمراكز الحكم في العاصمة، والإرتفاع بمستوى سكانها وذلك بنشر "الجمعيات الوطنية" بينهم، مع الإهتمام بالأقليات "كالتوارق والسودان وإقامة علاقات طيبة معهم"، وأنه "يجب على الجمعية أن تسعى في السياسة والكياسة إلى أن ترى أموال اليهود والنصارى برأي محبي الوطن في الأعمال النافعة". إلا أن بيان الجمعية ذكر أنه: "يجب على كلّ عضو من أعضاء الجمعية أن يعلم كلّ من له طمع في بلادنا ولا سيما تصرفات الجمهوريّة الفرنسيّة في تونس والجزائر". وحثّ قانون الجمعية "كلّ عضو من أعضاء الجمعية أن يظهر لإخوانه تمام الغيرة على وطنه ودينه وجنسه ولغته، وعلى نساء المسلمين وأطفالهم وعواندهم وشرفهم الذي عبث له الزمان". وفي الناحية التنظيمية نصّ قانونها على تثقيف أعضائها بالقراءة ومطالعة الصحف لأنها "تحرك الدول وتسكنها"، "وأنه" يجب على الجمعية أن تستسهل كلّ صعب حتى تكثر الجمعيات في البلاد بحيث تجعل غرضها المقصود تكثير جمعيات الوطن. فإذا كثرت الجمعيات وحصلت المناظرة والاسباق بينها إلى فعل الخير تكون قد وصلت إلى الدرجة المقصودة التي لا صعوبة بعدها". أمّا في الجانب العسكري لأغراض الجمعية فقد توجّهت إلى ضباط الجيش العثماني في الولاية، ووضعت لنشاطها نظامًا من سبع موادّ وأسّمته "نظامنامه عسكريّة" شرحت فيه أن وجود هؤلاء الضباط بكثرة في الولاية وانتشارهم في أطرافها "من غير شغل مما يستدعي دقة النظر خوفا من وقوع نظير ما وقع غير مرّة من المحذور، ناسب أن تخصصّ مجامع يجتمعون فيها في سائر الأوقات لمطالعة بعض الجرائد الحربيّة والمذاكرة في فنونهم". على أن يكون "لكلّ مجمع رئيس ونائب رئيس

١ يُنظر كتابه "ليبيا قبل الإحتلال الإيطالي" - مطبعة الزيتون بالقاهرة ١٩٧١ - إعتبارًا من ص ٣٤٨ -

٤٠٩.

٢ تتكوّن الوثيقة من ٣٤ صفحة باللغة العربيّة بعنوان "مستنطق عربي العبارة قرار نامه سنك أصلي وعيني" ووقع عليها المستنطق عبده خليل دربيبيكه ومعاونوه محمد الطيّب المرابط

وكاتب وأمين صندوق. وهذا التعيين إما أن يكون بالقرعة أو بالانتخاب والحكم للأغلبية".  
ونفس القواعد وضعت للخليفة المدنية التي سُميت "قراةخانه" التي عليها أن تجتمع في الليل والنهار، "وفي الليل لقراءة كتب الجغرافيا والتواريخ والنظامات العدلية، أما في الليل فمطالعة الجرائد". واللوائح الداخلية للجمعية نظمت الاشتراكات والمساهمات المالية في شقيها المدني والعسكري.

وكان المنظمون والمشفرون على الجمعية، بجانب مؤسسها إبراهيم سراج الذين، نخبة من مثقفي المدينة وأعيانها أبرزهم أحمد النائب الأنصاري مؤلف كتاب "المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" والذي شغل منصب عميد البلدية، و"شيخ البلاد" آنذاك حمزة ظافر المدني أخ زعيم الطريقة الصوفية المدنية الذي كان مقرباً من السلطان عبد الحميد. ويُذكر أن الشيخ حمزة أرسل إلى طرابلس مع الوالي الجديد الوزير محمد نظيف باشا سنة ١٨٨١، وأسندت إليه مهمة سياسية بمرتب بلغ ٥٠٠٠ قرشا وعلاوة سفر قيمتها ١٠٠٠٠ قرشا ونيشان المجيدية من المرتبة الثالثة، وذلك بعد إحتلال فرنسا لتونس في نفس السنة، ولجوء حوالي مائة ألف من التونسيين إلى طرابلس، خاصة عقب حدوث الإنتفاضة في الجنوب التونسي. ويبدو أن الشيخ كان له تأثير عليهم - عبر نشر طقوس الطريقة المدنية بينهم- إمتد إلى داخل الحدود التونسية، وخشيت السلطات المحتلة من حدوث قلاقل وتمرد شعبي ضدها، مما جعل الحكومة الفرنسية تضغط على اسطامبول، فترضخ وتسحب الوالي نظيف باشا من منصبه في طرابلس، لأن علاقته ساءت مع القنصل الفرنسي بطرابلس "فيرود"<sup>٢</sup>. كما انضمت إلى الجمعية طائفة من شباب المدينة كان من بينهم: محمد عارف أفندي البالغ من العمر ١٩ سنة ومهنته كاتب ضبط بالمحكمة الابتدائية، ومصطفى القلاي البالغ من العمر ٢١ سنة، ومهنته كاتب (سكرتير)، وإبراهيم مصطفى باكير البالغ من العمر ٢٦ سنة وهو من مثقفي البلاد، وعبد الكريم أفندي باش كاتب المحكمة الابتدائية، ومحمد البوصيري الساعاتي، وعلي الإزملي التاجر وأخوه إبراهيم، ومحمد الباهي. وأخذوا يتلقون الدروس والإرشادات على أيدي السراج، إذ ورد في محضر التحقيق معه: "صاروا يأتوني نحو ساعة في كل ليلة لكتابة بعض المسائل المذكورة، وجميع الذي كتبوه من المسائل لا أعلم عدد مسائله، ولكني أعلم أنهم نقلوا بعضه مني في المدرسة المذكورة وبعضه في محلّ نموي وبعضه في القراءتخانه، وجاء في إفادة عبد القادر المكي أحد الشهود: "إن سراج نزل عند المدني بالمدرسة فصار يتردد عليه، وفي أحد المرات وجده محفوا بذوات متعددة من أهل البلاد، حتى أنه في أحد الأيام جمع منهم تسعة نفر عرف منهم أسماء سبعة في العلي<sup>٤</sup> الكائن بداخل البلدة بين المدرسة

٣ تشايجي (مرجع سابق) ص ١١٦

٤ وصف ليبي للبيت ذي الطابقين

المذكورة والحمام، وقال لهم سراج نريد نعمل جمعية جغرافية. وبعد أن وافقوه على ذلك اجتمعوا وتحالفوا بالطلاق أن الذي يحدث منه لا يبوحون به" كما جاء في أقوال بعض المتهمين والشهود أثناء المحاكمة بأن سراج "تذاكر معهم على أن يجعلوا كومبانية - أي شركة أو رابطة- لأجل أن يتحدوا ويتفقوا على أن يشهروا الإسلام حيث ضاع بعدم الإتفاق، وأن يتحالفوا بأن لا يظهرون السر. وأن يفتحوا أبصارهم على أن لا يكونوا مثل تونس ومصر الذين أخذوهم النصارى" و في أحد الأقوال أن سراج شرح جولته في الأقطار التي زارها -مصر والجزائر وتونس وبنغازي- وما رآه من تدهور الأحوال وسيطرة الأجانب على مصر، "وأن يأتي الفرنسيين والإنجليز إلى هذه البلدة يأخذها في ساعة واحدة، لأن الأهالي ليست لهم آلة حربية، ولو كان يجد يتسبب في شراء السلاح للأهالي، وقال إنه تكلم مع حضرة الفريق باشا بأنه إذا أوتي سلاح إلى هذه البلدة فهو ينزله". ومن بين التهم الموجهة لمؤسس هذه الجمعية السرية أنه أنشأ شبكة واسعة من الأنصار ووزع بينهم المهام، بهدف تعبئة الجمهور وحثه على إقتناء السلاح، والتيقظ مما يتهدد البلاد من أخطار أجنبية. ومن بين أنشطة الجمعية أن سراج كان يعد خطبة الجمعة مكتوبة، وتولى أحمد النائب وحمزة المدني إعطاءها للشيخ بشير إمام جامع "الناقاة" ليخطب بها الجمعة، ومما جاء فيها: "عباد الله ... أما تخافون عقاب الملك الديان. تمر بكم الأيام والليالي وأنتم غافلون وتوقظكم حوادث الغرب والشرق وأنتم نائمون. أما علمتم بمن جزر الجزائر وهو إلى حيتكم سائر؟ أما علمتم بمن سود وجه الخضرا وتفرغ إلى افتراس الأخرى؟ أما علمتم بمن شرب النيل وكيف تقلص في واديه ظلكم الظليل؟ فاتقوا الله عباد الله!"

وعندما قبضت السلطات على أعضاء الجمعية وفي مقتمهم إبراهيم سراج الدين وأحمد النائب وحمزة المدني أجرت معهم تحقيقا دام أربعة شهور. وفي المرافعات التي تضمنتها تقرير المستنطق المكوّن من ٣٤ صفحة، دافع المتهمون عن أنفسهم وقضيتهم دفاعا تنضح منه النزعة السياسية الثورية التي اتسم بها نشاطهم السري؛ فسراج الدين ردّ على قول المستنطق بعدم جواز تشكيل جمعية واعتماد قانون لها "لأن القوانين من واجبات الدولة وليس الأفراد"، ردّ على ذلك: "بأن القانون ليس مختصا بالدولة، بل يوجد كتاب طبّ يسمّى القانون" (ويقصد به هنا كتاب الفيلسوف الطبيب الشهير ابن رشد)، أمّا إنشاءه "للقراء تخانة" فقد أخبر عنها الوالي، لعلمه "أن الوالي يرغب في مثل هذه المشروعات المدعومة بين مسلمي هذا الوطن". وعندما سئل عن سرّ وجود قصاصتين من جريدتين تصدران في مصر وبهما منشور باسم الجمعية الوطنية المصرية (ربما يعني الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل) وصفه المحقق بأنه "يحتوي" على كلام يتضمّن تهديد الأهالي وتحريضهم على القيام على الحكومة وخلق الطاعة، وإن احتفاظ سراج بالمنشور يشي بصلته بالعرابيين في مصر. وكان جوابه طويلا شرح فيه موقع طرابلس الغرب،

وانعدام الكثير من المرافق الإجتماعية والتعليمية فيها وإهمال طرق التجارة السودانية وعدم المحافظة على نقط المياه بوطن التوارق، وانتقد الحكومة العثمانية لموقفها من هجرة التونسيين متسانلا" هل أرادوا أن يقول المؤرخون إن التونسيين إستغاثوا بالدولة العلية في سنة كذا، وأنها أرجعتهم بعد أن ساءت حالهم؟" كما أخذ على السلطات إهمال تدريب الأهالي على السلاح قائلا: "ومن العجب أن حكام طرابلس لم يسعوا إلى إنشاء جيش وطني بطرابلس بعدما حصل لجيرانهم ما حصل. فهذا الأمر عند أرباب السياسة لا بد أن يكون لأحد أمرين؛ إما لعدم حسن سياسة الحكام الطرابلسيين مع الأهلين حتى كرهوا أن يستعدوا للدفاع عن وطنهم، وإما لسماع البعض بعض دسايس الأجانب الذين يكرهون ذلك. ولا يخفى أن أعظم دليل على حبّ الوطنيين لأوطانهم وحكامهم رغبتهم في الدخول في العسكرية".

وقد سبق للمتهم أن أقام في الجزائر وتزوج فيها ومارس النشاط الثقافي والسياسي، مما أسفر على طرده منها، فجاء إلى بنغازي قادما من مصر بطريق البر، وأقام فيها لفترة شهرين قابل خلالها رئيس بلديتها الحاج أحمد المهدي، وكذلك قابل قنصل إيطاليا وقنصل بريطانيا هناك، وذلك قبل أن يأتي إلى طرابلس. وبما أن القنصل الإيطالي أعطاه خطاب توصية إلى زميله قنصل إيطاليا في طرابلس يثني فيه عليه، فقد حامت الشبهات حول هذه العلاقة وبالتحديد مع الممثل الإيطالي في بنغازي، ولذلك إستجوبته المحكمة حول هذه العلاقة لاسيما أنه بعث، وهو قيد الإعتقال، برسالتين إلى القنصل الإيطالي في طرابلس يستجد به. وفي الرسالة الأولى يقول للقنصلية<sup>٥</sup> "إني قد صرت اليوم أسيرا في السجن بغير ذنب ولا سبب. فإن أردتم أن أكون لكم عبدا طول عمري فقولوا إن فلانا كاتباً بالقونسولات، ولا تتركوا أخاكم تأكل لحمه الحيوانات، ففعلت محاكمتي تكون بوجه العدل بمحاماتكم عني". ولأنه أمل أن يحصل على جواز سفر إيطالي ينجيه من السجن، فقد أرفق بالرسالة وصفا لهيئته يقول فيه "سليم العينين غير مقرون الحاجبين عربي اللون مربوع القامة أسود الشعر وعمره ٢٨ سنة". أما في الرسالة الثانية فيشير إلى قضية طرد الأجانب التونسيين (والجزائريين) مستنكرا، ومبديا إستعداده لجلب "أفاضل نبيهاء الجزائر وتونس من أهل الغيرة والعلم والعمل حتى من ضباط العساكر... وكذلك أتمكن في أقرب وقت عقد شركات تجارية مربوطة بأصحاب البنوك في إيطاليا وألمانيا. وأرباب البنوك يدفعون للعرب بضائع أوروبية يذهبون بها إلى السودان ويستلمون منها بضائع سودانية... وبهذه الطريقة يكون السودان ميدانا واسعا تجول فيه التجارة الطليانية والألمانية فقط. ولا يخفى أن الصحراء توجد فيها نقط قليلة من المياه، والفرنساويون

٥ سنثبت الإقتباسات كما وردت في الأصل، رغم الأخطاء التي كانت تعكس مستوى اللغة في ذلك العصر.

يحاولون إمتلاك بعض تلك النقاط. وإذا امتلكوا بعضها تنقطع طرابلس عن السودان وهذا هو قصد الفرنسيين". وقبل ذلك طلب "لو أن دولتكم ودولة ألمانيا يساعداني على الإقامة في طرابلس بأي صفة كانت ولو بصفة سواح". ثم يستطرد قائلا "ولا يخفى أن إسم السلطان وعقيدة الشيخ السنوسي كافيان للإمن على البضائع في السودان. وأعلمكم أن أكابر أتباع السنوسي يحبونني كأنفسهم، وأفضلهم خال من أخوالي، وأخبركم أنني أعرف كل حركات الفرنسيين ونواياهم في أفريقيا، فلو مشى الفرنسيون في هواء أفريقيا عرفت أثره فيه. ولي في الجزائر مولود حبيبي عنه الفرنسيون الذين لا أجد على من أشكوهم إلا على مثلكم". وفي التحقيق معه حول هاتين الرسالتين تقلبت وتناقضت أقواله بين الإنكار والإعتراف، وسنرى أنه بعد أن قضى ثمان سنوات في السجن، عاد واعترف بأنه كاتبهما، وسنعود لشرح ذلك.<sup>٦</sup>

وقد أسفرت نتائج المحاكمة والتحقيقات عن: توجيه التهمة إلى سراج والنايب والمدني حيث "تبينت خيانتهم للدولة العلية بالقاء الفساد والإختلال الموجبان لسلب راحة العموم وتسهيل أسباب دخول الأجانب في هذه الألوية التي هي من الممالك الشاهانية المحروسة"، ولذلك إعتبرت المحكمة القضية "نوعا من الجناية"، فحكمت بالسجن على سراج الذين: "لتشكيله جمعية إفسادية ولتنظيمه لثلاثة قوانين، ولتحرير مکتوبين، وتهجّمه على الدولة في الخطبة، وتهيج الناس، وذكره إلتحاق تونس ومصر والهند بدول الأجانب"، وبنفي كل من أحمد النايب وحمزة المدني إلى اسطامبول لتعاونهما وتواطئهما مع سراج. كما قضت المحكمة بالإفراج عن مجموعة الشباب "لحدائثة سنهم وعدم قوّة تمييزيّة لهم يعرفون بها ما يضرّ وما ينفع... فلا لزوم لإدخالهم مع المظنون عليهم بوجه من الوجوه"، وكذلك الإفراج عن الشيخ بشير إمام جامع الناقة "لكونه من معلمي الأطفال الذين لا يميّزون الكلام المهيج من غيره".<sup>٧</sup> - على أنه بعد مرور ثمان سنوات على إبراهيم سراج وهو في السجن، وكان ذلك في مارس ١٨٩٩، جرى توريطه في تهمة أخرى جمعت مع سجينين آخرين كانا معه في سجن السراي الحمراء. وعندما جرت محاكمتهم ما بين ١٨٩١ - ١٨٩٢ لقت التهمة لسراج لكونه إدعى أنه المهدي المنتظر، وكتب في ذلك بعض الشيوخ والقضاة في الولاية، واعترف برسائله إليهم حين عُرضت عليه. ويستدلّ من التحقيقات أنه أشاع عن نفسه هذه التهمة للفت أنظار العامة الذين كانوا "يتبركون" بمثل هذه المعتقدات وينتصرون لصاحبها، في محاولة منه - كما يبدو- عليها تنقذه من السجن. ولكن صدر حكم جائر وصارم ضده هذه المرة وهو الإعدام. ولم يمهل عذاب السجن طويلا حتى توفي فيه في إبريل ١٨٩٢. أما السجينان الآخران اللذين جمعتهما معه هذه التهمة فكانا: الحاج محمد بوربيّة، وهو صاحب مكتبة بطرابلس، سبق إتهامه بمناوئة الوالي أحمد راسم، وجرى

٦ "البيا قبيل الإحتلال الإيطالي" ص ٣٥١ - ٣٧٦.

٧ نفس المرجع ص ٣٧٧

إستدعاؤه إلى أسطامبول. وبعد أن عاد زجّ به الوالي في السجن لأنه "مظنون عليه بإخلال الأسايس - أي الأمن- وإلقاء فساد بالولاية وتحريكات". والثاني يوسف عبد الجليل الصيد، وكان محاميا شابًا. والتهمة الموجهة إليه وأدخل بسببها إلى السجن كانت أنه "تجاسر بتحقيق ذات الحضرة السلطانية، فحسب قول علي ببق أحد الشهود الذي إنقاه، إنه سمع منه تنديدا بالظلم في البلاد ودعوة بأن ينصر الله "الفرنسيس" كشعور بالغيظ والإمتعاض، فلمّا ردّ عليه الشاهد "لا تقل الله ينصر الفرنسيس، الله ينصر السلطان" أجابه الصيد " ينصره على خيمتك"! وزاد على ذلك بأن خليفة المسلمين "أمّه روميّة"، وبذلك عدّ ذلك تجاسرا وتجاوزا وتحقيرا لذات الحضرة السلطانية.

ويذكر هنا أن هذه الحركة السرية المنظمة وذات الطابع الثوري في مجتمع المدينة، قد خلقت حراكا سياسيًا بين قادة الرأي العام في البلاد من وجهاء وأعيان ومثقفين، لا سيّما أن فرنسا ضمّت تونس كمحميّة لها فترة حكم محمد نظيف باشا (١٨٨١ - ١٨٨٢) "وقد سبّب هذا الأمر تظاهرات كثيرة في أنحاء ليبيا ضدّ الروم المكروهين"<sup>٨</sup>. وعزز هذا الكره القوى المدنية والدينية. وكانت النتيجة أن أضحى المسلمون مع القبائل التي كانت تتململ تحت الحكم التركي متعلقين فجأة بالسلطان التركي، وهو خليفة الإسلام، ومخلصين له". ثم يفيدنا هذا المؤرخ بأن تركيا أرسلت الفريق وصفي باشا لاتخاذ ترتيبات أمنية جديدة صارمة خوفا من إمتداد الغزو الفرنسي أو غيره إلى طرابلس، فأغلق المدرسة الصناعية التي إفتتحها سلفه عزّت باشا سنة ١٨٧٨ وحولها إلى ثكنة عسكرية، وصارت أبواب المدينة تقفل ليلا ويتمّ التأكد من الداخلين إليها والخارجين منها، ووضعت إستحكامات جديدة وأحضرت أسلحة وذخائر من تركيا.<sup>٩</sup> أي أن خطر غزو أجنبي كان مخيما على البلاد، ولا يُستبعد أن هذا التنظيم السري قد جاء ردّ فعل لهذه المخاوف، كما ورد في التحقيقات.

جاء بعد ذلك حكم الوالي أحمد راسم الذي جرت خلاله هذه الأحداث، والذي كان من أطول عهود الحكام العثمانيين، إذ دام ١٦ سنة (من ١٨٨٢ إلى ١٨٩٨)<sup>١٠</sup>. ولذا فقد تسنى له أن يهتمّ بأحوال البلاد، فأدخل إصلاحات وعمرانا في كافة المجالات أهمّها كان إنشاء مدرسة للبنين والبنات وإيصال مياه الشرب بالأنابيب إلى المدينة من بئر "بومليانة"،

٨ حسب تعبير كاكيا في كتابه "ليبيا خلال العهد العثماني الثاني" ص ٤٠- دار الفرجاني، طرابلس ١٩٧٥  
٩ نفس المصدر" ص ٤٠.

١٠ ممّا يُستغرب له أن إسم هذا الوالي، رغم طول حكمه وشهرته في تحقيق الإصلاحات، قد سقط من قائمة الولاية التي أثبتتها روسي في كتابه "ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١" ص ٤١٧، بل ذكر محله الوزير أحمد نظيف الذي لم يبق في المنصب إلا سنة ونصفا ١٨٨٠ - ١٨٨١، ولكن نسب إليه سنوات حكم راسم الست عشرة، بيد أن كلا من من ناجي ونوري في كتابهما "طرابلس الغرب" ص ٢٠٢ ترجمة أكمل الدين محمد إحسان - دار الفرجاني بطرابلس ليبيا ١٩٧٣، وكذلك كاكيا، مرجع سابق ص ٤١، قد أثبتوا إسم هذا الوالي ومدّة حكمه. وكذلك إعتد عليهما أحمد صدقي الدجاني في كتابه موضوع البحث.

ورصف شوارعها، وإنشاء الأسواق ومستشفى بمائة سرير، وإدخال زراعات جديدة بما فيها تنمية دودة القز... إلخ. ولم تقتصر هذه الإنشاءات على مدينة طرابلس، بل شملت بقية مدن ومراكز الولاية الأخرى.

إلا أن تلك المرحلة، إضافة إلى تناوب ولاية البلاد على حكمها لفترات قصيرة، تراكمت فيها تداعيات العصيان والتمرد والثورات، لا سيما في الدواخل والأرياف، والتي وسمت العهد العثماني الأول (١٥٥١ - ١٧١١) ثم العهد القرمانلي وتأسيس دولته الوطنية شبه المستقلة (١٧١١ - ١٨٣٥) وأخيرا العهد العثماني الثاني (١٨٣٥ - ١٩١١). وقد مرت بنا مشاهد من هذه الإنتفاضات وقادتها، وما آلت إليه من تداعيات ونتائج. وكما هو معروف فأسباب هذه الإنتفاضات وبواعثها كانت الصراعات القبلية التقليدية، أو تتعلق برفض جباية الضرائب، وهي الدّخل المحلي الوحيد للإدارة العثمانية، إذا استثنينا تجارة القرصنة ثم تجارة القوافل والرق. وثمة قيادات ورموز اشتهرت أثناء هذه الإضطرابات في جميع عهود الحكم المذكورة.

وإذا ما ركزنا على العهد العثماني الثاني الذي بدأ في ٢٦ مايو سنة ١٨٣٥، بالإطاحة بالعهد القرمانلي الوطني شبه المستقل، وألقينا نظرة خاطفة على الوضع الميداني لمناطق النفوذ في البلاد والحكم القرمانلي يلفظ أنفاسه الأخيرة، لوجدنا أن رؤساء القبائل وأفخاذها كانوا يتناوبون السيطرة على هذه المناطق، ففي مصراتة كانت عائلة الأدغم التي خاضت معارك مع الجيش العثماني، وفي ترهونة كانت عائلة المريّض، وفيما بين ورقلة والقبلة وفزان كانت عائلة سيف النصر. ولقد سبق لنا أن أشرنا إلى مصير زعيم أولاد سليمان الشيخ عبد الجليل سف النصر، إذ وقع سنة ١٨٤٢ في كمين، إذ قامت قوة بقيادة حسن بك البلعزي بتطويقه بين سرت وأبي نجيم. وإثناء إنسحابه قاوم مع بقية رجاله في معركة سقط فيها مع ولديه وأخيه سيف النصر في موقع ما يزال يسمّى (قارة عبد الجليل)<sup>١١</sup>، وكذلك سقط فيها مصطفى الأدغم وأحمد المريّض. وبذلك ألحقت فزان كقضاء بطرابلس سنة ١٨٤٢، وعُيّن البلعزي واليا عليها لفترة طويلة ومنح لقب باشا. أما قبيلة أولاد سليمان التي تشرّدت فقد لقيت مأوى لها في السودان الأوسط، ولعبت أدوارا هامة في الصراع هناك، أثناء المقاومة ضد الغزو الفرنسي التي قادتها السنوسية، وهو ما فصلناه في الفصول السابقة.

١١ يرجع إلى روسي ص 365. لتأكيد ذلك وتشايجي ص ٤٠ - ٤١ وهناك روايات متضاربة عن مقتل عبد الجليل ذكرها روسي ورينشاردسون وناختيجال فيما دونوه في كتبهم، وروى روسي (ص ٢٦٥) ما أشيع من أن القنصل البريطاني وارانجتون، وشى بمكان تواجد عبد الجليل لموعده ضربه له عارضا عليه معاونته في أن تكون له السيادة على فزان شريطة الكف عن تجارة الرقيق، وما أن خرج من الإجتماع حتى داهمه الجند. ونفس القنصل نصح محمدا بن عبد الجليل بأن يجلو مع قبيلة أولاد سليمان وحلفائها إلى بورنو وكانم حتى ينجو من قبضة الأتراك

## ثورات غومة

وإذا ما ذهبنا نستقصي أبرز قادة الثورة في العهد العثماني الثاني، فنسجد إسم غومة عون المحمودي شيخ قبيلة المحاميد، الثائر الدائم في ذلك العهد، والذي تزعم انتفاضات متوالية، واتخذ من الجبل الغربي (نفوسة) والجفارة في إقليم طرابلس الغرب مقعلا له، حيث سيطر عليها وأصبح فيها السي المطاع.

وبمجيء العهد الجديد وجّه قائد الأسطول المحتلّ الفريق مصطفى نجيب باشا نداءه للرؤساء والسكان بالولاء والطاعة، فاستجاب له غومة وجاء إلى طرابلس مع أنصاره واستقبل بالكرم والترحيب، ولكن ما لبث أن ألقى عليه القبض، فأحجم الزعماء الآخرون عن المجيء إلى العاصمة مخافة أن يلقوا نفس المصير. وهذا ما حمل الوالي الذي تلاه محمد رائف باشا<sup>١٢</sup> على إطلاق سراح غومة، الذي ما أن عاد إلى معقله حتى واصل انتفاضته وطرده الجند الأتراك المعسكرين في غريان سنة ١٨٣٧، واستولى على الزاوية وزوارة، ووصل زحفه إلى غربي مدينة طرابلس وجنوبها، حيث تصدّت له قوآت الجيش وأوقفت زحفه دون الإنتصار عليه. وفي عهد الوالي محمد أمين الذي بدأ في يوليو ١٨٤٢، سعى إلى استمالة غومة الذي دخل طرابلس في سبتمبر من نفس العام، ومنحت له رتبة كبير الباشوات (Kapici Basi) ومرتب قدره ثلاثة آلاف قرش، فجلب عائلته للإقامة معه. ولكن بعد ثلاثة أشهر أستدرج إلى وليمة أقامها الوالي، وقبض عليه خفية وأبعده إلى اسطامبول. وعندما علم سكان الجبل بذلك إحتجوا وشرعوا في إشعال الثورة، غير أن قوآت الجيش بقيادة أحمد باشا (سمي الجزائر لبطشه الدموي) قمعت العصيان، واستطاعت فرض السيطرة على يفرن وفساطو ونالوت وغدامس سنة ١٨٤٣. وهنا نسج مكيدة لرؤساء القبائل حيث داهمهم الجنود وقتلوهم وأرسل إلى طرابلس رأس ٦٥ منهم. وفي ١٨٤٥ وما بعدها قامت إنتفاضة أخرى بقيادة ابن أخ غومة أو ابن عمه ميلود، وقد فرّ من منفاه في البحر الأسود، ومنه إلى مالطا فجزيرة جربه، ولكن أحمد باشا أخمدها هي الأخرى، ولم تسلمه فرنسا كما طالبت السلطات التركية. وفي سنة ١٧٤٧. وعندما كان أحمد الجزائر يتجوّل بالقرب من ككلة فاجأه الثوار وقضوا عليه، ممّا جعل الجيش يخرج بحملة من طرابلس بقيادة بشير بك ويدمر ككلة تدميرا كاملا، ثم أعدم ٢٤ من الثوار وأرسل رؤوسهم إلى طرابلس. وفي سنة ١٨٥٢ عاد غومة من منفاه إلى مطماطة في تونس، وكاتب والي طرابلس الغرب مصطفى نوري باشا كي يمنحه مناصبا وراثيا كالسابق،

١٢ حلّ محلّ مصطفى نجيب الذي شغل المنصب لمدة ثلاثة شهور فقط، تمكن خلالها من إنهاء النفوذ القرماني، إذ أن النزاع على الحكم داخل الأسرة القرمانية بلغ أوجه، واسفر عن الإطاحة بالأخيرين (علي) الذي أزالته القوآت المحتلة عن العرش ونفته مع عائلته إلى إسطامبول، وكان مؤيدا من فرنسا، ومحمد الذي أصيب بالإحباط فانتحر، وكان مؤيدا من بريطانيا. أمّا رائف باشا فعين شقيقه مصطفى بك متصرفا على بنغازي، الذي استولى بدوره على درنة وأوجلة في أكتوبر ١٨٣٥.

وحين رفض طلبه إستأنف الثورة وهاجم الحاميات التركيّة وألحق بها الهزائم خاصة في بلدة "الرّوميّة" حيث أخذ العديد من الأسرى، واستولى على المدافع وكميّة كبيرة من الذخيرة، ثمّ انطلق في زحفه حتى وصل قرقارش من ضواحي طرابلس، مسنودا من عرب السّاحل الذين انضمّوا إليه. وعندما تصدّت له القوآت التركيّة في جنزور، تمكنت من إرجاعه دون أن تحرز إنتصارا حاسما. ثمّ جاء إلى الحكم الوالي عثمان نظامي باشا فطلب من غومة أن يعلن الطاعة دون أن يمنحه أي منصب. وفي ديسمبر ١٨٥٦ هاجم الوالي الثوّار بجيشه، وكان يرافقه القنصل الإنجليزي "هيرمين" فألحق الهزيمة بهم إلى أن تقهقر غومة إلى فساطو. ويبدو أن السكان سئموا وتضايقوا من إنتفاضاته وما سببتها لهم من دمار، فلم يسارعوا إلى دعمه كما في الماضي<sup>١٣</sup>، وحين أوى إلى ورغمة في تونس طارده باي تونس أيضا، فاضطرّ إلى التوجّه إلى الجزائر. وهناك وعده الجنرال الفرنسي "ديرفو" Dervaux بالمعاملة الحسنة إذا قام بتسليم أسلحته وانسحب إلى داخل الحدود، ولم تغلح رسالة توصية أرسلها إلى الجنرال قنصل فرنسا في طرابلس "بوتا". وعاد غومة أدراجه وتحصّن في نالوت في عام ١٨٥٧، وعندما راجت إشاعات بأنه سيتوجّه من هناك إلى غدامس وقرّان ومعه بقايا أتباع سيف النصر والطوارق، أرسل الوالي جيشا بقيادة "كتخدا مصطفى باشا" مسنودا بقوة محليّة على رأسها "أحمد الأدغم" آغا مصراة، وتمكّن من نصب فخّ لغومة وهو يتحرك صوب غدامس وأن يجهز عليه في هجوم مباغت إستعان فيه بثلاثمائة من الجنود الألبان- كانت فرقهم تسمّى باش بوزق- جلبوا خصيصا من أجل القضاء على التمرد. وقاوم غومة بمن معه إلى النهاية حتى سقط قتيلًا يوم ٣ مارس ١٨٥٨، وأرسل رأسه إلى طرابلس.<sup>١٤</sup>

وبذلك دامت ثورات غومة وقبائل الجبل الغربي التي هدّدت عاصمة الولاية أكثر من مرّة، ٢٣ عاما (من ١٨٣٥ - ١٨٥٨) من عمر هذا العهد الذي استغرق ٧٦ عاما. أي أن غومة- هذه الشخصية الأسطوريّة- جسّد ظاهرة التمرد الدائم لسكان الدواخل الذين كانوا ينتون من ثقل الضرائب الباهضة على مواردهم الشحيحة، مع تعرّض البلاد للجفاف والقحط وببإي الطعون والكوليرا<sup>١٥</sup> اللذين أهلكا عشرات الآلاف من الأنفس. كما يسّرت

١٣ ثمة مثل يتداوله سكان طرابلس حتى يومنا هذا يقول "الضرب للمحاميد، والثناء لغومة" وهو مثل يطلق على الذين يضحون من أجل شخص ولا ينال الشهرة والغنيمة إلا هو!

١٤ تعرّض جميع المؤرخين لهذه الفترة من العهد العثماني الثاني لثورة هذا المقاتل العنيد، وقد اعتمدنا في الملخص عنه على: "ليبيا منذ الفتح العربي إلى ١٩١١ الإتوري روستي ص ٣٦٦ - ٣٦٩ و"الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى لعبد الرحمن تشايحي" ص ٢٨ - ٤٣ و"طرابلس الغرب لمحمّد ناجي ومحمّد نوري" ص ١٩٠ - ١٩٧. والملاحظ تباين واختلاف بعض الأحداث وزمن وقوعها بين المراجع المذكورة والتي حاولنا التوفيق بينها. علما بأنها إعتمدت في أغلبها على تقارير القناصل الإيطاليين والأرشفيف التركي والفرنسي.

١٥ إنتشر الطاعون سنة ١٨٣٧. وينقل روستي (ص ٣٦٢) عن تقرير لقتصل سردينيا أن ضحاياه بلغوا ٨٠٧٠٠ ضحية. كما انتشرت الكوليرا في طرابلس وضواحيها

هذه الظروف للفنصليين البريطاني والفرنسي لكي يمارسا التدخّلات والضغط على الولاية. وكانت السفن البحريّة الفرنسيّة على وجه التحديد تكثر في تلك الحقبة من زيارة طرابلس، من حين إلى آخر، واستعراض قوتها في ضغط وابتزاز واضحين للولاية المتعاقبين. ففرنسا كانت مؤيّدّة لثورة غومة بحكم مطامعها في تونس المجاورة، بل سعى قنصلها عام ١٨٥٥ إلى أن يقنع الباب العالي لكي يقيم ولاية على رأسها وال من أفراد القرمانلي مقابل ضريبة يدفعها له الوالي بانتظام، وعلى أن توضع تونس تحت الحماية الفرنسيّة.<sup>١٦</sup>

ولئن أغفلنا التعرّض في هذا البحث لتلك الثورات بالتفصيل فإنّ القاريء، إضافة إلى المراجع التي أشرنا إليها<sup>١٧</sup>، فسيجد نبذا عنها بين ثنايا نصوص تقارير رخّالة وخبراء أجانب زاروا البلاد، وتحوّلوا في أنحائها، ثمّ عكسوا إنطباعاتهم عمّا رآوه رأي العين. ونعتقد أن ذلك يكفي في الإحاطة، ولأننا نريد أن نركز على بزوغ الحركة الوطنيّة الليبية الحديثة في قلبها العصري المنظم، ولهذا سردنا بالتفصيل المكثف نشأة الحركة السنوسيّة بدأ من برقة الجزء الشرقي من ليبيا، وإنطلاقها في الجنوب والقبلة واصطدامها مع الغزو الفرنسي للوسط الأفريقي المتأخّم لليبيا. ولأن السنوسيّة كانت حركة عقائديّة وتنظيمًا شاملًا إحتملّ مكانته بين حركات اليقظة والإصلاح الإسلاميين طوال القرن العشرين المنصرم، إلى أن كوّنّت دولة الإستقلال الحديثة.

وفي عهد أحمد راسم أيضا، والذي تطرّقنا إليه هنا، توترت خلاله العلاقات بينه وبين بعض الأعيان. وقد ظهر ذلك في برقيّات قاموا بإرسالها إلى الجهات العليا في إسطامبول تشكو منه وتتدّد بتصرفاته. ومن بينها برقيّة يقول تصّها "أهل الولاية أحرّقهم (الوالي) بظلمه عشرة سنين. مأمور العدليّة والملكيّة يقلبهم الوالي كيفما شاء، وأعضاء الإدارة للبلديّة والعدليّة ينتخبهم بنفسه ويعزلهم، واستبداده يورث عواقب وخيمة". وفي برقيّة أخرى بتاريخ أوائل عام ١٨٩٠ جاء فيها "بناء على ما شاع عن والي الولاية أحمد راسم باشا بإخباريّة عن ميل الأهالي الولاية إلى الأجانب، قدّمنا عدّة أخباريّات إلى أعتابكم، وأرسلنا ذوات لتبليغ الأحوال الشفاهيّة فسافرو خفية". ومن بين هؤلاء الرّسل كان محمّد بوربيّة المشار إليه في قضية سراج الدين، ولكنه لم يستطع أن يستقلّ الباخرة إلى إسطانبول بتاريخ ديسمبر ١٨٩٠، لأن الشرطة منعتّه من ذلك وهو على رصيف الميناء. ويبدو أن التدابير الإداريّة المشدّدة التي اتخذها الوالي بفرض الرقابة ونشر المخبرين بسبب التوجّسات الأمنيّة الناشئة عن وجود الحماية الفرنسيّة في تونس المجاورة، قد

١٦ روسي ص ٣٧٠

١٧ نحسب أن كتاب "ليبيا قبل تلاحلال الإيطالي" للدجاني قد وصف وعرض في دراسة موثقة ومعقّمة، تلك المرحلة من حياة البلاد. وكتاب "ليبيا منذ الفتح العربي حتى ١٩١١" لروسي قد غطى كافة أحداث ووقائع التاريخ بتركيز مفيد طيلة تلك الحقب

ضايقت هؤلاء الأعيان. وإن كانت هذه الترتيبات تتفق مع السياسة المطبقة في أواخر عهد السلطان عبد الحميد، ولذا لقيت دعماً من إسطنبول التي مدّدت ولايته لفترة خمس سنوات أخرى، خاصة أنه استطاع أن يتصدى بحزم لقضية تمرّد أو إنتفاضة أخرى في الفترة ما بين ١٨٨٤ - ١٨٨٨ في إقصى الجنوب في فزان. وقد قادها المدعو (الشريف) حميد الكيلاني وأخوه محمد. ومن واقع الوثائق التي أثبتت حدوث هذه الإنتفاضة.<sup>١٨</sup> أن الأخوين قاما ضمن جماعة مسلحة بشن هجوم على مقرّ الحكومة ببراك في وادي الشاطئ، ثمّ جرت مطاردهما لأنهما لقياً عظفاً من أهالي المنطقة، الذين كانوا يننون من الضرائب الفادحة. وزادت خطورة الإنتفاضة حين وصلت المطاردة إلى قرية البركات، فأشعلت ثورة لدى طوارق (الهورقار) هناك ضد السلطة العثمانية، وأعلن رؤسائهم (أق بكر - ومغاطه ومحمد - وتكروف بن كلاله) الخروج على الدولة. وفي تقرير أرسله قائمقام غات محمد الصافي والشيخ التارقي الشهير محمد أخنوخ إلى متصرف فزان، جاء فيه: "تلقينا يوم السبت ٢٦ رجب رسالتكم المفيدة بإرسال مائة جندي من العساكر الشاهانية بقيادة البوزباشي أحمد آغا، وذلك عقب الأخبار التي وردت بأن الهوقاريين يزمعون القدوم لمهاجمة غات، وأنهم مهتمّون باستنفار العربان. لقد وصل الجنود المرسلون وسررنا لقدمهم. إن تأكيد إزماع الهوقاريين على القدوم بلغنا من قبيلة منغساتن التي تلقته عن الأخبار الشفوية والتحريرية الواردة من غدامس. لأننا حسب أمركم إحتفظنا لمدة ثلاثين يوماً بعساكر الرديف، وإلى أن نتحقق من صحّة الخبر، ومن أجل ما يحتمل ظهوره من الشؤون، فقد أوقفنا سفر البريد وسنبعثه إليكم يوم الثلاثاء إن شاء الله". وفعلاً حاصر الثوّار غات وطلبوا من الحامية التركية الجلاء عنها وإلا تعرّضوا للإبادة. ثمّ تعقدت الأمور وتشتتت ودخلت إلى ساحة الصراع أطراف أخرى، مثل الشعابنة من الجنوب الجزائري، والطوارق هناك من الأزقر، فأتاحت الفرصة لمزيد من غارات النهب والسرقة على القوافل التي كانت تزاوّل التجارة بين غات وغماس. ومما ألهب الصراع وفاة الشيخ التارقي محمد أخنوخ حوالي سنة ١٨٨٤، فنشب النزاع حول من يخلفه، فإنه أراد ذلك مخالفاً التقليد المتبع بين الطوارق وهو أن "أل الأم هم أصحاب الزعامة والإحترام في كلّ شئ، فالذين لهم حقّ الوراثة هم فرع الأم" كما قال المؤرّخ الفرنسي جوتيه<sup>١٩</sup> وكما هي النتيجة في مثل حركات العصيان هذ، فقد جرى قمعها بالقوة، إذ يستدلّ من برقية أرسلها أحمد راسم بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٨٩٢ ورد فيها "ظهور الشريف الكاذب المتمهدي بالشاطيء في فزان والقضاء عليه وعلى حركته التمردية". وقبل ذلك بسنتين

١٨ كشف عنها الدجاني في كتابه المذكور سلفاً، إعتباراً من ص ٣٨٧، وهي ضمن "مجموعة وثائق أدهم" التي أطلع عليها في دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، وفصلت في سردها طويلاً.

١٩ الدجاني مرجع سابق ص ٣٩٠..

جرى القبض على أخيه الشريف محمد عندما جاء متخفياً إلى مرزق، وتعرّف عليه أحد الضباط<sup>٢٠</sup>

ويستشف، من جميع هذه الأحداث والتحركات أن تأثيرات أجنبيّة بدأت تتسلل إلى البلاد، مع إرهاصات أخذت تلوح من الدول الأوربيّة (إيطاليا وفرنسا وبريطانيا)، وتنبئ بمطامع إستعماريّة وسباق بينها للإستحواذ على هذه البقعة المتبقية تحت السلطة العثمانيّة في الشمال الإفريقي. وفي هذا الصدد نقرأ ما ذكره المؤرّخ كاكيا، عن قيام حسونة باشا أحد أحفاد الأسرة القرمانليّة، عام ١٨٩٠ بإجراء "مفاوضات مع الإيطاليين، مستغلا الشعور المهيم بالقلق. وكان إقتراحه باختصار أن تفرض الحكومة الإيطاليّة ترتيبات كالتى بين فرنسا وتونس. وأعطى الوعد بالمساعدة شريطة أن يعود إليه عرش أجداده تحت الحماية الإيطاليّة. غير أن الإيطاليين كانوا في ذلك الوقت منشغلين باحتلال أريتريا والإستقرار فيها، ولم يكونوا على استعداد للخوض في مغامرات أخرى"<sup>٢١</sup> ومن هنا فإذ تعكس مثل هذه الأقوال الشائعة آنذاك ما كان يحق بالبلاد من أطماع، فلا يستغرب فرض الرقابة ومتابعة تحركات الأعيان من قبل السلطة، وما أشرنا إليه من جارهم بالشكوى لدى الباب العالي.

من هذا العرض المختصر الذي لحصنا فيه نماذج من الحراك السياسي السري، والتي تعتبر الأولى من نوعها في المجتمع المدني الليبي تحت الحكم العثماني، نستخلص ما يلي: إن الفترة التي انبثقت فيها هذا الحراك السياسي ذو التوجّهات الإصلاحية (أوائل ١٨٨٢)، كانت متزامنة مع حركة اليقظة العربيّة في المشرق العربي (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ١٨٨٢ - ١٨٨٥)، وفي الجوار الليبي إحلت فرنسا تونس (١٨٨١) واحتلت بريطانيا مصر (١٨٨٢). بينما كانت السنوسية تخوض الكفاح المسلح ضد التوغّل الفرنسي في السودان الأوسط، كما أوضحنا في السرد.

## ميلاد الحركة الليبراليّة في تركيا

أمّا في اسطامبول عاصمة الخلافة، فقد هبّت رياح التغيير والتحديث، فتولى مدحت باشا الصدارة العظمى (رئاسة الوزارة) في الفترة من ١٨٧٦ - ١٩٠٩. وقد عهد إليه السلطان

٢٠ الدجاني نفس المرجع، ويذكر أن نعت الشريف حميد في مراسلات قائمقام عات محمد الصافي وصل غلاى "الشقي الزنديق المفسد الملعون الفاجر الفاسق عدو الله ورسوله والدين والدولة الكذاب الخبيث الكافر"! كما أن القائمقام المذكور لقي حتفه في إحدى معارك العصيان.  
٢١ ليبيا خلال العهد العثماني الثاني" - مرجع سابق- ص ٤٦

عبد الحميد الثاني بإعداد دستور للبلاد في غمرة صراعات حاقت بالإمبراطورية من كل جانب، وشهدت مؤامرات الدول الأوروبية وانتفاضات شعوب البلقان. وفعلا نشر الدستور في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦ تحت إسم "قانون أساسي" يحتوي على ١٢ قسما و١١٩ مادة وهو مستوحى من الدستور البلجيكي. وبموجبه سُمي جميع رعايا الدولة بالعثمانيين مع الاعتراف بحريتهم الشخصية، واعتبار الإسلام دين الدولة على أن تعترف الدولة وتتولى حماية المذاهب والأديان الأخرى، وإطلاق حرية الصحافة في إطار القانون، وإقامة التمثيل الشعبي ضمن مجلسين أحدهما للنواب (المبعوثان) منتخب، والآخر للشيوخ (الأعيان) ويعين أعضاءه السلطان. ومدة المجلسين أربع سنوات مع منح أعضائهما، الذين يمثلون كافة العثمانيين، الحصانة ضد الإضطهاد بسبب آرائهم ومواقفهم. وأنشأ محكمة عليا يُختار أعضاؤها من الأعيان والمستشارين القانونيين، ومن صلاحيتها مقاضاة الوزراء، وأن يسير الحكم في ولايات الإمبراطورية على أساس اللامركزية.

ولكن الأمور في البلقان اضطربت، وخاصة في بلغاريا ورومانيا والبوسنة والهرسك، وتدخلت روسيا بالقوة العسكرية فزحفت قواتها حتى أدنة. ونتيجة لاستنفار بريطانيا وغيرها إنعقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٧، وفيه فقدت تركيا كثيرا من الأراضي، واستحوذت النمسا على البوسنة والهرسك. وهكذا أصبح مدحت باشا ضحية لهذه التطورات فحوكم بتهمة الخيانة العظمى لأنه أقنع السلطان بالإعتماد على الدول الغربية التي خذلت في آخر المطاف، مما اضطره إلى الهرب والإلتجاء إلى القنصلية الفرنسية في أزمير سنة ١٨٨١، ولكن القنصلية سلمته إلى السلطات مقابل وعد منه ألا يقتله، ومن ثم جرت محاكمته مرة أخرى بتهمة قتل السلطان السابق عبد المجيد (والد عبد الحميد)، فصدر عليه الحكم بالنفي إلى الطائف بالحجاز. وبذلك إستغل السلطان عبد الحميد فرصة تدهور أوضاعه في الجبهات الحربية، فجمّد الدستور الذي شعر بأن سريانه قلص من سلطاته وساعد على زعزعة عرشه. كما قرّر السلطان حلّ البرلمان بمجلسيه في ١٣ فبراير ١٨٧٨ لأنه استجاب لرغبة مدحت باشا في شنّ الحرب في غير وقتها وبدون استعداد لها؛ وبهذا تعطلت الحياة النيابية لأكثر من ثلاثين عاما، أي أنها لم تعيش إلا عاما واحدا فقط. ولم يجتمع البرلمان بعد حله، ولكن أعضائه استمروا في تقاضي مرتباتهم بصورة رسمية مدى الحياة. ولو أن تجميد الدستور لم يعن إلغائه، بل استمر نشره سنويًا في الجريدة الرسمية للدولة طيلة ٣١ عاما متوالية دون انقطاع، ولكن دون أن تطبق أحكامه.

ولمّا أصبح السلطان عبد الحميد يدير دفة الحكم بصورة شخصية دون مجلس نيابي، وفي ظلّ دستور مجمّد كان يمنع تدخله المطلق في شئون الحكومة؛ لهذا وسم بصفة المستبدّ

والديكتاتور؛ إذ اندفع في تطبيق سياسة صارمة مثل منع الحريات والمراقبة الشديدة على المطبوعات ونشر الجواسيس في كل مكان، وربط جميع مؤسسات الإمبراطورية بشخصه، غير أنه لم يستخدم العنف الدموي الذي درج عليه السلاطين والحكام العثمانيين في الحقب الماضية، وظلّ عبد الحميد الثاني بعيداً عن سفك الدماء أو أسلوب الاغتيالات وتصفية خصومه، وكان لا يلجأ إلى عقوبة السجن إلا في القليل، ثم يغيرها بالنفي. ولم يصدق خلال حكمه الطويل إلا على خمس عقوبات إعدام فقط، وهي أقل عدد من عقوبات الإعدام في تاريخ سلاطين تركيا. ولم يتدخل الجيش في الشؤون الداخلية، وإن اعتمد السلطان على تحريات الأمن التي قامت بالعديد من التجاوزات.

أدى كل ذلك إلى قيام منظمات سرية بين المثقفين العثمانيين إنتشرت في مختلف المدن التركية واتخذت اسم تركيا الفتاه رمزا لها. وأعلنت أن هدفها هو مقاومه إستبداد عبد الحميد الثاني وإجباره على إعادة العمل بدستور مدحت باشا المعطل. وقد برزت من بين أعضاء تركيا الفتاه جمعية أطلق عليها اسم "الإتحاد والترقي" التي تأسست عام ١٨٨٩ في المدرسة الطبية العسكرية، ثم وجدت لها أنصارا بين المثقفين في المعاهد الأخرى. ولكن سرعان ما اكتشف جواسيس السلطان أمرها عام ١٨٩٧، فنفى أعضاؤها البارزون إلى البلدان القسوة التابعة للإمبراطورية - ومن بينها ليبيا كما رأينا في الحديث عن الغزو الفرنسي للسودان ومقاومته- غير أن معظمهم إستقر في عواصم الدول الأوروبية وخاصة في باريس، حيث تشبّعوا بشعارات الثورة الفرنسية (حرية، إخاء، مساواة).

وفي عام ١٩٠٦ نقلوا مقرهم إلى داخل الإمبراطورية العثمانية، واتخذوا من مدينة سالونيك في اليونان التابعة لها مركز إنطلاق لنشاطهم في مناهضة حكم السلطان عبد الحميد.

وعلى الناحية المضادة تحركت قوى محافظة تتهم الاتحاديين بالخروج على مبادئ الإسلام، ومخالفة الشريعة وتحقير رجال الدين. وقد تمثلت هذه القوى بمنظمة تألّفت في اسطنبول وأطلقت على نفسها اسم (اتحادي محمدي جمعيتي) أي جمعية الإتحاد المحمدي. ورغم مظهرها الديني، إلا أنها كانت ذات أهداف سياسية لمقاومة ثورة تركيا الفتاه وجمعية الإتحاد والترقي. ومن بين زعمائها كان: حمدي جاويش وواعظ إسطنبول درويش وحدتي. وقد تركزت دعوة الجمعية على المناداة بإبطال (الدستور) لأنه يخالف في نظرها الشريعة الإسلامية. وفي ١٣ أبريل ١٩٠٩ قاد حمدي جاويش تظاهرة في ميدان أيا صوفيا في اسطنبول من عدد من الجنود وطلبة المدارس الدينية وهم يهتفون: "شريعة إيسترز" أي: "نريد الشريعة، نريد الشريعة". وقد حاصر المظاهرون البرلمان وأعلنوا مطالبهم التي كانت تتلخص في الدعوة إلى استقالة وزارة حسين حلمي وتطبيق

الشرعية ونفي أعضاء الاتحاد والترقي من الخارجين على الشرع الشريف. ثم استقالت وزارة حسين حلمي وخلفتها وزارة توفيق باشا، وهرب معظم قادة جمعية الاتحاد والترقي وقتل عدد منهم في اسطنبول. ولكن الكتل السياسية الأخرى المؤيدة للدستور سرعان ما تداركت الموقف، وأعلنت تشكيل تجمع عام باسم (جمعية الاتحاد العثماني) ضم بعض النواب، وجماعة العلماء، وأخذت تنادي بالحفاظ على الدستور. وأبلغ محمود شوكت قائد حامية مقدونيا إسطنبول في ١٦ أبريل ١٩٠٩، بأنه عائد إليها لإقرار النظام، وأنه سيدل قسارى جهوده في سبيل المحافظة على الدستور. ثم تحرك من سالونيك يرافقه كل من أنور باشا (وسيعرف في ليبيا عشية الغزو الإيطالي لها وقيادته للمقاومة في الجبل الأخضر، ثم تسليمه هذه القيادة للسيد أحمد الشريف) ونيازي، وهما من كبار قادة جمعية الإتحاد والترقي، ودخل العاصمة وأصدر بيانات عامة بتوقيع قائد الجيش الثالث، أشار فيها إلى "أن الجيش قد اتخذ الإجراءات التي تحول دون انتشار الحركات الرجعية إلى الولايات العثمانية"، وتعهد بالمحافظة على الأمن والانضباط، وتقديم الأشخاص المسؤولين عن الإضرابات إلى المحاكمة "محاسبتهم على الدماء البرينة بموجب الشرع الشريف". ثم أخذت جمعية الإتحاد والترقي، تنادي بالويل والثبور قائلة: "إن السلطان عبد الحميد يريد أن يمحو الدستور، ويفتك بحماته وإبطاله، وإنه وراء تلك النشاطات الرجعية، ليسترد ما كان يتمتع به من الحكم المطلق". وفي ٢٧ أبريل ١٩٠٦ اجتمع مجلس الأعيان والمبعوثان في جلسة مشتركة قرّرا فيها خلع السلطان. وقد ندب الثائرون أربعة مبعوثين لتبليغ السلطان بقرار العزل، وهم: يهودي وأرمني وألباني وجرجي، وإجلاس أخيه محمد رشاد (١٩٠٩ - ١٩١٨) باسم السلطان محمد الخامس على عرش الدولة العثمانية، ونفي السلطان السابق إلى سالونيك. وبذا أصبح الإتحاديون، بعد خلع عبد الحميد، السلطة الحقيقية في البلاد.

ظهرت خلافات بين أعضاء تركيا الفتاه في البرلمان حول أسلوب حكم الإمبراطوريه فقد نادى فنه منهم والذين سُميوا بحزب الحرية والائتلاف، بالحكم اللامركزي وبمنح الأقليات نوعا ما من الحكم الذاتي. أما الأكثرية من أعضاء البرلمان وهم من أتباع جمعية الإتحاد والترقي فأيدت فكرة المركزية الشديدة في حكم الإمبراطورية، ورأت أن الحل الوحيد لمشكلة القوميات في الدولة هو تطبيق سياسة التتريك، أي فرض الحضارة والثقافة واللغة التركيه على رعايا الإمبراطورية غير الأتراك، وخاصة على العرب الذين كانوا يمثلون غالبية الرعايا. وكان الدافع إلى هذه السياسة هو التعصب القومي التركي، فيما تحول بعد ذلك إلى الشوفينية الطورانية، الأمر الذي جرّ وراءه الإنتفاضات في أنحاء الإمبراطورية، ومن أتونها نبتت بذور القومية العربية في المشرق كما رأينا.

لقد كشف الكثير من المؤرخين- وأغلبهم من العرب- أن هذه التبدلات الدراماتيكية في بلاط الباب العالي ونظام حكمه، تعود إلى خطة تأمرية أوجت بها دوائر يهودية صهيونية، كانت تتربص لتنفيذ مشروعها في فلسطين منذ ذلك الوقت. ويعزو هؤلاء المؤرخون خطة هذه الدوائر للتخلص من السلطان عبد الحميد الثاني، إلى قيامه بعرقلة تكوين الدولة القومية لليهود.

فقد كان أول اتصال بين "هرتزل" رئيس الجمعية الصهيونية، والسلطان عبد الحميد، جرى بعد وساطة قام بها سفير النمسا في إسطنبول، في مايو ١٩٠١ حيث عرض هرتزل عليه توطين اليهود في فلسطين. وفي المقابل ينال منهم في الحال عدة ملايين من الليرات العثمانية الذهبية كهدية، مع استعدادهم لإقراض الخزانة العثمانية، التي كانت تنوء تحت وطأة الديون، مبلغ مليوني ليرة أخرى. وقد أدرك السلطان أن هذه العروض هي بمثابة رشوة من أجل تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، تتم تدريجياً بتشكيل أغلبية سكانية فيها، ومن ثم سيطالبون بالحكم الذاتي مستندين إلى دعم الدول الأوروبية. وقيل إن السلطان أخرجه من حضرته بصورة عنيفة.

ويضيف المؤرخون إلى ذلك أن تفوذ هذه الدوائر اليهودية الصهيونية تسالت داخل منظمة "تركيا الفتاة" منذ أن تكونت في سالونيك المعروف عنها أنها موطن للجاليات والعناصر اليهودية في اليونان، بل ورد ذكرها كمركز للمحافل الماسونية. وذلك بواسطة "الدونمة" وهي كلمة تركية تعني العودة أو الرجوع، أطلقت على فئة من اليهود سكنوا المناطق الغربية من الدولة العثمانية، وتبثوا دعوى الحاخام اليهودي في أزميز (سبتاي زيفي) الذي ادعى أنه المسيح المنتظر، فاعتقل، وأنقذ نفسه بالتظاهر بالإسلام، ثم أرسل إلى أتباعه تعميماً يعلن فيه عن إسلامه، وأنه سيستمر في مهمته بالتكثيف مع الوضع الجديد، ولكن تحت جبة وعمامة! ثم أصبحت كلمة دونمة إصطلاحاً يعني: المسلم ظاهراً، اليهودي فعلاً وباطناً.

وقد لعبت جماعة الدونمة دوراً هاماً ورئيسياً في إضعاف الدولة العثمانية، وازداد نشاطهم بعد انقلاب عام ١٩٠٩، ثم عندما أعلنت الجمهورية العلمانية التركية.

ويسوقون للتدليل على توغل هذا النفوذ في صفوف جمعية الاتحاد والترقي مذكرة أرسلها السفير البريطاني في إسطنبول إلى وزارة خارجيته بتاريخ أغسطس ١٩١٠، جاء في نصها

"إن لجنة الاتحاد والترقي تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً يهودياً - تركيا مزدوجاً، فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة ويمدّها اليهود بالعقل المدبّر، وبالتدبير وبالمال

وبالنفوذ الصحفي القوي في أوروبا. وكما يتضح من الكتابات الصهيونية منذ "الثورة"، فإن العالم اليهودي يبدو وقد تحوّل بناظره إلى بلاد الرافدين (العراق) على أنها أصلح أرض مناسبة لاستعمار اليهود، وتكوين دولة يهودية ذات حكم ذاتي.

إن اليهود الذين يبدون الآن في موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للدولة، يعملون على السيطرة الاقتصادية والصناعية على تركيا الفتاة، ويبدون مصممين على ألا يبدأ أي مشروع هام في العراق دون إسهامهم فيه، بل دون سيطرتهم عليه. ولكي يصل اليهود إلى مكان النفوذ في مراكز النفوذ في تركيا الفتاة، فإنهم يشجعون الإتجاهات القومية التركية. وهذان العنصران يشكلان تزاوجاً قوياً مميزاً ينبغي على كل من يهتمون بالعراق أن يأخذه في الاعتبار.

وفي هذا الشأن فإنني أرفق نسخة من ثلاث مقالات ظهرت مؤخراً في "تركيا الفتاة" *Jeune Tuerc* وهي صحيفة تنطق بلسان اللجنة، وهي مثل صحيفة "فراي بريس" التي تصدر في فيينا ويمولها ويشرف عليها اليهود.<sup>٢٢</sup>

---

٢٢ نقلا عن British Documents the origin of war 1898-1914- London hmso,vol.x part II No.1 في كتاب د. حامد سلطان "المشكلات القانونية المتفرعة عن قضية فلسطين

## الفصل الثاني عشر

رياح التغيير الدستوري تهبّ على ليبيا



## الفصل الثاني عشر

### رياح التغيير الدستوري تهبّ على ليبيا

- تبلور الإتجاهات الجديدة في التقارير الأجنبيّة

١- الوضع العام

٢ - الإرهاصات السياسيّة

- الصراع الحزبي في بنغازي عشية الغزو الإيطالي.



## الفصل الثاني عشر

### رياح التغيير الدستوري تهبّ على ليبيا

لقد كان لإعلان هذا الدستور والإصلاحات التي تقرّرت بموجبه، صدى واسع في أرجاء الإمبراطورية ومن بينها إيالة ليبيا (طرابلس الغرب) التي شهدت كغيرها إدخال التنظيمات الحديثة في إدارة الحكم، ولهذا رأينا إجراءات السلطة العثمانية المحلية المضادة لهذا التحرك السياسي العصري الليبي ذي الطابع الوطني، والذي حدث أثناء هذا التقلب في عاصمة الخلافة. ومن ناحية أخرى ساهمت النخبة المثقفة من أهل ليبيا في تطوّر هذه الأحداث العاصفة في الإمبراطورية، عن طريق الصحف المحلية التي كثر إصدارها في طرابلس عاصمة الولاية أثناء الإرهابات التي سبقت إستيلاء رجال تركيا الفتاة على مقاليد الأمور أو حين استنّبت لهم الأمور بعد ذلك. ويكفي أن نعرف باختصار أن أوّل صحيفة عربية صدرت بطرابلس سنة ١٨٦٦ وكانت باسم "طرابلس غرب" في عهد الوالي محمود نديم، ثم صدرت "الترقّي" كجريدة شعبية سنة ١٨٩٧ في عهد الوالي نامق باشا ورأس تحريرها الشيخ محمد البوصيري، وقد ساهم في تحريرها ثلّة من الشباب المثقف كعثمان القيزاني وعلي عياد ومحمد ناجي وخالد القرقي، الذين سيمارسون أدوارا سياسية ونضالية وطنية عديدة من أجل تحرير وسيادة البلاد في قادم السنين. ومن عنوانها يظهر تبيّنها للتّيّار الجديد في تركيا، ثم صدرت "الفنون" سنة ١٨٩٨ كأوّل مجلة لصاحبها ومحرّرها داود أفندي وتخصّصت في نشر معلومات وبيانات عن علوم العصر في سائر نواحي الإنتاج الصناعي والزراعي والفني، ممّا فتح أفقا جديدا تقدّميا أمام الطليعة المتعلّمة. وقد صدرت هذه الصحف في أواخر عهد عبد الحميد، ولذلك عانت من الإغلاق بسبب لجونه إلى القمع الذي أشرنا إليه، ولكن ما أن جاء عهد تركيا الفتاة، واعتبارا من مارس ١٩٠٨، حتى استؤنفت الحياة الفكرية والصحفية المبشّرة بالعهد الجديد. وكانت جريدة "العصر الجديد" لصاحبها محمد علي البارودي إيذانا بذلك، وتبعتها "الكشاف" الإجتماعية و"الرقيب" السياسية و"أبي قشة" الفكاهية الساخرة و"تعميم حريات" المبشرة بالدستور، وكانت آخرها "المرصاد" الأسبوعية سنة ١٩١٠ قبيل الغزو الإيطالي. بل إن بعض المثقفين الليبيين شاركوا أيضا بقسط وافر في معمعة الصراع في اسطامبول، مثل الدكتور عبد الوهّاب عبد الصمد من شباب بنغازي الذي التحق بالمكتب السلطاني والكلية الطبية سنة ١٨٠٤ ودخل السجن مع أعضاء الإتحاد والترقي في آخر عهد عبد

الحميد. وقد أصدر، بعد عودة المشروطية، أول مجلة عربية علمية وتخوض في السياسة في عاصمة الإمبراطورية، وكتب فيها أقطاب الفكر والسياسة العرب مثل علي الغياتي وعبد العزيز جاويش وسليمان الباروني وفرحات الزاوي وعلي عياد وغيرهم. وحين أغلقت، أصدر بدلا عنها "الفردوس" بالعربية والتركية، ثم "الفتاح" بالتركية. وحين أعيد العمل بالدستور فيما سمي "بالمشروطية الثانية" لقي ترحيبا من المثقفين الليبيين، فنجد أحمد الشارف، الشاعر البصير الذي عمّر حتى سنة ١٩٥٨، يستقبل بالبهجة هذا الحدث فيقول:

أعيد لنا الدستور والعود أحمد      فمن حقه يثنى عليه ويحمد  
شفا غلة فينا وكنا على شفا      ونار الأسى كانت بنا تتوقد  
ولاحت شمس الحق بعد خفانها      وضاء لنا في حندس الليل فرقد

كما يبرز من بين زعماء المرحلة وقادة الرأي فيها سليمان الباروني القطب الوطني المعروف، والذي سيكون له شأن هام في حركة الجهاد ضد الإستعمار الإيطالي. ولكنه عاصر أيضا هذه المرحلة الأخيرة المضطربة من الحكم العثماني.

وعائلة الباروني تتحدّر من قبيلة البارون التي هاجرت من عُمان إلى (جبل نفوسة) جنوبي طرابلس، وقد ولد سليمان في جادو عام ١٨٧٠، ولأنه من عائلة عريقة تنتمي إلى الأمازيغية، ووالده كان فقيها في المذهب الإباضي تربطه صلوات وثيقة مع علماء المذهب في الجزائر وتونس، فقد يسر له ذلك أن يلتحق بالدراسة في جامعة الزيتونة لمدة خمس سنوات ثم في الأزهر بالقاهرة لثلاث سنوات، ومنها إلى تيهرت بالجزائر ليتلقى الإباضية على أيدي فقهاءها. ولعلّ إطلاعه على أحوال البلدان التي تلقى فيها الدروس، وما جرى فيها من تطورات سياسية متسارعة في تلك الفترة، قد خلقت لديه طموحا سياسيا بالزعامة في بلاده، متطلعا في أن تحظى بحياة عصرية منطوية، وهذا ما جعل السلطة العثمانية ترتاب في تحركاته، فتداهم بيت والده في "جادو" في أبريل ١٨٩٦، وتفتيش منزل رفيقه موسى قزاده. ثم إن السلطات عثرت في صناديق أمتعته التي أرسلها تمهيدا لرجوعه إلى البلاد، على وثائق بين كتبه، تصور الأوضاع السيئة في الولاية. وجاء في وثيقة التحقيق معه أنه "مدعى عليه بظهور بعض الأوراق في حوزته توجب تهيب الخواطر والإخلال بالنظام والسكينة وقبوله رئاسة الجمعية الفسادية التي ألفها بقصده الباطل إخراج جزء من الممالك المحروسة السلطانية من تحت الدولة... وإن المتهم تلقى إمامة المكان المسمى تاهرت في صحراء الجزائر والذي كان قديما مقرّ النبي رستم، وأنه تسلطن، كما أن ما جاء في الكتاب الذي يقوم بتأليفه بخطّ يده يبحث عن حاضرة بني رستم الذين استولوا على

١ في كتاب الدجاني (ليبيا قبيل الإحتلال الإيطالي) إعتبارا من ص ٢٧٨

ما بين الإسكندرية والجزائر يدلّ بأنه من أرباب الأفكار الكاسدة والأفعال الفاسدة . كما كتب إلى صديق له بالجبل ينتقد "ضعف ثغور الدولة العلية التي دلت القرائن أن مبتسمة في وجوه فرنسا. ولا ندري متى تنتبه من غفلتها".<sup>١</sup> ولقد حُكّم على الباروني بالحبس لمدة شهرين ونصف، غير أن محكمة الاستئناف أخلت سبيله، لعدم توقّر أدلة عن جريمة خطيرة إرتكبها. ولكن التعسف ضدّه كان هو الغالب فرفع الإدعاء طعنا في هذا الحكم لدى محكمة التمييز التي أصدرت عليه حكما بالعقوبة خمس سنوات سجنا. وقد علق على ذلك في شكواه التي رفعها إلى السلطان عبد الحميد قائلا "حُكّم عليّ بدون مراجعة بخمس سنين (قلعة بند) ومع ذلك أودعت في سجن المحرمين مع سفلة اليهود والنصارى وقطاع الطرق، وكأني لست من ينسب إلى العلم الشريف، ولا من بيت عريق فغي المجد محترم في نظر الناس له ما يقارب الثمانمائة سنة لم يخل من حاكم على الجبل أو عالم جليل هو المرجع في المشكلات، كما هو مشهور. والتاريخ شاهد عدل على ذلك لمن تصفحه". وبعد أن قضى سنة أفرج عنه بكفالة مائيّة، ووضع لمدة سنة أخرى تحت المراقبة، إلى أن ذهب وفد من أعيان المتصرفيّة إلى إسطامبول مثلّمسين العفو عنه، فصدر العفو وسط أفراح شعبية أقيمت له في الجبل. ثمّ تفرّغ لبناء مدرسة للتعليم وتحفيظ القرآن أمّها أكثر من مائة تلميذ وافتتحها رجال الحكومة والعلماء. ولكن لم يطب به المقام بسبب الرقابة المشدّدة المفروضة عليه والتي وصفها بقوله : "أيقنت بأن غرض القوم إيقاعي في شبكة لا ينالها عفو كأوّل، إذ ليس كلّ مدة أجد من يطلب لي العفو أو يبيل شكايتي، على رأي المثل القديم ما كلّ مرّة تسلم الجرّة، فطلبت الإذن في السفر طلبا للنجاة". ويبدو أن الوالي رجب باشا تدخل للسماح له بالرحيل أمام محاولة خصومه بمنعه من السفر. فغادر سنة ١٩٠٢ متوجّها إلى القاهرة التي أنشأ فيها سنة ١٩٠٤ مطبعة "الأزهار البارونية" والتي طبع فيها كتابه "الأزهار الرياضيّة في أئمة وملوك الإباضية" عن الدولة الرستميّة المشار إليه، والذي بسببه ألصقت السلطات التهمة ضدّه. وفي ٢٣ أبريل ١٩٠٨ أصدر العدد الأوّل من جريدته "الأسد الإسلامي". وقد احتوى على أفكاره المؤيّدّة للسلطان عبد الحميد وسياسته عن الجامعة الإسلاميّة.<sup>٢</sup>

كما نشر في هذا العدد الأوّل من الجريدة شكوى طويلة رفعها إلى السلطان، ويروي فيها ما تعرّض له من إضطهاد على أيدي ولاة طرابلس بالتفصيل الدقيق، حسب القصّة التي

٢ أشار الدجاني (مرجع سابق ص ٤١٢) إلى هذه الوثيقة التي عثر عليها في دار المحفوظات بطرابلس.  
٣ قامت السيدة زعيمة الباروني ابنة سليمان باشا بنشر كتاب إستهلهت بنسخة من المقالات التي حملها العدد الأوّل من "الأسد الإسلامي" والقصائد المطولة التي كان الباروني يهوى نظمها في مدح السلطان عبد الحميد، وجمعت بين دفتي الكتاب ما تيسر لها من مراسلاته الكثيرة وصوره في تلك الفترة وفي المرحلة الأولى من المقاومة ضد الغزو الإيطالي، والتي خاضها الباروني. وعنوان الكتاب هو "صفحات من الجهاد" بتاريخ ١٠ أكتوبر ١٩٦٢ (حسب المقدمة دون ذكر اسم دار النشر، ولكن يُفهم من محتواه أنه طبع في القاهرة)

لخصناها<sup>٤</sup> ولو أنه ختم شكواه بجمل عبرت عن مرارة وعن جرأة بما اعتَمَل في مشاعره، إذ قال فيها مخاطباً السلطان: "وإن كثيرين ممّن أصيبوا بمثل مصيبتى هذه تحت رايتك أو بارادتك السنّية مظلومون مثلي ولا شك. فتنّبّه يا أمير المؤمنين لهذا الذاء العضال وتيقظ إلى أنك قد ناهزت من العمر عمره عليه السلام وصاحبيه، فما بالك إلا أن تلتفت إلى آخرتك وتراقب الله مولاك الذي خولك هذا الملك الباذخ والعزّ الشامخ في خلقه الضعفاء الذين ولاك أمرهم وأخضع لك رقابهم، فبذلوا نفيسهم في طاعتك، وثبّت الله دعائم ملكك بهم وبدعائهم لك. واحسب حساب يوم لا ينفك فيه عمالك وولاية أمورك، بل ربّما عاد شئ من أثر أعمالهم إليك عندما تسهد على الناس ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يوم لا ينفك الإنكار، ولا تقبل المحاولات ولا يفيد الجاه والإعتذار، يوم يقتضي للشاه الحماء من الشاة القرناء، وتبرز الأعمال وينصف للمظلوم من الظالم ويستوي الجليل والحقير! ثمّ ينبئه بأنه سيبقى بمصر ويستدعي عائلته للإقامة معه " حتى يضمن الأمن والراحة مأمون العرض والمال وبلاد الله سواء، وأن يكون هذا التنتقل في نظر الدين هجرة من دار الإسلام إلى غيرها، فإن لي عذرا يجوز لي ذلك، وعلى ولاة دولتك يا أمير المؤمنين العار!"

ومن واقع سرد الرواية، نفهم أن الباروني كان من أتباع السلطان عبد الحميد، عندما تحالف مع مدحت باشا واستجاب للإصلاح وأصدر الدستور، ويبدو أنه لقي ما لاقاه من عنف في تلك الفترة التي جمّد فيها السلطان العمل بالدستور، وانقلب على صاحبه مدحت باشا. وأن الإضطهاد الذي لحق بالباروني في طرابلس جاء نتيجة مكائد نسجها له خصومه في الجبل، وعلى رأسهم مفتي فساطو، ولهذا نلاحظ تذبذب مواقفه السياسيّة بين الإطّباب في تعظيم السلطان، والإنتصار للدستور المبشّر بالحرية والإصلاح. ومن واقع وثيقة التحقيق مع الباروني التي أشرنا إليها تتضح المخاوف التي كانت تنتاب السلطات من تأمر خارجي ضدّ البلاد في تلك الفترة، ولما كان الباروني قد أقام في الجزائر - وكانت تحت الإستعمار الفرنسي- وقدم منها مباشرة إلى البلاد، فقد حامت حوله الشكوك، مع التهمة التي عبّر عنها محضر التحقيق، حول طموح الباروني في (التسلطن) على كيان يتشبه بدولة بني رستم الإباضيّة التي قامت في غابر الزمن. وسنجد أن هذا الطموح قد لازم الباروني إلى بداية الغزو الإيطالي لليبيا. وبعد أن أطنب في تمجيد عبد الحميد، جاء تشييعه لجماعة الإتحاد والترقي التي انتحل رئاستها في منطقة جبل نفوسة، حيث نجد ذلك في مراسلاته المنشورة في الكتاب الوثائقي، كما كان يلقب محمّد فكنيني بالرئيس الثاني للإتحاد والترقي، ونشر تقارير في جريدته تعرّف بالجمعيّة وأهدافها وهيكلية تنظيمها.<sup>٥</sup>

٤ من ص ٥٨ - ٦٥ من الكتاب.

٥ "صفحات خالدة من الجهاد" ص ١٠٦ و ١٦٧ - ١٦٨.

وعندما نُظمت في ليبيا سنة ١٩٠٨ أول إنتخابات لمجلس المبعوثان في ظلّ عودة العمل بالدستور (سُميت بالمشروطية الثانية) فاز فيها الباروني كنانب يمثل مركز يفرن وقضاء فساطو نالوت غدامس أمام منافسيه : أحمد فاضل مدير الجفارة، الصادق بن الحاج من أعيان طرابلس، عبد الرحمن البوصيري من علماء طرابلس، أحمد المنتصر من أعيان مصراته، وكان قائمقام ترهونه، ومحمد أمين من أعيان بنغازي وكان قائمقام مصراته. وسنعمل بعدئذ، وقتل الإحتلال الإيطالي لليبيا، أن ممثليها في المجلس كانوا ثمانية نواب من طرابلس الغرب (عن المنطقة الغربية من زوارة إلى قصر خيار وتشمل المدينة وغيان وترهونه وورقلة) وهم :محمّد فرحات الزّاوي- صادق بن الحاج- مختار كعبار- محمّد ناجي- وعن منطقة الجبل من يفرن إلى نالوت وتشمل غدامس كان يمثلها سليمان الباروني وأحمد فكيني، وعن منطقة الخمس من ساحل الأحامد إلى سرت كان يمثلها أولا مصطفى بن قداره، ثمّ حلّ محله عشية الإحتلال الإيطالي شفيق بك متصرّف الخمس<sup>٦</sup>. ويضاف إليهم عن بنغازي (برقة) عمر منصور الكيخيا ويوسف بن شتوان<sup>٧</sup>.

والمعروف أن هؤلاء النواب الليبيين، بينما نشطوا في التعبير عن مصالح البلاد واحتياجاتها من على منبر البرلمان العثماني وعلى صفحات الجرائد التي أصدرها في إسطنبول منتهزين مرحلة الإصلاحات الدستورية وما شاع فيها من حقوق وحرّيات، فإن بعضهم إنضمّ إلى حركة اليقظة القومية العربية التي صاحبت التطوّرات العاصفة في غضون تحلّل الإمبراطورية. ولقد لمع اسم يوسف بن شتوان كأحد مؤسسي "جمعية الإخاء العربي". وهي أول حزب قومي عربي تأسس في إسطنبول سنة ١٩٠٨. ويقول أمين سعيد في كتابه المشهور "إن مؤسسيها هم عدد من كبار موظفي العرب في العهد الحميدي، خافوا على مناصبهم في الدور الجديد فاستعانوا ببعض الشبان العرب المتحمسين، وأسسوا هذه الجمعية للدفاع عن مناصبهم. وهذه أسماء بعضهم: عارف بك المارديني (والي دمشق في العهد الإتحادي بعد ذلك) وصادق باشا المؤيد<sup>٨</sup>. وشفيق بك المؤيد، ويوسف بك شتوان، وشكري باشا الأيوبي، وشكري بك الحسيني، وغيرهم" أي أن اسم يوسف بن شتوان النائب عن بنغازي ورد ضمن طائفة من الشخصيات المعروفة في سوريا، ممّا يوحي خطأ بأنه من أهل الشام.

٦ "جهاد الأبطال" ص ٧٠ التي ذكر فيها المؤلف أن سبب التغيير هو ميل بن قداره للأيطاليين.

٧ يلاحظ هنا أن الزاوي أسقط من الذكر هذين النائبين عن بنغازي، وهو ما ستؤكد الوثائق الرسمية المدرجة في الصفحات المقبلة.

٨ مرّ علينا ذكره في علاقة الإمبراطورية بالسوسية، ورحلاته المتعددة كرسول من السلطان إلى السيد مهدي السنوسي.

وقد نصّت المادة الأولى من تأسيس الجمعية على ما يلي: "جمعية الإخاء العربي العثماني نشأت في دار الخلافة مؤلفة من أبناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم ونحلهم، ويحق لكل فرد من أبناء العرب (والعربي كل من ينتسب إلى العرب مولدا وموطنا) إن يكون عضوا في جمعية الإخاء العربي العثماني بشرط أن يكون متصفا بحسن الخلق والشهرة غير محكوم عليه بجرم جنائي أو إفلاس إحتيالي، ولا ساقط من الحقوق المدنيّة. أما مقصد جمعية أفعال العربي العثماني، فهو معاونة جمعية الإتحاد والترقي في سليل المحافظة على أحكام القانون الأساسي (الدستور) وجمع كبة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب، وتمكين الرابطة الجامعة بينهم، وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الأمور المختلة، ثم السعي لإعلاء شأن الأمة العربية، واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم المعارف بين أبنائها، كتأسيس مدارس وطبع جرائد وغير ذلك، وتزويد ثروة الأهلين ببذل النصح والإرشادات اللازمة لتأسيس معامل وشركات زراعية وصناعية وتجارية، والإجتهاد بإقناع أهل البداوة للإقلاع عن عاداتهم المستهجنة وعاداتهم المستحرة بينهم، وإسكانهم محلات ثابتة وتعويدهم على مزاوله العوائد والحرف الحضريّة، وتنوير عقولهم بالعلم وصيانة حقوق أبناء العرب جميعا من الغدر والإعتساف، وتبليغ شكاياتهم ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسميّة، إذا لم تلق حسن القبول عند المأمورين المختصين بالنظر فيها، وصرف المقدرة بكل ما يمكن من الأمور الخيرية، والسعي في تأييد العدل والحرية والمساواة بين عناصر الأمة العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم بينهم.<sup>٩</sup> وهكذا نرى تشعب هؤلاء الرواد العرب بالأفكار الإصلاحية التي جلبتها جمعية الإتحاد والترقي. وقد قامت باستقبال النواب العرب أثناء قدومهم لأول مرة إلى عاصمة الإمبراطورية فاحتفى بهم أعضاؤها والطلاب العرب وساروا بهم إلى دار الجمعية في أول تظاهرة عربية شهدتها إسطنبول. غير أن الجمعية لم تعش طويلا بسبب عدم التجانس، وحلّ محلها سنة ١٩٠٩ المنتدى الأدبي، ثم توالى تأسيس الجمعيات العربية ذات الطابع القومي السرية والعلنية مثل "الفتاة" و "الجمعية القحطانية" و "العلم الأخضر"، حينما بدأت النزعة التركيبية العنصرية تطغى، وما صاحبها من إهيار "الرجل المريض" وتنافس القوى الأوربية على تقاسم ممتلكاته.

وخير دليل على نشاط النواب الليبيين في إيصال قلق ومشاكل شعبهم إبان إطلال المطامع الإيطالية لأحتلال بلادهم، المذكرة المطولة التي رفعوها إلى المسؤولين العثمانيين ومجلس المبعوثان، وهي تشرح بالتفصيل مظاهر الإهمال والتقصير التي وصلت إلى درجة الخيانة، نتيجة تهاون الولاة العثمانيين، لا سيما في عهد الصدر الأعظم حقي باشا. وقد

٩ "الدولة العربية المتحدة" لأمين سعيد ص ٧ - ٨، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة ١٩٣٨.

تناولت موضوعات : إنقاص الجيش - إهمال تجنيد أهل البلاد - إخلاء البلاد من السلاح - إخراج الضباط وخاصة من العرب - القحط والجوع .. إلخ. في شكوي مريرة ومرّة. وقد وقعها نيابة عن النواب الليبيين النائبان صادق بن الحاج ومحمود ناجي.<sup>١٠</sup>

## تبلور الإتجاهات الجديدة في التقارير الأجنبية

### ١- الوضع العام

ونجد من المفيد هنا أن نثبت تقريرا من جزئين وضعه المستشرق اليهودي الفرنسي "ناحوم سلوش" الذي سبق ذكره، حينما قام بزيارة البلاد للإطلاع على أحوالها لمصلحة المشروع الصهيوني. وقد قمنا بترجمة التقرير عن مجلة " *Revue du Monde Musulman*" الفرنسية مباشرة، والجزء الأول نشرته عام ١٩٠٧، تحت عنوان "واقع العلاقات بين الأتراك وسكان طرابلس الغرب" وهو يصور بمنتهى الدقة مشاهداته العينية وما جمعه من بيانات عن ليبيا بقسميها الغربي والشرقي، وتختصر كثيرا من المعلومات التي أتينا على ذكرها، مما يضيف عليها ثوب الحقيقة حين تأتي كسرود لشهادة شخصية على النحو التالي :

"تحتل الولاية مساحة تقدر بـ 1,200,000 كم مربعاً، ربعها يمثل متصرفيات بنغازي وثلاثها يكاد يكون قابلاً للزراعة. وتطغى الرمال حتى تصل الى السواحل، ويعتقد أن خلفها العديد من الواحات بعضها مجهول والبعض الآخر معروف، وما تبقى فهو صحراء قاحلة بلقع. والحقيقة أن طرابلس الغرب لا تستحق هذه السمعة السيئة، فما وراء الرمال هناك مسلاته التي تقع على بعد أربعة كيلومترات عن الساحل حيث ينتصب جبل نفوسه، وبه يواجه المرء منطقة جبلية وسلسلة من الواحات تكوّن (الهنترلاند) ذا الأهمية الكبرى وغير المعروف كثيرا. وبالنسبة للقائنين من السكان في هذه البلاد وسهوبها الصحراوية، يعيش البربر الإباضيون بجوار البربر المستعربين والعرب السنة. وبالنسبة لوضعها الإقتصادي والإجتماعي فهي بدائية متأخرة مثل منطقة الجزائر الشرقية قبل الإحتلال الفرنسي لها.

وبعد أن حلت الإدارة التركية محل الأسرة القرمانيّة عكفت على تنظيم الواحات الساحلية، ولم تسع إلى معالجة الأوضاع الفوضوية التي كانت تسود الدواخل، بل إنها حين حاولت تطبيق نظام الحماية على سكان الجبل، أثارت العصيان العام بين جماهير البربر

١٠ نصّ المذكورة منشور في "جهاد الأبطال" ص ٦١ - ٧٠.

المستقرين. وكان أبطال المقاومة الضارية هم غومة وعبد القادر وأهل الجبل. فقد قام غومة هذا وهو شيخ يفرن بمساعدة الأتراك في تشتيت جند يوسف آخر حكام القرمانيين، وكمكافأة له أعتُرف به عام 1838 كأمر مستقل على الجبل مع منحه شهرية قدرها 5000 قرشا. ولكن بعد مدة من الزمن أراد باشا الولاية محمد أمين التدخل في شئون المنطقة، فاندلع العصيان مجدداً، وأُنزل غومة بالأتراك هزائم متلاحقة حتى عام 1842، واستُدراج بعد ذلك للمجبي إلى طرابلس بحجة توقيع اتفاق معه، فألقي القبض عليه ونُفي إلى اسطانبول. واستمر أتباعه في خوض المقاومة حتى عام 1844. ومن ثم أُخمدت الثورة في بحر من الدماء. واستمرت الإدارة التركية في تجاهل السكان الرُحّل، ولم تهتم إلا بالحضر المستقرين، فقُسمت البلاد إلى نواحي يحكمها ولاة محلّيون إلى حدود غات وغدامس، وأخيراً كامل منطقة فزان. غير أن بعض التعديلات أدخلت على هذا التنظيم في منتصف القرن التاسع عشر، إذ أضحت طرابلس المركز الإداري والعسكري لكل الولاية بما فيها برقة، ومقرّ الحاكم العام (الوالي)، وهو في نفس الوقت المشير القائد العام للجيش. والمحكمة الشرعية كانت هي مجلس الدولة الذي كان يضم كبار الموظفين المدنيين والعسكريين، ويساعد الوالي في اتخاذ كافة القرارات الهامة بينما يترأس القاضي مجلساً تشريعياً يسيّر الشئون القضائية المدنية والشرعية.

ثم وبعد عشرين سنة أدخلت على عاصمة الولاية سلسلة من الإصلاحات تتعلق بشئون العدل والمال والتجارة والتعليم وكذلك الصحة والأشغال العمومية. وكان الهدف هو إنشاء مركز أوروبي عصري ذي شأن. وبذلك أعيد تقسيم البلاد إلى خمسة سناجق وهي : طرابلس الغرب - جبل غريان ويشمل كامل المنطقة الجبلية- الخمس - مرزق كمركز لفزان - وأخيراً بنغازي كمركز لبرقة. وعلى رأس كل سنجق المتصرف أو الحاكم الذي يتبعه القانمقام والمدراء، ويخضع لمتصرف الجبل وحده سنة عشر قانمقام. وكل حاكم أو نائب حاكم تساعده محكمة مكونة من الموظفين وشيوخ القرية والقبيلة، وهو يترأس أيضاً (المجلس) أو المفوضية المالية. وفي كثير من الحالات يكون المتصرف أيضاً القائد العسكري. ورغم وجود محكمة إستئناف في طرابلس، فإنه يمتلك صلاحيات مطلقة.

وقيل إن عدد قوات الاحتلال يبلغ عشرة آلاف (فانطاز) منهم ثلاثة آلاف في برقة و 1200 خيالة، يضاف إليهم (الزابطية) أو (الجندمة أي الحرس الوطني) المجندين محلّياً والذين يكوّنون نواة الجيش الوطني. وترتبط جميع المراكز الرئيسية بالعاصمة بواسطة شبكة من خطوط التلغراف التي تنتشر حتى نالوت على حدود تونس الجنوبية وحتى فزان، ولكنها لا تُستخدم بشكل فعال. ومن وجهة نظر إدارية يمكن القول إنها كولاية تابعة لتركيا الأوروبية ذات البيروقراطية المدنية، فهي تُعتبر أكثر الولايات بدائية وتأخراً في شمال أفريقيا. وما تمّ جمعه من ملاحظات هنا وهناك على الطبيعة يكفي لتحديد العلاقة

بين الأتراك والسكان المحليين. والطابع المميّز للدور الذي تلعبه الإدارة العثمانية في مستعمرتها الأخيرة.

ولتقدير حجم العبء الذي يتحمّله الأتراك، فإنهم وجدوا أنفسهم أمام شعب يتكوّن من عرب مستقرّين على الساحل، وفي الدواخل بربر أقحاح، أو بربر مستعربين، وأخيرا عرب رحل. أمّا النظام الإداري الذي طبّقه فكان مبسّطا، حيث اتبعوا تكتيكات سياسية مختلفة حيال هذه المجموعات العرقية الثلاث، وفقا للتقسيم الجغرافي. وهي: الواحات الساحلية مع سكانها المعربّين كليّا، الهنترلاند الزراعي مع سكانه ذوي الأصل البربري، ثم السهل الذي يسكنه العرب الأصلاء؛ فالواحات الساحلية لدى سكانها العرب علاقات مع بقية العالم المتوسطي، وبالتالي فهم يختلفون قليلا من الناحية الاقتصادية والعقلية عن المدن البحرية التركية في آسيا. وهنا فالعنصر التركي يبدو واضح التمثيل، وباستثناء عدد من الموظفين من الشبّان الأتراك المنفيين وعائلاتهم، فهناك الكثيرون المتحدّرون من قدامى الموظفين الذين استحوذوا على أملاك في ضواحي المدن، وكذلك من الكولوغلية، وهم من المولدين الأتراك من أصل تونسي وجزائري. <sup>١١</sup> ويُعتبّر المعمّرون الأتراك الوحيدين الذين يشكلون في طرابلس وبنغازي، وأيضا في الثغور الجانيّة، الطبقة الاجتماعيّة العليا، أي برجوازية مرفهة ومسيطرّة تتقرّب بشكل فردي مع أولئك الملاك العرب الذين يقلّون أو يزيدون عنهم رفاهيّة. وتضمّ هذه المجموعة المستخدمين أقلّ درجة، والمجنّدين من السكان المحليين. وهم متطوّعون كعملاء لصالح التغلغل التركي، وأولادهم يتردّدون على المدارس الحكوميّة حيث تسيطر اللغة التركية، وتأتي بعدها العربية في الدرجة الثانية، كما أنهم يقلّدون الأتراك في الزيّ ونمط الحياة.

وفضلا عن هذه العلاقات، فإن إنشاء نظام الملكية الفرديّة (العقارية) من قبل الإدارة العثمانية، وتوسيع عمليات الأمن، كانت هي العوامل المؤثرة في التقارب بين عنصري السكان المسلمين، أي من هم في الواحات ومن هم على الساحل. وللتدليل على ذلك هناك مثال محسوس يؤكد طبيعة هذا (التتريك) ذي السمة البحرية، ففي واحة زليطن البعيدة عن طرابلس والموقعة على شاطئ البحر، يتكوّن السكان من عرب وبربر مستعربين، والذين خاضوا في حياتهم معارك مستمرة لفترات طويلة. وقد عيّن الأتراك أنفسهم كحكم بين هؤلاء الإخوة الأعداء، في إطار إصلاح اجتماعي. وكان لإلغاء نظام الملكية الجماعية للأراضي، وإشاعة الأمن في البلاد، النموذج الذي قدّمه الملاك الأتراك مع ما أدخلوه من زراعات جديدة. كان لكل ذلك مردود أكثر فائدة للأهالي.

١١ أخطأ الكاتب في تنسيب أصل الكولوغلية الليبيين إلى تونس والجزائر، لأنهم مثل الكولوغلية في هذين البلدين الجارين، ينتمون إلى الأتراك والإنكشاريين الذين استولوا على البلدان الثلاثة وحكموها لعدة قرون، كما سيجد القاري في ثنايا هذه الدراسة.

إذ في السنوات الأخيرة شهدت الواحات بشكل خاص إزدياد أعداد النخيل ثلاث مرات (تبلغ حاليا مليوناً ومائة ألف نخلة)، إضافة إلى محاصيل أخرى كالزيتون والتين الخ .. وبذلك نمت المزارع الصغرى بسرعة. بل نشأت طبقة من الأهالي هي في دور التشكل الاجتماعي. كما أن الشبيبة العربية أخذت من تلقاء نفسها تقلد، ليس فقط الابتكارات الجديدة التي أدخلها الأتراك، بل وعبوبهم الضارة أيضاً، كالإفراط في شرب الخمر الذي يحظره الشرع الإسلامي. كما انتشر إقتناء الأثاث والمواد الترفهية. والأغرب من ذلك أن التجارة، وكانت حتى الآن حكراً على اليهود، أخذت تُغرّي أهل البلاد بما لها من خصوصية وجاذبية ساحرة. وهكذا يشهد هذا الإقليم الذي ينمو في طريق التحول الاجتماعي والإقتصادي مظاهر للحياة الأوروبية العصرية. بيد أن هذا التطور مازال بعيداً عن أن يكون تقدماً يشمل الجميع. ويمكن إيضاح مثلاً كيف يمكن تحقيق التحول من درجة إلى أخرى بالنسبة لحركة تتيجها الظروف المحلية ببطء وتثاقل. ففي زليطن واحة (الزوايا)، التي تقع بالقرب من طرابلس، وهي في غاية التأخر، يتميز سكانها من العرب الأصلاء بتعصب مشدّد، سواء ضد البربر أو المخالفين لهم. وقليلاً ما تجاه الأتراك. وبالمقابل هناك المرابطون، وهم أرستقراطية دينية محافظة على تقاليدها الخاصة ولها نفوذ مرموق. وبعكس جموع السكان المتعصبين، فإنها تتمتع وحدها بشكل أو آخر بالمنافع المادية للحكم التركي دون أن تخضع للسلطة الحكومية بأي حال من الأحوال. وروغبة في تقنين نفوذ هذه الأرستقراطية المتأصل، وفتح البلاد أمام التغلغل التركي وزيادة عوائد الضريبة، أخذ القائمون يشجع الكثير من السكان المستائنين من نظام الملكية الفردية الذي أدى في الواقع إلى احتكار الأتليان لصالح الملاك العرب الكبار من الطبقة الدينية المغلقة على نفسها، وبموازرة ثري عبري اسمه فيرجالا. وكما هو الأمر في الأقطار الإسلامية، فإن الديون كثيراً ما تقع على كاهل الطبقة العاملة، وتزداد كلما تجددت القروض. أما الرهنية فتتيمّم بمهارة، ومن ثم تمرر ملكية الأراضي إلى أيدي العناصر (المرابطية) وفقاً لمعايير السجل العقاري. وفي غمرة الإحتقان الذي أفرزته هذه العمليات آنذاك، وقع فيرجالا ضحية للغضب الشعبي، إذ اغتيل وسط الميدان العام من قبل أحد العرب المحسوبين على الجانب التركي في شهر يوليو الماضي.

وهكذا رأينا في مثل هذه الحوادث- والتي وقع مثلها في طرابلس والخمس وزليطن ومصراثة - كيف تقدّمت المدنية بسرعة، بل واستقرت في بعض الأحيان مقاومة لم يتم إخمادها دون استعمال البطش.

أما في الأقاليم الزراعية الداخلية فيما وراء الصحراء، فقد كان الوضع مختلفاً، إذ أن سكانها المتأخرين البدائيين كانوا يعيشون في عهد ما قبل التاريخ تماماً. وقد كانوا من الرحل والطوارق، أما البربر المستقرّون، فقد تعودوا على وضع فوضوي علماني

**Seculaire** متصلبين في عدائهم لكلّ نظام أو مظهر للحياة الإجتماعيّة، متمركزين في (قلاعهم)، وهي حصون صغيرة يسيطرون من خلالها على ما حولهم. والحاميات التركية تعتبر في بلاد تحتلها، والعرب الرّحل مالكيو المذهب يعتبرون الأتراك الحنابلة المرتدين للأزياء الأوروبيّة، زنادقة مارقين لا يؤتمن شرّهم. وبالنسبة للبربر الإباضيين أو أولئك الذين لا يقيمون وزنا للدين، فهم يدفعون أعلى الضرائب، ويخضعون لأقسى التدابير والإنضباط في الخدمة العسكرية، مقابل قليل من الأمن يدينون به للأتراك. ولكن العنصرين اللذين يشكلان سكان الدواخل هما أقلّ تمرّداً وعصيانياً. وفي الجبل هم مناصعون للأتراك بفضل تسامحهم التام، وسياستهم الإداريّة التي لا تسعى إلى التعريب. وحتى شيوخ البربر أعضاء المجالس المحليّة، مثلهم مثل إخوانهم العرب، يسارعون إلى إيفاد أبنائهم الى المدارس التركية العلمانيّة الموجودة في كل قائمقاميّة، حيث يقوم فيها الأتراك بتعليم التركية كلغة رسمية، وهذا بدوره يُعتبر وضعاً مفضلاً لدى الأتراك، كما لدى البربر المستعربين.

أمّا الورشاق فقد عُرف عنهم أنهم رعايا أوفياء للأتراك، إذ ينخرط عدد وفير منهم في الجندية في الجيش والشرطة، والحكومة من جانبها تمنحهم، فيما يتعلّق بالضريبة، إمتيازات ماليّة مرضية. بينما يظلّ التوزيع الجغرافي في جباية الضريبة على الجميع، عقبة بالنسبة لتطبيق السجل العقاري. فالعرب، ونصفهم رحّل، والبدو الذين يكوّنون التجمع الأخير للسكان، ينظرون بهلع الى تطوّر نظام الملكيّة الفردية، ويتميّزون غيضا إزاء بثّ أفكار جديدة تلحق الضرر بالسهول الشاسعة التي يمتلكونها. بينما يسعى الأتراك من ناحيتهم الى إضفاء طابع الريف على الأراضي الخصبة في آسيا الصغرى.

أما التطبيق التدريجي للخدمة العسكرية والتدابير الصارمة لاشاعة الأمن، فلم يرق لأهل الصحراء. إذ كان هيجان العنصر العربي شاملا. ولكن ردّ الفعل التركي جاء على هيئة تدابير إداريّة في منتهى القسوة. ولم تتسامح حتى حيال السلطة الدينيّة، ففي شهر أغسطس الماضي اشتبكت قبيلتان عربيّتان من مسلاته في معركة دمويّة بسبب ثأر سقط من جرّانه أربعون قتيلًا. وحتى يعيدوا النظام الى نصابه، قام الأتراك بمحاصرة القرية التي وقع فيه الصدام. وكان الحكم الذي أصدره هو إبادة القرية عن بكرة أبيها! وفي حالة تدخل أصحاب النفوذ الديني إلى جانب التحريض العربي، فإن الأتراك لا يتراجعون البتة. وقد رأينا ذلك في (ورقله) و(القرزة)، كما في سلسلة الجبل وبرقة، وسواء كانوا سنوسيين أو غيرهم وحتى الأشراف، فالمحرّضون لا يعاملون الا كمخربين أشرار، وكلّ تباطؤ أو تأخير قصد إعفاء هذه القبيلة أو تلك من الضريبة أو الخدمة العسكرية، فالحكومة التركية تباشر الإجراء المعهود، مع علمها التام بضعف العنصر العربي أمام قوّة منضبطة مدجّجة بالسلح.

لقد تحدثنا في هذا الصدد عن طرابلس الغرب، حيث التهذنة والتنظيم هما في طريق الإنجاز، أما بالنسبة لبرقة والواحات في أقصى الجنوب، فسيحين الحديث عنها. على انه لاينبغي غضّ النظر عن ان التقدم الذي أنجزه الأتراك هو تقدم حقيقي، كما أن الموظفين المسؤولين ومعهم الأجانب، هم مالكو بلادهم المحتلة في أعين أهل البلاد. ومما لاشك فيه أن الشبان الأتراك بصفة خاصة يتطلعون إلى فرض لغتهم على الأفارقة، وهي تتطلب أقصى الجهود حتى تنتشر. ولكن فيما عدا بعض النواحي، حيث التغلغل الأجنبي جلب معه الطابع الأوروبي للحياة، فإن علاقات الأتراك مع السكان المحليين تبقى علاقات حكام بمحكومين، إذ أن الأتراك ليسوا أمة إستعمارية. وهم يعجزون عن إقامة مستعمرة من أبناء جنسهم، ولذلك يظلون منغلين وسط الجماهير الأفريقية". (إنتهى نصّ التقرير).

## ٢ - الإرهاصات السياسيّة

ثمّ يأتي القسم الثاني من هذا التقرير كسمح سوسيو تاريخي، وقد نشرته المجلة المذكورة في عددها ٦ للعام التالي ١٩٠٨، وهو العام الذي شهد التطوّرات العاصفة في كل من تركيا وولاياتها، ومنها ليبيا، كالتالي مستهلة التقرير بمقدمة جاء فيها: "إن معاوننا سلوش الملحق بفريق البحوث السامية *corpus inscriptionum semiticarum* عاد من طرابلس الغرب، حيث أرسل منها تقارير كعناوين بارزة لمعلومات جديدة تتعلق بالتاريخ الحديث، والأوضاع الاجتماعية لهذه البلاد، إضافة إلى وثائقه الهامة عن الحفريات الأثرية فيها. وفيما يلي نتائج تحقيقاته عن الأحداث الأخيرة":

"من المعروف أن إعلان النظام الجديد أثار في طرابلس عقب رحيل الوالي رجب باشا مظاهرات تتراوح في درجة الشدة والخطورة. وهي مظاهرات اكتست أهمية خاصة لأنها أوضحت حقيقة العلاقات المتبادلة بين الأتراك والعرب، وقد سبق لنا دراستها في استعراضنا بعنوان (الأتراك والأهالي في طرابلس الغرب العام الماضي 1907). ويجمل بنا أن ندقق في المظهر الحقيقي للأحداث التي جرت على مسرح طرابلس.

- غادرنا طرابلس يوم 20 يوليو الماضي متجهين إلى برقة. وفي ذلك الوقت لم نطراً بعدُ الأحداث التي أدت إلى حلول النظام الجديد في تركيا. وكانت للمواجهة التي جرت في (ريفيل) أثرها المؤلم بين الأوساط التركية. و سبق للوالي في المقابلة التي أجريناها معه أن ندد بالاتفاق بين إنجلترا وروسيا على حساب تركيا المغبونة، ولم يخامر الشك - وهو الذي يتحدّث الإنجليزية - في التبدلات التي ستحدثها هذه المواجهة على مستقبل تركيا. لقد واصلنا رحلتنا إلى بنغازي. وهناك تناهت إلى أسماعنا أنباء الثورة العسكرية في مقدونيا

دون أن تشغل بالناء، إلا أننا أبلغنا في درنة من قبل مدير محطة اللاسلكي بالبرقية التي وصلت، وتخبر عن ميثاق مُنح للشعب العثماني، ويتمثل في إعلان للدستور. ولقد كانت الفرحة غامرة في الحامية التركية وفي المدينة، وأكد لنا قائد الحامية حمدي والطبيب العسكري، اللذان كانا مستنيرين وعصريين، رغبتهما في الذهاب إلى باريس التي حرم النظام السابق زيارتها. وفي اليوم التالي وصلت برقية أخرى بالسماح للمنفين السياسيين بالعودة إلى إسطنبول. وإننا لا زلنا نتذكر هؤلاء الضباط الطيبين الشجعان الذين أتهموا باعتناقهم لليبيرالية، ولذلك نُفيوا إلى "سيبيريا الشمس" كما كانوا يلقبون طرابلس الغرب. ولمدة ثلاثة أسابيع كنا منقطعين عن العالم المتحضر بسبب هذا الحاجز الذي لا يقهر، والذي حوّل برقة إلى صحراء معزولة عنه. وكانت النقاط العسكرية التركية التي صادفناها في الطريق اليوم هي التي زوّدتنا بالمعلومات. وفي بنغازي سمعنا عن خير رحيل رجب باشا إلى إسطنبول، ونتائج الثورة الداخلية التي آلت إلى اختفاء الشبان الأتراك عن طرابلس. وفي الحقيقة لم نفاجأ بكل الأحداث المذهلة التي وقعت لأننا على علم تام بالتناحر بين الأتراك والعرب، والوضع المتردّي الذي كان فيه الأخيرون. وفي بنغازي تبين لنا من قبل العرب الإستياء العام المتفشي، والذي سعى المتصرف غالب باشا إلى الحيلولة دون وقوعه آنذ. وإن المنشورات المنادية بالحرية التي وزّعها الكثير من الضباط بشكل علني، لم تؤدّ إلا إلى استثارة العرب المتأخرين في المدينة واستفزازهم. وعندما كنا في طريق الرجوع إلى طرابلس، علمنا بالأحداث التي اندلعت في المدينة؛ لقد علمنا مثلا أن نبأ الحصول على دستور، قوبل من قبل العرب في المدينة بعدم اكتراث مثير للدهشة. أمّا الأتراك سواء كانوا موظفين أو منفيين، فقد تلقوه بهجة وحبور، وقد نظموا اجتماعات شعبية ومهرجانات ليلية عُقد أحدها- وكان ناجحا بصفة خاصة- في الحديقة العسكرية، وغمرت الأنوار المدينة كما لم يقع في حياتها، وألقيت الخطب الرنانة؛ أتراك وعرب، يهود ومسيحيون، جميعهم كانوا في تأخ وتواذ كاملين، وطافت المواكب طوال الليل بالمدينة. إلا أن جوّ الوفاق لم يدم طويلا، إذ دعا عدد غير من "الشبان الأتراك" وبصوت عال، إلى ضرورة الإنتقام من العناصر الرجعية، وجميعها تمثل الطبقة الدينية والأرستقراط العرب، وتبين أن الأحقاد الشخصية لم تكن غريبة عن هذه النفوس الجذلي.

وعلى الجانب الآخر فإن الجماهير العربية بايعاز من كثير من رجال الدين النافذين، شرعت تعبر عن امتعاضها من مظاهر التسلط "للشبان الأتراك". وبفضل السلطة التي يمثلها المارشال ويمارسها على كافة طبقات الشعب دون معارضة، حافظت طرابلس على المظهر الهادي التي تمتاز به، إلى أن حدث ما حدث يوم الأول من أغسطس، إذ راجت أخبار بأن رجب باشا غادر المدينة لتولي منصب وزير الحربية. إنها روح الفوضى المعهودة عند العرب الأفارقة التي سادت في ذلك اليوم الصحو الصافي، ووجدت

تعبيراً لها في ثورة عارمة خضبت السّجن المحلي بالدماء، فقد أشيع أن قانون العفو المقصور تطبيقه على "الشبان الأتراك" يشمل جميع المجرمين، وتنادى نزلاء سجن طرابلس في المطالبة بإطلاق سراحهم، مثلهم مثل السجناء السياسيين. وعندما رفض الحراس إنقضوا عليهم، وجرحوا إثنين منهم. وبسبب تدخّل الجيش التركي الذي أودى بحياة الكثيرين، لم نحصل على الرقم الدقيق لعدد الضحايا، فقد أعطى ذلك الذريعة للقيام بالعصيان. وفي غمرة الغليان إندفعت إلى الشوارع الطبقة السفلى من السكان العرب- لأن ضحايا العصيان كانت غالبيتها منهم كأبائهم وأصدقائهم - وهنا بدأ المحرّضون، لأسباب مصلحة مختلفة، ينادون بالمقاومة في وجه تسلط الشبان الأتراك، أولئك الهراطقة المارقين الذين كانوا يعتبرونهم العن من (الرّومي). وكان العرب على حقّ في عدم تفريقهم بين المجرمين السياسيين ومجرمي القانون العام، ولم يقبلوا الإدعاء بأن المجرمين الزنادقة يطلق سراحهم، بينما العرب مجرد لصوص. والأدهى من ذلك أن يرضوا بتقبلهم لمجرد تطلعهم إلى استرجاع حريّتهم. وهذا أدّى إلى ارتفاع الأصوات بأن (الحريّة) لم تعلن إلا لتدشين حكم الزنادقة والكفار، بل وصلت بعض الأصوات إلى التعبير عن الحسرة والمرارة لأن طرابلس لم تحظ بالمصير الذي نالته الجزائر ومصر. كما أن (الرّومي) في نهاية الأمر لم يمتزجوا بالحياة الدينيّة والإجتماعيّة للعرب، وعلى العكس من ذلك، فالشبان الأتراك هددوا بتبديل الحياة الإجتماعية لإخوتهم في الدين. ووصل الغيظ ذروته عشية سفر الوالي، إذ اتضح أن رجب باشا عيّن خلفاً له بصفة مؤقتة الأمين العام القديم الجنرال باكير بك ذا الأصل الشركسي، والذي كان مترقعا وشغل وظيفة متصرف الجبل. وكان سلوكه محض غربي، ولذلك لم يستمل عطف المتطرفين.<sup>١٢</sup> كما أن الرأي العام العربي يجد إستجابة خاصة لدى رئيس البلدية حسونة باشا القرماني الحفيد المباشر للعائلة القديمة المخلووعة، ورئيس الأرسقراطية المحليّة. وبفضل مؤازرته تمّ تنظيم إجتماعات شعبيّة في نفس الليلة، فقام الخطباء الشعبيون بإلهاب حماس الجماهير وتحريضها على معارضة النظام الجديد وحكم "الشبان الأتراك". وكان أكبر إجتماع ذلك الذي انعقد في جامع أحمد باشا أكبر المساجد، والذي بناه رئيس الأسرة القرمانيّة. وبدأت عملية "التحرّر من ربة الشبان الأتراك" الذين يهددون العقيدة والشعب العربي. والخطيب

١٢ ورد في كتاب (ليبيا خلال الإحتلال العثماني الثاني) لأنتوني كاكيا- دار الفرجاني طرابلس، ليبيا 1975 ص 49، أن الأهالي في طرابلس إستنكروا تعيين باكير بك نائبا للوالي الراحل، لأنه كان مكروها منهم، وعقدوا مؤتمرا على رأسه حسونه باشا، قرّروا فيه عزل باكير بك، وأرسلوا بذلك إلى إسقامبول مطالبين بإستدعائه ومعه جميع الموظفين المنضمين لجمعيّة الشبان، ووافقت الحكومة على ذلك، وعيّنت عام 1909 أحمد فوزي باشا واليا. وكان أول إنجاز له هو تكوين مجلس إستشاري ممثلا لسكان ليبيا. وفي نهاية تلك السنة عيّن إبراهيم باشا واليا، وكان معاديا للإيطاليين، ممّا زاد التوتر بين إيطاليا وتركيا. وهو ما وفر للمستعمرين الإيطاليين الذرائع لتدبير حملتهم، كما سيّضح ذلك في السرد (المؤلف)..

الوحيد الذي حاول - دون جدوى - الدفاع عن قضية الحرية، كان الحاج محمد بن حمودة المفتش الزراعي، ولكن الجموع اغتازت من حديثه، فأسكتته وأجلسته في مقعده، ولم يستطع سي حسونه القر مانلي حمايته، إلا أنه سارع بطرح معطفه عليه. وهكذا وفي مثل هذه المواقف التي يتم فيها تبني قرار جماعي من الجمهور، فإن نفوذ القرمائلي يكون له دور الملطف من الغلواء، فبفضله أمكن تجنب حدوث تجاوزات لا يعرف عقابها. وفي الختام أصدر المجتمعون القرار الآتي :

"إن الحاضرين يعلنون رغبتهم في إلغاء الدستور وأنهم سيلتحون على ذلك إلى حد العصيان المسلح، وإلغاء الحريات وإبعاد باكير بك، وأخيرا إجلاء جميع (الشبان) عن طرابلس". وطيلة الوقت إنهالت مطالب مماثلة من فئات الشعب المختلفة والتي كانت في غاية الحق، لأنها استُفزت بعمليات إنتقام متصاعدة. إلا أن رجب باشا كان في عجلة من أمره للإلتحاق بمنصبه العالي في الأستانة، وخشية تقاوم الوضع في طرابلس الغرب- وهذا سيكون في صالح المطاعم الإيطالية، فضلا على أنه ليس أحب لدى الشبان الأتراك من الذهاب الى الأستانة والمشاركة فيما يجري فيها من أحداث - لهذه الأسباب جميعها قبل الوالي جميع المطالب وعين مساعده إبراهيم باشا واليا مؤقتا، ودعا الشبان الأتراك العسكريين والمدنيين منهم إلى الصعود على ظهر الباخرة، ومرافقته إلى الأستانة. ووسط عزف نشيد الثورة الفرنسية والنشيد القومي التركي، غادر الجنرال العجوز مرسى طرابلس متوجها إلى الأستانة مصحوبا بـ 198 عنصرا من الشبان الأتراك وكلهم من الوطنيين الشباب. وأخذت مجموعات أخرى من المنفيين تتقاطر من جميع أنحاء الصحراء وتنضم إلى رفاقهم على ظهر السفينة. أما نحن فقد هُجرنا في فضاء شاسع أشد حزنا وأقسى جفافا مما ألفناه. حقا ثمة أشياء تنبئ بالتغيير، ولكن هل هو إلى الأحسن؟". (انتهى نص التقرير).

### الصراع الحزبي في بنغازي عشية الغزو الإيطالي

وإذا ما عرّجنا على بنغازي لنرصد صدى أحداث التغييرات الدراماتيكية، فس نجد تقريرا ثانيا وضعت الإدارة العسكرية الإستعمارية الإيطالية غداة إحتلالها للبلاد، وهو يكشف لأول مرة عن حراك سياسي داخلي لم يتطرق إليه المؤرخون، ونترجمه كما ورد في أصله الإيطالي هكذا:

**حكومة برقة**  
**(المكتب السياسي العسكري)**  
**نقاط حول الظروف السياسية في برقة**  
**وقت سقوط النظام العثماني العتيق وتداعياته**

● وقعت في بنغازي أحداث صاحبت إنشاء اللجنتين المحليتين : الأولى باسم (الإتحاد والترقي) والثانية باسم (جمعية الإخاء العربي العثماني). وهذه الأحداث كانت في جزء منها تداعيات لتلك التي سببتها الحركة السياسية (لجمعية تركيا الفتاة) في الأقاليم الأخرى من الإمبراطورية. وقد تشابكت في مسارها مع إنبثاق الدستور في إسطنبول، وما تعاقب من أحداث أخرى توضح نفسها من خلال التسلسل التالي. وحتى توضع في إطارها الصحيح، فمن المفيد إستحضار التواريخ الآتية:

# - يونيو 1908 - وصول المتصرف غالب باشا إلى بنغازي.

# - أغسطس 1908 - صدور الدستور في إسطنبول.

# - أكتوبر 1908 - وصول أول مبعوث من قبل (الإتحاد والترقي) إلى بنغازي.

# - ديسمبر 1908 - إفتتاح البرلمان في (كوسبولي).

# - ديسمبر 1908 - إبتخاب نواب ولاية (متصرفية) بنغازي.

# - أبريل 1909 - خلع عبد الحميد وارتقاء محمد الخامس للعرش.

# - مايو 1909 - رحيل المتصرف غالب باشا عن بنغازي ووصول خلفه جودت باشا.

# - مايو 1910 - رحيل جودت باشا ووصول خلفه مراد فؤاد باشا.

● أبلغت بنغازي بأنباء منح الدستور وانعقاد البرلمان بواسطة التلغراف في أغسطس 1908، وعلى الفور أعلنت للجمهور من قبل المنادي العمومي. وفي ذلك الوقت لم يوجد في المدينة مفتيون سياسيون ولا أحزاب سياسية تابعة (لتركيا الفتاة)، ولهذا قوبلت تلك الأنباء برضا متحفظ من قبل الموظفين المدنيين والعسكريين المقيمين. كما أنها لم تثر أي حماس بين السكان المحليين والذين بدا أنهم لم يفهموا أهمية الحدث الكبير. وبعد بضعة أيام وفي انتظار إعداد النسخ للتنظيمات الجديدة التي يجري بموجبها إبتخاب النواب، وحتى تنتهي عمليات تعداد السكان الضروري، قام المتصرف غالب باشا بتوزيع منشور على السكان في المدينة يشرح فيه ما تتضمنه بالتحديد شعارات : "الحرية- المساواة - الإخاء - العدالة" والتي تتبناها الحكومة الجديدة.

ولم تفت أهمية الإنتخابات السياسيّة في بنغازي على لجنة (الإتحاد والترقي) في (سالونيكى). وفعلا وصل من طرابلس موقدها العقيد مصطفى جمال بك الذي شرع غداة وصوله في تأسيس نادي من أعضاء عثمانيين مسلمين وغير مسلمين، يكون على استعداد للإلتصال بلجنة (الإتحاد والترقي) بهدف إخراج برنامجه إلى حيّز التنفيذ. وعلى الرّغم من الدّعاية المحضّرة من العسكر الأتراك الشباب المقيمين (ومن بينهم إثنان فقط من العرب أحدهما صالح المهدي)، والإستعدادات التي هيأ لها المتصرّف لإقامة مؤسّسات مماثلة، فالأهالي - عقب الإحتجاج الذي أعلنه المفتي- إبتعدوا عن المشاركة معتقدين أن الحكومة الجديدة ما جاءت إلا لإفساد الأفكار السليمة لهذا الشعب وسلب أمواله. ولم يؤيد إقتراح العقيد جمال بك إلا بضعة موظفين مع رئيسهم المتصرّف، وكثير من ضباط الحامية خلف قائدهم، إذا انضمّوا إلى النادي الجديد الذي لم يجد أيّ قبول من العنصر الأهلي. ويمكن الإستنتاج حينئذ أن المهمّة السياسيّة المنوطة بالعقيد المذكور قد أخفقت تماما. وعلى أثر ذلك غادر جمال بك إلى تركيا بعد أن أمضى عشرة أيّام.

- من كوسبولي وسالونيكى بدأت حركة دعاية واسعة وعملية ضغط أدت إلى تحويل النادي (للجنة سرّية) للإتحاد والترقي مؤلفة من إثني عشر شخصا أغلبهم من الموظفين الأتراك. وباستثناء صالح المهدي، لم يشارك فرد واحد من أعيان الأهالي. وقد ذاع أمر تكوين هذه اللجنة، وأحدثت بين أعيان بنغازي ردّ فعل تحوّل إلى تهديدات وتوجيه الإهانات لأعضاء اللجنة الذين أخذوا يحمون إجتماعاتهم بالسلاح طيلة أكثر من أسبوع. وفي هذه الأثناء، وبمبادرة من يوسف بن شتوان ومنصور الكيخيا وأحمد الجهاني، تمّ تأليف لجنة ثانية منبثقة عن الجمعية التي تكوّنت في كوسبولي تحت إسم "جمعية الإخاء العربي العثماني" لتكون مناهضة لجمعية "الإتحاد والترقي" وتخوض الكفاح ضدها، وكذلك من مهامها مساندة ترشيح يوسف بن شتوان وعمر الكيخيا (ابن منصور) في الإنتخابات التي كانت على الأبواب. وحدث في ذلك الوقت أن المتصرّف غالب باشا - وكان موظفا قديما قبل صدور الدستور ومخلصا للصدر الأعظم سعيد باشا، وبالتالي للسلطان عبد الحميد- أن غدا مناصرا فاترا لتركيا الفتاة، وأن مشاركته في "الإتحاد والترقي" جاءت فقط لأسباب إنتهازية. ولهذا أعربت الحكومة المحليّة عن تأييدها لمرشحي "جمعية الإخاء". وسرعان ما حصلت الجمعية السياسيّة الجديدة على الكثير من المنتسبين، وجمعت توقيعات عديدة، وبالتالي تسنى لها إقتناء مبالغ ماليّة طائلة، ثمّ انضمّ إليها أيضا صالح المهدي، وكما صرّح هو نفسه، بهدف إحياء مساعيها ومن ثمّ خدمة مصالح الإتحاد والترقي. وفعلا عيّنا آمينا للجنّتها وأحرز نوعا من التفوق في نشاطه.

- وقعت عدّة حوادث سبّبتها الخصومة بين اللجنتين. فقد تبادلتا التهديدات والمشاجرات والمضايقات التي شارك فيها الموظفون والعسكريّون الذين انقسموا بين الجانبين، لدرجة اللجوء إلى المتصرّف الذي كان موقفه الغامض لا يؤهّله لإعادة الأمور إلى نصابها. وهكذا أثرت ظروف نشأة اللجنتين في بنغازي على أعضائهما بما عكسته

الأحداث السياسية المتنامية في بقية أقاليم الإمبراطورية، فتحت راية "الإتحاد والترقي" اصطف جميع من ناصر حزب حكومة الشبان الأتراك - خاصة من فئة الموظفين- سواء عن قناعة أو بدافع الإنتهازية (والأخيريون كانوا الأكثرية). وتحت راية "الإخاء" انضم كل من كان مضادا لأفكار التقدم بأنواعها، ومن كان ميالا لتطبيق الأنظمة الجديدة تدريجيا، وأولئك الذين كانوا يناصرون السلطان عبد الحميد لأغراض المنفعة الشخصية.

• في ديسمبر 1908 أسفرت عملية الإنتخابات في (السنجق) عن الفوز الحاسم لعمر الكيخيا ويوسف بن شتوان. أما إنتخاب الأخير فقد ألغي من قبل البرلمان في يناير 1909، إذ أكتشف أنه - بصفته أنه مقيم في كوسبولي كموظف تابع لوزارة العدلية- كان على قائمة جواسيس القصر في النظام القديم. ولكن أعيد ترشيح يوسف بن شتوان كنانب عن بنغازي ودرنة وفاز في مارس 1909 بفضل التصويت له بالإجماع من قبل جمعية الإخاء. وفي أبريل 1909، وعلى أثر إنقلاب عسكري، أُطيح بالسلطان عبد الحميد، واعتلى محمد الخامس العرش، وبالتالي استولى حزب تركيا الفتاة "الإتحاد والترقي" على السلطة بشكل نهائي. وكان من أول آثار الوضع الجديد إبعاد غالب باشا نهائيا، وقد سبق له أن استقال من رئاسة حزب تركيا الفتاة المحلي. وجاء عمر علي بك في وقت صعب لإصلاح الأخطاء السياسية والإدارية التي ورثها عن سلفه. وسرعان ما صادف معارضة شرسة من قبل بعض رؤساء السلك الإداري والعسكري الذين رأوا في إجراءاته الصادقة تفويضا لنظام الحكم القائم على قواعد التآمر والإميازات التي استفادوا منها.

• تحول هذا العداء الصامت إلى عداء معلن وصريح بفضل تغيير النظام وافتتاح جمعية "الإتحاد والترقي" ببغازي، وكان من مؤسسيها الأوائل رؤساء السلك الإداري المذكورين الذين صاروا معاضدين للمتصرف، وشرعوا في حيك مؤامرات ودسائس، سرا وعلنا، وشنوا حملة بواسطة الصحف لتشويه سمعته مدللين بصفة خاصة، على عجزه التام عن إقناع العرب بالإنخراط في نادي (الشبان الأتراك)، وأنه ساهم أثناء الإنتخابات التشريعية في إنجاح مرشحي (الإخاء)، ونددوا بهذا المسلك متهمين إياه بأنه مدافع عن النظام البائد. ثم جرى استبدال غالب باشا بجودة باشا العضو النشط جدا والنافذ لدى "الإتحاد والترقي". ومن الطبيعي أن يبتهج الأنصار المحليون لهذه الجمعية السياسية لقدمه حتى يضاعفوا من نشاطهم ضد جمعية "الإخاء"، سعيا إلى تسيير دفة الأمور مجددا لشئون الولاية (المتصرفية) الإدارية والسياسية. وقد تسنى لهم ذلك بكل بساطة، حيث انبعثت من بين صفوف "الإخاء" الخلافات التي عجلت بانهيارها. ففي حفل إستقبال أقيم بمقر هذه الجمعية، والذي حضره بعض أعضاء "الإتحاد والترقي" دخل المدعو طاهر بركة (وقد قتل في نهاية عام 1913 في بنغازي برصاص حارسين إيطاليين) وكان مخمورا كالعادة، قاعة الحفل وأشهر مسدسه مهذا أعضاء "الإتحاد والترقي" والذين حماهم صالح المهدي. وأدى النقاش حول تصرف طاهر بركة إلى انشقاق بين أعضاء "الإخاء"، والتي حط من منزلتها ما قام به صالح المهدي من عمل ذكي، إذ بدأ بعض هؤلاء الأعضاء في تركها، وأخذت المساعدات

المالية تنحسر عنها. وكان قدوم جودة باشا قد ساهم في تسريع هذه العملية بشكل فعال. ففي فترة قصيرة نسبياً تحول مائتا عضو كانوا مسجلين في "الإخاء" إلى عضوية "الإتحاد والترقي" التي شهدت أوسع تشكيل لها. ولكن الكثير من المرشحين الجدد لم يكونوا مخلصين في نواياهم، وأحياناً كانوا يهدفون من وراء تجمعهم في مقر "الإتحاد" وبشكل خفي، إلى إلحاق الضرر بها. ومن أشهر هؤلاء: منصور الكيخيا - مصطفى كعيص (صهر الرئيس) - عوض عمره (ربما قمره وقد توفي) - محمد بن شتوان (منفي الآن في إيطاليا) - أحمد الجهاني. فاللجنة التي كان عليها فحوص طلباتهم للعضوية تأكدت من نواياهم واقترحت عدم ضمهم. على أن بعض أعضاء اللجنة إنبرى للدفاع عنهم وهم: رئيس المحكمة (موظف تركي) - إبراهيم عبيده - رمضان السلاك - ونوري بك (قاضي تركي). إلا أن المرشحين سألوا الذكر تقريراً باستبعادهم بأغلبية الأصوات. بل طرح إقتراح بطرد مناصريهم إلى طرف اللجنة المركزية في سالونيك. وقد استجيب للإقتراح، وكان لطردهم صدى واسع في كامل أنحاء الإمبراطورية.

● طبقاً للأخبار المحلية، لم يساهم جودة باشا بفعالية في ترسيخ وضع "الإتحاد والترقي" فحسب، بل إنه اشتهر بموالاته لإيطاليا. وإزاء هذا الإتجاه دعا منصور الكيخيا وجماعته إلى التقرب من القنصل الإيطالي (بيرنابي) معبرين له عن مشاعر مؤيدة لإيطاليا، طمعاً في الحصول على الدعم. ومن بين أعضاء هذا الفريق كان أيضاً النائب الآخر يوسف بن شتوان وعثمان العنيزي أحد الأعيان. كما أن منصور الكيخيا جذب أيضاً صالح العوامي رئيس الزوايا السنوسية في بنغازي، وكان يتولى آنذاك منصباً رفيعاً يشرف على جميع الزوايا في نواحي بنغازي، وربما منطقة الجبل أيضاً. وهذه العلاقات أعطت للقنصل الإيطالي نفوذاً ملحوظاً استطاع به أن يوسع دائرته ليشمل الكثير من أعيان بنغازي والعديد من شيوخ البدو في الدواخل، والذين منحوا الهدايا على هيئة نقود وأغنام. وحسب الأخبار المحلية أيضاً، أخذ جودة باشا يرتاب من هذه التحركات التي يقوم بها الثائبان، وكتب عدة مرات بشأنها إلى الحكومة المركزية، طاعناً فيهما كونهما ميايين للقنصل بيرنابي. والمرجح أن هذا الأخير كان يهتم أن يجري - بواسطة الحكومة الملكية (الإيطالية) - نقل جودة باشا من منصبه. ثم وصلت أخبار إلى بنغازي ولجنة "الإتحاد والترقي" المحلية تفيد بعرقلة هذا الإجراء، ولكن تم التغلب على هذه العرقلة، إذ أفادت اللجنة المركزية في سالونيك بأن السفارة الإيطالية في كوسبولي أصرت على نقل المتصرف، مما جعل الحكومة العثمانية في آخر المطاف تلبية الرغبة الإيطالية، تفادياً منها لإعطاء السفارة أية ذريعة مناوئة، أو الدخول في مشاحنات معها.

● (كانت قضية الفتك بالأب جوستينو<sup>١٣</sup> رهن المعالجة وطلب التعجيل بحسمها، علماً بأن جودة باشا لم يسهم بجهد في الأمر). وهكذا توقف إصرار لجنة "الإتحاد

١٣ يشير التقرير هنا إلى مصرع هذا الراهب من بعثة الفرنسيسكان في مدينة درنة والذي قتل بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٠٨ بأيدي راهب آخر، حسب التحقيق الذي أجرته حكومة الولاية. ولكن الحكومة الإيطالية

والتركي" على إبطال الإجراء عندما رأت أن محاولاتها مآلها الفشل، واتضح أن جودة باشا تظاهر بمكر أنه شخصية مقرّبة جدًا من الحكومة المركزية في اسطامبول. وفي 10 مايو 1910 جرى إستبدال جودة باشا بمراد فواد، الذي كان آخر متصرف تركي. وقد عمل على المحافظة على علاقات طيبة مع القنصلية الإيطالية ومع الثائنين عن بنغازي، ودون أن يضايق اللجنة المحلية "للإتحاد والترقي"، وهي بدورها وبعد رحيل جودة باشا، أخذ نفوذها يتقلص بسرعة. وقد حاولت لجنة طرابلس بثّ النشاط فيها عن طريق إرسال وفودها إلى بنغازي (ومن بينها كان صالح المهدي الذي سبق نقله إلى طرابلس). ولكن هذه الوفود لم تحقق نجاحا يذكر. وبينما تمحورت الإتصالات حول هذا الموضوع، أطلقت نُذُر الحرب بين إيطاليا وتركيا في الأفق..

\*\*\*\*

إن الظروف السياسيّة في برقة، إبان سقوط النظام العثماني القديم، والتي استعرضناها آنفا، تصادف حدوثها مع تفاقم الأوضاع في طرابلس التي أعقبت صعود الشبان الأتراك إلى السلطة في تركيا، والتي نشرها المستشرق الفرنسي (سلوش) في نشرة (العالم الإسلامي). وهي تتفق تماما، كما تؤكد مسارين للأحداث: أولهما أن إتجاهات الجماهير الليبية تناويء بشكل قاطع محاولات تجديد النظام السياسي، أو بالأحرى، إن هذه الإتجاهات كانت محافظة. وثانيهما أن التوحّد الوثيق في الموقف بين العرب والأتراك، والذي تجلّى أثناء الحرب الإيطالية التركية، وما يزال مستمرا في واقع الأمر، هو توحّد يتكئ على قواعد مصطنعة، كان يمكن لسياسة متبصرة من جانبنا (نحن الإيطاليين) أن تعيق حدوثه. وبدلا من ذلك إتضح كيف يمكن لهذه السياسة أن تتقطع أوصالها.

ففي طرابلس، كما في بنغازي، فإن فرعا "للإتحاد والترقي" واجه صعوبات شديدة تسببت حتى في بروز تكتلات أهلية ذات طابع معاد (للإيطاليين)، مثل تلك المسماة "جمعيّة الإخاء" التي لم يثر بروزها الإستغراب، لأن لجنة "الإتحاد والترقي" قدّمت نفسها على المسرح السياسي العثماني كمناد في الشرق بالمبادئ الثورية والمعادية للسلطة الدينية، وتتلذذ رجالها للأمعون على أيدي الأوساط الباريسيّة، عندما كانوا منفيين فيها، وكذلك في سالونيك حيث كانوا مرتبطين بجماعات سرية أوريبيّة.<sup>١٤</sup> وفي واقع الأمر ما أن أطيح بعبد الحميد الثاني، حتى أرادت "لجنة الإتحاد والترقي" تقويض العمل الرئيسي، ألا وهو توحيد جميع العالم الإسلامي باسم العقيدة الدينية تحت مظلة الخلافة، وتبنت مناهضة العرب الذين كانوا يمثلون في الإمبراطورية العثمانية العنصر الديني الرجعي، وإقصاء

---

أرسلت لجنة تحقيق تابعة لها أكدت أن المسؤولين عن قتله هما قائمقام درنة ومتصرف بنغازي، وذلك ضمن الحملة الصاخبة التي قامت بها الدوائر الإستعمارية في روما لتهينة أسباب الغزو للبلاد.

١٤ لعن التقرير يشير هنا إلى "منظمة تشكيلاتي مخصوصة" التي كوّنها سرّيا ضباط أترك إبان الغزو الإيطالي لليبيا، والتي رعاها أنور باشا أحد زعمانهم عندما أقام بالجبل الأخضر في برقة، وقادت الجهاد في مرحلته الأولى. وسيأتي الحديث عنها في الدراسة الثانية عن هذه المقاومة الجادية المسلحة.

نفوذ الأخوة الدينية عن إسطنبول دون إعتبار أنها هي وحدها - كما اعتقد عبد الحميد بداة- الكفيلة بتوحيد الأعضاء المتناثرين عبر الإمبراطورية والتفافهم حول الخلافة. وباختصار وبعبارة أخرى حاول رجال تركيا الفتاة في بداية حكمهم معارضة الجامعة الإسلامية التي نادى بها عبد الحميد الثاني، على أمل إعادة إحياء الخلافة العالمية، أي الجامعة العثمانية المستندة إلى الهيمنة التركية على الأعراق المكوّنة للإمبراطورية العثمانية. وقد وجد هذا الإتجاه السياسي الذي طبع نظام تركيا الفتاة في نهاية 1908 حتى سبتمبر 1911 دليلا له في الكفاح الممارس في سوريا ضدّ اللغة العربية التي تمّ إستبدالها في المرافق العمومية باللغة التركية، وبشكل أخفّ في ليبيا، وتمثل ذلك في المقالات شديدة اللهجة التي نشرتها صحيفة (طائنين) ضدّ السنوسية<sup>١٥</sup> وعبد الحميد الثاني من قبل الوطنيين الأتراك، محقّقين إياهما كونهما من أعداء أفكار التحرّر الجديدة والنقد والتفكير الحرّ الهادف إلى إعادة بعث الإمبراطورية العثمانية. غير أنه ما أن بدأت الحملة الإيطالية على ليبيا حتى بدلت الحرب فجأة سياسة "لجنة الإتحاد والترقي" التي أولت إهتمامها للمساعدات التي تمكن عرب ليبيا من تقديمها للقوات التركية المواجهة للقوات الإيطالية.

وبواسطة أنور بك بدأت الأفكار تختمر حتى وصلت إلى درجة التحالف الوثيق مع السنوسي وغيره ومع مضيّ الوقت أخذ هذا التحالف يتشكل في إسطنبول تحت إسم "رابطة المصلحة لعمومية". وهي لجنة جدية ومناسبة لفكرة الجامعة الإسلامية، وقد شارك فيها بنصيب كبير النائب السابق عن بنغازي شتوان، والذي سبق له أن ساهم في جمعية "الإخاء" بينغازي والمعارضة لفرع لجنة "الإتحاد والترقي"<sup>١٦</sup>. ولو أن الظروف السياسية المباشرة، والتي أدت إلى احتلالنا لليبيا، قد سمحت بالأخذ بعين الإعتبار واقع الأمور كما تمّ شرحه؛ لكان على إيطاليا أن تسند أعمالها في ليبيا فوراً معتمدة على العناصر المحافظة من الأهالي، ومستقطبة حولها الرؤساء الأكثر نفوذاً، بغية إحباط المناورات التركية الحذقة. وبذلك كان تسوّى لنا تحقيق منافع جمّة. فالأحداث أثبتت في نهاية الأمر أن الأعيان والرؤساء المحسوبين على التيار المحافظ بالتحديد، والذين كانوا وقتاً ما منتمين لجمعية الإخاء، جرى نفيهم، إمّا إلى (بونزا) بإيطاليا أو انضموا إلى المتمردين. وكانوا هم الأجدر بثقة الحكومة وليس جميع الآخرين المنتمين للجنة الإتحاد والترقي. وفي ظلّ هذه الظروف ينبغي إستخلاص- كما سبق التوضيح- نهجا مضمونا من الحكم في المستقبل، وأن يكون هدفنا في برقة هو إضعاف ما أمكن الروابط التي ما فتئت

١٥ في الدراسة عن الماسونية ورد أنها كانت الجريدة الناطقة بها، وقد أشرنا في الفصل عن السيد المهدي السنوسي أن الصحف التركية الناطقة باسم تركيا الفتاة تهجّت عليه أيضاً (المؤلف).

١٦ لعلّ التقرير يشير هنا إلى "منظمة تشكيلاتي مخصوصة" التي كوّنها سرياً ضباط أتراك إبان الغزو الإيطالي لليبيا، والتي رعاها أنور باشا أحد زعمائهم عندما أقام بالجبل الأخضر في برقة، وقاد الجهاد في مرحلته الأولى. وسبأتي الحديث عنها في الدراسة الثانية عن هذه المقاومة الجادّة المسلحة.

توحد بين هذا الإقليم وإسطنبول، إلى أن نصل إلى النتيجة المتوخاة، أي تمزيقها إربا إربا بالطبع. وهدف كهذا لا يمكن بلوغه دون خلق ما يمكن وصفه بوعي وطني لدى الأهالي من شأنه تشكيل سياسة عربية، تطلعا إلى يوم يستعيد فيه هذا الشعب وعيه بنفسه وبكرامته القومية<sup>١٧</sup>، دون أن يتوجه مرة أخرى نحو إسطنبول، إذ لن يترتب على هذا التوجه إلا الآثار الخبيثة الضارة بمصالحنا.

إن الحافظ الغريزي الذي يحرك هؤلاء العرب عندما تنوي تركيا أن تفرض عليهم نظاما ليسوا مهتمين له، لا ينبغي أن يتحول إلى شعار أو عامل أكثر شمولا وعمقا لصالحنا". (إنتهى نص التقرير).

### الرأي الإيطالي الرسمي في السنوسية

وعندما نزلت قوات الغزو على الشواطئ الليبية في سبتمبر ١٩١١ وواجهت المقاومة العنيدة من كتائب الشعب المسلحة، ظنت أن معاهدة لوزان التي عقدها إيطاليا مع تركيا في أكتوبر ١٩١٢، وتنازلت بموجبها تركيا عن مستعمراتها القديمة وانسحب جيشها الهزيل عنها، أنها سوف تجعل ليبيا طائعة خاضعة لها. ولكن المقاومة ازدادت اشتعالا مع ازدياد فظائع المستعمرين الإيطاليين، إلى أن تحققت الانتصارات على كامل التراب الليبي، وانحصرت الجيوش الإيطالية مستحكمة في ثكناتها في طرابلس والخمس. عقب معارك النضال الوطني الشهيرة التي توجت بمعركة "القرضابية- قصر بوهادي" في أبريل سنة ١٩١٥ بقيادة السنوسية. وهنا أخذ قادة الإستعمار الإيطالي يعيدون النظر في (ظاهرة) السنوسية، إذ رصدها وزير المستعمرات الإيطالي ماريتيني، وكتب عنها في تقرير سرّي مطول له تحت رقم ٢٤٦ بتاريخ ١٢-٦-١٩١٥، نقتطف منه الفقرات التالية:

استهل الوزير تقريره عن ضرورة التمييز بين السلطة الزمنية في العالم الأوروبي والسلطة الروحية التي تمارسها المنظمات الدينية في العالم الإسلامي: "فالأخيرة لا تفصل بين السلطتين لأن منطلقاتها التاريخية لا تسمح بذلك، حتى لو أرادت. والأساس المذهبي لهذه الظاهرة في العالم الإسلامي، هو أن النطق الإلهي حول ما يتعلق بمجمل النشاط الإنساني، سواء في جانبه المادي أو المعنوي، يتخذ طابع الإلتزام الصارم ويكافأ بالجزاء المقدس.. وبالنسبة للمسلم، فإن الشعور الاجتماعي المدني أو القومي أو الوطني، يتقمص بل ويندغم في الشعور الديني؛ وبالتالي فالتعبير الشائع عما يوصف بالتطرف الإسلامي، هو تعبير خاو من المضمون، لأن المتطرف لا يدعو كونه متحمسا وطنيا. Patriotic. وهكذا تتصف المشاعر بيننا وبينهم في هذا الفرق الشاسع في المعنى. وما يطلق عليه

١٧ إستعمل التقرير كلمة Razza أي الجنس أو العرق وهو ما لم يعد مستعملا في وقتنا الحاضر (المؤلف).

أحزابا سياسية، هو عند المسلمين الفرق الدينية أو الإخوانيات. وإذا ما أخذنا السنوسية كمثال، فسنجد أن المحتوى السياسي يزكو على المحتوى الديني الصرف، وسواء حللناه مذهبيا أو لاهوتيا، فإن هذا المحتوى يغفل القاعدة المشتركة للشطحات العدمية الإسلامية أو ما يسمى بالصوفية. وإذا ما طرحنا جانبا الطقوس والتصرفات التقليدية الخاصة، التي تفرض على الأتباع والتي لا تكتسي إلا قيمة مظهرية ذات هدف انضباطي مميز، فإن هذه الفرق لا تختلف في الأساس عن المضمون والشكل الخاص الذي تتسم به الإخوانيات المسيحية المختلفة. غير أن الطهارة الإسلامية الأصلية التي تدعو السنوسية إلى العودة إليها، لا تنطوي في واقع الأمر على أي نوع من التقاليد الدوغماتية (اللاهوتية المتشددة)، فما تعتنقه السنوسية من مثل النقاء والتطلع إلى الإصلاح، والتعمق في المبادئ السياسية والتشريعية لإسلام، يرنو إلى عهد الرسول وما ورثه عنه الخلفاء من سلطة مدنية، وما تتسم به تلك السلطة من شرعية للمؤسسة السياسية الدينية. إن هذا المحتوى السياسي الجوهري الغالب عند السنوسية، يفسر لماذا استشعرت في نفسها القوة الكامنة بضرورة خلق منظماتها الذاتية التي جعلتها تتجلى في (دولة داخل دولة). وذلك خلافا لغيرها من إخوانيات إسلامية مماثلة - ما عدا الوهابية التي تتبع السنوسية في الواقع منها. إن هذا أشاع الاعتقاد أنه من العبث إيمان أو تصور فصل الزمني عن الروحي في بلد إسلامي، وفي حالة السنوسية بالذات فالأمر سيكون طوباوية ضارة."

وقد جاء ذلك في سياق حقبة الكفاح المسلح الدامي الطويل الذي خاضه الشعب الليبي بقيادة السنوسية ضد قوات الغزو الإيطالية. وهو ما سنعرض له في الدراسة التالية إن شاء الله.

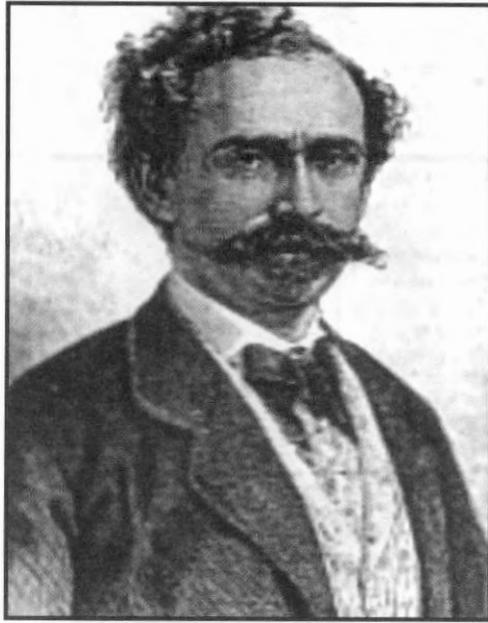


الصور - المراجع - الفهرس



الصـور





الرحالة الألماني ناختيجال



الرحالة الألماني رولفس الذي قابل السيد المهدي



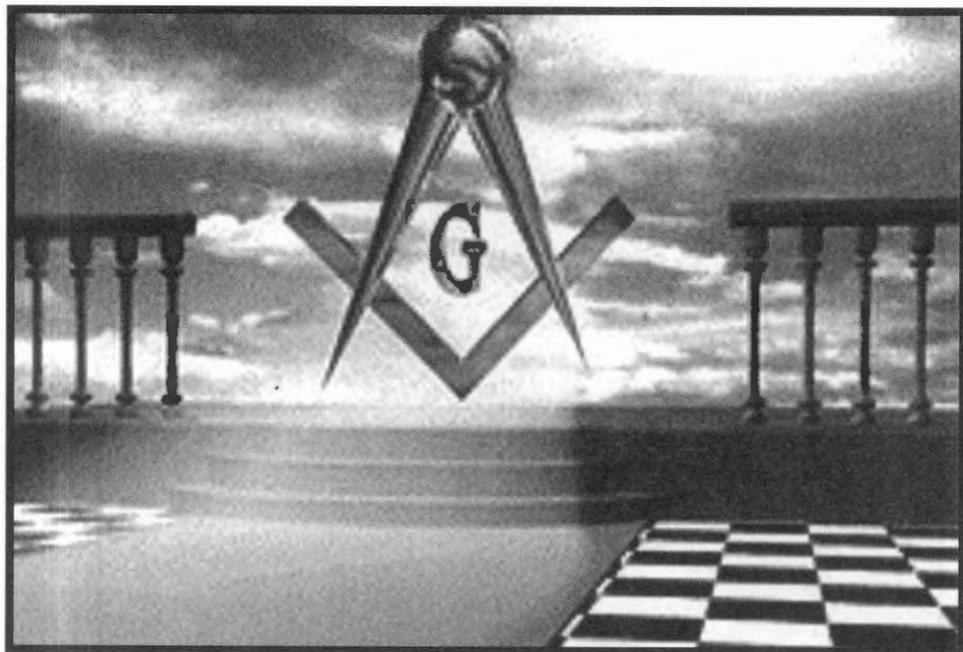
الرحالة الفرنسي دو فيريير



الجنرال كيتشنير مؤسس الماسونية في مصر



الرحالة روزيتا فوربيس بالزي الليبي



رموز الماسونية



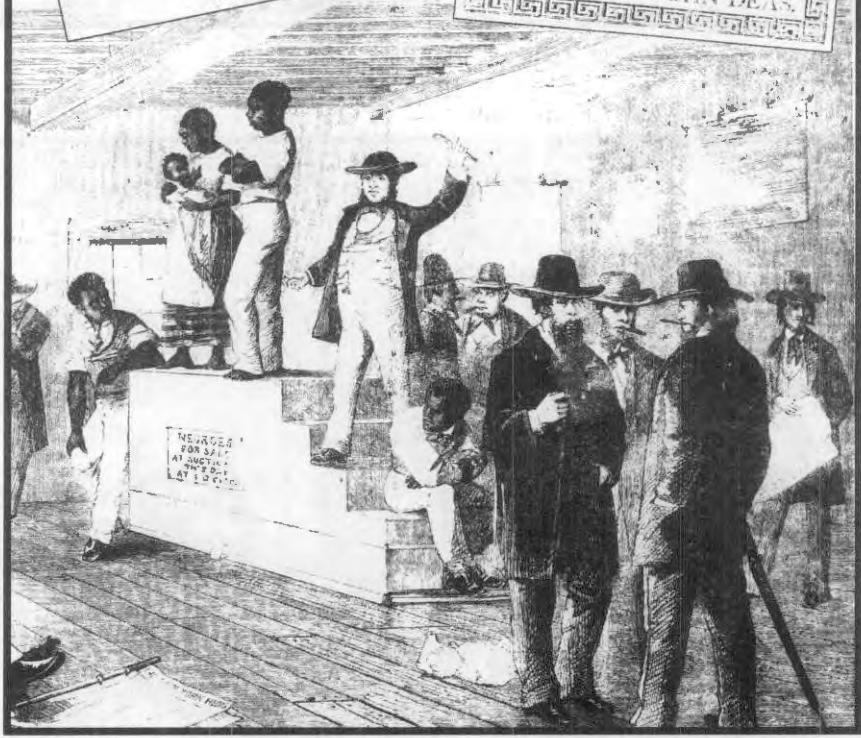
المحفل الماسوني المصري في الأربعينات

TION,  
UARY inf.  
URGE

**TO BE SOLD by William**  
 Yeomans, (in Charles Town Merchant,) a  
 parcel of good Time Credit, Security to be given if required There's likewise to be sold, very good Troop-saddles and Furniture, choice Barbados and Bohon Rum, also Cordial Waters and Limejuice, as well as a parcel of extraordinary Indian trading Goods, and many of other sorts suitable for the Season.



Charleston, July 24th, 1769.  
**TO BE SOLD,**  
 On THURSDAY the third Day  
 of AUGUST next,  
**A CARGO**  
 OF  
**NINETY-FOUR**  
 PRIME, HEALTHY  
**NEGROES,**  
 CONSISTING OF  
 Thirty-nine MEN, Fifteen BOYS,  
 Twenty-four WOMEN, and  
 Sixteen GIRLS.  
 JUST ARRIVED,  
 In the Brigantine *DEMBA*, *Francis Bure*, Master, from SIERRA-LEON, by  
**DAVID & JOHN DEAS.**



رسم يصور بيع الرقيق في أمريكا في المزاد العلني



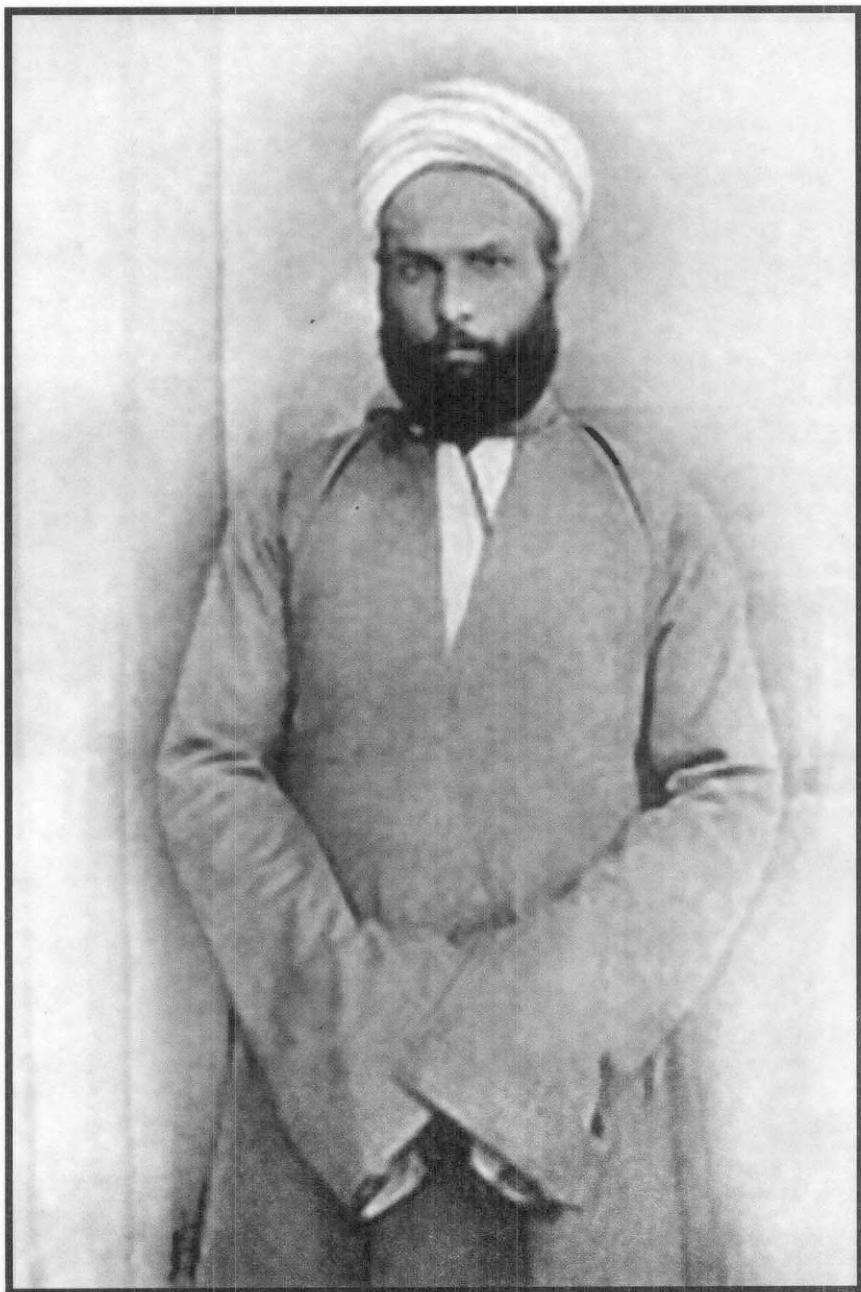
المناضل (دوبوا) أول من نادى بتأسيس الإتحاد الأفريقي.  
ولد في سنة ١٨٦٨ ، وتخلّى سنة ١٩٦١ عن جنسيته الأمريكية  
وهاجر إلى غانا التي توفي فيها سنة ١٩٦٣ .



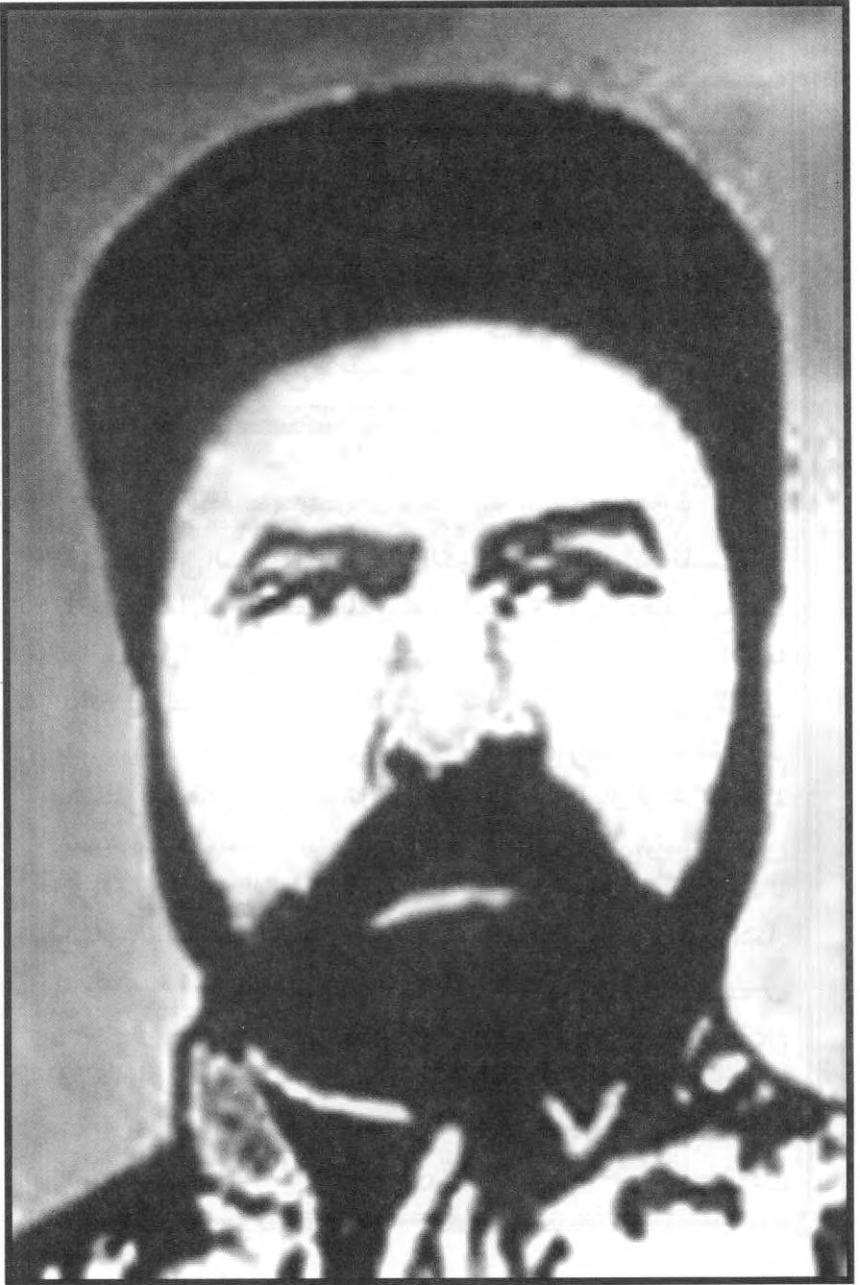
عبد الرحمن الكواكبي



جمال الدين الأفغاني في شبابه



الشيخ محمد عبده في شبابه



خير الدين التونسي

من الملاحظات العقلية والعفوية على ما نشره بطي فصوله يصوع \*  
 وسببته - اقوم المسالك \* في معرفة احوال الممالك \* مرتباً له على  
 مقدمة وكتابين يشتمل كل منهما على ابواب \* وبمداية الله نستوعب  
 ناهي الرشد والصواب \* والمجرى في هذا المجلد وان كان فوق طاقتي \*  
 لكن اغصاء الفصلاء مامل في جنب فاقتي \* وصدق النبيه \* كاذل  
 ان شاء الله تعالى ببلوغ لانيه \*

### المقدمة

لما كان السبب الحامل على الشيء متقدماً عليه طبعاً ناسب ان  
 نقدمه وصفاً ولم نكتف بالايماه في الخطبة الى ما دعانا لجمع هذا  
 التاليف بل رأينا من المهم ان نعود الى ايضاحه هنا ونبني عليه ما اردنا  
 ايراده في المقدمة فنقول ان الباصت الاصل على ذلك امران آيلان الى  
 مقصد واحد احدهما اقراء ذوي الفيرة والحزم من رجال السياسة والعلم  
 بالناس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة الى حسن حال الامة للاسلامية  
 وتنمية اسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان وتمبيد طرق  
 الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات ونقى اسباب البطالة  
 واساس جميع ذلك حسن الامارة المتولد منه الامن المتولد منه الامل  
 المتولد منه اتقان العمل المشاهد في الممالك الاورباوية بالعيان وليس  
 بعده بيان ثنائيهما تصدير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تصادهم  
 في الامراض مما يعمد من سيرة الغير الموافقة لشرها بمجرد ما انتشس  
 في قولهم من ان جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراثيب ينبغي  
 ان يسجر وتاليسهم في ذلك يجب ان تنبذ ولا تذكر حتى انهم يشددون



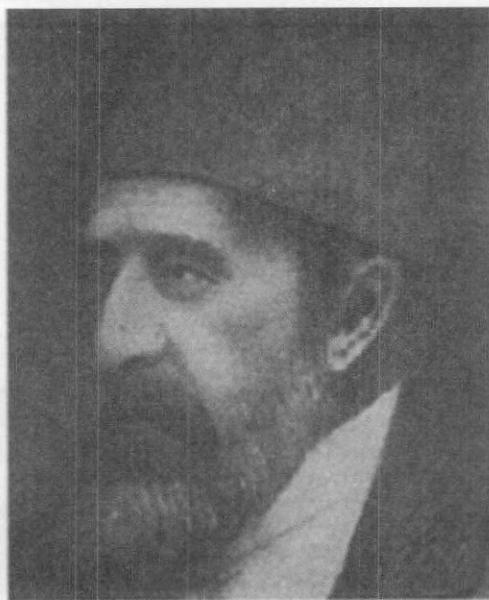
مشهد بانورامي لبنغازي سنة ١٨٦٠



مشهد بانورامي لطرابلس ١٨٦٠



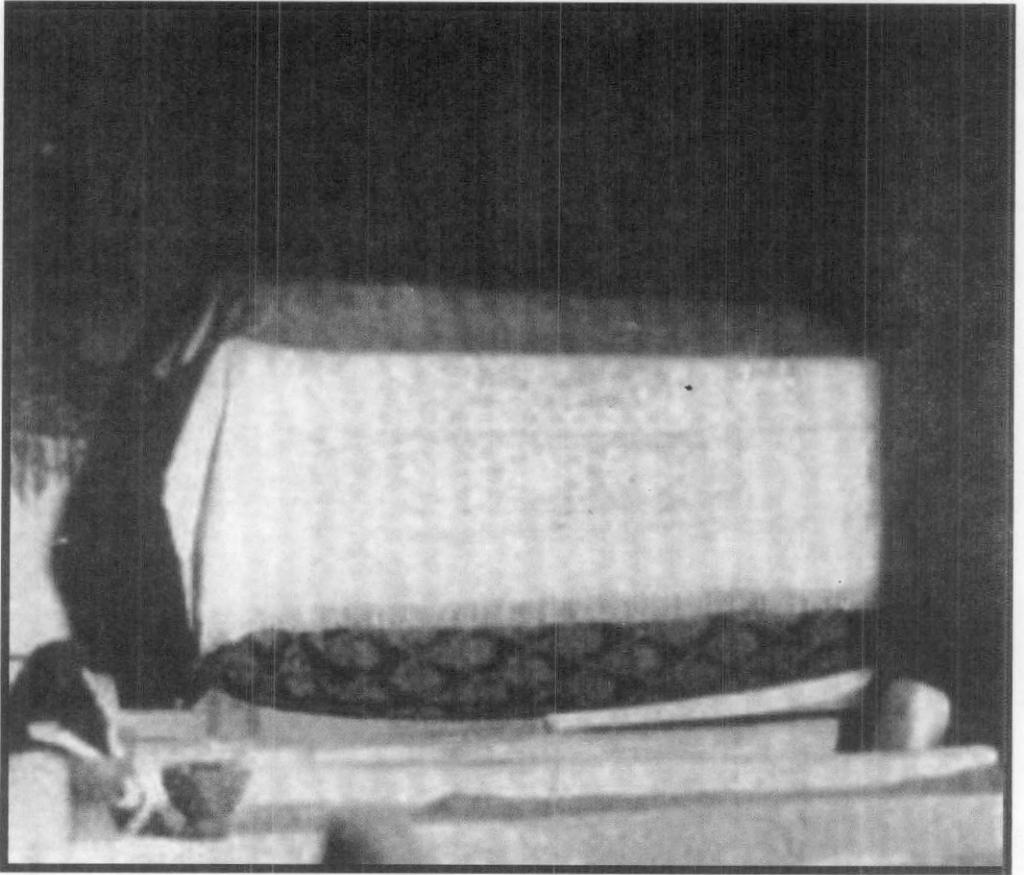
محمد الخامس 1909-1918 م



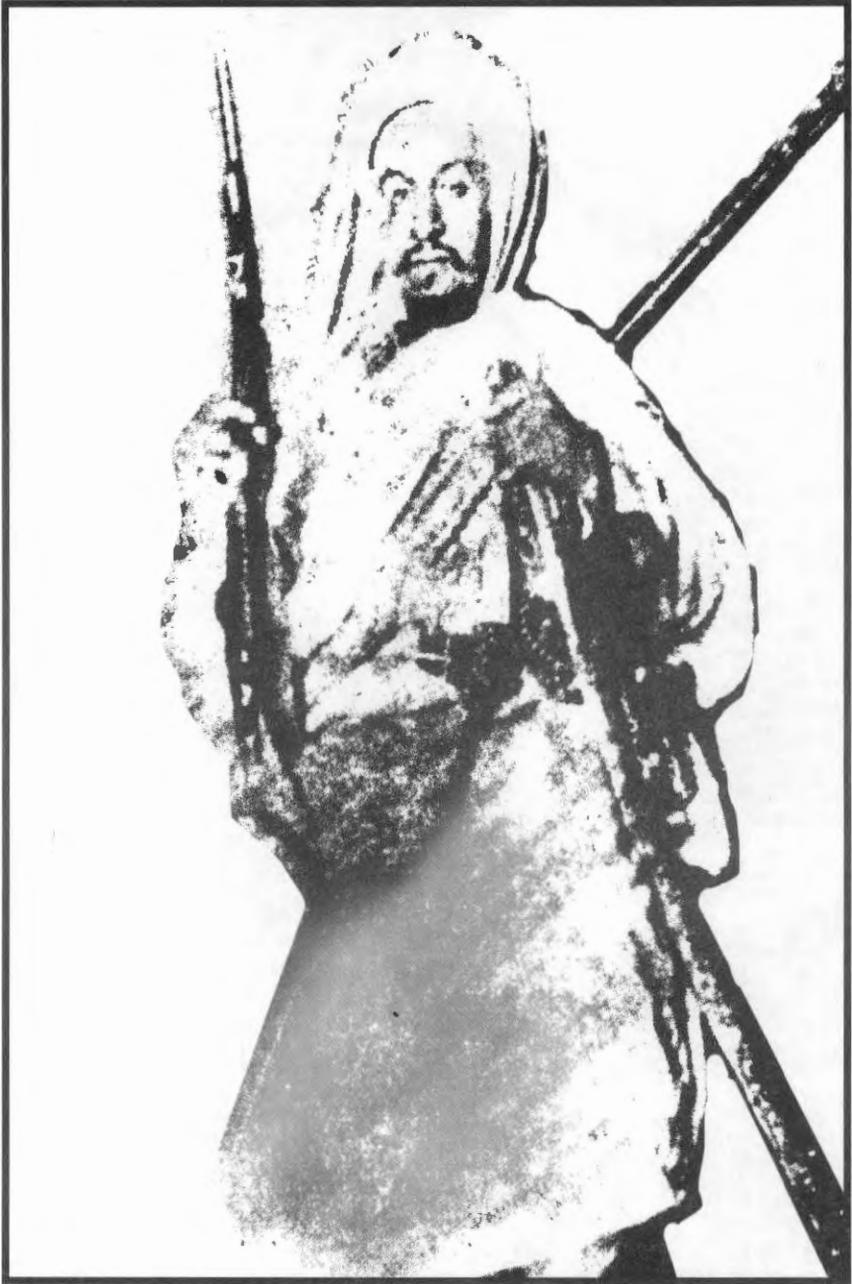
محمد السادس 1876-1909 م



سيدي محمد بن علي السنوسي



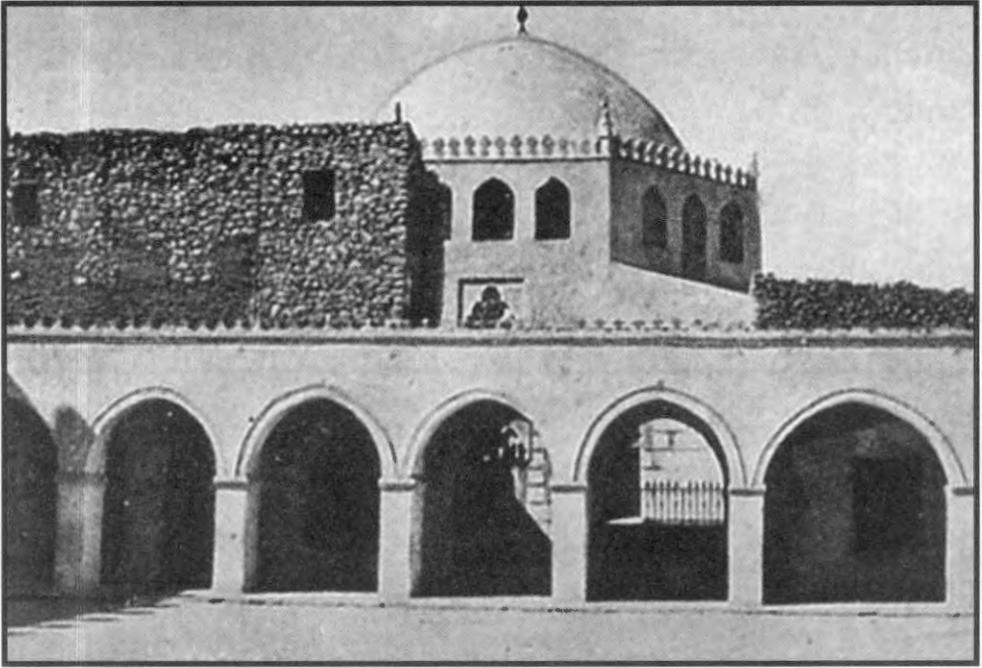
جثمان السيد المهدي مسجّي



السيد أحمد الشريف قائد المجاهدين مدجج بال سلاح



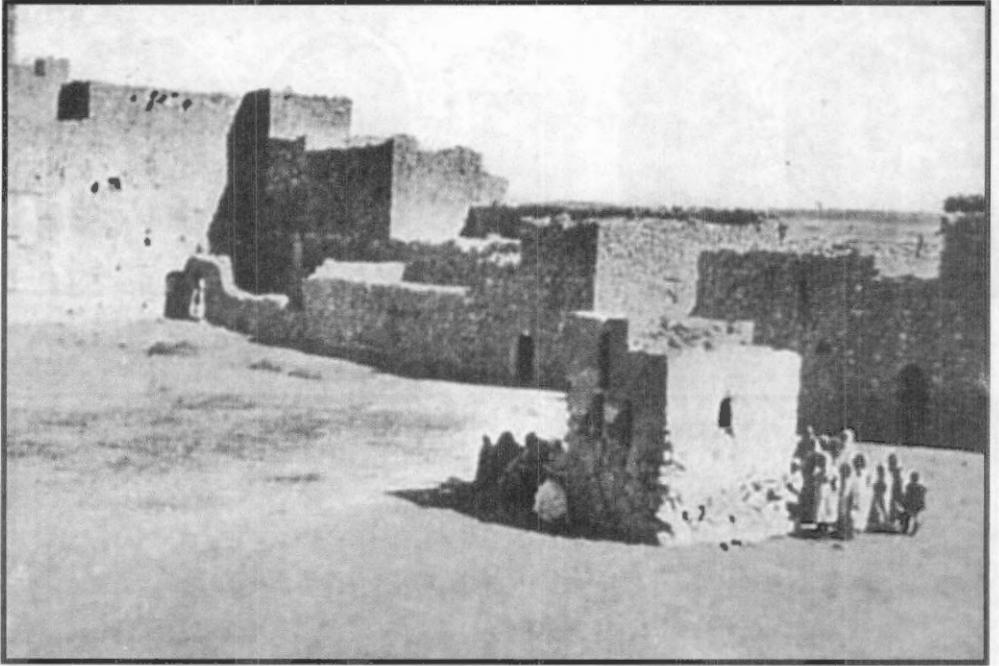
القائد السنوسي مهدي السنّي



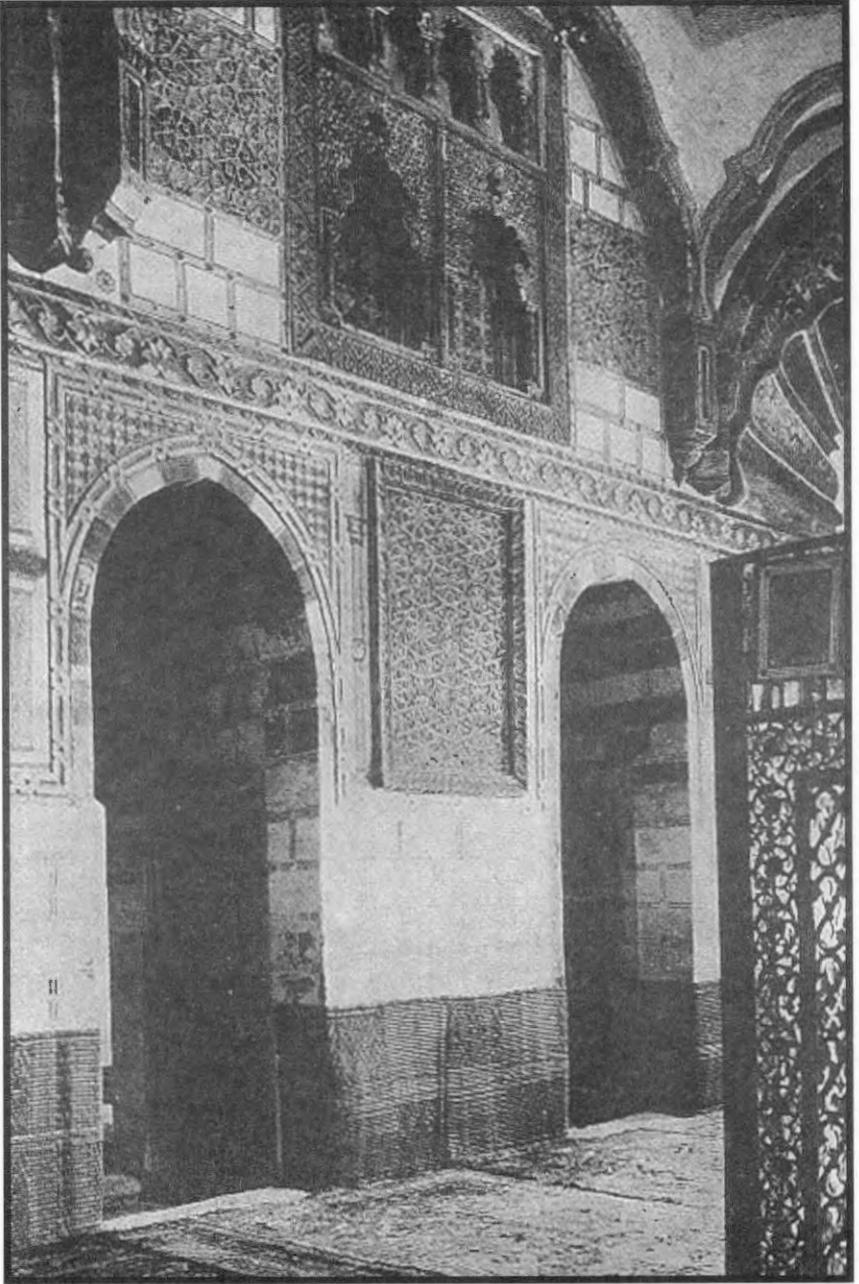
مسجد وضريح سيدي محمد بن علي السنوسي



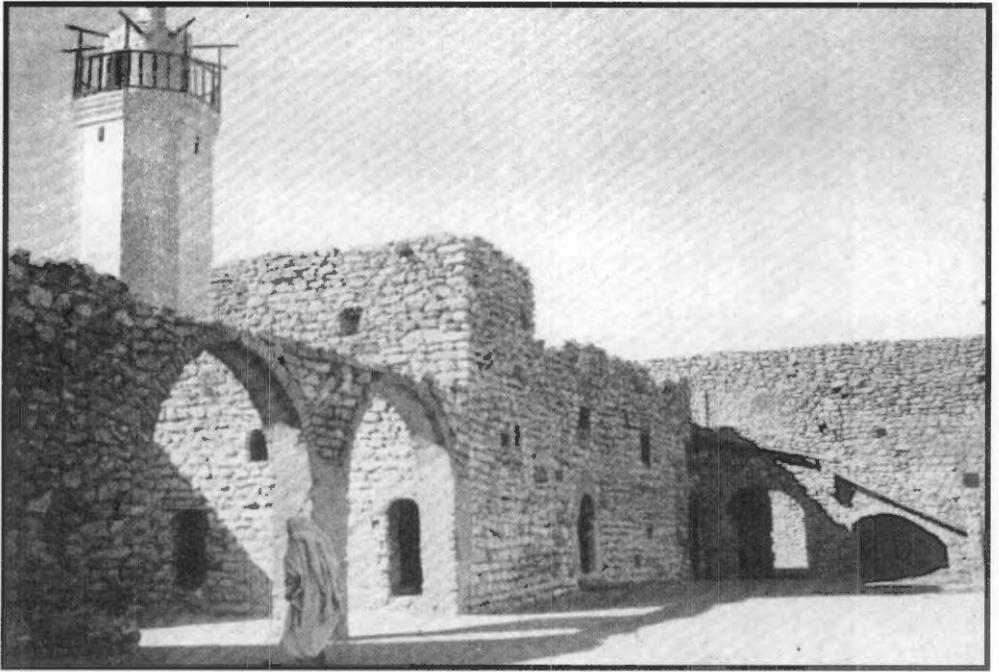
منظر فوق لزاوية الجفوب



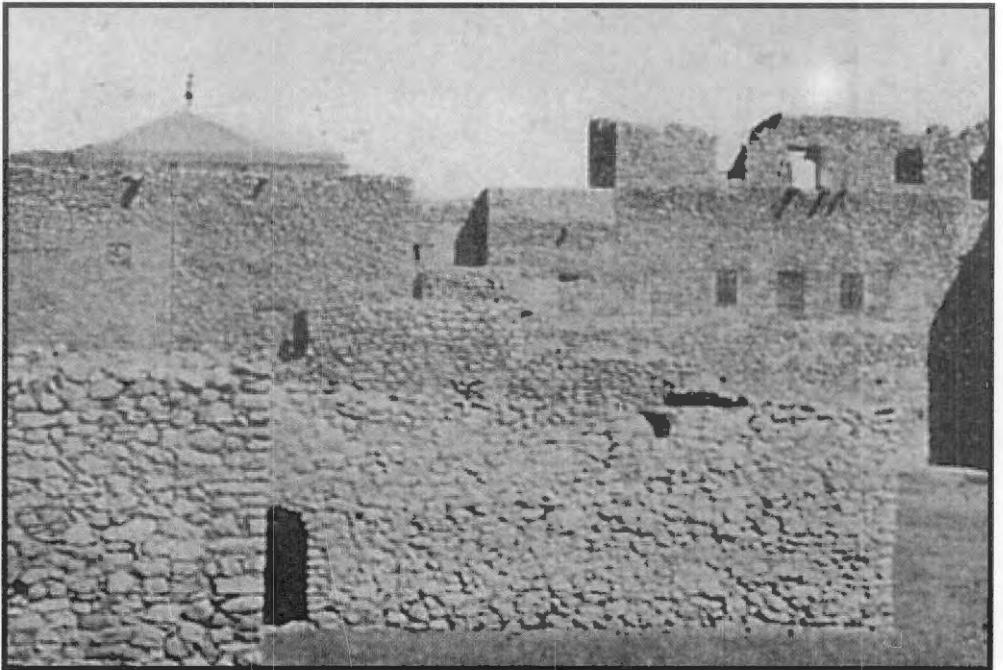
بئر الشرب في الجفبوب



منظر داخلي لمسجد الجفبوب



مأذنة مسجد الجفبوب



منزل السيد إدريس بالجفبوب



زاوية "الأستاذ" في الكفرة



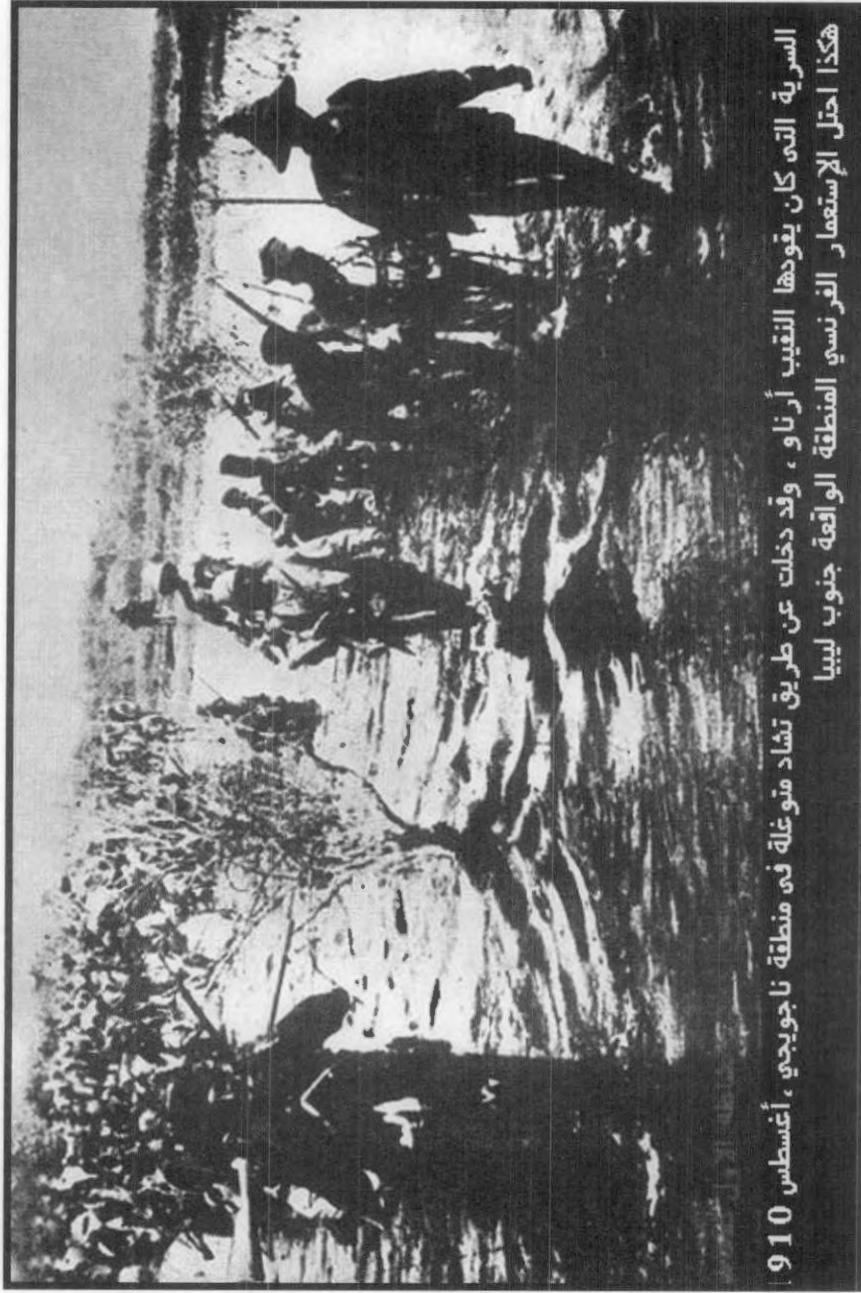
المدخل إلى زاوية الكفرة



الزاوية السنوسية في مدخل "غدامس"



ضباط فرنیسون بعد إحتلال (عین جالکا)

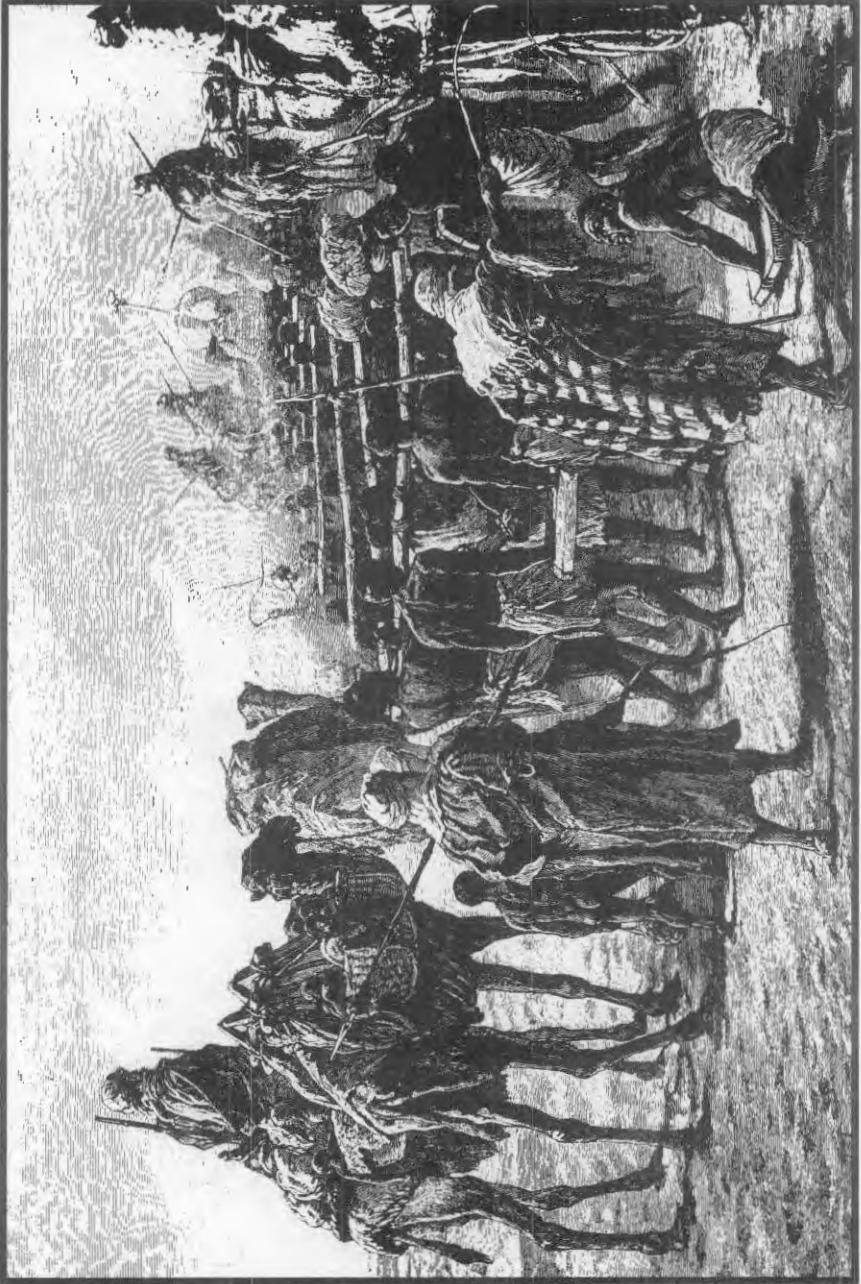


السرية التي كان يقودها النقيب أرناو ، وقد دخلت عن طريق تشاد متوغلة في منطقة نا جويجي ، أغسطس 1910  
هكذا احتل الإستعمار الفرنسي المنطقة الواقعة جنوب ليبيا

الغزاة الفرنسيون يواجهون المقاومة السنوسية



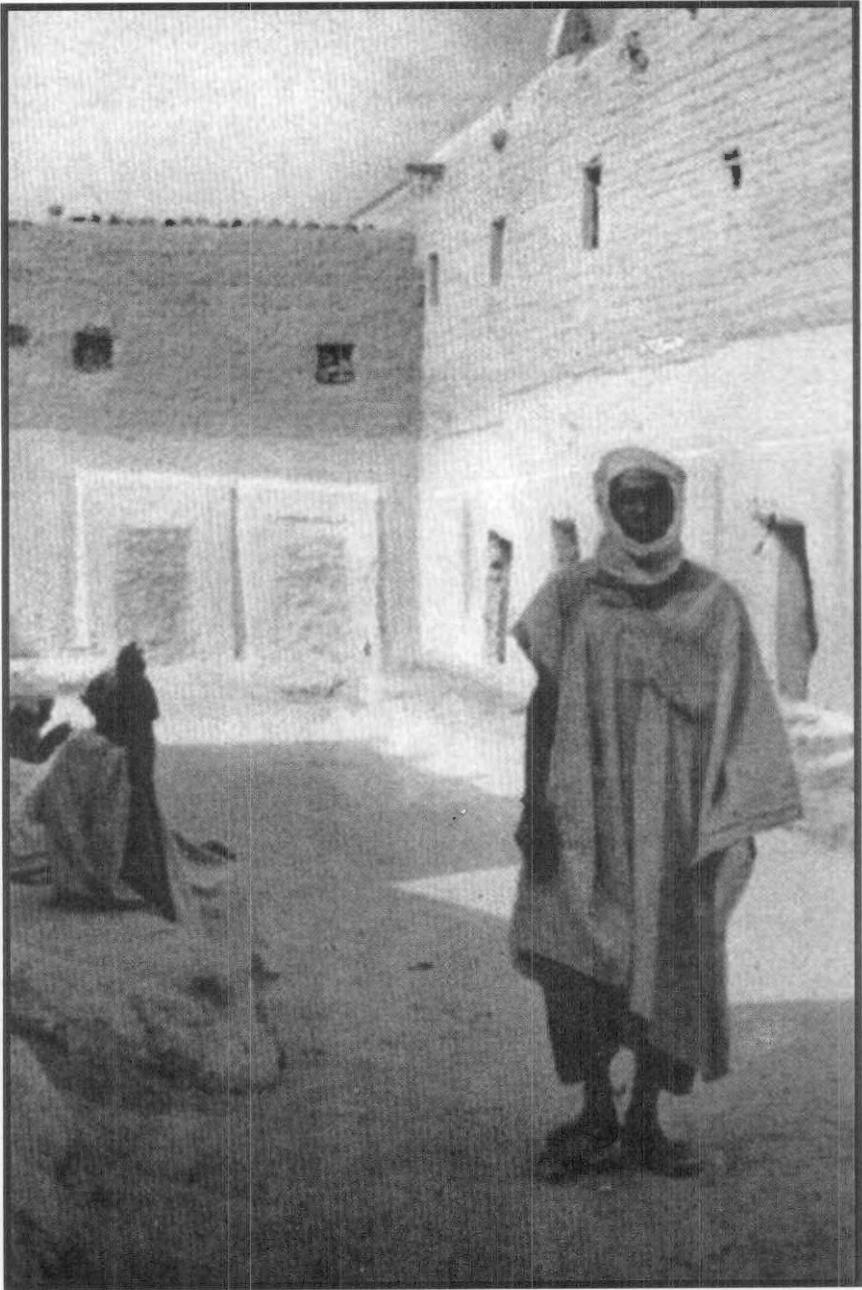
مقاتل سنوسي في الصحراء



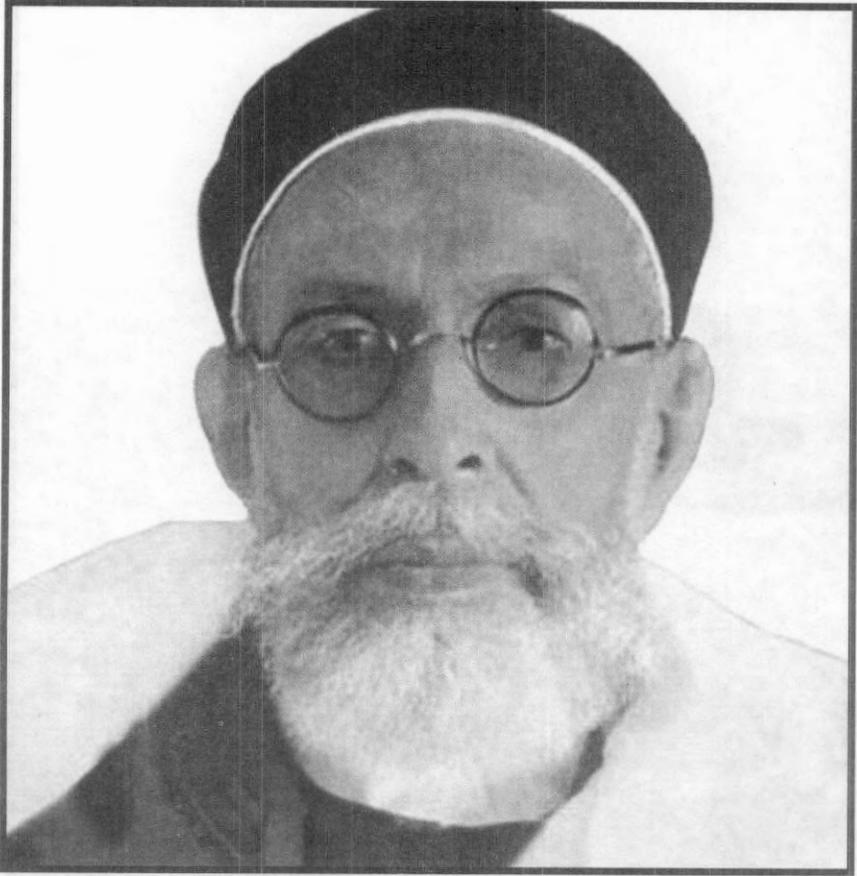
قافلة عبيد تعبر الصحراء إلى الساحل الليبي



الرحالة المصري أحمد حسنين







الملك محمد إدريس السنوسي

## قائمة المراجع



## قائمة المراجع

### الكتب العربية

- أشرف توماس ارنولد  
- تراث الإسلام - تعريب وتعليق جرجيس فتح الله - دار الطليعة بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٧٨.
- أجنتيوس جولد تزيهر  
- مذاهب التفسير الإسلامي - ترجمة د عبد الحليم النجار - مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثني ببغداد 1955
- ابن خلدون  
- ظهر الإسلام - الطبعة الخامسة - ١٩٨٢ مكتبة النهضة المصرية - القاهرة. وذلك إقتباسا من الفصل الذي أورده ابن خلدون في مقدمته عما سماه علم التصوف، إصدار دار إحياء التراث العربي - بيروت د.ت
- حسين مروة  
- النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية - الجزء الثاني، دار الفارابي بيروت ١٩٨١ .
- الفرق بين الفرق (ص ٢٤٧ منشورات دار الأفاق الجديدة - ١٩٨٠ بيروت).
- محمد عبد الفتاح عليان  
- قرامطة العراق - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - ١٩٧٠
- الدكتور صلاح الدين عبد اللطيف الناهي  
- الخوادم من آراء حجة الإسلام الغزالي - دار الجبل بيروت دار عمار - عمان ١٩٨٧ .
- للدكتور حسين أمين  
- الغزالي فقيها وفيلسوبا ومتصوفا - مطبعة الأرشاد ف ببغداد ١٩٦٣ .
- الشيخ محمد عبده  
- الإسلام دين العلم والمدنية - تقديم د. عاطف العراقي دار سينا للنشر - القاهرة ١٩٨٧ .
- بأشرف روزنتال و يودين  
- الموسوعة الفلسفية - ترجمة سمير كرم، دار الطليعة - بيروت ١٩٨٥
- عبد الكربم الجيلي  
- الإنسان الكامل - مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٣ دار إحياء التراث القومي بيروت د.ت

## • الصلابي

- كتاب الحركة السنوسية في ليبيا- الصلابي
- الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية - دمشق ١٩٦٠ دار لبنان ١٩٦٧.
- سلسلة الدراسات الشرقية والأفريقية، لندن ١٩٤٥
- الموقع الإلكتروني (ليبيا نيوز ليست) في شهر مايو ٢٠٠٤
- علي محمد الصلابي
- - (الحركة السنوسية في ليبيا) - الجزء الأول
- ليبيا في كتب التاريخ والسير
- الشيخ محمد عبده
- - الإسلام دين العلم والمدنية - تقديم د. عاطف العراقي - سينا للنشر القاهرة ١٩٨٧
- ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات
- محمد عابد الجابري
- - الحركة السلفية والجماعات الدينية المعاصرة في المغرب
- كتاب "الأولياء في المغرب"
- د. إبراهيم حركات
- - كتاب المغرب عبر التاريخ .
- برقة في العهد العثماني الثاني
- محمد عمارة
- - الإستقلال الحضاري - مطبعة الوحدة، القاهرة- ١٩٨٦
- العالم المحمدي اليوم - نيويورك ١٩٠٦
- روضة الأفكار
- عنوان المجد في تاريخ نجد
- لمع الشهاب في تاريخ محمد بن عبد الوهاب
- ابن سعود العربية وبلاده- لندن - ١٩٢٨.
- فان ديفيلين الهولندي
- - عقيدة الوهابية - لايدن ١٩٢٧
- جاسكيل - لايزيغ
- - الوهابيون القدامى والمحدثون- ١٩٢٩.
- يوزيف شاخت
- - المقولات الوهابية- الوهابيون القدامى والمحدثون- بقلم جاسكيل - لايزيغ ١٩٢٩.
- أحمد محمد حسنين (باشا)
- - في صحراء ليبيا
- الثورة المهدية

- للأب لويس شيخو
- السرّ المصون في شيعة الفرمايون - سنة ١٩١٢
- عبدالله عنان
- تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة
- عبد الرحمن عميره
- الماسونية- أحد المذاهب المعاصرة
- المنهل العذب
- الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى- ترجمة د.علي اعزازي - إصدار مركز دراسات الجهاد، طرابلس ليبيا ١٩٨٢.
- ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص ٢٧٦ - ٢٧٩ اختيار وتصنيف د. محمد يوسف نجم ود.أحسان عباس - دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي ١٩٦٨
- عبد اللطيف البرغوثي
- التاريخ الليبي القديم - منشورات الجامعة الليبية ١٩٧١
- مصطفى بعيو
- دراسات في التاريخ اللوبي ص ١٧٣، الجمعية التاريخية بجامعة الاسكندرية ١٩٥٣
- جوتيه
- ماضي شمال أفريقيا - ص ١٣١ ترجمة هاشم الحسيني ، دار الفرجاني - طرابلس ١٩٧٠
- د. حسين مؤنس
- (فزان ودورها في انتشار الاسلام في أفريقيا) مجلة كلية الآداب - الجامعة الليبية - بنغازي ١٩٦٩
- جيمس ويلارد
- "الصحراء الكبرى" إصدار دار الفرجاني - طرابلس ، ليبيا ١٩٦٧.
- المختار في مراجع ليبيا دار الطليعة للطباعة والنشر ببيروت
- أتيليو موري
- الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا- صدر عن الفرجاني للنشر عام ١٩٧١.
- د.عبد اللطيف محمود البرغوثي
- التاريخ الليبي القديم- من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي - إصدارات الجامعة الليبية - دار صادر ١٩٧١
- - رودولفو ميكاكي
- طرابلس الغرب تحت حكم القرمانلي
- عبد الرحمن تشايجي
- الصراع التركي الفرنسي

- جيمس ويلارد
- الصحراء الكبرى - مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا - مايو ١٩٦٧
- سعيد عبد الرحمن الحديري
- العلاقات الليبية - منشورات مركز الجهاد - طرابلس - ليبيا ١٩٨٢.
- (فزان وطرابلس) باريس ١٩٦٣
- التنوع الثقافي والإجتماعي في ليبيا - ليبيا منذ الاستقلال
- تاريخ برقة في العهد العثماني الثاني
- ليبيا قبل الإحتلال الإيطالي " - مطبعة الزيتون بالقاهرة ١٩٧١
- "المشكلات القانونية المتفرعة عن قضية فلسطين
- الدجاني
- ليبيا قبل الإحتلال الإيطالي
- صفحات خالدة من الجهاد
- أمين سعيد
- الدولة العربية المتحدة- مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة ١٩٣٨

## المجلات

- مجلة (النادي) عددها لشهري نوفمبر - ديسمبر ١٩٠٧
- مجلة (الفكر الجديد) العراقية في عددها بتاريخ يونيه ١٩٩٢
- مقابلة الإمام للخديوي أرشيف الخارجية الإيطالية مؤرخة في ١٠ نوفمبر ١٩١٣
- ترجمة لتقرير نشرته مجلة (العلم) القاهرية عن سيرة السنوسي الكبير
- مجلة عمر المختار - بنغازي اغسطس / سبتمبر ١٩٤٣

## المراجع الأجنبية

- Hein Khoury/Hagemann p 27\* 570, Herde, Freiburg, 1992 Islam Lexikon 1 Shorter Encyclopaedia of (\*) Islam H.A.R. Gibb + S.H. Kramer S-Luzac London - 1961 ص 577
- 1 FRANCESCO MARIANO - LA QUESTIONE DI GIARABUB - P 20 ZANICHELLI (BOLOGNIA) 1925
- Depont et Coppolani Les Confreries religieuses musulmanes , Alger Jourdan , 1897
- (الإسلام والإخوانية السنوسية) بقلم Monte Santa Maria Cap. Bourbon Del
- La confrérie' Musulmane De Sidi M. uhammad
- Essunusi et son domaine géographique en l'anne'e 1300 del' He' gira 1883 de la
- notre ere. Paris - Socié'te' de géographie , 1884 بقلم Henri Duverier وترجمته
- Depont et Coppolani Les Confreries religieuses musulmanes , Alger Jourdan , 1897
- Hand book on Cyrenaica
- Alberto Giaccardi - L'AFRICA nelle vicende politiche e diplomatiche tipografia agostiniana ص 37 - Roma 1938 dell'europa
- Italia e Senussia
- The Sanusi of Cyrenaica
- Paul A. Fisher, Behind the Lodge
- Die Logen der Freimaurer- Juergen Holtorf- Nikolverlag, Hamburg 1991
- Relazione Fra Turkia e Senussi - Documenti Nello Achivio di Tripoli- Macaluso

- DC. Cumming-the modern history of Cyrenaica university of London
- Jhon Wrigt – Libya chad And the central Sahara – p.11- Hurst +co . London 1989.
- John Iliffe (Geschichte Africas) S.172 verlag C.H.Beck – Muenchen(2000
- Libya Chad and the Central Sahara
- Jhon Wright
- Susne Everett - Geschichte der Sklaverei –Bechtermuenz Verlag1998
- The Sudan ane westen Sudan 1861. A. A Boahen– 1788
- Tripoli in Una descizione Due cente anni fa
- MRodinson The Arabs
- SAHARA UND SUDAN BERLIN 1879-81
- Islam and confraternities in French North Africa
- Les Tuarg du Nord
- Documents scientifiques de la mission saharienne – Paris,Masson et c.1905
- Bericht uber Politiche Verhaeltnisse in Mitleren Sudan In mitteilungen
- Senoussia,in Reinseignements Coloniaux Afrique Francaise
- Geographical Journal Vol 47,11,2 Feb 1916
- British Documents the origen of war 1898-1914- London

# الفهرس



# فهرس السنوسية

الصفحة

- شكر وامتنان ..... ٥
- المقدمة ..... ٩

## الفصل الأول

### التصوف الإسلامي- عرض تاريخي عام.

- التصوف الإسلامي - عرض تاريخي عام ..... ١٧

## الفصل الثاني

### عقيدة السنوسية كطريقة صوفية

- عقيدة السنوسية كطريقة صوفية ..... ٥١
- سيرة المؤسس وأهدافه السياسية ..... ٥٣
- المحتوي الفكري والفقه للعتيدة السنوسية ..... ٥٩
- السنوسية ومفاهيم الاجتهاد ..... ٦٤

## الفصل الثالث

### السنوسية في مواجهة التمدد الاستعماري

- السنوسية في مواجهة التمدد الاستعماري ..... ٧٧
- في مصر ..... ٧٧
- في تونس ..... ٧٩
- في الجزائر ..... ٨٠
- في السودان ..... ٨٢

- ٨٤ كيف تمركز الإمام المؤسس .....
- ٨٨ الزوايا: فلسفتها وتنظيمها .....
- ٩٦ تقرير سلوش عن السنوسية .....
- ١٠٤ التنظيم القيادي للسنوسية .....

### الفصل الرابع السنوسية بين تيارات السلفية والاصلاح

- ١١٩ أولاً المقارنة مع الحركات السلفية .....
- ١١٩ ١- مع الوهابية .....
- ١٢٧ ٢- مع المهديّة .....
- ١٣٢ ثانياً: بالمقارنة مع حركات التنوير الحديثة .....
- ١٣٥ الأفغاني والماسونية .....

### الفصل الخامس الماسونية

- ١٤٩ الماسونية .....
- ١٥٣ الماسونية في العالم العربي .....
- ١٥٣ ١- في مصر .....
- ١٥٨ ٢- الماسونية في الشام والعراق ودور الأمير عبد القادر .....
- ١٦٦ المعارضة الكاثوليكية للماسونية .....
- ١٦٨ المعارضة السياسية .....

### الفصل السادس السنوسية والطرق الأخرى وعلاقتها بتركيا

- ١٧٥ السنوسية والطرق الأخرى وعلاقتها بتركيا .....
- ١٧٨ نوعية العلاقات التركية السنوسية .....
- ١٨١ برقة كقاعدة انطلاق للسنوسية .....
- ١٨١ ١- نظام التسيير الإداري .....
- ١٨٣ ٢- الوضع الاقتصادي .....
- ١٨٦ ٣- الاتصالات والمواصلات .....
- ١٨٦ ٤- التعليم والصحة .....

## الفصل السابع

### عهد المهدي السنوسي ١٨٥٩ - ١٩٠٢

- ١٩٣ ..... عهد المهدي السنوسي ١٨٥٩ - ١٩٠٢ •
- ١٩٦ ..... ١- البدايات الأولى •
- ٢٠٣ ..... ٢- التغلغل الأوروبي •
- ٢٠٥ ..... تاريخ رحلة كل بعثة وما جرى لأفرادها •
- ٢٠٨ ..... الواداي •
- ٢٠٩ ..... الواداي والباجرمي •
- ٢١٠ ..... كانم وبورنو •
- ٢١٢ ..... إحتلال كانم لفرّان •
- ٢١٤ ..... تعمق العلاقات في العهد القرمانلي •

## الفصل الثامن

### ليبيا وتجارة الرقيق

- ٢٢١ ..... الرقيق عبر القرون وفي نظر الديانات السماوية •
- ٢٣٢ ..... تطوّر عمليات إلغاء الرق •
- ٢٣٨ ..... قضية الرق في ليبيا •
- ٢٤٧ ..... هجرة أولاد سليمان وتأثيرهم في حياة تشاد •

## الفصل التاسع

### الصراع السنوسي - الفرنسي المسلح

- ٢٦١ ..... التغلغل السنوسي •
- ٢٧٠ ..... التوجس التركي •
- ٢٧٦ ..... الغزو الفرنسي •
- ٢٧٩ ..... مقاومة السنوسية •
- ٢٨١ ..... مواصلة المقاومة بقيادة السيّد أحمد الشريف •

## الفصل العاشر الوضع بعد مجئ الشبان الأتراك

- ٢٩٣ ..... الوضع بعد مجئ الشبان الأتراك
- ٢٩٦ ..... اتفاق مؤقت بين رقيقي ولارجو
- ٢٩٨ ..... أدوات السنوسيين
- ٢٩٩ ..... الوضع أثناء الغزو الإيطالي
- ٣٠١ ..... ترتيب الأوضاع بين المستعمرين الفرنسي والإيطالي

## الفصل الحادي عشر بذور التكوينات الحزبية الثورية

- ٣٠٩ ..... أول حزب سياسي سري في طرابلس
- ٣١٧ ..... ثورات غومة
- ٣٢١ ..... ميلاد الليبرالية في تركيا

## الفصل الثاني عشر رياح التغيير الدستوري تهب على ليبيا

- ٣٣١ ..... رياح التغيير الدستوري تهب على ليبيا
- ٣٣٧ ..... تبلور الاتجاهات الجديدة في التقارير الأجنبية
- ٣٣٧ ..... ١- الوضع العام
- ٣٤٢ ..... ٢- الإرهاصات السياسية
- ٣٤٥ ..... الصراع الحزبي في بنغازي عشية الغزو الإيطالي
- ٣٥٢ ..... الرأي الإيطالي الرسمي في السنوسية

## الصور - المراجع - الفهرس

- ٣٥٧ ..... الصور
- ٣٩١ ..... المراجع
- ٣٩٩ ..... الفهرس